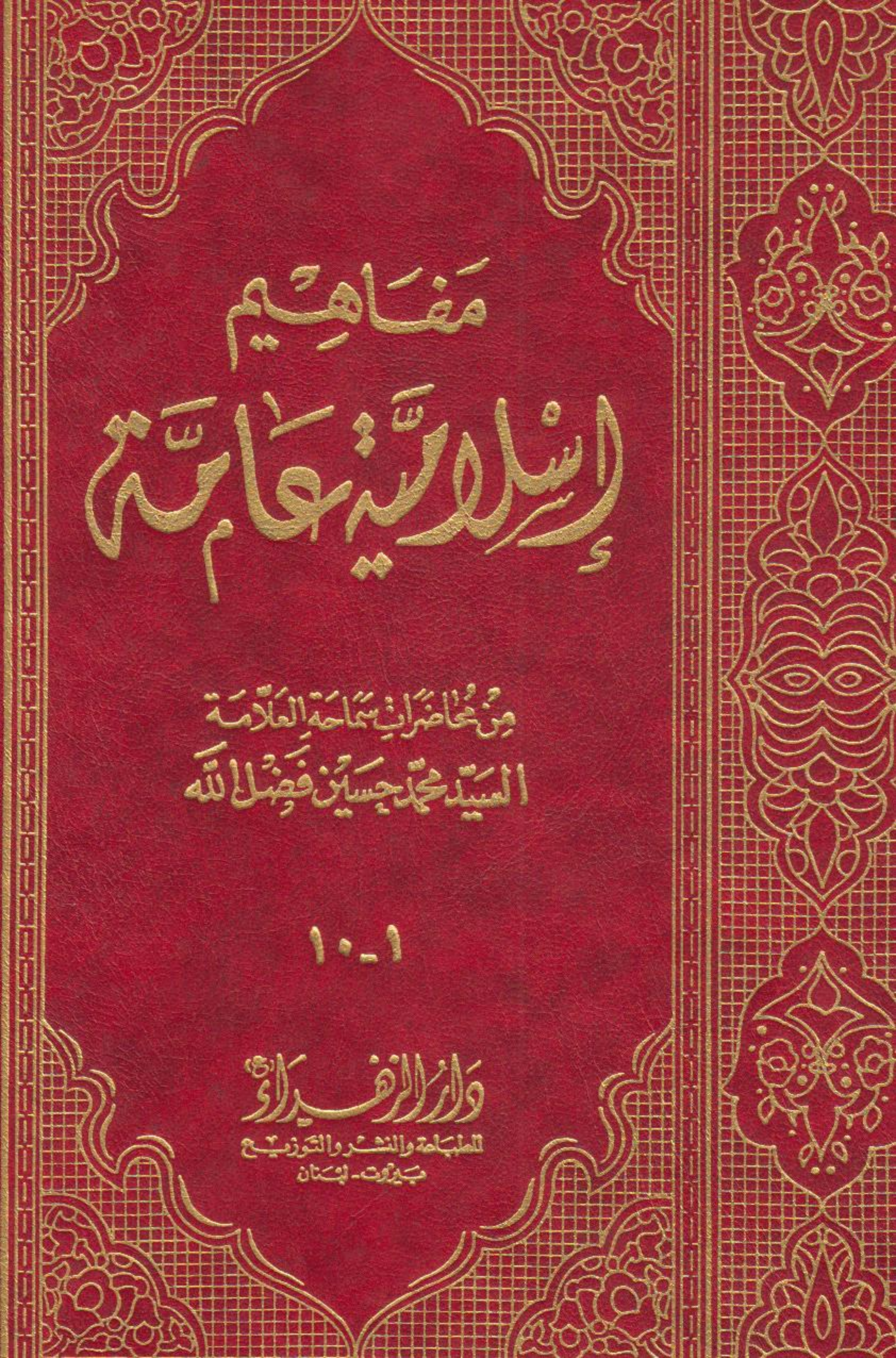

مفاهيم
إسلامية عامة
من محاضرات سماحة العلامة
السيد محمد حسين فضل الله
١ ـ ١٠
دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان



من محاضرات سماحة العلامة

السيد محمد حسين فضل الله

١ ـ ١٠



الطبعة الثانية
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

الحلقة الأولى

التهذيبُ الاجتماعي في الاسلام
و
لِكُلِّ سُؤالٍ جوَاب

- المقدمة « بين يدي المحاضرات » .
- التهذيب الاجتماعي في الاسلام .
- لكل سؤال جواب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بين يدي المحاضرات

في طريق العمل للاسلام يشعر العاملون بالهوّة العميقة التي تفصل بين الشباب وبين الدين .

ويلاحظون ـ مع هذا الشعور ـ ان سبب هذه الهوة ، هو الجو الرسمي الذي يخيم على الصلة التي تربط علماء الدين بالشباب ، الامر الذي يحجب عن كلا الطرفين تطلعات الفريق الآخر وافكاره ومنطلقاته في الحياة ، وبالتالي يخلقِ الحواجز الفكرية والروحية والنفسية التي تمنع من التفاهم أو تشجع على سوء الفهم .

* * *

وقد حاولت عندما انطلقت الى اجواء العمل في العراق ، او في لبنان أن أتجاوز هذا الجو الرسمي ، الى الجو المنفتح المنطلق الذي يجعل العلاقة في اطار الشعور العميق بالحاجة الى المعرفة الواعية التي تتطلع الى كل اتجاه ، وتتحرك في أكثر من طريق لتلاحق لمحات الحقيقة وومضات الحق .

ورأيت ان ذلك يستدعي منا أن نعيش مع الشباب أفكاره

ومطامحه وآماله وآلامه لنتعرف حياته على الطبيعة ، دون حاجة الى اللف والدوران .

وآمنت ان علينا ان نؤمن بأن الشك في الحقيقة ، وفي القيم وفي الحياة حق طبيعي للانسان الذي لا يريد ان يغلق عينيه في هدوء على الظلام وانما يحاول ان يفتح عينيه على النور المنطلق ابدا من خلال الضباب ، ولهذا كان من واجب العاملين ان يستجيبوا لنوازع « الشك » و « القلق » و « التساؤل » الراكضة أبداً في كل اتجاه ، وأن يحاولوا ـ ما امكنهم ذلك ـ التركيز على العنصر الايجابي للشك ليتحول الى عنصر فاعل يتحرك في اتجاه الايمان ، بدلا من ان يبقى عنصرا سلبيا يدمر الحياة في الانسان ، ويشل حركة الحياة من حوله .

وقد يؤكد لنا هذه الحقيقة المنهج القرآني في الحوار الذي حاول ان يثير الشك في نفوس الكافرين في عقائدهم ليحطم زهو الاعتزاز بالباطل في نفوسهم ومن ثم ينقلهم الى العقيدة من خلال الخطوات الفكرية الرائعة التي تعرف كيف تبني للانسان الجسر الذي يعبر به من ضفة الشك الى شاطىء اليقين .

* * *

وتعلمت ـ مع ذلك كله ـ ان الاساليب ـ التي تحاول ان تتحدى الشك بالعنف وتقضي على الشبهة بالشتيمة ، وتمارس ـ في عملية الحوار ـ عرض عضلاتها المفتولة ـ تجرم في حق الفكرة ، وفي حق الامة .

أما جريمتها في حق الفكرة ، فلأنها توحي للآخرين بعدم قدرتها على مجابهة الشك ، بالفكر والعلم والحجة والبرهان ، ولذا فهي تلجأ الى اسلوب الضعفاء الذين لا يملكون سوى أساليب الغوغاء ، سبيلا

للدفاع عما يعتقدون ، الامر الذي يعطي انطباعا بضعف الفكرة من حيث الاساس .

وأما جريمتها في حق الأمة ، فلأنها تعمّق لها شكوكها وشبهاتها وتجعلها تعيش في حيرة عميقة صامتة ، وقلق داخلي مدمر ، لا يهتدي الى الحق ، ولا يجد من يمسك بيديه في طريق الوصول الى الهدى .

وعلى ضوء هذا كله ـ كانت فكرة الندوات الثقافية ، التي يلتقي فيها الشباب تحت شعار طرحناه في اتجاه الحوار الحر المنفتح ، فأثبت نجاحه في اكثر من مجال وهو « ليس هناك سؤال تافه وليس هناك سؤال محرج » .

فالحقيقة بنت البحث ، والبحث لا يتبلور الا في المجالات التي تُفقأ فيها الدمامل وتنفذ الى اعماق الاشياء ، وتنزع كل ما في داخل الذات من علامات الاستفهام حول كل شيء يتعلق بالعقيدة والحياة .

* * *

وكانت المفاجاة أمامنا بالانتظار .

فالشباب ليس عدوّاً للدين ، بل هو عدوّ الاساليب المتخلفة التي يمارسها البعض باسم الدين .

وليس عدوّاً للحقيقة ، بل هو عدوّ الحواجز التي تحاول أن تقدِّم له الحقيقة في ألف حجاب وحجاب .

وانطلقت الأسئلة في كل اتجاه ، وتمرد القلق ليعبر عن نفسه ، وتحفز الرفض ليؤكد منطقه ، وبرزت بعض الطفيليات الساذجة هنا وهناك .

وكـان لا بـد لـلآخـرين الـذين لا يـرون رأينـا في العقيـدة ، او يختلفون معنا في فهم الحياة ، او تفسير الكـون ، ان يمارسـوا الاساليب القـديمة في حـرب الاعصاب وفي الكلمـات اللّامسؤولـة التي يطلقـونها هنا وهناك .

وكـان لا بد لنـا من ان نستمر ونـلاحق التجربـة ونتجاوز الضجيـج والغوغاء بالاساليب الاسلامية الكريمة .

ونجحت التجربة ـ بحمد الله ـ .

وبدأت الندوات تعطي ثمارها ، وتؤكد اسلوبها الجديـد في العمل وفي الحوار .

* * *

وقــد ارادت « نــدوة الشبــاب المؤمن » في بنت جبيــل ـ لبنــان الجنوبي ـ ان تقدم للقراء هذه المحاضرات ، والأسئلة المعـروضة معهـا ـ لتعم الفائدة ، ويشمـل النفع . وحـاول بعض الشباب ان يلخص بعض هذه المحاضرات ليطبعهـا ـ بعد ذلـك ـ في سرعـة وارتجال فـوّت الكثير من عنـاصرهـا تبعا لـلاختصار الشـديـد ، كمـا حـدث ذلـك في الحلقـة الاولى من هذه المفاهيم التي طبعت سابقا .

وقـد اعدنـا كتابـة هـذه الحلقـة الاولى ـ من المفـاهيم الاسـلاميـة العـامة ـ بتفصيـل اكثر وعـرض أعمق ، لنتـلافى مـا حـدث في الـطبعـة الاولى ـ راجين ان ينفع الله بها المسلمين وهو حسبنا ونعم الوكيل .

التهذيب الاجتماعي في الإسلام(*)

[١]

هناك ظاهرة عامة تتمثل في حياتنا السلوكية العامة ، كمسلمين ، حتى لتتخذ في أغلب مجتمعاتنا صفة الطابع العام الذي يطبع واقعنا ، ويلوّن شخصيتنا ، ويصنفنا بالتالي في عداد الشعوب غير المتمدنة .

انها ظاهرة طريقة ممارسة العلاقات الاجتماعية في سلوكنا العملي ، او بالأحرى اسلوب ممارستنا لنوازعنا ونزواتنا في حياتنا الاجتماعية .

فنحن نمارس افكارنا ونزعاتنا كما لو كنا افرادا نعيش في أرض خالية ليس فيها احد فقد لا نلتفت في كثير من الاحيان الى الناس الذين يعيشون معنا ونعيش معهم ، من حيث تأثير أفعالنا او أقوالنا على حياتهم العامة والخاصة من النواحي السلبية والايجابية فالمهم لدينا ـ في كثير من الحالات ـ أن نعيش على مزاجنا ، وليس من المهم لدينا أن ننظر فيما اذا كان ذلك يعكر مزاج الاخرين او يسيء الى حياتهم .

(*) القيت في ندوة الشباب المؤمن في بنت جبيل ـ لبنان الجنوبي في مساء السبت/ ١٤ ربيع الثاني ١٣٩٢ هـ الموافق ٢٧ / ٥ / ١٩٧٢ م .

وكمثال على ذلك ، ظاهرة الضجيج المزعج الذي يفترس الهدوء الداخلي والخارجي للانسان في هذه المجتمعات .

فاننا نلاحظ اننا لا نعرف طريقة الهمس او الاخفات حتى في كثير من أحاديثنا الخاصة فقد يلفت نظرنا ـ في بعض الاحيان ـ أن نسمع الى الزوجين او غيرهما ـ في داخل البيت ـ يتحدثان عن قضاياهما الخاصة بصوت مرتفع يعلو حتى يصل الى آذان بقية الجيران وقد يحدث أن يتحدث الناس في الشارع أو في النوادي وهم متلاصقون في الموقف او في المجلس ، فلا تشعر الا وهم يتحدثون بصوت عال لا يسمح لمن حولهم ان يتحدثوا بهدوء .

ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الوضع على اسلوبهما في استعمال اجهزة الاعلام من مكبرات الصوت ، الى الراديو ، او التلفزيون ، أو آلات ضبط الصوت (المسجلات) ، فنجد ان اصحابها يجعلون مؤشر الصوت يصل الى أعلى درجة يمكن ان يصل اليها حتى يصل الى كل بيت في المنطقة او في القرية .

ولماذا هذا كله .

انه المزاج الشخصي الذي يدفع الانسان الى ان يرفع صوته دون ضرورة او يطلق صوت المذياع دون حاجة . وقد تفاجؤك كلمة « أنا حر » عندما تحاول الاعتراض على هذا وذاك في عمله هذا وربما تجد من يتعجب منك على هذه الملاحظة ما دام المذياع له ، وما دام البيت بيته ، وقد تجد من يقابلك بالاعتذار بعدم الالتفات ، الى ما يجر هذا التصرف من نتائج سيئة للآخرين ، فهو يمارس هذا الاسلوب في

الحديث او في استعمال الجهاز بشكل عفوي ، فهكذا اعتاد ، وهكذا قد تعلم .

* * *

[٢]

ونحن في ذلك كله نلمح ظاهرة الغفلة عن نتائج تصرفاتنا تجاه الآخرين ، او الاستهتار بمشاعرهم وحرياتهم فكلمة « انا حر » تعطينا الاحساس بأن قائلها يشعر بأن عليه ان يمارس حريته فيما يحب وفيما يكره ، من دون اهتمام بحرية الآخرين في أن يعيشوا بهدوء واطمئنان ، فليسهر المتعب المكدود ، وليتألم المريض المعذب ، وليبق الطالب بدون قراءة او دراسة ، ولتتحطم اعصاب المجهدين ، . . . فذلك كله لا قيمة له امام ممارسته حرية نزواته ونزعاته .

أمّا من يتعجب منك على ملاحظتك لانه يمارس الحديث في بيته ، او يطلق المذياع الذي يملكه فهو نموذج آخر يعتقد ان من حقه التصرف فيما يملكه وفيما يسيطر عليه بجميع الوسائل والاساليب واذا كان الآخرون ينزعجون من ذلك فبامكانهم الرحيل من دارهم ، والابتعاد عنه ، انه يتصرف في ملكه وليس من حق الآخرين ان يمنعوه من ذلك ، كما انه لا يمنعهم من التصرف فيما يملكون .

أمّا الذي يملك من اسلوب اللياقة ، ان يعتذر ، ولكنه يعلّل تصرفه بالغفلة عن نتائج عمله وباعتياده هذا الاسلوب المثير للضجيج وللضوضاء ، فقد نجد فيه الشاهد على امتداد هذه الظاهرة حتى لتتحول الى عادة عضوية يمارسها الناس دون شعور ، وتصبح درسا من دروس التربية العملية التي ينشأ عليها الصغار ويشيب معها الكبار .

* * *

ومن الطريف جدا ، انك تجد كل هؤلاء يضجون بالشكوى من

هـذه الظاهـرة التي تحطم الاعصـاب ، وتـرهق الجسم ، وتعـطل الاعمـال ، ويظلون يحلمـون بالانتقال من منـاطقهم الى منـاطق اخـرى أقل ضجيجا واكثر هدوءا ، ويتحدثون الاحـاديث الكثيرة عن الجمـاعات الاخـرى التي تعيش في هـدوء يبعث الخـدر في الجسم حتى ليحلق بـأجنحـة من الاحـلام دون نـوم ، دون أن يلتفتـوا الى انهم يمـارسـون الضجيـج في الوقت الـذي ينتقـدونـه ، لان اسلوبهم هـذا أصبـح عـادة تعيش معهم في اللاشعور .

* * *

[٣]

هـذا نمـوذج بسيط من نمـاذج اسلوبنـا العملي فـي حيـاتـنـا الاجتماعية ، التي اصبحت تأخذ صفة التخلف فيما تأخذ من صفات .

وقـد يكون لاولئـك الـذين كـرسـوا هـذه الصفـة بعض العـذر في ذلك ، لأن مجتمع الحضارة ينطلق من قاعدة احتـرام مشاعـر الآخرين ، وحـرياتهم ، وبـالتالي احتـرام وجـودهم كبشـر من حقهم ان يعيشـوا في المجتمع كماتعيش ، وان يرتاحوا كما ترتاح .

فنحن نفهم ان يمـارس الانسان كـل حريتـه في الصحـراء عنـدما يكون وحده لان ذلـك لا يمثل عـدوانا على أحـد ولا يشكل ضـررا على أحد .

أمّـا عندمـا يكون الانسـان في داخل المجتمـع حيث يتأثـر الافراد بالافعال والاقوال التي تصدر عن بعضهم .

أمّا عندما تكون ساحة الحياة شركـة بينك وبين غيـرك ، فليس لك ان تطرد غيرك من الحيـاة بحجة انـك تريـد أن تمارس كـل حياتـك ، أو

تخنق شركائك في نطاق حريتك ، بحجة انك تريد ان تستنفد كل ما لك من حرية ، لان ذلك يلغي معنى المجتمع ، ويحول الوضع الى حياة فردية أنانية ، وبالتالي الى صراع لن يكون الرابح فيه احد في أغلب الاحيان .

ان معنى أن تعيش في اطار المجتمع ، هو أن تحس بوجود الآخرين ، وتشعر بمسؤوليتك تجاه ذلك .

ولعل من آثار ذلك هو أن تفهم ان اغلب مجالاتك في المجتمع ليست لك وحدك بل هي ملك لك ولغيرك ، تماما كما يشير اليه الحديث النبوي الشريف الذي ضرب مثلا للحياة الاجتماعية ومسؤولية المجتمع عن حمايتها ، بالسفينة التي يجلس فيها كل راكب في مكان خاص ، واراد أحد الركاب ان يقتلع الخشبة التي يجلس عليها بحجة انها ملكه ، فهل للآخرين ان يوافقوه على هذه الحجة ؟ ان الحديث الشريف يرفض ذلك لان كل خشبة في السفينة هي من حق الجميع ما دامت حياتهم جميعا متعلقة بها .

وهكذا نستطيع ان نعلق على كلمة هؤلاء الذين يتشدقون بالحرية في ممارسة نزواتهم وان أضرت بالاخرين . كما في النموذج الذي قدمناه الذي يحتج على الضجيج الذي يحدثه بأنه يمارسه في بيته .

ان لنا ان نعلق على ذلك ، بأن الجدران التي يشتمل عليها البيت ، او الابواب وما الى ذلك قد تكون ملكه ولكن هذا الفضاء الذي ينطلق فيه هدير الصوت شركة بينه وبين غيره فليس له ان يتصرف فيه بما يسيء الى حياة شريكه .

ان الصوت عندما ينطلق لا ينطلق داخل الجدران ، وانما يرتفع

في الفضـاء ليدخـل كل بيت ويغـزو كل اذن ويفتـرس كل هـدوء ، ولـذا فليس من حقه أن يطلقه من زاوية الحجة التي يحتج بها .

[٤]

هل هذا من الاسلام ؟

والان . . هل لنا ان نتساءل :

اذا كانت صورة مجتمعنا هي هذه الصورة ـ كما عرضنا ـ .

واذا كانت هذه الصورة تمثل التخلف ـ كما رأينا ـ .

فهل انطلقت هذه الظاهرة من الاسلام ، ليكـون الاسلام ـ بـالتالي ـ كما يحلو للبعض أن يقول ـ هو دين التخلف .

* * *

ومرة ثانية نتساءل :

اذا كان الجواب نفيا ، ولـم يكن هذا الواقع من الاسلام .

فهـل للاسـلام قاعـدة تشريعيـة للتهذيب الاجتمـاعي ، لننطلق من خـلالها في تغييـر واقعنا على أسـاس الاسلام بـدلا من السعي الى ذلك من خـلال واقع الشعـوب والمبادىء الاخـرى ، لنؤكد من وحي ذلـك ان الاسلام هو دين الحضارة .

* * *

[٥]

ليس هذا من الاسلام :

أما الجواب عن السؤال الاول ، فنحسب انـه سيكون نفيـا لعلاقـة هذا الواقع بالاسلام وذلك لأمرين :

الاول : ان هـذه الظاهـرة التي تعيشها كثيـر من مجتمعـاتنـا الاسلامية ، ليست ظاهرة خاصة بهـذه المجتمعات . بـل هي موجـودة في كـل المجتمعات المتخلفـة البدائيـة التي لم تأخـذ بأسبـاب الحضارة والتقـدم ، ولم تـوفـر لهـا التـربيـة الصحيحـة . التي تنقلهـا من مـرحلة الانسان ـ الفرد ـ ، إلى مرحلة الانسان ـ المجتمع ـ .

ولهـذا نلمح فـوضى السلوك ، وفقدان التهـذيب الاجتماعي ، في الشعوب المتدينة وغير المتدينة لان واقعهـا الحياتي لم ينـطلق من واقعها الـديني ، بـل ربمـا كـان واقعهـا المتخلف ينعكس على واقعهـا الـديني فيشـوّه القيم الـدينيـة في افكـارهـا ويحـولهـا الى غيـر اهـدافهـا الكبيـرة السـامية ، لتختنق في مفـاهيم ضيقة لا تقتـرب من المفاهيم الاسـاسية ، بل تجمّدها حتى لتتحجر في نفوس اتباعها .

ولهـذا يختلف الوعي الـديني للشعـوب حسب اختـلاف مستـواهـا الفكري والثقافي ، ولعل مما يشيـر الى ذلك الاحـاديث الشريفـة الكثيرة التي تفضـل نـوم العـالم على عبـادة العـابـد ، او التي تفضـل ركعتين يصليهمـا العالم على عبـادة سنة او اكثـر يمارسهـا العـابـد ، وذلـك لأن وعي العالم للدين يجعل لعبادته قيمة روحية لا تصـل اليها عبـادة العابـد الـذي لا يملك هذا المستـوى من المعرفـة ، الامر الـذي يجعل عبـادته مجـرد تعبير عن الايمـان الساذج الـذي لا ينفتـح على المعـاني الـرائعـة التي تمثلها العبادة .

وقبل ذلك كانت الآية الكريمة التي تقول في قولـه تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝٩﴾ . [سـورة الزمـر : ٩] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر : ٢٨] .

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نقول : ان وجود هذه الظاهرة في مجتمعاتنا الاسلامية ينطلق من واقع التخلف الذي فرضته عصور الظلام والانحراف والحكم الفاسد على شعوبنا المسلمة ، الأمر الذي جعلها تتجمّد من الداخل لينعكس ذلك على واقعها الحياتي في الفكر والسلوك .

فلم يكن الاسلام ـ بمعناه الواسع الشامل المتحرك ـ هو الذي يحرّك واقع المسلمين بل الجهل والظلم والحكم المنحرف المهترىء هو الذي كان يخطط لهذه الحياة ويوجّه هذا الواقع تماماً ، كما هو الحال في غيرها من الشعوب غير المتدينة او المتدينة بدين آخر غير الدين الاسلامي .

الامر الثاني : ان التوجيه الديني الذي كان يمارسه الوعاظ في أكثر العصور ، انطلق ـ بفعل مفاهيم التخلف ـ يركز كل جهوده واساليبه على العبادات بمفهومها الحرفي ، فتؤلّف المؤلفات الكثيرة وتُحرّر الابحاث الفقهية الواسعة في الصورة الشكلية لهذه العبادات حتى لتوحي للمسلم ـ في أكثر اساليبها ـ بأن عليه ان يركز اهتمامه الكبير في الصورة المادية .

ومن هنا نشأت الوسوسة في القراءة والطهارة وغيرهما نظرا للاهمية الكبرى التي تعطيها هذه الابحاث لكيفية القراءة او كيفية الوضوء وغير ذلك .

أمّا العبادات في مفهومها الروحي الذي ينطلق الى داخل النفس

فيطهرها ويهذبها ويبعث فيها الشعلة المتوقدة الحية من الايمان ، ويثير فيها الحركة الفاعلة التي تنطلق بالانسان الى أبعد مجالات الطهر والسمو في علاقاته العملية في الحياة .

أمّا هذه ، فليست مجالا لهذه الابحاث ، حتى انتهى الامر ببعض الفقهاء الى القول بأن على المصلي عندما يقرأ سورة الفاتحة أن لا يتوجه بالدعاء في قوله تعالى ﴿ **اياك نعبد واياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم الخ** ﴾ لأن المطلوب في الصلاة هو التلاوة والقراءة وهما عبارة عن حكاية اللفظ فقط ، ولا بد في الحكاية ان لا تنطلق معانيها من داخل نفس الحاكي .

وعلى أيّ حال : فقد أخذ التوجيه الديني ، والبحث الديني - بشكل عام - ينطلق في هذا الاتجاه .

فالمؤمن الصحيح هو الذي يمارس هذه العبادات كما وردت ، أمّا سلوك الانسان مع الآخرين .

أمّا طريقة ممارسته لعلاقاته مع المجتمع ، كيف يتكلم ، كيف يتعامل ، كيف ينشأ العلاقات .

فهذا ما لا تتعرض له المواعظ والتوجيهات إلّا عرضا وبشكل خفيف ، لان هذه من المستحبات ، وتلك من الاخلاقيات ، والثالثة من المباحات وأمرها بسيط في الدين لانها لا تستتبع عقاباً ، فلا داعي لأن يجهد الانسان نفسه بالبحث عنها طويلا ، وبالتحدث عنها كثيرا ، ما دام الانسان يسعى من اجل الفرار عن العقاب .

ولم ينظر هؤلاء الى ان كثيرا من هذه المستحبات والاخلاقيات وغيرها تشكل السياج الواقي الذي يقي الانسان من الوقوع في

المحـرمات لانـه يخلق عنده المنـاعة الايمـانية العمليـة التي تجعله أبعد عن الانحراف وأقرب الى الاستقامة .

وخـلاصة القـول : ان واقع التـوجيه الـديني اقتصر على العبـادات كـأساس وحيـد للخلاص ، واعتبـر غيرهـا من الامور التي لا تمثـل قيمة كبيرة في الدين .

ان هـذا الواقـع أدى الى ان تنفصل التـربيـة الـدينيـة عن الجـانب الاخـلاقي العملي الذي يبني لـلانسان شخصيتـه الاسلاميـة القويـة التي تستـطيع أن تمثـل الاسلام بكـل ما فيـه من امتداد وعمق ، حتى ليشمـل كـل جوانب الانسـان العملية ، وينفـذ الى كـل اعمـاقـه فيجعلهـا تفيض بالطهر والسمو والصفاء .

وهكـذا وصلنا الى هـذا الواقـع الذي تلمـح فيـه الانسـان المؤمن المتعبـد الـذي لا يتـورع عن الفحش في القـول والخلف في الـوعـد . والقسوة في المعاملة ، واللف والدوران في العلاقـات الانسانيـة والسلوك العملي الذي لا يهتم فيه بمشاعر الاخرين .

* * *

[٦]

هل للاسلام قاعدة في التهذيب الاجتماعي ؟

اما الجواب عن السؤال الثاني ، فبالايجاب :

فالاسلام يملك القاعدة المتينة للتهذيب الاجتمـاعي ، لانه انـطلق في كل تشريعاته ومفاهيمه من قاعدة اساسية ركـزها النبي الاعـظم (ص) بقـوله « انمـا بعثت لاتمم مكارم الاخـلاق » فلكي يكون المسلم مسلمـا

حقـا لا بد لـه من ان يمثل مكـارم الاخلاق في كـل تصـرفـاتـه واقـوالـه وافعـاله ، فهي روح التشـريع ومنـطلقـه ، فمنهـا يستمـد الشـرع حيـاتـه ويحقق مقاصده .

وبذلك نستـطيع الالتقـاء بالتشـريعات واللفتـات الرائعـة في مجال التهذيب الاجتماعي .

فنجد انه ينفذ الى داخل مشـاعر الانسـان وخلجاتـه ليرهفهـا حتى لتبـدأ بالاحسـاس بالآخـرين ، كوجـود مرتبط بـوجوده في كـل ما يصـدر منه ، وكحياة متصلة جذورها بجذور حياته في الافكار والافعال .

وبهـذا تحقق له النـظافة في الـداخل ، وتفتـح اعماقـه على عـالم جـديد يمتـد بـامتـداد حيـاة الآخـرين ، ولا ينكمش في نـطاق ضيق من النـوازع الذاتيـة والعوامـل الفـرديـة فتبـدأ الفكـرة العـامـة في الاحـاديث الشريفة .

(لا يكون الرجل مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) .

(اجعـل نفسك ميـزاناً بينـك وبين غيـرك فـأحب لغيـرك مـا تحب لنفسك واكره له ما تكره لها) .

فلم يعـد النـظر إلى الـذات من الـداخـل يتحـرك ليخلق في نفسـك شعور الـزهو والعـظمة والانـانية والكبـريـاء بـل تحـول الى نـظر يتجول في أعماق الـذات فينظر مـا تحب وما تكـره ليجعل من ذاتـه مرآة لمـا يحب الآخرون ولمـا يكرهـون فيتعـامـل معهم على الاسـاس الـذي يبني عليه تعامل الآخرين معـه ، ويتخذ من ذلـك قاعـدة لحياتـه في ذاته ومع الآخرين .

وبهـذا لم تعد الـذات سجنا يختنق فيـه الانسـان بـل تحـولت الى

نافذة يطل منها على حياته وحياة الآخرين ليجعل من ذلك قاعدة عامة للسلوك الاجتماعي .

[٧]

مع البناء الفوقي للقاعدة :

ولم يكتف الاسلام بالوصايا العامة ، والمفاهيم الواسعة ، بل حاول ان يدلّ الانسان على الوسائل التي يستعملها في سبيل الوصول الى الهدف الاسمى، ويعرّفه كيف يحوّلها الى أخلاق خاصة تنطبع طابع الحركة الاجتماعية للسلوك ويأخذ بيده الى كل قضية بمفردها ، لئلا يتركه في حيرة امام متاهات القضايا والفروض .

ونحن هنا في محاولة لعرض بعض هذه النماذج التي حاول الاسلام ـ من خلالها ـ أن يربّي للانسان ذوقه الاجتماعي .

* * *

١ ـ صوتك كيف تطلقه ؟

٢ ـ جهاز الاعلام كيف تستعمله ؟

ربما نستطيع ان نلمح في بعض الآيات القرآنية الكريمة ملامح الجواب على هذين السؤالين بالتصريح تارة وبالاشارة أخرى .

فنلتقي في البداية بالآية الكريمة الواردة في حديث وصايا لقمان لابنه :

وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ .

[سورة لقمان : ١٩] .

فاننا نجد التركيز على غض الصوت باسلوب يحاول ابعاد الانسان نفسيا عن رفع صوته بتجريد علو الصوت عن كل قيمة جمالية او عقلانية ، فكأنه يقول له : لو رفعت طبقات صوتك بأعلى ما يمكن فانك لن تصل في زعيقك هذا الى زعيق الحمار ونهيقه ومع ذلك فانت تحس بالانزعاج منه كما يحس الآخرون بذلك لانه أنكر الاصوات .

فما رأيك في هذا المستوى وفي هذا التشبيه ؟

ان القضية لا تحتمل نقاشا او جدالا بعد ذلك ، فالانسان لا يرضى لنفسه هذا المنحدر وبذلك يلتفت الى نفسه كلما أراد ان يرفع صوته .

وبذلك يفقد هؤلاء الذين يعتمدون في نجاح خطاباتهم الحماسية على الزعيق ، زهوهم وقيمتهم الاجتماعية عندما يتبلور ذوق المجتمع ويصفو حتى ليتحول الى هدوء الكلمة عندما تنطلق بعيدا عن ضوضاء الضجيج .

* * *

وهناك آية اخرى تشير من طرف خفي الى مهمة الصوت العالي ودوره الذي يتحدد بحاجتك الى إسماع الآخرين الذين لا تستطيع ان تسمعهم الا ان ترفع صوتك .

أمّا في غير هذه الحالة ، فأنت تفقد الهدف من ذلك وتكون كمن يعبث ويتصرف دون وعي .

قال تعالى : وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾

[سورة طه : ٧] .

فهي تشير الى انك لست بحاجة الى ان ترفع صوتك وانت تخاطب الله سبحانه وتعالى لانه ـ سبحانه ـ يعلم السر واخفى منه ، فما حاجتك بعد ذلك من رفع صوتك وعلى ضوء هذا ، وردت الآية الكريمة :

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٥] .

* * *

ومن خلال ذلك كله نفهم الحكمة في هذه الطبقات المتعددة للصوت التي خلقها الله للانسان ليستعمل الانسان كل طبقة في الحالة التي تلائمها ، فليس من الطبيعي ان يستخدم الانسان صوته في داخل البيت بالدرجة التي يستعمله في المزرعة حيث لا يستطيع ايصال كلامه الى الآخرين الذين يبعدون عنه مئات الامتار الا بذلك .

وقد لا يقتصر ذلك على ممارسة الانسان صوته ، بل يتعدى ذلك الى ممارسته اجهزة الاعلام التي يستخدمها كالراديو والتلفزيون ومكبرات الصوت وأجهزة التسجيل لان لتلك الاجهزة عدة درجات من الصوت يمكن للانسان ان يستعملها بحسب حاجته .

وقد تلاحظ الهدف من خلال هذه الاساليب التي استخدمها القرآن الكريم لإبعاد الانسان عن استعمال الاصوات العالية في غير حالة الحاجة اليها . وهو تربية الذوق الانساني على ان يمارس الانسان وظائف أعضاءه بحكمة وهدوء ، دون ان يسيء الى نفسه والى الآخرين .

وقد اراد الاسلام ان يجعل ذلك من آداب المسلمين الالـزامية مـع النبي (ص) وربما يتعدى بعضهم من ذلـك الى بقية القيـادات الاسلاميـة المقدسة كما في سورة الحجرات .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ .

[سـورة الحجـرات : ٢ ـ ٥] .

ونـلاحظ في آية اخـرى التوجيـه القرآني لـلانسـان على ان يكـون طبيعيا في استعمال صوته حتى في العبـادات فلا يـرفعه الى الحـد الذي يصل الى الآخرين ولا يخفضـه الى المستوى الـذي لا يسمع بـه نفسه ، بـل هـو الحـد الـوسط الـذي يبين بـه جـوهـر الصـوت دون ان يحـدث ضوضاء أو ضجيجا وذلك قوله تعالى :

وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ .

[سـورة الإسراء : ١١٠] .

* * *

وينبغي ان يعلم من خلال ما قدمناه ان شجب الاسـلام للاصـوات العالية دون ضـرورة لا يقتصر على مضمـون دون مضمون ، لأن القضيـة قضيـة طبيعة الصـوت ، لا طبيعة المحتـوى فلا يفـرق بين القرآن وغيـره كمـا يظن بعض السـذج ان لهم الحق ان يرفعـوا الجهاز الصـوتي الـذي يملكـونه الى أبعـد حد اذا كـان الصوت يتضمن قـرآنا او مـوعظة أو غيـر ذلك .

لأن الدين يفرض على الآخـرين ان يخضعوا لذلك ويستسلموا له .

ان هذا الظن خطأ ، لأن الاسلام يريد لـلانسان ان يستمـع للقرآن وللمواعظ بروح هادئة خـاشعة ومن الـطبيعي ان ذلك لن يتحقق اذا كـان الصوت ينطلق بصورة مزعجة تثير الاعصاب وتبعث على التوتر .

وقـد أفتى بعض العلماء الكبـار بحرمـة استعمال الجهـاز الصـوتي بشكل مزعج اذا كان في ذلك ايذاء للناس، وإن تضمن قراءة القرآن .

* * *

٣ ـ لا تدخل بيتا حتى تستأذن أهله .

٤ ـ ولا تنفعل اذا اعتذروا عن استقبالك دون موعد .

من قـواعد التهـذيب الاجتمـاعي في الاسـلام هـو احتـرام حـريـة الانسـان في منزلـه ، فليس لك أن تـدخله دون اذنه سـوّاء أكان حـاضرا فيـه أم كان غـائبا عنـه ، لان من الممكن أن لا يكون الـوضـع الـداخلي للمنـزل لائقا في نـظره لاستقبالـك ، او يكون قـد احتفظ ببعض الاسرار الخـاصة التي لا يـريد اطـلاع احد عليهـا ، أو غيـر ذلـك من المبـررات التي تدعو الانسان للمحافظة على حرمة منزله .

وليس لـك أن تنفعل ، أو تتـأثر أو تعتبـر الموقف عـدائيا ضـدك ، عندما يرفض انسان مـا استقبالـك ، وأنت تذهب اليـه دون موعـد ، لأن من الممكن ان لا يكـون هـذا الانسـان في حـالـة صحيـة أو نفسيـة أو فكرية تسمح له باستقبالك .

وربما يكون قـد ارتبط بموعـد مع انسـان آخر غيـرك في نفس هذا الوقت ، الأمر الذي يجعل استقبـاله لـك اعتداء على حق ذلـك الانسان في الموعد وخيانة لالتزامه به .

لـذلك فـان عليـك أن تتقبـل ذلـك بـروح واقعيـة تـدرس ظـروف الآخرين كما لو كانت معك .

* * *

وقد صوّر القرآن هاتين الحالتين في قوله تعالى في سورة النور :

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ .

[سورة النور : ٢٨] .

* * *

أما واقعنا العملي فيتنافى مع ذلك .

فنحن نجـد السلوك الاجتماعي يتمثـل في الـدخـول الى البيت أو الـدائـرة او المكتب دون اذن اذا لم يجـد القـادم احـدا يـأذن لـه ، وقـد

يلقـاك على حـال لا تحب ان يجـدك عليهـا ، أو ليقتحم عليـك خلوة كنت تحب ان تستسلم فيها لافكارك واعمالك بهدوء .

ونلاحظ الى جانب ذلك الكثيرين الذين يأتـون اليك دون مـوعد ، حتى إذا اعتذرت عن استقبالك لهم في هذا الـوقت، أو اعتذر لهم بعض من في الدار عن ذلك ، بعـد أن يتأكـدوا من وجودك هنـاك اعتبروا هـذا إهانة لهم واساءة لكرامتهم ووجدوا فيه موقفا عدائيا من جانبك .

أمّا القرآن فانه يريد ان يربطنـا بالحيـاة العملية الـواقعية التي تنـظر الى طبيعـة الاجواء العـامة لـلانسان ولـذلك يـرفض اعتبار هـذا الموقف إهانة أو إسـاءة بل يـرى فيـه سلوكـا طبيعيـا واقعيـا يـرتبط بتنـظيم حيـاة الانسان ومواعيده وأوقاته الامر الذي يرفـع من مستوى المجتمـع ويجلب الراحة لافراده .

وقد جرّبت الشعـوب المتحضرة هـذا السلوك العملي الذي أرادنا القـرآن أن نسير عليـه حتى صار جـزءا من حياتهـا العملية ، تنـطلق فيـه ببسـاطـة وعفـويـة وواقعيـة دون أن تجـد فيـه آيـاً من هــذه الانفعـالات الوهمية ، واستطاعت أن تجعل ذلك من معالم الحضـارة الاساسيـة التي يحاول الكثيرون منـا أن يترسمـوها أو يحملوا لـواء الدعـوة اليها بصفتهـا الحضـارية الاوروبيـة ، في الوقت الـذي نجد ـ فيمـا قدمنـا من حـديث ـ انـطلاق الآيات القـرآنية لتعلم النـاس كيف يمارسـون هذا السلوك منـذ مئات السنين .

* * *

٥ ـ اجلس حيث ينتهي بك المجلس :

وهذه قاعدة اخرى من قـواعد التهـذيب الاجتماعي في الاسـلام ، حـاول الاسلام فيهـا أن يبعـد المسلمين عن التعقيـد في قـواعـد السلوك

في الامـاكن التي يختارهـا الانسـان في المجلس فمن المـلاحظ ان العـرف الاجتمـاعي الـرسمي يعتبـر ان لكـل انسـان مـركـزا معينـا في المجلس يختلف حسب اختـلاف شخصيتـه الاجتمـاعيـة ومكـانتـه الـرسمية ، فـلا يجوز للمـوظف الصغير أن يجلس الى جـانب المـوظف الكبير ، ولا يمكن للشخص الذي لا يملك مكانة اجتمـاعية مـرموقـة ان يحتل مركز الوجيه الخطير .

وهكذا تجد الطبقية الاجتماعية تتمثـل في الحفلات والاجتمـاعات الـرسمية بـأوضح صـورة حتى لتستطيـع ان تعرف مـراكز الاشخـاص من خلال الامكنة التي يجلسون فيها وموقعها من المجلس .

وقـد اصبح لـلاشخاص الـذين يشرفـون على هـذا الـوضـع صفـة رسميـة لا ينالـونها الا بـالتدريب والـدراسة الـواسعة والتخصص الـطويل فيُعتبرون مرجعـا للآخـرين في تنـظيم الاستقبـال والجلوس وغيـر ذلـك ويطلقون عليهم اسم رجال البروتوكول .

هـذا هو الـواقع الاجتمـاعي او الـرسمي الـذي عـاش ويعيش فيـه كثير من الناس في الماضي وفي الحاضر .

* * *

وقـد حـاول الاسـلام ـ من خـلال سلوك النبي واحـاديثـه وبعض التشريعات الاسلامية في كثير من الحالات ـ أن يـوحي للناس بـأن طبيعة الامكنة التي يجلس فيها الانسـان لا تمثّل قيمـة حقيقية من قيم الحيـاة ، ولا تعبـر عن مستوى معين لـلانسان ، فـان التقـدم والتـأخـر في المكـان يخضـع لأوضاع زمنيـة ونفسية دون أن يكـون للمستوى الاجتمـاعي دخل فيهـا من ناحيـة أساسيـة وعلى ضـوء ذلـك أطلق القـاعـدة المـأثـورة في الحديث الشريف :

(إذا جاء أحدكم مجلساً فليجلس حيث ينتهي به المجلس) .

فالمهم ان تجد المكان الفارغ الذي تجلس فيه من دون فرق بين ان يكون في الصف الاول او الصف الاخير .

ولهذا كان النبي محمد (ص) يجلس مع اصحابه حتى لا يستطيع القادمون ـ ممن لا يعرفونه ـ ان يتعرفوا اليه لأنه لم يكن يتميز بمكان معين او بوضع خاص حتى طلب اصحابه منه اخيرا ان يصنعوا له حجرا يجلس عليه ليعرفه القادم فلا يشتبه بغيره ، ليس إلّا ، . وفي بعض الاحاديث : كان رسول الله اذا دخل منزلا قعد في أدنى المجلس .

وفي حديث الامام الحسين بن علي عن أبيه في صفة النبي محمد (ص) :

« كان اذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك » .

ومن الممكن ان يكون نظر الاسلام في ذلك الى أن يعيش الناس البساطة في حياتهم والعفوية في سلوكهم دون تكلف او تعقيد .

وقد يكون من فوائد ذلك ، ان نتخلص من الفوضى والارتباك اللّذين يحدثان من المحافظة على واقع الطبقية الاجتماعية في المجلس ، وشعور القادم بضرورة تكريمه بجلوسه في المكان الذي يتناسب مع مركزه ، مضافا الى شعور اصحاب المجلس بذلك ، الأمر الذي يحدث الارتباك والضوضاء في المكان ، مما يسيء الى طبيعة

المجلس ، او الى المناسبة التي انعقد لها ، او الى الاشخاص الذين يحضرون فيه .

* * *

وربما نجد بعض فوائده في المحافظة على شعور الناس الطيبين لذين يملكون كفاءات كبيرة ومواهب عالية ولكنهم لا يملكون المراكز الاجتماعية التي يملكها من هم دونهم كفاءة ومواهب .

فنحن عندما نرفض اعتبار المراكز الامامية في المجلس ، ذات قيمة حقيقية ، تفقد اثرها ، وبالتالي تفقد تأثيرها في احساس البسطاء بالغبن والحرمان عندما يجدون انفسهم في الصفوف الاخيرة من المجلس .

وربما نلمح التركيز على هذه الفكرة الاسلامية في الاماكن العامة التي يتساوى فيها الناس من حيث الانتفاع كالمساجد وغيرها حيث انطلقت القاعدة الشرعية لتقول :

« من سبق الى ما لم يسبق اليه احد فهو أحق به » .

فلم تفرق بين انسان وانسان ، فقد يكون الشخص الخامل اجتماعيا في الصف الاول من صلاة الجماعة مثلا بينما يكون الوجيه الكبير في آخر الصف ، دون ان يملك حق ازالته من مكانه، مهما كلف الأمر ، الا برضاه .

٦ ـ كيف تختار كلماتك عندما تتحدث مع الآخرين :

من قواعد التهذيب الاجتماعي في الإسلام ، أن يتعلم المرء كيف يختار كلماته في الحديث مع الناس، فإذا وقف بين كلمتين،

احداهما تثير المشاعر وتلهب الانفعالات وتجـرح الاحساس ، والاخـرى تنشر الهدوء والسلام في النفس فعليه ان يختار الكلمة الثانية .

وهكـذا تنطلق عمليـة الاختيار بين الكلمـات التي تخـدش الحيـاء وتجـرح الكرامـة وبين الكلمات التي تحتـرم أخلاق الآخـرين ونـوازعهم ليكون الاختيار للكلمة الاخيرة .

وذلك هو قوله تعالى :

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ .

[سـورة الإسـراء : ٥٣] .

وهناك الاحـاديث الكريمـة التي حرمت كلمات الفحش والبذاء ومنهـا الحديث الشـريف (إن الله يبغض الفاحش المتفحش) .

والحديث الآخر (إن الله حرم الجنة على كل فحاش بذيء اللسان قليل الحياء) .

وقـد ورد النهي عن كلمـات السب التي تثيـر المشـاعـر ، لاسيمـا سب مقـدسات النـاس الذين تختلف معهم في الـرأي والعقيـدة ، لانهـا تخلق ردود فعل عكسية لدى الآخرين كما في الآية الشريفة :

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ .

[سـورة الأنعـام : ١٠٨] .

فكلمـات السباب لا تعـطي نتيجة في الاقتنـاع بالفكـرة ، بل انهـا

تعطي بدلا عن ذلـك ردود فعل عصبيـة تتجه في حـركة انفعـالية هـوجاء مماثلة لتطلق السباب والشتائم ضد مقدساتك بروح عدائية حاقدة .

كـل ذلـك من اجـل ان يعيش الانسـان التهـذيب في كـلامـه مـع النـاس بعيدا عن اثـارة مشاعـرهم وجرح احـاسيسهم ليكون في مستـوى الانسان الذي تكون حياته من اجل نفسه ومن اجل الآخرين .

٧ ـ إبدأ بالتحية ، ولا تنتظر ان يبادئك الآخرون بها :

هنـــاك من النـاس من يـــرى مـركـــزه الاجتمـاعي فـــوق مستـــوى الآخرين ، ولذا فهو يشعر ان من واجب الناس أن تتلقاه بـالتحية قبـل أن يبـدأهم بها ، لانـه يحسب ان الابتداء بـالتحية لا يتنـاسب مـع صـاحب المـركز الكبيـر لمن هم دونه ولكن الاسـلام يشجب ذلك ويعتبـر التحيـة علامة التهـذيب الخلقي للانسـان لانها تـدلل على مـا يحمله من احترام لـلآخرين وتقـدير لشعـورهم واحسـاس بمـا يجيش في داخله من شعـور عميق بالمساواة بينهم وبينه .

بينما يمثل الموقف المعاكس الشخصيـة التي تختنق ـ داخل ذاتهـا في اطـار من الكبريـاء المزيف والتعـالي الـوضيـع الامـر الـذي يجعلهـا تحتقر الآخرين وتبتعد عن التهذيب .

ومن هنـا أعـطى البـادىء بـالسـلام امتيـازا كبيـــرا على المستـوى المعنوي كما ورد في الحديث عن الامام جعفـر الصادق (ع) عن رسـول الله (ص) .

البادىء بالسلام اولى بالله ورسوله .

كمـا أعطاه اجـرا مضاعفـا في حساب الحسنـات التي يجـزي بهـا الصالحون . فقد ورد في الحديث عن الامام الحسن بن علي (ع) :

« للسلام سبعون حسنة ، تسع وستون للمبتدي وواحدة للراد ، وان احسن فعشر» .

وقد أعطى رسول الله (ص) الامثولة على ذلك في السلام على الصبيان والنساء فيما روته السنة النبوية الشريفة في حديث انس بن مالك « ان رسول الله مر على صبيان فسلم عليهم » وفي حديث آخر عن اسماء بنت يزيد « ان النبي مر بنسوة فسلم عليهن » .

وقد اعتبره الاسلام دليلا على التواضع ففي الحديث عن الصادق (ص) « من التواضع ان تسلم على من لقيت » وهكذا نعرف ان القيمة في الاسلام للتهذيب الخلقي فهو الذي يجعل للانسان مركزا ممتازا عند الله ، لا للتعالى والكبرياء في اطار المركز الاجتماعي المحدود .

٨ ـ احترام ظروف المريض :

ومن مظاهر احترام ظروف الآخرين وآلامهم ، تأكيد الاسلام على ضرورة تخفيف الجلوس عند المريض في حال عيادته لان ذلك قد يشق عليه نتيجة القيود المفروضة عليه في مرضه ، او الآلام التي قد يضطر الى كبتها امام الآخرين مما يسبب له إحراجاً وانزعاجا وألما شديدا .

فقد ورد في الحديث عن الامام الصادق (ع) :

« ان من أعظم العوّاد أجراً عند الله لمن اذا عاد اخاه خفف الجلوس الا ان يكون المريض يحب ذلك ويريده ويسأله ذلك » .

٩ ـ المحافظة على شعور الآخرين بشكل عام :

وفي ختام الحديث نلاحظ بشكل سريع بعض اللمحات الرائعة على ضرورة مراعاة شعور الآخرين وأحاسيسهم بشكل دقيق جدا .

ففي الحديث عن الامام الصادق (ع) :

« اذا كان القوم ثلاثة فلا يتناجى اثنان منهم دون صاحبهما فان ذلك مما يحزنه ويؤذيه » .

لان الحديث السري بين الاثنين في حضور الثالث يشعره بعدم ثقتهما به ، ومن الطبيعي ان ذلك يثير في نفسه الشعور بالامتهان والالم .

ويتمثل هذا السلوك المرفوض اسلاميا في تكلم اثنين بلغة اجنبية لا يفهمها الثالث ، فانه يتنافى مع التهذيب الاخلاقي الذي يتركز على مراعاة احساس الآخرين . وفي حديث آخر عن الامام الصادق (ع) مظهر آخر من مظاهر التهذيب الاجتماعي وهو احترام المتكلم عندما يسترسل في كلامه حتى ينتهي منه ، فلا يقطع عليه حديثه لان ذلك يؤذيه كما لو خدشه في وجهه ، لان الاعتداء على الكلمة ، كالاعتداء على الجسم .

قال : قال رسول الله « من عرض لأخيه المسلم المتكلم في حديثه فكأنما خدش في وجهه » .

وفي صفات رسول الله (ص) ما يؤكد هذه الروح الاسلامية .

ففي كتاب النبوة ـ في صفة رسول الله (ص) :

« ما صافح رسول الله احدا قط فنزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده منه ، وما فاوضه احد في حاجة أو حديث فانصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف » .

وكان يعطي كلًّا من جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه ان احدا اكرم عليه منه .

وكـان يقسم لحـظاتـه بين اصحـابــه فينـظر الى ذا وينــظر الى ذا بالسوية .

ان هـذه الصفات كلهـا تؤكد كيف كـان رسول الله يـريد ان يـرسم للنـاس القدوة الحسنـة للسلوك الاسلامي الـرفيـع الـذي ينبغي ان يسيـر عليـه الانسـان المسلم ، ليستـطيـع ان يعـطي العـالم الامثــولـة الحيــة للمستوى الذي سوف تبلغه الانسـانية من التهـذيب الخلقي الاجتماعي ، فيما اذا قدر للاسلام ان ينطلق بعيدا في حياتها العامة والخاصة .

* * *

خاتمة المطاف :

واننا حينما نثير هذا الحـديث او نعرض للنمـاذج الفكريـة والعملية للتهـذيب الاجتماعي ، نحـاول ان نـوحي للذين يـريـدون أن يجعلوا من سلوك الانســان الاوروبي ، امثـولـة حيـة لـلانسـان المتمـدن ، ويعملون على أن يتهمــوا الشعـوب الاســلاميـة بـالتخلف عن هــذا المستــوى الحضاري كنتيجة لابتعادها عن الفكر الاوروبي والحضارة الاوروبية .

انـنـا نحـاول ان نقــدم لهم هـذا الحــديث كمنـطلق للتفكيــر من جـديـد ، في ان الفكـر الاسـلامي والشــريعـة الاســلاميـة والحضـــارة الاسلامية ، كفيلة بأن تجعلنا نـرتفع الى مستـوى من التهذيب الخلقي ، لا يبلغه الا الذين ينهلون من الينابيع الصافية التي يسبح فيها الانبياء .

لكل سؤال جواب

- لماذا يركز علماء الدين على الأخلاق .
- لماذا ينفر الشباب من الدين .
- هل يحصر الاسلام دور المرأة العملي في المنزل .
- كيف يكون زي المرأة في الاسلام .
- هل يجوز للمرأة حضور صلاة الجماعة مع الرجال .
- كيف نتعرف على اعجاز القرآن الكريم .

س ١ : لماذا يركز علماء الدين على المشاكل الاخلاقية بعيدا عن المشاكل الاجتماعية ؟

ج : في البداية يبرز امامنا سؤال يطرح نفسه أمام الجواب :

هل المشاكل الاخلاقية بعيدة عن المشاكل الاجتماعية حتى نكون إثارتها ومحاولة معالجتها ، من القضايا التي يمكن تأجيلها الى ما بعد الفراغ من حل المشاكل الاجتماعية التي تواجه المجتمع في حياته العامة ؟

ولنا ان نجيب عن ذلك بتحديد معنى الاخلاق في حياة الانسان ،للنظر، هل هي في الهامش من حياتنا حتى لتضيق فتُحصر في زاوية معزولة من زوايا الحياة ، أو أنها تتسع لتشمل كل مجالات الحياة ، بما فيها المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري .

ان كلمة الاخلاق تنطلق من طبيعة السلوك الانساني ، الفردي والاجتماعي ، تجاه النفس والآخرين ونوعية ممارستنا لعلاقاتنا العامة

والخاصة بالناس وبالوطن وبالحياة بشكل عام ،وبكلمة موجزة « هي مجموعة القواعد السلوكية التي تتبعها جماعة من الناس في حقبة ما من الحقب التاريخية ـ كما يعرفها بعض علماء الاجتماع ـ » .

* * *

وعلى ضوء هذا فاننا نلاحظ شمول هذا المفهوم لجميع مظاهر السلوك الانساني في حال الحرب والسلم ، وفي الحكم والسياسة والاقتصاد ، فعندما نقول : أن الخيانة عمل غير إخلاقي ، فإننا مفهوما يمتد الى جميع حالات الانسان ابتداء من خيانة الانسان العلاقة الزوجية ، أو خيانة الحاكم لشعبه او لوطنه ، أو خيانة القائد العسكري لأمته ، أو خيانة الشعب مصالحه ومبادئه .

فهل يكون الحديث عنه حديثا عن مشكلة بعيدة عن المشاكل الاجتماعية ؟

وما هي المشاكل الاجتماعية ـ اذا لم يكن للخيانة دور الاساس لكل ما يتفرع عنها من انحرافات واعمال .

وعندما نقترب من كلمات السرقة والكذب والغش والعدوان ، ونواجه ما يقابلها من الفاظ الامانة والصدق والاخلاص وغيرها ، فاننا نواجه مفاهيم عميقة الصلة بسلامة المجتمع وأمنه واستقراره على مستوى الحكم وعلى مستوى الحياة العادية للانسان .

واذا اردنا وضوح الصورة فلننظر الى الشعارات التي يطرحها الثائرون والمصلحون والمعارضون السياسيون في وجه الحكم الفاسد .

فنجد انها تنطلق من محاربة سرقة اموال الامة ، والوعود المعسولة الكاذبة التي تخدّر الجماهير والاعتداء على حقوق الشعب

وحرياته وامواله وحياته دون حق ، وغير ذلك .

وماذا يمثل هذا كله ؟

ألا يمثل بعضا من المفاهيم التي يطرحها العلماء في مواعظهم وارشاداتهم ونصائحهم في محاضراتهم العامة والخاصة .

فلماذا تعتبر هذه المفاهيم حديثا بعيدا عن الحياة عندما تطرح في المساجد والنوادي الدينية ، بينما يراها الكثيرون انطلاقة اجتماعية ثورية عندما تطرح في مجالات اخرى .

اننا نعتقد ان قيمة المعالجة الدينية التي يمارسها العلماء الواعون المخلصون لهذه القضايا ، تكمن في محاولتهم لتركيزها في اعماق الانسان وافكاره كأسلوب عملي من اساليب بناء الانسان من الداخل لينعكس على حياته العملية في الخارج عندما يتحمل مسؤولية العمل على المستوى العام والخاص وقد شاهدنا من خلال الواقع الديني التاريخي والمعاصر ، كثيرا من اللمحات الرائعة التي وقف فيها الرجال والنساء مواقف الحق والبطولة امام الاغراء ، فصمدوا امام المحرقة ولم يسقطوا في التجربة ، بل نجحوا في الحفاظ على ما يحملون من مبادىء وقيم وعلى ما يقدسون من مسؤوليات وواجبات ، لان الاخلاقيات الدينية استطاعت ان تهيىء لهم البناء الداخلي القوي المتماسك الذي لا يتزلزل ولا ينهار امام كل هزة ومع كل ريح .

ونحن عندما نؤكد على هذا الجانب ، لا نريد الحكم على صحة جميع المعالجات الدينية باساليبها المختلفة للمشاكل الاخلاقية ، فقد تمثل بعض الاساليب الضيقة التي يمارسها بعض الناس ، التخلف في عرض الفكرة بحيث تنحصر في نطاق ضيق من اعمال الانسان

الفردية التي لا تتعدى نطاق حياته الخاصة الامر الذي يوجب عزل هذا الانسان ، بمفاهيمه الاخلاقية ، عن الحياة العامة ، وبالتالي عزل المفاهيم الاخلاقية عن الحياة .

اننا نشجب مثل هذه الاساليب لأنها تجمّد الفكرة بدلا من ان تحركها وتطلقها ، وتشوهها بدلا من ان تقدمها بصورة واضحة رائعة .

وربما تتحمل مثل هذه الاساليب الخاطئة ، مسؤولية الفكرة القاتمة التي يحملها البعض عن الاخلاق والاحاديث الاخلاقية .

* * *

وفي ختام الحديث اننا نجد هذا المفهوم الواسع للاخلاق في الكلمة التي اطلقها النبي محمد (ص) كواجهة للخط العام للشريعة الاسلامية « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .

فنحن نلاحظ ان الشريعة لم تقتصر في أحكامها على جانب معين في الحياة بل انطلقت لتمتد في حياة الانسان الفردية الى الحياة الاجتماعية . في حالة السلم والحرب ، في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعسكري فلكلٍ من هذه الحالات احكام معينة وشرائع محددة .

ومع ذلك فان النبي (ص) يعتبر الاخلاق تسير مع كل حكم وفي أي مجال حتى لتتحول ممارسة الاحكام الشرعية الى ممارسات اخلاقية ، كما يعتبر التمرد عليها ممارسة لعمل غير اخلاقي ، لا لأن القضية قضية طاعة الله ومعصيته فحسب ، بل لان كل حكم يخضع لمفهوم اخلاقي يمتد مع الحياة في داخل النفس الانسانية وخارجها .

وبعد هذا كله ، هل عرفتم لماذا ركز علماء الدين على الاخلاق ؟

س ٢ : ما هي الاسباب التي أدت الى نفور الشباب من الدين ؟

ج : أحسب ان الجواب يتلخص في عناصر عديدة :

أ ـ الصورة المشوهة التي تمثلها بعض النماذج البشرية المتخلفة ، أو غير المخلصة للمسلمين ، او للمتديّنين بشكل عام ، او الذين يمثلون الدين بصورة رسمية ، فقد يكون لهذه الصورة التي يلمحها الشباب بعض الاثر في داخل نفوسهم عندما يجدون الابتعاد عن الممارسة العملية لقضايا الحياة الملحة ، ويلاحظون النظرة الفردية الضيقة التي تطبع سلوكهم واوضاعهم ، أو يصطدمون بواقع الاتّجار بالدين وجعله وسيلة من وسائل الاثراء غير المشروع ، أو يفاجأون بالفهم الضيق للمفاهيم الدينية عن الانسان والكون والحياة ، الامر الذي يشوه صورة الدين في نظره عندما يجده بعيدا عن تطلعاته .

ب ـ الواقع التاريخي لبعض المراحل التاريخية للحكم الديني الذي مارسه بعض الحكام المسلمين وغير المسلمين ، الذي انطلق من مفاهيم التخلف مما أدّى الى أن يعيش الناس في ظل الحكم الديني البؤس والشقاء والانحطاط والظلم والتسلط دون حق ، وفقدان الحريات في جميع مجالاتها ، في الوقت الذي تعيش فيه الطبقات الحاكمة التي تمثل السلطة الدينية الرسمية كل مظاهر البذخ والترف وبكل ما تتطلبه شهواتها وغرائزها وميولها . الأمر الذي خلق انطباعا لدى بعض الذين ينظرون الى الامور نظرة سطحية ، ان الدين لا يمثل الحل لمشاكل الانسان ، وانما يمثل ، بدلا من ذلك ، الوسيلة التي يستغل فيها الحاكمون والنافذون شعوبهم ، ويسيطر باسمه القوي على الضعيف ،

دون ان يلتفتوا الى الكلمة المعروفة « الاسلام شيء والمسلمون شيء آخر » .

ج ـ الافكار التي شاعت في اوروبا في بدايات عصر النهضة وفيما بعدها ، المستمدة من واقع الممارسات الدينية لبعض المؤسسات الدينية هناك ، كفكرة « العلم يصادم الدين » او « الدين أفيون الشعوب » وغير ذلك من الافكار التي شارك في نشرها وتركيزها في أفكار الشباب ، الاساتذة والمفكرون الذين قادوا مسيرة الثقافة في مدارسنا الحديثة ، وقادة الاحزاب الذين ارادوا ان يبعدوا الشباب عن الدين باعطاء هذه الصور المشوهة التي تمثله بعيدا عن تطلعاتهم للتقدم وللانطلاق في مجال العلم والمدنية ، والمبشرون الذين عملوا بأساليبهم المتنوعة على اثارة الشبهات والشكوك في العقيدة والتشريع في التاريخ .

كل هذا دون ان تقابل هذه النشاطات بنشاطات دينية اخرى توضح خطأ هذه الافكار ، بالمستوى الذي تمارسه هذه القوى ، بالنظر الى انها انطلقت في بدايات عهود الاستعمار الذي انطلق من قاعدة إبعاد الامة عن جذورها وقيمها لئلا تستمد منها القوة على مقاومة القوى الغاشمة التي تستعمرها وتستعبدها ، انطلاقا من عقيدتها وتاريخها .

فكان من الطبيعي أن يسيطر على مؤسسات الثقافة والاعلام وغيرها من اجل افساح المجال لافكار بعيدة عن افكار الامة كما ألمحنا اليه ، وإغراق الجيل بالكثير من العقائد والمذاهب الفكرية ، لا ليعتنق واحدا منها ، بل ليعيش الفوضى في الفكر والعقيدة ، فيغرق في دوامّة المناقشات اللفظية والهامشية التي تبعده عن آماله وآلامه ، وبالتالي تبعده عن التفكير والانتباه لما يخطط له ويراد به .

وقد يكون من الراجح للشباب ، من اجل وضوح هذه الفكرة ، ان يقرأوا كتاب «التبشير والاستعمار في البلاد العربية » .

د ـ التيار المادي للحضارة الغربية الذي حاول أن يربط الانسان بحياته المادية ويفلسف له شهواته وغرائزه ، ويعمل على الايحاء له بقداستها واعتبار ممارستها بكل حرية ممارسة لارادة الوجود التي تنطلق من شعور الانسان بحريته من الداخل دون ان يكون هناك سلطة اخرى خارج ذاته تفرض عليه ارادته .

الأمر الذي جعل الانسان يشعر ، امام عوامل الاغراء التي صنعتها هذه الحضارة بتفاهة الضوابط الاخلاقية والقانونية التي تضبط له حركاته وتصرفاته وربما يتعاظم هذا الشعور الى شعوره بقسوة هذه القيود ، الى الحد الذي يعتبرها عدوانا على حريته .

وبهذا أصبحت كلمة الحرية لديه تشمل كل ما يفكر به أو يحلو له حتى الحرية الجنسية ، أو حرية التفلت من القوانين والعادات والاعراف والتقاليد .

واصبح مفهوم الرفض من المفاهيم المطاطة التي يحملها الجيل دون وعي لمضمونها ، فالمهم أن نعيش الرفض ، دون أن يكون لمضمون الرفض أية أهمية في الحساب .

ومن الطبيعي أن يشعر الجيل الذي يعيش هذا الواقع بالعداء للدين الذي يحاول أن يركز الضوابط الاخلاقية في داخل الانسان ليمارس ارادته واستقلاله من خلالها ، ولينطلق في الحياة من قاعدة اعتبار الروح الى جانب المادة أساسا سليما للحياة الطبيعية المستقرة .

* * *

وأحسب ، بعد هذا الحديث كله ، ان الصورة قد وضحت الى حد بعيد ، فيما نعتبره الملامح الاصيلة للصورة ، وربما يجد البعض ملامح جديدة لم نكتشفها في هذا الحوار السريع .

* * *

س ٣ : ما هو موقف الاسلام من عمل المرأة ؟

وبكلمة اخرى : هل الاسلام يعتبر الدور العملي للمرأة يعيش في ضمن نطاق البيت ، أو أنه يشجع أو لا يمانع في انطلاقها في مجالات الحياة العملية خارج نطاق البيت ؟

ج : أعطى الاسلام للمرأة حق العمل كما أعطاه للرجل ، وجعل لها قيمة عملها ملكا مطلقا تتصرف فيه دون معارض ، كما جعل ذلك للرجل .

ونستطيع ان نلمح ذلك في ظاهرتين : تشريعية وتطبيقية .

اما التشريعية : فتتمثل في ملاحظة المرأة قبل الزواج وبعد الزواج .

أمّا قبل الزواج : فلم يجعل الشرع الاسلامي لأبيها ولا لأي انسان من اقربائها الحق في اجبارها على الاعمال المنزلية بمختلف اشكالها ، فهي حرة في نفسها من هذه الجهة ، فباستطاعتها ـ من زاوية شرعية ـ أن لا تخدم احدا وأن تتطلب الاجرة على ذلك في بيتها او في غير بيتها ، كأي عامل أو عاملة ، كما أن لها الحق في ان تعمل خارج نطاق البيت دون أن يملك احد الحق على منعها وحبس حريتها في ذلك .

وأمّا بعد الزواج : فلم يشرّع الشارع الاسلامي فرض العمل

المنزلي على المرأة ـ الزوجة ـ ولم يوجبه عليها بل انطلق الى أبعد من ذلك فاعتبر أن لها الحق في ان ترضع ولدها وتحضنه وتأخذ الاجرة على ذلك ، وليس للزوج ان يمتنع من ذلك ـ في حال طلبها الاجرة ـ الا اذا طلبت قيمة زائدة على الحدود الطبيعية وذلك هو قوله تعالى وهو يتحدث عن المطلقة الحامل بعد ان تضع حملها .

وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ .

[سورة الطلاق : ٦] .

ويرى الفقهاء انطلاقا من الآية الكريمة في سورة الطلاق ٦ والاحاديث الشريفة المفسرة لها ، ان هذا الحكم لا يختص بحالة الطلاق بل يشمل حالة استمرار الحياة الزوجية .

وعلى ضوء هذا نفهم ان للزوجة ان تمارس في داخل البيت دور العاملة التي تأخذ قيمة عملها تماما كما لو كانت تعمل في غير بيتها ، لان العمل المنزلي لا يدخل في حقوق الزوجية الالزامية من ناحية تشريعية .

ونحن نؤكد على ان ذلك حقها من ناحية قانونية ، ونركز على التحدث عن ذلك من خلال هذه الصفة ، لأننا ندرك ان الجانب الروحي والانساني في الحياة الزوجية يفترض في الزوجة ان تقوم بهذه الاعمال بشكل طوعي دون أن يكلفها الزوج بذلك . ولعل حكمة هذا التشريع : هو أن تشعر المرأة بانسانيتها في داخل الحياة الزوجية عندما

تحس بأنها لم تدخل البيت كخادمة او مربية اطفال تمارس هذه الاعمال قسرا عنها ، بل دخلته كانسانة تملك عملها كما تملكه قبل الزواج ، ولذا فهي حرة أن تبذله بدون مقابل حتى تشعر بقيمة العطاء والمشاركة العملية في الحياة الزوجية ويشعر الرجل بدورها في العطاء عندما تتطوع بالعمل الذي لا يجب عليها ان تقوم به .

ولعل ذلك يعطي المرأة والرجل الاحساس العميق بالمشاركة الروحية عندما يقدم كل منهما للآخر جهدا لا يلزم عليه القيام به بدافع المحبة والمودة وبناء الحياة المطمئنة الهادئة .

هذا كله في العمل المنزلي .

أما الاعمال الاخرى ، فلا مانع من القيام بأي عمل حر آخر داخل البيت الزوجي اذا لم يتعارض ذلك مع الحقوق الطبيعية للزوج ، فلها ان تمارس الخياطة والاعمال الاخرى التي تستطيع ممارستها في المنزل لتكسب بها المال الذي يؤمن لها مستقبلها وحياتها أمّا خارج نطاق البيت ، فلها ذلك ، بعد الاتفاق مع الزوج وأخذ موافقته ، نظرا الى ان من حقوق الزوج على زوجته ان يكون خروجها من البيت برضاه حفظا للامن والاستقرار والثقة المتبادلة .

وقد يكون من حقها ان تشترط عليه ذلك في عقد الزواج ، كأي شرط آخر .

ونحن أمام هذا العرض للناحية التشريعية في عمل المرأة ، نتساءل : كيف يمكن ان ينسب للاسلام القول بأنه يريد للمرأة ، او يجبر المرأة على ان تكون خادمة ومربية أطفال دون ان يكون لها الحرية في المشاركة في اعمال الحياة الاخرى .

نعم هناك شرط اساسي في عمل المرأة ، كما هو شرط في عمل

الرجل ، او في أي سلوك آخر لهما في الحياة ، وهو ان يكون الجو الذي يعملان به من الاجواء التي تحفظ لهما اخلاقهما وحياتهما الشريفة التي يريدها الاسلام ، فلا يجوز للمرأة ان تعيش في الاجواء العملية أو غيرها ، التي تتعرض فيها للسقوط امام شهوات الرجال وغرائزهم من رؤسائها في العمل او زملائها ، كما لا يجوز للرجل ذلك في العمل وغيره لان ذلك من قواعد الانضباط الخلقي للانسان في كل زمان ومكان .

٢ ـ أمّا الناحية التطبيقية ، فتتمثل في دراسة المراحل التاريخية التي مرت بها المرأة المسلمة ، حتى ما قبل عصرنا الحاضر ـ فاننا نراها تشارك الرجل العمل في الحقل وفي غيره من المجالات السائدة في تلك العصور في الوقت الذي كان الدين سائدا فيه لدى المرأة والرجل دون أن يرى فيه او ترى هي فيه ، أي خروج او انحراف عن خط الدين ، او تمرد على احكامه .

واذا كنا نجد بعض الاستنكار لعمل المرأة من قبل بعض علماء الدين او من قبل بعض المؤمنين فانه لا ينطلق من استنكار عمل المرأة بل من الاحتجاج على الاجواء المنحرفة التي تعيشها اجواء العمل كما في كثير من المعامل والمؤسسات التي تتعرض فيها المرأة لخطر السقوط ، كنتيجة لعوامل الاغراء الكثيرة المتنوعة .

وخلاصة الحديث : ان الاسلام لا يحمّل المرأة مسؤولية العمل المنزلي انطلاقا من تدبير المنزل الى ارضاع اولادها وانما يترك لها الحرية في ان تتطوع او تعمل بأجر ، أو لا تعمل ، ويحاول ان يثير فيها من ناحية روحية ، روح الشعور بالمسؤولية الانسانية التي تدفعها الى البذل بمحبة ومودة .

ولا يمنعها في الوقت نفسه من العمل خارج البيت وفق شروط خاصة تحفظ لها حياتها الزوجية من جهة وانسانيتها من جهة اخرى .

* * *

مشاكل عمل المرأة في خارج البيت :

ولكن هذا الذي عرضناه لا يمنعنا من ان نعرض المشاكل التي يؤدي اليها عمل المرأة من ناحية واقعية :

أ ـ مشكلة الاخلاق : فالمجتمع لا يزال ينظر الى المرأة كأنثى من خلال الرغبة ولهذا نجد ان كثيرا من المحلات التجارية او المراكز الادارية ، أو شركات الطيران او غيرها تعتبر من الشروط الاساسية للمرأة العاملة لديها ـ في باب الاعلان ـ ان تكون جميلة ، او ذات جمال أخاذ ، لان ذلك يساعد على جلب اكبر عدد من الزبائن من خلال حركات الاغراء التي يثيرها جمال المرأة في نفس الرجل .

وقد نلاحظ ذلك في المعامل والمؤسسات التي يختلط فيها الموظفون والموظفات وهؤلاء الذين يعيشون الحياة ويفهمونها من خلال فلسفة اللذة التي تنشرها الافلام والقصص وغيرها من أساليب الضلال الحديثة .

ب ـ مشكلة الاولاد : فالمرأة العاملة تضطر الى ان تترك اولادها تحت رحمة الخادمة ، او في المؤسسات التي تنشأ لحضانة اولاد المرأة العاملة ، وفي كلا الحالين يعيش الاولاد الحرمان من حنان الام الذي

لن يعوض ، وربما يسبب ذلك كثيرا من العقد النفسية في مستقبل حياتهم .

ج ـ تكوين المرأة الجسدي الذي يفرض عليها أخذ اجازة في حالات الدورة الشهرية او الحمل والارضاع الامر الذي يقلل الانتاج ويربك العمل ، ولهذا يحاول كثير من مشترعي البلاد التي تحاول ان تعمل على المساواة بين الرجل والمرأة في الحياة ان يطالبوا باعطاء الرجل اجازة ستة اشهر في مقابل الاجازة المعطاة للمرأة في حالات الحمل والولادة والارضاع .

* * *

وعلى كل حال فقد نرى ، من ناحية واقعية ، ان البيت قد يخسر من خلال عمل المرأة الام ، والزوجة اكثر مما يربح من ذلك .

واذا كان العمل للمرأة من اجل تحقيق انسانيتها كما يقولون ، فهناك المجالات الكثيرة التي تستطيع فيها تحقيق الانسانية ، وأي مجال اعظم من مجال الامومة لتحقيق ذلك .

س ٤ : كيف يكون زي المرأة في الاسلام ؟

ج : ان تستر جميع اجزاء جسدها ما عدا وجهها وكفيها ، فهذا هو اللباس المحتشم الذي يفرضه الاسلام .

انه يريدها ان تخرج كامرأة ، كانسانة لا كأنثى تثير الغرائز والشهوات .

س ٥ : لماذا لا يسمح للمرأة بحضور صلاة الجماعة ؟

ج : لا مانع من ذلك ، فهناك في اكثر البلاد الاسلامية اماكن خاصة في المساجد لصلاة النساء ، حيث يؤدي الرجال والنساء الصلاة

في جماعة واحدة ، مع المحافظة على الشروط الشرعية في ذلك .

س ٦ : كيف نستطيع التعرف على اعجاز القرآن الكريم ؟

ج : ان معنى المعجزة ان تكون الظاهرة التي تتمثل فيها غير خاضعة للقوانين الطبيعية التي يسير عليها الناس في علاقة المسببات بأسبابها ، كما يحدثنا القرآن عن تحول العصا الى أفعى تلقف ما يأفكون ، في يد موسى (ع) وإحياء عيسى (ع) للموتى وإبرائه للأكمه والابرص باذن الله ، مما لا يستطيعه الافراد الذين يملكون الاختصاص في السحر والطب لانه لا يخضع للاصول والاعراف المتبعة عندهم .

وبهذا كان القرآن معجزة بلاغية للاسلام تحدى بها العرب الذين كانت الفصاحة والبلاغة ميزتهم التي يتميزون بها ومفخرتهم التي يفتخرون بها ، وكان فيهم الفصحاء الذين لا يتكلمون بكلمة الا وتصبح مضرب الامثال ، وكان فيهم الخطباء الكبار والشعراء الافذاذ .

وجاء القرآن يمثل القمة في البلاغة العربية باسلوب جديد غير مألوف لديهم وتحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله ، ولم يستطيعوا ان يثبتوا امام التحدي رغم محاولاتهم المتكررة ، ولم يتمكنوا من مواجهته مواجهة عقلانية هادئة بل انطلقوا يقولون انه سحر ، وانه شعر ، واكتشفوا بعد ذلك ان كل هذا القول هراء .

وقد حاول بعض علماء العربية ان يعتبروا عجز العرب عن محاكاته ومواجهته بمثله خاضعا لقانون الصرفة الذي يعني ان الله يعجزهم عن ذلك عندما يحاولونه والا فهم قادرون بحسب طبيعتهم عليه .

ولكن هذا القول لا ينسجم مع طبيعة المعجزة التي تتحدى

القدرة البشرية بذاتها دون حاجة إلى تدخل غير طبيعي من قبل الله في ذلك ، بحيث يشعرون بالعجز امامها بمجرد مواجهتهم لان العناصر التي تتمثل فيها لا تخضع لقدرتهم المحدودة كما ان ظاهر التحدي القرآني يشير الى ذلك .

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ . [سورة الإسراء : ٨٨] .

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ . [سورة البقرة : ٢٣] .

أمّا كيف نكتشف الاعجاز ، فنستطيع الوصول الى ذلك بملاحظة دقيقة جدا ، وهي ان نتعرف كيف انطلق الاسلوب القرآني ليجمع كلّ دقائق اللغة العربية مراعيا الانسجام بين الحروف والحركات والكلمات ومنطلقا في روعة التصوير الى أبعد حد حتى ليخيل اليك انك لا تواجه صورا ذهنية امامك بل صورا تتحرك بخفة وبراعة حتى لتجسّد امامك المشهد في صورة حسية تقتحم عليك مشاعرك واحاسيسك حتى لتشعر ان القصة تحيط بك من جميع جوانبك لتملك عليك وجدانك وبكلمة موجزة : ان قيمة الاسلوب القرآني هو انه يلاحظ كل مقتضيات الحال في الكلمة والاسلوب والفكرة والصورة . حتى تحس انك لا تستطيع ان تتصرف في أيٍّ منها دون ان تسيء الى الجو العام للآية والسورة ، حتى في الحركة البسيطة او الكلمة الواحدة .

ومن الطبيعي اننا لا نستطيع تذوّق هذا الاعجاز بالشكل الذي

تذوقه العرب الذين نزل القرآن عليهم . لانهم كانوا يفهمون اللغة ويعيشون معانيها بالفطرة بينما ابتعدنا نحن عن جو اللغة حتى كدنا نصبح غرباء عنها ، ولذلك فاننا نحتاج الى دراسة الابحاث التي عرضت لاعجاز القرآن قديما وحديثا لنستطيع الاحساس ولو من بعيد ، بقيمة الاسلوب القرآني وعظمة الصورة القرآنية للحياة ، ولعل من أفضل الابحاث التي عرضت لبعض جوانب الاعجاز ما كتبه سيد قطب في كتابيه « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » ، ولا يفوتنا الاشارة الى كتاب الاستاذ مصطفى صادق الرافعي في اعجاز القرآن وغير ذلك من الكتب الكثيرة .

* * *

ويحاول الكثيرون ان لا يقتصروا في اعجاز القرآن على الجانب البلاغي فيلتمسون الاعجاز في الحقائق الكونية الدقيقة التي اكتشفها القرآن قبل ان يكتشفها أحد في العالم الا في الازمنة المتأخرة ، في الوقت الذي كان النبي (ص) أمياً لم يتعلم الا بالفطرة . ولم يكن الجو الثقافي هناك في مستوى اكتشاف ذلك بعضا وكلاً .

ومن بين تلك الحقائق : قانون الزوجية في الكون الذي لم يكتشفه الانسان الا في العصور المتأخرة التي تقدم فيها الانسان كثيرا على أساس التجربة فقد أشار إليه القرآن الكريم :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

[سورة الذاريات : ٤٩] .

ومن بين تلك الحقائق ، اكتشافه قيمة بصمات الاصابع في تحقيق الشخصية وذلك في قوله تعالى :

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾ . [سورة القيامة : ٣ ـ ٤] .

فان اعتبار البنان مظهر القدرة التي يستدل بها على قدرة الله على جمع العظام واعادة الانسان الى الحياة ، لا يمكن الا على أساس ملاحظة دقة التكوين فيها مع اختلاف الناس فيها على كثرته فلا تتفق بصمة انسان مع بصمة انسان آخر مهما كان قريبا في النسب أو في غيره .

وهناك كتب كثيرة تعرضت لاشارات القرآن الى قوانين الكون الطبيعية ، وان وصل الكثير منها الى حد الافراط في اثقال الكلمة بمعان لا يتحملها وضعها اللغوي .

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذا المنهج او ذاك ، وانما نريد الاشارة الى بعض وجوه الاعجاز في القرآن التي يرى البعض كونها مظهرا للتحدي القرآني .

ويحاول البعض ان يرى وجه الاعجاز في هذا التشريع المتكامل الذي يشتمل عليه القرآن ، وفي تلك المفاهيم الدقيقة التي اطلقها لعلاقة الانسان بالحياة ، في الوقت الذي لم يكن النبي قد تلقّى أي ثقافة في ذلك ولم يكن الجو الثقافي في مستوى ذلك كما اشرنا اليه آنفا .

تلك هي بعض الوجوه التي قد تساعدنا على اكتشاف عظمة القرآن الكريم ومعرفة انه ليس كلام البشر ، بل هو كلام الله تعالى .

ولسنا هنا بصدد تفصيل ذلك ، فليس من قصدنا في هذا الحوار الا توجيه التفكير الى هذا الجانب باثارة الجوانب الاساسية فيه .

الحلقة الثانية

لَا تَقِفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمْ
مَوقِفُ الاسْلَامِ مِنَ التَرَدّدِ وَالقَلَقِ وَالوَسْوَسَة
و
لِكُلّ سُؤَالٍ جَوَابْ

- **المحاضرة الأولى : لا تقف ما ليس لك به علم .**
- **المحاضرة الثانية : موقف الاسلام من التردد والقلق والوسوسة في العمل .**
- **لكل سؤال جواب .**

مقدمة

بسم الله الرَّحمٰن الرحّيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعد ، هذا هو الكتاب الثاني ، من سلسلة الكتب التي بدأت باصدارها ندوة الشباب المؤمن الثقافية في بنت جبيل انطلاقا من شعارها الذي حملته بصدق واخلاص وهو نشر المعرفة الاسلامية ، وفتح باب الحوار الهادىء العميق من اجل الوصول الى المعرفة الحقة .

واننا ـ في الوقت الذي نعتذر فيه عن طبيعة السرعة والارتجال التي طبعت تلخيص المحاضرة الاولى ، والاسئلة والاجوبة معها ، بما ربما يفوت كثيرا من العناصر الاساسية للفكرة .

نرجو ان يجد القراء في هذا الكتاب التلخيص الوافي للفكرة العامة للمحاضرتين اللتين القاهما سماحة السيد محمد حسين فضل الله مع الاسئلة والاجوبة التي انطلقت في مختلف القضايا بكل صراحة ومحبة ، الامر الذي يعطي للشباب الواعي الفكرة الصادقة عن ايماننا بحرية الكلمة المسؤولة في مجال الحوار .

كما اننا نرجو من الشباب تقديم ملاحظاتهم واقتراحاتهم ليصار الى درسها ومناقشتها في الكتب التالية .

والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الشباب المؤمن في بنت جبيل

المحاضرة الأولى :

لا تقف ما ليس لك به علم

قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ . [سورة الاسراء : ٣٦] .

في هـذه الآيـة نقف مـع أحـد المبـادىء العـامـة في الحيـاة التي حاول الاسلام أن يطلقها في مجال الفكر والعقيدة والسلوك .

ونحن هنا في محاولة للسير في ظلال هذه الآية نحو الحياة .

لا تقف : لا تتبع كل شيء ليس لك عليه حجة وليس معك عليه برهان ، سواء كان شيئاً تسمعه ، او ظاهرة تبصرها ، او فكرة تعقد عليها قلبك وتعيها في ذهنك فانك سوف تواجه المسؤولية عما سمعت ، وعما ابصرت ، وعما اعتقدت ، وعليك ان تقدم الحساب على نسبة وضوح ذلك كله لديك .

القيت في نـدوة « الشباب المؤمن » في بنت جبيـل في مساء السبت الـواقـع في ٢١ ربيع الثاني ١٣٩٢ هـ الموافق ٣ ـ ٦ ـ ١٩٧٢ م .

فهناك عدة حالات نمر بها في كل قضية تواجهنا :

أ ـ حالة الوهم : وهي الطرف المرجوح في القضية كما اذا كان وعينا لها بنسبة ٤٠ / أو ٣٠ ٪ .

ب ـ حالة الظن : وهي الطرف الراجح في القضية كما اذا كان وعينا لها بنسبة ٦٠ او اكثر ٪ .

ج ـ حالة الشك : وهي حالة تساوي الطرفين كما اذا كان وعينا لها بنسبة ٥٠ ٪ .

د ـ حالة اليقين : وهي حالة الجزم كما اذا كان وعينا لها بنسبة ١٠٠ ٪ .

والاسلام من خلال هذه الآية وغيرها من الآيات يشترط في السير وراء اية قضية في الفكر والعقيدة والسلوك ان يكون وضوح الرؤية فيها بنسبة ١٠٠ ٪ ويرفض النسب الثلاث .

وليس معنى رفضها هو اهمالها رأسا فان بامكان الانسان ان يأخذ منها فكرة الحذر في بعض المجالات ، ومتابعة البحث في المجالات الاخرى .

بل معناه هو رفض اعتبارها اساسا للعمل وطريقا للحياة ، ومقياسا للحقيقة ، فكل شيء لا يكون وضوحه بمستوى اليقين فليس بحقيقة .

تلك هي خلاصة الفكرة .

اما كيف نطبقها في جميع المجالات :

١ ـ في مجال العقيدة : فليس للانسان ان يعتقد بأية عقيدة نتيجة

الظن او الوهم او الشك بل لا بد له من ان يحصل على درجة اليقين ليكون معذورا على تقدير الخطأ ، ومطمئنا في طريق الصواب ، وعلى هذا الاساس دعا الاسلام الانسان الى ان يتحرر من كل رواسبه ويقف وجهاً لوجه أمام الحقيقة الواضحة تحت شعار :

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١١١] .

٢ ـ في مجال العلم ، فلكي تكون النظرية العلمية في مستوى الحقيقة التي لا تقبل النقاش لا بد من ان يحصل على نسبة اليقين ، ولن تحصل على تلك النسبة الا اذا كانت مقدماتها يقينية وبهذه المناسبة نشير الى الطريقة المدرسية التي تقدم النظريات كأشياء جاهزة لا تقبل الجدل الامر الذي يوحي الى طلاب الصفوف الابتدائية والثانوية ، بانها نظريات على مستوى الحقيقة كما هو الحال في نظرية دارون في النشوء والارتقاء ، ونظرية فرويد وغيرهما ، في الوقت الذي نجد اصحاب هذه النظريات يعترفون بانها ظنية تنطلق من قضايا جزئية خاصة وملاحظات محدودة .

لذلك يجب الا نعطي العلم المعاصر اكثر مما اعطى نفسه ، فقد تأتي نظريات جديدة كنظرية النسبية لانيشتاين تقلب الكثير من النظريات التي قبلها ، لان القضية ليست بمستوى ١ + ١ = ٢ .

٣ ـ في مجال العلاقات مع الآخرين : فلكي تحكم على انسان باي صفة كانت سواء في مجال الدين كأن تقول عنه انه ملحد او فاسق او مؤمن ، او في مجال السياسة كأن تقول عنه انه خائن او مخلص ، او في مجال الاخلاق العامة كأن تقول انه امين او صادق او كاذب او سارق او مرتش او منافق .

فكـر في الاساس الـذي ارتكزت عليـه احكامـك فهـل هـو بنسبـة ١٠٠ ٪ او اقـل من ذلك فليس لـك ان تحكم اذا كـان الاسـاس يـرتكـز على نسبة اقل ، فلعل الحقيقة في الـطرف الآخر تمـاما كمـا هي الحالـه في الجـو عندمـا يكون غـائما في جـانب ومضيئا في جـانب آخـر ، فقـد يقول الذين يعيشـون في جانب الغيم ، انـه لا نور هنـا بينما الحقيقـة ان النور موجود ولكن لا بد في رؤيتـه من الانتقال للجـانب الاخر ، وهكـذا قـد تكون الحقيقـة في الـ ٤٠ ٪ اذا كانت نسبـة وضوح الجـانب عنـدنـا ٦٠ ٪ .

وبهـذا نغلق ابواب الاشاعـات التي تجد لهـا المجال الـواسـع في حيـاتنـا عنـدمـا تجـد الكثيـرين الـذين يتقبلونهـا دون وعي او حسـاب ، ونتخلص من فوضى الالقاب بلا حساب في جـانب المدح والـذم وهكذا نسير مع هـذا الاتجاه عنـد التحدث عن العقـائد والمبـادىء . فليس لك ان تعـطي أيّ عقيـدة أو مبـدأ ايّة صفــة الا اذا كنت تملك المعلومـات الصحيحـة عنهـا . وبهـذا سـوف نتخلص من فـوضى التهم التي تـوجـه للاديان والعقـائد دون حساب انطلاقا من معلومات خـاطئة لم تـرتكز على مصـادر وثيقـة بـل ارتكـزت على اشـاعـات من هنـا وكلمـات من هنـاك اطلقهـا مغرضـون او جاهلون كمـا نشاهـده في نظرة الشبـاب الى الـدين عندما يصفونه بأنه « ضد العلم » أو « مخدر » أو « رجعي » دون أن يملكـوا أيّة معرفـة عن الـدين تبـرر لهم هـذا الاتهـام وانمـا هي الكلمـات التي اخذوها عن فلان وفلان فاعتنقوها دون تفكير .

٤ ـ في الحـوار مـع الآخــرين . . فلكي تجـادل في **أيّ** فكــرة او تجـاوز في **أيّ** عقيدة لا بـد لك من **أن** تملك الثقـافـة والمعلومـات التي تستطيع أن تدير معها عملية الحوار والجدال بسلام .

أمّا اذا لم يكن لك علم فيما تناقش فيه او تجادل فيه ، فانك ستتحول الى اساليب المهاترات والكلمات الفارغة التي لا تعطي الا الرنين ولا تؤدي الا الى اضاعة الوقت واثارة الاحقاد والضغائن .

وقد اشار القرآن الى هذه الفئة من الناس التي لا تملك مقومات الحوار الهادىء العميق في قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ﴾

[سورة الحج : ٨] .

فهو لم يشجب موقفهم لانهم جادلوا في الله ،بل اراد أن يستنكر عليهم الفكرة المضادة التي ينطلقون منها في حالات الجدال ، دون أن يملكوا الاساس العلمي لها .

ومن هنا نعرف الفرق بين ان تستفهم وتسأل عما لا تعلم ، فهذا هو ما يدعو الاسلام اليه ، وبين ان تجادل بغير علم وهو ما يستنكره ، لانك في الحالة الاولى لا تملك الا علامات الاستفهام تثيرها امام الفكرة وامام الاجوبة التي تثار امامك حولها ، فانت في كل ذلك طالب معرفة ، أمّا في الحالة الثانية فأنت تتبنى الفكرة دون أن يكون لك حجة عليها ولذا فسوف يتحول موقفك الى عناد واصرار على الجهل .

٥ ـ في المجالات العامة : كما في الشهادة على الدعاوى ، فلكي تشهد على أية قضية ، لا بد من أن تكون القضية واضحة ١٠٠٪ فقد سئل النبي محمد (ص) عن الشهادة ، كيف اشهد فالتفت النبي (ص) إلى السائل وكانت الشمس في وسط النهار والطقس صحو (على مثل هذه فاشهد اودع . .) .

لكل سؤال جواب

- لماذا ينقد العلماء بعضهم البعض ؟
- من خلق الله ؟
- كيف يتيح الله الفرصة للشر ؟
- كيف نفسر خلق المشوهين ؟
- ما هو موقف الاسلام من الرق ؟
- لماذا اختلفت الأديان ؟
- تفسير بعض الآيات القرآنية ؟ وغير ذلك

س ١ : لماذا كلما برز عالم حاول الآخرون تحطيمه .

ج ـ اولا : ليست هذه طريقة كل الآخرين ، فالكثيرون لا يسيرون على هذا الخط ، ونحن ـ في الوقت نفسه ـ لا ندعي العصمة لهم فهم بشر قد يقعون في الخطأ كما يقع غيرهم فيه .

ثانيا : اننا نخلط كثيرا بين نقد العمل او السلوك وبين نقد الذات ، فقد يحدث ـ بحكم تكويننا الشرقي ـ ان نعتبر الانسان الذي ينتقد انسانا في عمل من اعماله ، عدوا له ، وهذا خلق غير اسلامي فان الاسلام يعتبر النقد الاجتماعي او الذاتي واجبا اسلاميا « المؤمن مرآة اخيه » (حديث شريف) بشرط ان يكون منطلقا بموضوعية ومحبة ليتقبله الآخرون كذلك الحديث الذي يقول : « رحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي » واعتقد أن بعض العلماء الذين ينقدون افعال بعضهم ينطلقون من محاولة تصحيح الانحراف وإصلاح الخطأ ، لا من روح العداوة ، ومن افهام الناس أن المحبة للشخص لا ينبغي أن تكون مظهر عبادة تجعلنا نعصمهم عن الخطأ ، « وربما تتحدث حول رأي الإسلام في النقد في محاضرة مستقلة إن شاء الله » .

من خلق الله ؟

س ٢ : نحن مخلوقون لله فمن خلق الله ؟

ج ـ هذا السؤال ليس بجديد ، لا تعتبره غريبا ، فالحالة النفسية التي تعيشها عاشها انسان قبلك في زمان النبي محمد (ص) .

ففي حديث الامام جعفر الصادق (ع) : جاء رجل الى النبي (ص) فقال : يا رسول الله اني هلكت فقال له النبي (ص) : اتاك الخبيث (الشيطان) فقال لك : من خلقك ؟ فقلت : الله تعالى فقال : من خلقه ؟ فقال الرجل : اي والذي بعثك بالحق قال كذا ، فقال النبي (ص) ذلك محض الايمان .

ويعلق الامام الصادق على هذه الكلمة (محض الايمان) فيقول : انما عنى بقوله (هذا محض الايمان) خوفه ان يكون هلك حيث عرض في قلبه ذلك . لانه يدلل على الشعور العميق بالقلق والخوف على ايمانه . الامر الذي يكشف قوة الايمان في داخله .

والآن مع الجواب عن هذا السؤال .

ان هذا السؤال ـ في عقيدتي ـ خطأ .

ان العقيدة بالله تفرض انه ـ تعالى شأنه ـ هو العلة الاولى الخالقة للكون ، ومعنى العلة الاولى للكون ، هو انه لا علة قبله ، وليس معلولا لشيء ، لانه لو كان كذلك لكان علة ثانية او ثالثة ، والنتيجة هي انه ليس هو الله الذي نؤمن به .

ولتوضيح الفكرة اكثر نقول : اترك فكرك ينطلق ويسرح في بدايات الكون فكل شيء تتصور وجود شيء قبله او احتياجه لشيء آخر

فليس هـو الله : أمّا اذا وقفت تصـوراتك عنـد شيء لا شيء قبله فذلـك هو الله .

لمـاذا نقول من خلق الله ؟ لانـك تتصـور وجـود الله كـوجـودنـا لا يمكن ان يتحقق بدون موجـد لكن التصور خـطأ ، فان وجـودي ووجودك ووجـود الكون كله لا يحمـل في ذاته حتميـة الاثبات ولا حتميـة العدم ، وهو ما يسمى ـ فلسفيا ـ ممكن الوجود فهو قابل لهذا وقابـل لذاك فـلا بد من قـوة خارج ذاتـه ترجـح احد الفـرضين على الآخـر وهـذا هـو الـذي يفرض ـ من ناحية فلسفية ووجدانية ـ حاجته الى خـالق ، أمّا الخـالق فلا يمكن فـرض عدمـه لان وجوده هـو المبرر لـوجود الكـون ، وكـل مـا لا يمكن فـرض عدمـه فهو واجب الـوجود واذا كـان كذلـك فلا يحتـاج الى مـوجد لان وجـوده منطلق من حتميـة وجـوده الـذاتيـة لا من امـر خـارج عنه .

ان القاعدة ليست : كل موجود يحتاج الى موجد .

بل القاعدة الصحيحة : كل ممكن الوجود يحتاج الى موجد .

* * *

س ٣ : ما معنى هذا القول : المؤمن ممتحن .

ج ـ معنـاه ان المؤمن بالله لا يتـرك دون امتحان ، فكـل ما يصيبـه في الحياة من مشاكل وقضايا يعتبر امتحانا واختبـارا لايمانـه فيرى : هـل ينسجم سلوكـه ، ومـوقفـه امـام هـذه القضـايـا مـع خط الايمـان او انـه ينحرف عنه وهذا المعنى هو الذي جاءت به الآية الكريمة :

﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ

فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝

[سورة العنكبوت : ١ ـ ٣] .

س ٤ : ان الله سبحانه عالم بالمستقبل وما يجري فيه من خير او شر ، فلماذا يتيح الفرصة للشر .

ج ـ قال الله سبحانه وتعالى :

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً . [سورة هود : ١١٨] .

المعنى : أن الله قادر على أن يجعل جميع خلقه متساوين في الخير ولكن الله أراد للإنسان أن يصل إلى الخير بعقله وإرادته فأعطاه حرية الاختيار ، فهو مخير بين الخير والشر ، أمّا إتاحته الفرصة لوجود الشر فلأنّ ما يفقده الإنسان من فقدانه عنصر الاختيار أكثر مما يخسره من إتاحة الفرصة أمام الشر في الوقت الذي جعلها الله مغلولة بألف غل من وعيده على فعل الشر ومن رسالاته التي توجه الإنسان نحو الخير وترغبه فيه وتعده بالثواب على ذلك .

واذا كنا نريد ان نعطي على هذه الفكرة مثالا حياتيا للتوضيح فانظر واقع الامة بين الحرية وبين التقييد ، فهي تخسر من خلال اعطاءها الحريات كما تخسر من خلال سلبها تلك الحريات ولكن ما تربحه من فرص الحرية اكثر مما تخسره معها في مجالات الفكر والعزة والنمو ، ولذلك فهي تبقى سائرة على طريق الحرية بالرغم من وعيها لخسارتها على هذا الصعيد في بعض المجالات .

ان الله لم يرد للانسان ان يعمل الشر ، ولذا نهاه عنه ولكنه اعطاه قابليته كما اعطاه قابلية الخير ومنحه القوة على ممارستها ، وزوده

بالارادة الواعية التي تعرف طريقها جيدا بهداية الله .

س ٥ : قال الله تعالى : ـ وهو يحدثنا عن موسى عندما طلب من ربه أن يريه وجهه ـ

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ .

[سورة الأعراف : ١٤٣] .

السؤال لماذا لم يره الله وجهه .

ج ـ هذا السؤال من موسى لم يكن سؤالا ذاتيا فهو يعرف ان الله ليس جسما حتى يرى للناظرين بل كان نتيجة المطالبة المتكررة من قومه فاوحى الله اليه ـ على ما في بعض التفاسير ـ يا موسى : اسألني ما سألوك فلن اؤاخذك بجهلهم ، وعندما سأله ذلك وكانوا معه اظهر له نوره فلم يقدر هوولا الذين كانوا معه على مواجهته فخروا مصعوقين لعظمة ما رأوا ، فرجعوا الى الله وعرفوا انهم اذا لم يستطيعوا النظر الى نور الله فكيف يستطيعون النظر اليه ان كان هذا ممكنا .

س ٦ : ان الله رحيم بعباده فكيف نفسر خلق المشوهين ـ على هذا الاساس ـ كخلق الاعمى والاصم ونحوهما .

ج ـ اولا : من قال ان العمى والصمم وغيرهما عقاب للانسان ! ما دام ان الله يعوض على الانسان بعض القوى التي يفقدها بتقوية بعض القوى الاخرى الامر الذي يجعله يستطيع ان ينطلق بعيدا في

مجال الحياة لو انطلق في مجال التقدم والنمو كأي شخص طبيعي آخر بل ربما يسبق اهل زمانه كأبي العلاء وبشار بن برد وبيتهوفن وهيلين كيلر وطه حسين وغيرهم ممن لم يمنعهم التشويه الذي خلق معهم او رافق حياتهم من أن يتفوقوا على جيلهم .

ثانيا : ان هذا التشويه الذي يحصل للانسان لا يحدث نتيجة عمل مباشر في الخلق ، بل انما يحدث بسبب النظام الكوني الذي أبدعه الله في الحياة عندما ربط النتائج بمقدماتها والمسببات بأسبابها كنظام الوراثة ، وتأثُّر الانسان بالبيئة او الغذاء وما الى ذلك . . . الامر الذي يجعل الغاء مظاهر التشويه في خلق الجنين او في حياة الانسان تماما كإلغاء تنظيم الفصول الذي يتضرر معه بعض الناس بالحر او بالبرد ، في حساب الربح والخسارة .

فلو اننا ألغينا هذه الانظمة لخسر الانسان ـ بما فيه الاعمى والاصم وغيرهما ـ اكثر مما ينتفع ببقائها مع هذه النتائج المضرة .

وبكلمة واحدة : ان طبيعة اي نظام تفرض مقدارا من الخسائر في نتائجها لحساب نظام آخر فاذا حاولنا ان ننطلق بعيدا في فرض اي نظام على مستوى التكوين او التشريع لا بد لنا من ان نلاحظ أقلّها ضررا او أكثرها ربحا تجاه جميع الناس حتى الذي يتحملون الخسائر .

س ٧ : ما هو موقف الاسلام من الرق ؟

ج ـ الاسلام لم يشرع الرق ، بل جاء في مجتمع يسوده الرق كنظام اجتماعي واقتصادي ، فحاول ان يعالجه معالجة واقعية فاغلق جميع نوافذه ما عدا نافذة واحدة هي نافذة الحرب الشرعية ضمن شروط وتحفظات معينة ، فلم يعد الرق مشروعا بالطريقة التي كانت

تعرفها اوربا في القرون الوسطى باخضاع السود لسلطانهم بالخديعة وبالقوة وبالتالي استرقاقهم ـ او بالطريقة التي كان تقوم بها بعض الشعوب من بيع اولادهم وبناتهم نتيجة الفقر او غيره من الاسباب ، بل يعتبر كل هؤلاء الذين يسترقون بهذا الاسلوب احرارا لهم ما للاحرار وعليهم ما عليهم من وجهة شرعية .

اما الرق في الحرب فقد ابقاه الاسلام على اساس المعاملة بالمثل نظرا الى ان النظام الحربي كان يرتكز على اساس استرقاق الاسرى ، وليس من الطبيعي ان يلغي الاسلام الرق في أسرى خصومه في الوقت الذي يسترق فيه أسراه من قبل الاعداء .

ثم بدأ بفتح نوافذ التحرير : فمن افطر في شهر رمضان ـ ومن قتل مؤمنا خطأ ـ ومن حنث في يمينه ـ ومن ظاهر امرأته (اي قال لها انت علي كظهر امي) وغير ذلك فكفارته عتق رقبة .

وفتح المجال للعبيد أن يتعاقدوا مع أسيادهم على عمل معين او مبلغ معين لقاء حريتهم وهكذا جعل الثواب الكبير للمؤمنين على قيامهم بتحرير العبيد ، كما اعتبر تجارة العبيد من التجارات المرفوضة اخلاقيا فقد ورد في الحديث « شر الناس من باع الناس » .

وقد اعطى أئمة اهل البيت (ع) القدوة الحسنة في ذلك فكانوا يشترون العبيد ويعلمونهم ويؤمنون لهم حياتهم ويحررونهم في كل عام .

وهكذا جاء العصر الحاضر دون أن نجد أثراً للرقيق في البلاد الاسلامية الا في بعض المناطق التي لم يكن وجود الرق فيها شرعيا في اكثر مجالاته . كل ذلك بفضل الحلول العملية التي قدمّها الاسلام امام المشكلة .

س ٨ : هل يوجد هناك شيطان ؟

ج ـ اننا نؤمن بالشيطان كموجود حي مستقل لان القرآن ـ الذي هو كتاب الله ـ اخبرنا بذلك ، وليس لنا طريق الى معرفته الا من خلاله لانه ليس من المحسوسات التي تخضع للحس او التجربة .

س ٩ : لماذا يكون في الحياة انسان موهوب واخر غير موهوب ؟

ج ـ ان اختلاف الموهبة او القابلية يتبع النظام الكوني الذي يجعل للوراثة وللارض وللغذاء الاثر الكبير في تكوين ذهنية الانسان تماما ، كما هي الارض في قابليتها للانتاج في الجدب والخصوبة ومهما اختلفت القابليات والمواهب فان الانسان يحاسب على مقدار عقله ـ كما جاء في الحديث .

س ١٠ : لماذا اختلفت الاديان مع ان مصدرها واحد وهو الله ؟

ج ـ في عقيدتنا ان اختلاف الاديان يمثل اختلاف المراحل ، فكان لكل مرحلة دين معين يلتقي مع حاجات تلك المرحلة ، حتى اذا انطلقت الانسانية الى مرحلة جديدة كان هناك دين جديد يلبي حاجاتها ويحل مشكلاتها الجديدة .

أمّا الاسلام فهو دين الحياة لانه خاتمة الاديان باعتباره يمثل الخط الذي يمكن للحياة ان تسير معه في مراحلها النهائية لانه يستجيب لكل حالات التطور .

أمّا اختلاف الناس في ذلك فلأن كل فئة تعتبر دينها يمثل المرحلة الاخيرة في حياة الانسان دون ان تعترف بالدين الذي بعدها .

ولكن الاسلام يعترف بالاديان كلها في ضمن مراحلها المعينة كما تعبر عنه الآية الكريمة.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

[سورة البقرة : ١٣٦] .

س ١١ : ما هو دور علماء الدين في معركتنا مع العدو الصهيوني ؟

ج ـ ان رسالة الدين تتمثل في الوقوف مع قضايا الحق والعدل والعزة والكرامة في كل مكان ، وعلى ضوء ذلك فان قضية فلسطين هي من ابرز قضايا الحق والعدالة المسلمين ، فهي قضية اسلامية كما هي قضية عربية ـ او قضية تحررية .

ومن واجب علماء الدين ان يقدموا كل طاقاتهم من اجل القضية في اطارها الحق كل بحسب قدرته ونشاطه .

وهنا قاطع احد الشباب كلام السيد قائلا : فلماذا لم نرهم في المعركة ؟

فأجاب السيد ؛ ليس المهم ان يحمل العالم الديني السلاح ، بل المهم ان يقوم بدوره حسب طاقاته في مجال التوعية الفكرية او الحركة الاجتماعية فلكل انسان دوره ، فقد يختلف دور الجندي عن دور المهندس او المحامي او الطبيب، ولكن يجمعهم شيء واحد هو

العمل من اجل القضية ، سواء في الجبهـة الداخليـة او جبهة المعـركة ، بالعلم .

ان الحمـاس ليس كل شيء ، بـل التخطيط الـواعي الذي يـأخـذ فيه كل انسان دوره هو اساس النجاح .

س ١٢ : يقول الله سبحانه وخلقناكم درجات فلماذا ؟

ج ـ هذا ليس موجودا في القرآن بـل الآية الصحيحـة التي تتضمن هـذا المعنى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ . [سورة الأنعام : ١٦٥] .

والمعنى ـ في هذه الآية ـ ان طبيعة النظام الكـوني جعلت الانسان يختلف حـالـه في افـراده في المـوهبـة والاختصـاص والجـاه والمـال ، والعلم ، فلكـل انسان جـانب يرتفـع بـه عن الانسـان الآخـر ولكن هـذه الاختلافات لا تجعل لأيّ شخص امتيازا طبقيـا او تشريعيـا على الآخر ، بـل الجميع متسـاوون في الواجبـات والمسؤوليات الملقـاة على عـاتقهم فيما اختلفوا فيـه وفيما حصلوا عليـه ، فعليهم ان يعرفـوا ان الله يريـد ان يختبـرهـم ويمتحنهم بـذلـك ليعـرف الصـادق من الكـاذب والمؤمن من غيره .

وعلى كـل فليس المعنى ان الله جعـل بعض النـاس ارفـع من بعض آخـر في ميزان التكـريم او التقييم بل الآيـة في محـاولـة لتصـويـر الواقع الكـوني الذي اراد الله لـلانسان ان يسير به في الاتجـاه الصحيح

كل بحسب دوره . وكل بحسب طاقته .

س ١٣ : ورد في القرآن الكريم : ﴿ والتين والزيتون وطور سينين . وهذا البلد الامين . ﴾ فما تفسير ذلك ؟

ج ـ الظاهر ـ كما في تفسير مجمع البيان ـ انه اقسم بالتين الذي يؤكل والزيتون الذي يعصر منه الزيت ، وانما أقسم بالتين لانه فاكهة مخلصة من شائب التنغيص وفيه أعظم عبرة لانه ـ تعالى ـ جعلها على مقدار اللقمة وهيأها على تلك الصفة انعاما على عباده بها . . واما الزيتون فانه يعتصر منه الزيت الذي يدور في اكثر الاطعمة ، وهو أدام . وهناك تفاسير اخرى لا دليل عليها . أمّا (طور سينين) فهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى (وهذا البلد الامين) يعني مكة البلد الحرام يأمن فيه الخائف في الجاهلية والاسلام فالامين يعني المؤمن يؤمن من يدخله .

وقد درج القرآن الكريم في اسلوبه العظيم على القسم بمخلوقات الله وظواهر الطبيعة والاماكن المقدسة لتوجيه الانسان الى ما فيها من منافع واسرار وقيم روحية ودينية وحياتية ، ولعل هذه السورة سائرة في هذا الاتجاه .

المحاضرة الثانية :

موقف الاسلام من القلق والتردد والوسوسة أمام العمل

موقف الإسلام من القلق والتردد والوسوسة أمام العمل .

اننا نجد فئات كثيرة في المجتمع تعيش حالة التردد أمام أية قضية أو عمل حتى في القضايا الخاصة والاعمال العبادية ، كما تعيش حالة الشك مع الآخرين من حيث الارتباط بهم في علاقة ما او عدم الارتباط بهم وهكذا . . .

وربما يتمثل هذا الواقع ايضاً في الاعمال العامة عندما يريد الانسان القيام بعمل ثقافي او خيري او تجاري .

وهكذا يتحول الانسان بفعل هذه الحالة الى عضو مشلول في المجتمع لا يستطيع التقدم خطوة واحدة ، بل يظل يراوح قدميه في مكانه ان لم يتراجع الى الوراء .

ما هي نظرة الإسلام إلى ذلك ؟

القيت في « ندوة الشباب المؤمن » في بنت جبيل في مساء السبت ٦ جماد الأول ١٣٩٢ هـ الموافق ١٧ ـ ٦ ـ ١٩٧٢ م .

وكيف حاول معالجة هذه الحالة ؟

اماالسؤال الأول : فنعتقد أن الجواب عنه يتلخص في كلمة مختصرة : هي ان الإسلام يريد من كل فرد في الحياة ان يواجه الحياة بقوة ، ويتحمل مسؤوليتها بجرأة ما دامت الحياة بيد الله وما دامت الاسباب بيد الانسان ، يسخرها الله له كيف شاء ، ومتى وعي الانسان ماذا يريد ، وماذا يعمل ، وعرف وسائل العمل وظروفه فلا يبقى له امام العمل الا ان يتحرك ، ما دام قد قام بكل ما عليه ، اما الباقي فليتركه على الله .

واما السؤال الثاني ، فنلاحظ ان الإسلام قد عالج هذه الناحية النفسية معالجة عملية في القرآن والحديث والتشريع .

١ - في القرآن الكريم : نذكر آية واحدة تخاطب النبي محمد (ص) . . .

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ . [سورة آل عمران : ١٥٩] .

ان الله يطلب من النبي (ص) ان يهيىء الجو الموضوعي لدراسة القضية . . اية قضية تواجهه سواء أكانت قضية حربية أو قضية اجتماعية . . ان يفكر فيها بنفسه ويدرس جميع جوانبها وظروفها ، ويشاور قومه ويتعرف آراءهم قبل ان يتصرف ، كأسلوب نموذجي من أساليب الدراسة الشاملة التي تعود المسلمين على التفكير في قضاياهم لينطلقوا فيها من خلال الاقتناع الذاتي والاطاعة الواعية للقيادة .

شاورهم في الأمر ، (فإذا عزمت) اجمع رأيك على شيء فلا تتردد ولا تقلق ولا تخف من المستقبل فإنك اذا احكمت الخطوات التي تريد ان تنطلق فيها ودرستها درساً جيداً وحسبت حساب الحاضر وحساب

المستقبل ، ولم يبق امامك الا أنك تخاف من المفاجئات التي لم تحسب لها حساباً أو الخفايا التي هي في طي الغيب والكتمان .

فتوكل على الله وسر في طريقك بقوة .

وهنا نستطيع ان نعرف ان التوكل على الله لا يكون إلا بعد دراسة القضية جيداً بجميع احتمالاتها حتى اذا توفر للإنسان الاقتناع الكافي من خلال ذلك ، وكانت الظروف الموضوعية ملائمة للتنفيذ امكن للانسان ان يبدأ خطوة التوكل على الله ، حتى لا يصبح خوفه من المستقبل ومن المفاجئات مانعاً له من التقدم .

وخلاصة القول : ان الآية تعطيك الدرس من خلال هذا المفهوم :

« على الانسان الا يتردد عندما يدرس امراً ويقتنع به ، فإن إيمانه بالله وتوكله عليه يعطيه القوة على مجابهة الصعاب والحواجز » .

٢ ـ في حديث الإمام علي (ع) : اذا هبت أمراً فقع فيه فإن شدة توقيه اعظم مما تخاف منه . وفي كلمة اخرى له : قرنت الهيبة بالخيبة .

فكرة الحديث : ان على الانسان اذا واجه مواقف الحياة التي اقتنع بسلامتها وضرورتها ، وخاف من تنفيذها نتيجة بعض تحفظات الخوف من المستقبل ، والتهيب من مواجهة النتائج ، ووقف متردداً بين الاقدام والاحجام ، ان يبادر الى التنفيذ فوراً ويقدم على العمل دون تردد لأنه يقف بين محذورين : البقاء حيث هو يعاني القلق والتردد ، فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، أو الاقدام على العمل ومواجهة اسوأ النتائج الممكنة .

وفي هذه الحالة لا بد ان يختار الاقدام على التردد لان الخسارة التي

يخسرها من حياته عندما يبقى مشلولاً امام الخوف لا تعادلها اية خسارة يمكن ان تحدث من خلال العمل لأن ذلك سيشل حياتك وينعكس على كل مواقفك في المستقبل في جميع المجالات وتتحول الى انسان مشلول الارادة امام أي احتمال او خوف او حذر .

بينما يجعلك الاقدام على العمل انساناً ايجابياً يواجه الحياة بجرأة ، بعد ان يحسب للموقف كل حسابه ومن ثم ينطلق من خلال الخسارة في طريق الربح ، فلا يهدمه الفشل وإنما يحاول ان يبني من خلال درس التجربة كيان المستقبل .

وبهذا نفهم كيف تكون شدة توقي المواقف اعظم من أي خوف محتمل .

وعلى ضوء ذلك نخلص الى الدرس التالي :

ادرس مشاريعك للحياة وتقدم ، دون ان تترك للخوف سبيلاً الى نفسك ، فالحياة هي خط احتمالات الواقع لا احتمالات الخيال .

٣ ـ في مجال الاحكام الشرعية : ان التشريع الإسلامي حاول ان ينقذ الإنسان من التجمد أمام حالة الشك .

مثلاً : في الصلاة ، لكل حالة شك حسابها العملي الذي يجعل الانسان يبني على احد الطرفين عملياً فإذا شك بين الركعة الرابعة والثالثة جرى على الرابعة واكمل صلاته ، وأتى بركعة منفصلة ليذهب بالشك من نفسه ، فإذا تطور الشك الى حالة معقدة بحيث يتكرر بشكل غير طبيعي ، فليضرب به عرض الجدار ولا يتوقف « لا شك لكثير الشك » « لا تعودوا الخبيث من انفسكم نقض الصلاة فإنه معتاد لما عُوّد » فإنكم اذا لم تفعلوا ذلك فستتركز العقدة في نفوسكم ، وهكذا

تتحولون الى اناس لا تستطيعون الجزم بشيء والاقدام على شيء .

وفي الطهار : لا تتوقف امام حالة الشك « كل شيء طاهر حتى تعلم انه نجس » ، وفي الحلال والحرام عندما تختلط الاشياء عليك « كل شيء حلال حتى تعرف انه حرام » . وفي المعاملات التي تواجهك في حياتك وتشك في صحتها وفسهادها « كل شيء صحيح حتى تعرف انه فاسد » .

وهكذا تفرض الشريعة الاسلامية في كل حالات الشك عملاً يمارسه الإنسان لئلا يقع فريسة للقلق والتردد والشك والوسواس .

وهكذا نستطيع اخذ الدرس التالي في نقطتين :

١ ـ ادرس الموقف جيداً من خلال جميع جوانبه وحاول ان تقتنع به على اساس متين .

٢ ـ لا تتهيب من المستقبل ولا تتردد امام الاحتمالات غير المعقولة بل تقدّم ولا تخف وتوكل على الله فقد قرنت الهيبة بالخيبة .

المرأة شر ؟

لكل سؤال جواب

- الجن . ؟
- زلة إبليس . ؟
- تحديد النسل . ؟
- ... الخ

سؤال ١ : كلمة مشهورة عن الامام علي (ع) المرأة شر كلها وشر منها انه لا بد منها هل هذا صحيح ؟

الجواب : اعتقد ان هذه الكلمة بالمعنى الظاهر منها لا يمكن صدورها من الامام علي (ع) لماذا ؟

لان لدينا مقياسا اسلاميا لكل الاحاديث ، وضعه لنا اهل البيت (ع) لنميِّز صحيح الحديث من فاسده وهو « ما اتاكم من حديث من بر او فاجر فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فذروه » .

والقرآن الكريم عندما تحدث عن المرأة وعن الرجل ساوى بينهما في المسؤوليات ، ولو كانت المرأة شرا بحسب طبيعتها وخلقتها لما كان هناك معنى لتحملها المسؤولية فيما تعمل ، ان المرأة كالرجل في مفهوم العدالة الالهية في الاسلام ليست خيرا كلها وليست شرا كلها بل خلقت ـ كما خلق ـ وفيها قابلية الخير وقابلية الشر .

وعلى ضوء ذلك فلا ينسجم ظاهر الكلمة مع المفهوم الاسلامي

للعدالة الالهية .

نعم من الممكن جدا ـ كما يوحي به بعض شراح نهج البلاغة ـ ان يكون الشر بحسب طبيعة الاغراء والاغواء التي تمارسها في الواقع الخارجي وفي العلاقات المنحرفة بين الرجل والمرأة التي ربما تنتج الشر او تهيىء الاجواء لها كما نشاهد ذلك في تاريخ المجتمعات الإنسانية .

ويحاول بعضهم ان يعلل هذه الكلمة بالخصومة التي كانت بين الامام وبين عائشة حيث تركت عنده عقدة نفسية تجاه نفسية تجاه المرأة .

ولكن الذي يفهم تطلعات الامام والمستوى الاعلى الذي بلغه ، يعرف انه لا ينطلق من منطلقات شخصية بل هو مع الحق والحق معه حتى قال . وهو يحدثنا عن تاريخ حياته مع الحق :

« ما ترك لي الحق من صديق » .

س ٢ : في نهج البلاغة اقوال لا تتناسب مع تهذيب الامام علي (ع) مثل : يا بن الناكصة على عقبيها .

ج : ربما تكون مثل هذه الكلمات ـ على فرض صدورها ـ من التعابير المألوفة في ذلك الزمان على اساس التقبيح لا على اساس الشتم ، ولا مانع من اختلاف مدلول الكلمات حسب اختلاف الظروف والازمنة .

س ٣ : ما هي الاحاديث التي اشارت الى خلافة الامام علي (ع) الشرعية عن الرسول (ص) ؟

ج : كثيرة : منها قول النبي (ص) يا علي انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي : ومنها حديث الغدير المشهور بين المسلمين ، ولا تختص رواية هذه الاحاديث بالشيعة بل يرويها اهل السنة ايضا في كتبهم المعتمدة ومن اراد الاطلاع على ذلك فليراجع كتاب (المراجعات) للمرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين .

س ٤ : كيف انقسم المسلمون الى مذاهب عديدة ؟

ج : هناك مذاهب عامة تنطلق من الاختلاف في بعض الاصول كالامامة وتتمثل في المذهب الشيعي . والمذهب السني ، فالشيعة يرون ان الخليفة الشرعي هو الامام علي ، والسنة يعتبرون الخلافة الشرعية قبله للخلفاء الثلاثة الذين تقدموه كما هي شرعية له بعدهم ، ولكل منهما حجج ووجهة نظر مذكورة في الكتاب المتقدم ذكره وهناك مذاهب فقهية عند السنة ، وفي مقدمتها الحنفي والشافعي والحنبلي والمالكي وعند الشيعة الامامي والزيدي ، والاختلافات في هذه ناتجة عن الاختلافات في اصول الاستنباط حسب اختلاف الاجتهاد عند اصحاب المذاهب ولم تقتصر المذاهب على ما ذكر فهناك لدى اهل السنة مذهب الاوزاعي والظاهري ولكن بعض الظروف السياسية اقتضت حصرها في الاربعة .

س ٥ : ما هو حجم التزام المذاهب بمبادىء الدين الاسلامي ؟

ج : المذاهب الاسلامية تمثل وجهة نظر في فهم الاسلام من مصادره الاصلية ، ولكي يعرف الانسان اقربها الى الاسلام يحتاج الى ثقافة فقهية واسعة تمكنه من المقارنة ، كما هو الحال في التشريعات الحديثة لكن المذاهب الاسلامية تلتقي مع بعضها بنسبة ٩٠٪ .

س ٦ : يقال ان اغنى المذاهب بالتشريع والفقه هو المذهب الجعفري فهل هذا صحيح ؟

ج : نعم لان باب الاجتهاد ما زال مفتوحا عند علماء هذا المذهب مما ساعد على ان يتركوا مع امتداد الزمن ثروة تشريعية ضخمة .

س ٧ : ذكرتم ان باب الاجتهاد مفتوح في المذهب الجعفري ، فماذا عن المذاهب الاخرى ؟

ج : في الفترة الماضية كان باب الاجتهاد مغلقا عندها ، أمّا الان فقد بدأ علماء أهل السنة يميلون الى فتح باب الاجتهاد من جديد ، وهناك مفكرون وعلماء كثيرون منهم يحاولون ممارسة الاجتهاد ، وعلى فكرة ، فان ذلك سيساعد على التقاء الاجتهادات على قاعدة واحدة او تقارب في المستقبل القريب اذا قدر له ان يسير في الاتجاه الصحيح .

س ٨ : هل بالامكان قيام وحدة اسلامية ؟

ج : ان الوحدة الاسلامية هي اقرب مما يحاوله المسيحيون من قيام الوحدة المسيحية ـ بالنظر الى ان نقاط الاتفاق واللقاء بين المسلمين كثيرة في اغلب الجوانب ـ ولو لا الواقع السياسي ، والتاريخ المشبع بالدماء لتمت منذ امد بعيد .

ولكن ذلك لا يمنع من السعي نحو هذه الوحدة في الوقت الحاضر ما دامت المصالح الاسلامية متشابكة تماما كتشابك المفاهيم والعقائد الاسلامية .

س ٩ : ما هو حكم الاسلام في تحديد النسل ولا سيما المذهب الشيعي ؟

ج : من ناحية تشريعية لا يمانع الاسلام في تحديد النسل قبل بداية حركة النطفة في رحلة تكوين الانسان سواء بواسطة الحبوب اذا لم تضر المرأة ضررا بالغا ، او العازل ، او مراعاة فترات الامن ، او العزل الطبيعي او غير ذلك من الوسائل الطبيعية والاصطناعية .

نعم هناك حالتان احداهما : الاجهاض وهو محرم منذ استكمال عملية التلقيح وبداية نمو النطفة في طريق الحياة ، الا في حالة واحدة وهي خوف الخطر المحقق على حياة الام وهذا متفق عليه بين المسلمين .

ثانيهما : التعقيم ، بأن تأخذ المرأة دواء لا تتمكن بعده من الحمل ـ حتى لو ارادت ـ وكذلك الرجل ، بحيث يفقدان قابلية الانجاب ، فهناك بعض الاجتهادات تحرمه لانه يمثل قتل طاقة ، ويرى هذا البعض ان قتل الطاقة بمثابة قتل الحياة ، والله لم يسلط الانسان على قتل حياته وان سلطه على تجميدها هذا اولا ، وثانيا ان التعقيم يفقد الانسان الامل في الاولاد عندما يتعرض اولاده للموت ، بينما التجميد يبعث الامل عنده من جديد ، لهذا فلا بد ان تبقى الطاقة حية كاحتياطي للمستقبل .

وهناك بعض الاجتهادات ، تحلله ، وترى ان المبررات السابقة لا تكفي في اثبات الحرمة ، وعلى الانسان ان يتحمل نتائج عمله ما دام الامر يرجع الى ارادته واختياره .

الخلاصة : الاجهاض محرم ، والتعقيم لا يزال في مجال

الخلاف الاجتهادي ووسائل منع الحمل الاخرى جائزة اذا لم تحدث ضررا يعرض الحياة للخطر .

س ١٠ : ما رأي الاسلام في الرهان والربا ؟

ج : غير مشروع .

س ١١ : ما هي العبرة من زلة ابليس ؟

ج : مشكلة ابليس انه كان عنصريا انطلق موقفه من فكرة تفوقه العنصري ، خلافا لبعض الذين يحاولون ان يعطوا ابليس دور المأساة ، فوصفوه بأنه كان خالص التوحيد لله ، ولذا امتنع من السجود لآدم لكنهم لم يلتفتوا الى النصوص الدينية ـ وفي مقدمتها القرآن ـ التي كانت هي الإساس في الحديث عن قصة ابليس ، فنجد الجواب ـ عن السؤال الالهي ـ ﴿ما منعك الا تسجد اذ امرتك﴾ يتمثل فيما نقله القرآن عن ابليس

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [سورة الأعراف:١٢] .

ولم نجد أي أثر للزعم الذي تحدثوا عنه . أما العبرة في زلة ابليس فتتمثل في جانبين :

احدهما : ان من الممكن للانسان في خطأ واحد ان ينزل من القمة الى الحضيض كما نزل ابليس ، ولذلك فينبغي للانسان ان يكون واعيا لكل الخطوات التي يخطوها في الحياة .

ثانيهما : ان نرفض التفكير العنصري الذي ينطلق من اللون او الاقليم او النسب او غير ذلك ، فان ابليس هو اول من حمل فكرة التمييز العنصري الذي يتمثل في تفوق عنصر النار على عنصر الطين ،

تماما كما هي الفكرة المعاصرة التي تمثلت في التفكير النازي من نفوق العنصر الاري على العنصر السامي ، وتفوق غير العرب على العرب ، او بالعكس ، او افضلية الابيض على الاسود .

س ١٢ : لماذا الدين ؟

ج : تماما كما نسأل لماذا الحياة ؟

ان الدين يمثل القوة الروحية التي تملأ نفس الانسان بكل المعاني التي تخلق منه النموذج الاكمل للانسان الطيب ، مع نفسه ومع الآخرين .

لماذا الدين ؟ ليكون الانسان انسانا يعيش انسانيته في مستوى القمم في الحياة ، والينابيع في الاعماق .

س ١٣ : من الممكن ان يكون الانسان انسانا بدون الصلاة والصوم ؟

ج : لا بد للانسانية لكي تهز كيان الانسان وتحركه من ان تعيش في اعماقه ، كقوة تمده بالحيوية والحركة الدائمة والابداع ، لا كعادة يستسلم معها للالفة التي تحدث من خلال بعض المؤثرات الخارجية فهناك فرق بين الناس الذين يعيشون السلوك الانساني لانهم اعتادوا عليه ضمن اجواء معينة فاذا جاءت أقل تجربة تفصلهم عن تلك الاجواء انحرفوا عن الطريق وسقطوا في الامتحان ، وبين الناس الذين يعيشون هذه المعاني من الداخل بفعل الشعلة المتوقدة التي تنطلق من العقيدة ، وقد أشار القرآن الكريم الى الفئة الاولى في الآية الكريمة

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ

﴿أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ . [سورة الحج : ١١] .

ولهذا يحتاج الانسان الى الشعور بالحاجة الى امتلاء اعماقه بالعقيدة وبالقيم الروحية من اجل ان يعيش التركيز والاستمرار في السلوك .

وهنا يأتي دور العبادات ومن بينها الصلاة التي لها الدور الكبير في تنمية المعاني الروحية في داخل النفس الانسانية بما توقظه في داخله من الشعور الكبير بالله بكل ما يعطيه هذا الشعور من الطهر والصفاء والسلام الروحي ، ومن هنا شبهها رسول الله (ص) بعين ماء يغتسل منها الانسان في اليوم خمس مرات فلا يبقى عليه شيء من الوسخ ، وهكذا الانسان اذا قام بالصلاة ـ بمعناها الحي ـ لا بشكلها التقليدي دون وعي ـ لا يبقى عليه شيء من الذنوب وهكذا ينطلق دور الصوم من اجل ان يعيش الانسان التدريب العملي على ممارسة ارادته بين يدي الله .

س ١٤ : ورد في القرآن الجن والعفاريت ، فما هو موقعها من العقيدة الاسلامية ؟

ج : لم يرد في القرآن حول العفاريت الا ما ذكر في قصة سليمان

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ .

[سورة النمل : ٣٩] .

ومعناه ـ حسب ما ذكر في التفاسير ـ المارد القوي ، فهو نوع

من الجن لا عنصر آخر غيره .

أمّا الايمان بالجن بشكل عام ، فهو منطلق من الايمان بالقرآن وانه كلمة الله الحقة ، فما دام القرآن يخبرنا عن وجود مخلوق عاقل واع يسمى بالجن فعلينا ان نؤمن به ، تماما كما نؤمن بأي شيء آخر لا يخضع للحس ولا يقع تحت التجربة ، ولذا فلا يملك العلم بوسائله المادية طريقا الى اثباته ، كما لا يملك طريقا الى نفيه ، لانه لا يستطيع أن ينفي أي افتراض على سبيل الجزم الا بعد ان يحيط بكل الموجودات الكونية الظاهرة والخفية ، وهذا ما لا يدعيه العلم لنفسه .

اذن ! نحن نؤمن بأن القرآن كلام الله ، وقد اخبرنا ، في اكثر من آية ، بأن هناك خلقا غير الانسان يعيش في عالمنا الارضي ضمن وجود خفي ، يسمى بالجن ، وقد حدثنا عنه انه مخلوق عاقل مسؤول فمنه المؤمن ومنه الكافر ، وكما انطلقت الرسالات لتحمّل الانسان مسؤولية السير في الحياة على ارادة الله كذلك كانت موجهة للجن لنفس الهدف ، وقد خصص القرآن الكريم سورة خاصة للجن ، كما تحدث عنه في بقية السور بمختلف الاساليب .

أمّا شكله وأمّا اوصافه ، فليس هناك صيغة دينية على مستوى الحقيقة أي ـ ١٠٠ ٪ ـ تحدد لنا ذلك .

أمّا الصور الموجودة في كتب الادب وقصص الف ليلة وليلة ، واحديث شعراء الجاهلية ، او في عقليات الناس واساطيرهم الشعبية فليس لها اساس ديني صالح بل هي في اطار الاساطير .

والخلاصة : ان الايمان بوجود الجن طريقه الايمان بالقرآن ، اما العلم فلا يثبت ولا ينفي ، ولكنه يترك القضية تعيش في اطار الاحتمال والامكان تماما كما هو قول ابن سينا « كل ما قرع سمعك فذره في

بقعة الامكان حتى يذودك عنه واضح البرهان » ليس عند العلم شيء مستحيل فهو يتقدم بالخيال والافتراض الذي يعمل من اجل ان يكتشف - بالبحث - جانب الحقيقة فيه .

وعلينا ان لا نخلط بين القول بأن العلم لم يثبت هذا الشيء وبين القول بأنه ينفيه ، لان الشك حالة طبيعية تعيش مع الانسان ما دام لم يضع يديه على الدليل ، أمّا النفي فهو تابع للدليل تماما كما هو الاثبات .

ملاحظة : ان الكثيرين من الثقاة يدعّون الاجتماع بالجن ، إمّا بطريق الصدفة ، أو بطرق روحية معينة يستخدمون بها الجن ، كل ذلك بطرق لا تقبل الشك عندهم ويلاحظ ان هؤلاء الذين يدّعون ذلك يتمتعون بوعي كامل وعقل سليم وايمان عميق يجعلنا نميل الى القبول بشهادتهم ، أو الى عدم المبادرة برفضها على الاقل .

س ١٥ : وردت كلمة « الامّي » وصفا للنبي محمد (ص) فما معناها ؟

ج : هناك عدة تفاسير منها :

١ - ان تكون النسبة لمكة التي هي « ام القرى » .

٢ - ان تكون منطلقة من كونه لا يقرأ ولا يكتب وقد عبرت عن هذا ، الآية الكريمة :

وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ . [سورة العنكبوت : ٤٨] .

٣ - ان يكون منسوبا الى الاميين الذين هم غير اهل الكتاب وقد

ورد ذلك في الآية الكريمة :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ . [سورة آل عمران : ٧٥] .

س ١٦ : في الجاهلية كان الشعر هو السائد في الكلام العربي ، فلماذا أتى القرآن نثرا ، وليس شعرا ؟

ج : جاء القرآن باسلوب جديد يتحدى به الاخرين ليس هو بالنثر المألوف لدى العرب ، وليس بالشعر اذا اردنا به الكلام الموزون المقفى ، بل هو نسيج وحده وفريد نوعه .

ولو جاء القرآن على اسلوب الشعر لكان ذلك مبررا وحجة لخصومه الذين حاولوا ان ينفوا صفة الرسالة عن النبي محمد (ص) وليجعلوه في عداد الشعراء كما حدثنا القرآن في قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ . [سورة الطور : ٣٠] .

ومهما يكن الامر فان القرآن الكريم عندما خلا من الموسيقى الخارجية التي تنطلق من خلال الوزن فان الموسيقى الداخلية التي تنساب من بين معانيه وكلماته لا يرقى اليها أي شعر مهما عظم ومهما انطلق صاحبه في مجال الابداع .

س ١٧ : ما هي الماسونية ؟

ج : الافكار التي تحملها الماسونية ظاهرها : السلام والمحبة والخير والخدمة للانسان ولكن التعقيدات الموجودة في تنظيمها

وبحسب تـاريخها والاوضـاع التي تمـارسهـا ، والشخصيـات التي تنتمي اليها تعطينا الفكرة الواضحة عن علاقتها بالاستعمار والصهيـونية العـالمية وربمـا نلمح ذلـك في تبني الماسـونية للتـاريخ اليهـودي وشعائـره ، فقد عرضت الحركة الماسونية ، بعـد هزيمـة (٥) حزيـران ١٩٦٧ ان تشتري المسجد الاقصى لتقيم مكانه « هيكل سليمان » .

وربما نحاول القاء مزيـد من إلضوء على هـذه الحركـة في حديث قادم ان شاء الله . .

الحلقة الثالثة

قضِية العِزّ والذُلِّ في الاسْلام
و
لِكُلِّ سُؤالٍ جَوَابْ

مسؤولية الانسان المسلم إزاء قضية العزة والكرامة

[١]

يـواجـه المسلمـون في اكثـر من مجـال من مجـالات الحيـاة التي يتحركون فيهـا سواء في السيـاسة والثقـافة والاقتصـاد ، تحديـات الواقـع المعاصر الذي تسيطر عليه القوى العالمية في الشـرق والغرب ، فتحـاول ـ هـذه القوى ـ في اكثـر من اسلوب ـ تـذويب شخصيتهم وخنق الشعـور الاصيل بالعزة والكرامـة في داخلهم ، والإيحاء اليهم ـ بـطريقة وبـأخرى ـ بضرورة التسليم بالامر الواقـع المفروض عليهم ، والإنحنـاء امام هـذه القـوى والخضوع لمخـططاتهـا العمليـة في جميـع المجـالات من اجـل المحافظة على وجودهم ومصالحهم ! .

وربمـا نجحت هذه القـوى في اكثر من محـاولة ، فكـانت تـوحي لبعض هــذه المجتمعـات الاســلامية ، بضــرورة الاعتمـاد عليهــا في خـلاصها من بعض القـوى الاخرى التي كـانت تسيطر عليهـا قـديمـا ثم

المحاضرة التي القيت في ندوة الشباب المؤمن في بنت جبيل ـ لبنان في مساء السبت الواقع في ١٣ جماد الأول ١٣٩٢ هـ الموافق ١٩٧٢/٦/٢٤ م .

في الـوقت الذي كـان الجنوب اللبنـاني يعيش حالـة القلق من جراء العـدوان الإسرائيلي الغاشم .

تخـطط للعمل ، وتثيـر مجتمعاتنـا في ضوء هـذه المخـططات . وتنجـح الخـطة ، ويتخلص المسلمـون من السيـطرة القـديمـة ، ويتلفتـون هنـا وهناك ليجدوا انفسهم تحت سيطرة جديـدة للقوى الجـديدة التي جـاءت من اجــل أن تحـررهم من الاستعمــار القـديم لتخضعهم لــلاستعمــار الجديد الذي تمارسه هي بالذات لتمارس عمليـة الاستغلال والاضـطهاد وهكذا دواليك .

وتمثلت التجـربـة في وعـود بـريــطانيـا للعــرب بتحـريــرهم من العثمـانيين لتكون النتيجـة ـ بعـد ذلـك أن يعيشـوا تحت حكم الاحتـلال البـريطاني عشـرات السنين . . وامتـدت التجـربـة الى ألـوان الاستعمـار الاخرى من الفرنسي الى الامريكي .

. . وبدأت من جديد تجربة القوى السـوفياتيـة لتمارس هـذا الدور بصورة وبأخرى بحجة تخليصهم من الاستعمار الغربي .

وكاننت النتيجة المـرعبة : اننـا نعيش الآن الصراع الـداخلي ، لا من اجل مصالحنا الذاتية بل لحماية مصـالح هـذه الدولـة او تلك ، حتى تحوّل الكثيرون منا في حماسهم وانـدفاعهم الى أن يكـونوا ملكيين اكثـر من الملك ـ كما يقولون .

وفقـدنا . مـع هذا كـل شعور بـالاصالـة عندمـا فقـدنـا شخصيتنـا الاسـلامية الاصيلة وبـدأنا نتخبط امـام هذا الـواقع ونستمـر في الخضوع والـذل لهـذه القـوة ، بحجـة انهـا تمنحنـا العـزة والكـرامـة امـام القــوة الاخرى .

وهكذا تستمر الحكاية بأساليب جديدة وأشكال عصرية متنوعة .

[٢]

على ضوء هذا الواقع رأينا ان علينا ان نتحدث ـ بعض الشيء ـ عن مسؤولية الانسان المسلم ازاء قضية العزة والكرامة في عدة علامات استفهام نثيرها امام الموضوع :

١ ـ هل قضية العزة والكرامة ، من القضايا الشخصية التي يملك فيها الانسان حرية ممارستها او عدم ممارستها على اساس الدوافع الذاتية والمصالح الخاصة .

٢ ـ هل يملك الانسان المسلم التحرك مع القوى التي تضاده في الفكر والعقيدة والهدف ، والتبعية لها من اجل تحصيل عزته وكرامته .

٣ ـ هل يمكن للضعف أن يكون مبررا للمسلم ، لكي يخضع لهذه القوة أو تلك .

٤ ـ كيف نفهم عملية اذلال الانسان نفسه من وجهة نظر اسلامية .

وعلى ضوء الاجوبة التي تواجه علامات الاستفهام هذه ، نستطيع ان نحاكم واقعنا الذي نعيش ، من اجل أن نصحح انحرافه ونقوّم اعوجاجه ليسير في الصراط المستقيم الذي دعانا الله اليه في اكثر من آية .

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ .

[سورة الأنعام : ١٥٣] .

[٣]

هل قضية العزة والكرامة من القضايا الشخصية ؟

هل العزة والذلة أمر شخصي يملك الانسان المسلم حرية ممارسته على اساس المصالح والدوافع الذاتية ؟

الجواب عن ذلك في الوقوف مع الآية الكريمة :

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ ﴾. [سورة المطففين : ٨] .

والانطلاق معها ، في ضوء التفسير الذي روي عن الامام جعفر الصادق (ع) :

« ان الله فوّض الى المؤمن اموره كلها ولم يفوّض اليه أن يذل نفسه ، ان المؤمن أعز من الجبل ان الجبل يستفلُّ منه بالمعاول ، والمؤمن لا يستفلُّ من دينه شيء » .

فقد نفهم من وحي الآية الكريمة ان العزة من خصائص المؤمنين بنفس القوة والاصالة التي يتصف بها الله ورسوله فكما لا يمكن تصور الذلة في الذات الالهية أو في الرسول ، فكذلك لا يمكن تصورها ـ عمليا ـ في المؤمنين ، لان الايمان يربط الانسان بالله ويجعل مواقفه العملية في الحياة منطلقة من هذا الارتباط ومطبوعة بطابعه .

وقد يتضح هذا المفهوم اكثر من ذلك عندما نلاحظ الحديث الشريف الذي حاول فيه الامام الصادق استيحاء الآية في اسلوب تفسيري رائع .

فهو يقول لك : ربما كنت حرا في مالك تصرفه كما تريد ، ربما

كنت حرا في مطعمك ومشربك وملبسك ، ولكن مهما تقلبت الظروف وتغيرت الاحوال ، فلست حراً في اذلال نفسك او اخضاعها للاخرين لقاء مصلحة او شهوة او رغبة او رهبة ، لان عزتك ليست من القضايا الذاتية التي تملك فيها التصرف تبعا لدوافعك الخاصة .

لماذا كل هذا ؟

قد يكون السبب انك عندما تخضع لأيّ انسان او أية سلطة ، أو ترضى بالذل والعبودية لغير الله ، فلن تكون أنت الخاسر وحدك ، ولن ينعكس ذلك على حياتك . بل سينعكس على ما تحمله من صفات الايمان ، أو تمثله من الارتباط بالله ، لأن عزة الافكار والمبادىء في المواقف الحياتية لا تنطلق من مجالاتها الفكرية فحسب ، بل تتمثل في الواقع الحياتي للاشخاص الذين يحملونها ويمثلونها في ممارستهم العملية .

وهناك جانب آخر : هو انك جزء من المجتمع الذي تعيش فيه ، وبهذا يكون موقف الاذلال الذاتي لنفسك سببا في انطلاق الذل في حياة المجتمع كأي جزء يرتبط بالكل ارتباطا عضويا ، كما يرتبط به الكل في حركاته وأعماله .

وعلى ضوء هذا نفهم ان الاسلام لا يعتبر الانسان المؤمن حرا في اذلال نفسه واستعبادها اذا اراد ان يظل سائرا على خط الايمان .

اذن : فهؤلاء الذين يباركون عهود الاستعمار بشتى اشكاله والوانه ، أو يتعاطفون معه ، أو يتعاونون معه ، أو يتصرفون أي تصرف يكرّس الخضوع والعبودية والذلة ، لا يمكن ان يكونوا مؤمنين ، كما هو الايمان الاصيل ، او مسلمين كما هو الاسلام الصحيح .

واذا لم يكن للمسلم مثل هذه الحرية ، فمن الطبيعي أن يتحمّل المجتمع بأكمله ، أو بقادته الحقيقيين مسؤولية الضرب على ايدي اولئك الذين يسيئون الى عزة الامة وكرامتها بالاساءة الى عزة انفسهم وكرامتها بأي نحو من الانحاء ، وبأي شكل من الاشكال سواء في ذلك الواقع الفردي او الاجتماعي ، على المستوى السياسي او العسكري او الاقتصادي .

[٤]

هل من مصلحة المسلم التحرك مع قوى الاعداء والتبعية لها من اجل تحصيل عزته وكرامته ؟

للجواب عن ذلك لا بد لنا من الوقوف مع الآية الكريمة :

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ . [سورة النساء : ١٣٨ ـ ١٣٩] .

فهي تمثل بعض النماذج الموجودة في كل زمان ومكان ، فمن يخيّل اليهم ان الارتباط بالكافرين والسير معهم والتبعية لهم والانطلاق مع مخططاتهم سوف يمنحهم العزة والكرامة ، ولذلك فهم يربطون حياتهم بحياتهم ليحصلوا على ذلك .

ثم ، يتركون التعاطف والتعاون مع المؤمنين لانهم لا يشعرون بأن ذلك يصلح أساساً للعزة والكرامة والقرآن يشجب هؤلاء ويحاسبهم من ناحية واقعية تتصل بالايمان فهم يبتغون العزة عند هؤلاء لانهم اقوياء ، ولانهم يملكون بعض الامكانيات التي يملكها المؤمنون .

ولكن . . ألا يرى هؤلاء ان القوى الموجودة في الكون التي هي منطلق الشعور بالعزة والكرامة لمن يملكها ، هي ملك الله ، فهو الذي خلقها وسوَّاها وأدارها ومنحها الاستمرار وهو القادر على اعطائها لمن يشاء ، ونزعها عمن يشاء حسب حكمته وقدرته ورحمته .

واذا كان الله هو الذي يملك القوة جميعا فهو يملك العزة جميعا ، وهو القادر على أن يمنحها لعباده اذا ساروا في الطريق المستقيمة التي جعلها ـ عبر قوانينه ـ للوصول الى الهدف .

فعلى المؤمن أن يطلبها من الله ، بالابتعاد عن كل تبعية لغيره وعن كل شعور بقدرة ذلك الغير على أن يقدم او يؤخر في الضرر والنفع ، لأنه اذا طلبها من غيره فسوف يعيش الشعور بالخضوع له والتبعية لمخططاته فيفقد عزته من حيث اراد تأكيدها وتحصيلها .

وهناك جانب آخر للمسألة نستوحيه من الآية ومن غيرها وهو ان هؤلاء ، الذين يختلفون مع الامة في مخططاتها وافكارها واهدافها وبالتالي في مصالحها ، لا يمكن ان ينطلقوا في خططهم في اتجاه مصالح الامة لأنهم ـ بذلك ـ يبتعدون عن مصالحهم الذاتية ، ولا يمكن ـ بالاضافة الى ذلك ـ أن يعملوا على اعطاء الأمة أية قوة جديدة لانها ستتحول ـ بالتالي ـ الى خطر على مصالحهم واطماعهم بل القضية ربما تكون عكسية ، انهم سيستغلون هذه السذاجة الفكرية والعملية التي تعيشها بعض فئات الامة عندما تعتمد عليهم في عملية الحرية والكرامة فيحاولون استغلال هذه الثقة العمياء لتنفيذ مخططاتهم واستغفال هذه الجماعات لخدمة مصالحهم . . ثم . . الانقضاض عليها ، بعد التخلص من العدو المشترك عندما يعودون ،هم، بكل مظاهر القوة والسلطان ، وتعود الامة بكل مظاهر الضعف والذل ، لانها لم

تحاول تحصيل القوة الذاتية الجديدة بفعل اعتمادها على قوة الآخرين ، بل صرفت ما عندها من قوة احتياطية في صراعها مع القديم لمصلحة العدو الجديد .

وربما يشير الى هذا المعنى الذي استوحيناه من الآية بعض الآيات الكريمة كقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ . [سورة آل‌عمران : ١١٨ ـ ١١٩ ـ ١٢٠] .

* * *

ولا نريد أن يفهم من حديثنا هذا ، اننا نعمل على أساس عدم الاستفادة من القوى الاخرى التي نختلف معها في الفكر والعقيدة والهدف ، ومعنى ذلك ، الوقوف في عزلة مميتة عن القوى العالمية في مجال الصراع ، الأمر الذي يجعلنا نقف على هامش الاحداث ، ومن ثم على هامش الحياة فلا تؤثر بنا ولا تتأثر بها بل هو الجمود

المرعب . لا نريد أن يفهم هذا ، لاننا لا نعمل لذلك ، فلا يمكن لنا ان ننفصل عن العالم في مجال الحركة والتطور العلمي والاجتماعي بر كل ما نريده هو ان تعمل الامة على مواجهة واقع العزة والكرامة من خلال تجميع قواها الذاتية وتنسيقها وتصنيعها لخدمة القضية الكبرى ، هذا من ناحية عملية ، وقد ركز القرآن الكريم على هذا الجانب في اكثر من آية كالآية الكريمة :

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ . [سورة الانفال : ٦٠] .

التي توحي لنا بضرورة العمل على مواجهة العدو بالقوة الذاتية التي تحمي من جهة وترهب من جهة اخرى لتعطي الانطباع عن شخصية الامة وقوتها وعزتها الاصيلة .

أما من ناحية ثانية ، وهي ناحية الايمان ، فبالاعتماد على الله الذي يعطينا القوة الروحية التي تجعلنا نواجه كل القوى دون ان يدب الينا الوهن أو يسيطر علينا الرعب .

فاذا تم لنا ذلك واحتاجت الامة إلىٰ التعاون مع الاخرين كان التعاون من موقع القوة لا من موقع الضعف ، ومن موقف العزة لا من موقف الذلة ، لئلا يتحول التعاون الى عملية إعطاء صفة قانونية ساذجة لاستغلال القويّ للضعيف كما هي الحال في المعاهدات والاحلاف التي تعقد بين الدول الكبرى والدول الصغيرة .

ان الفكرة هي كما يلي : ان تكون عزتك من خلال شعورك بقوتك المستندة الى قوة الله والمستمدة منها لتكون عزتك ـ من خلال

ذلك ـ مرتبطة بعزة الله ، لا أن تكون مستندة الى قوة الآخرين فتكرّس بذلك عبوديتك للآخرين .

[٥]

هل يمكن للضعف ان يكون مبررا للخضوع لهذه القوة أو لتلك ؟

للجواب عن هذا السؤال نقف مع الآية الكريمة :

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ .

[سورة النساء : ٩٧ ـ ٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠٠] .

ان هذه الآيات الكريمة تتعرض لبعض النماذج الموجودة في كل زمان ومكان ، وهم أولئك الذين يعيشون تحت نير الظلم وسلطة

الانحـراف فيظلمـون انفسهم باتبـاعهم الظالمين ، وينحـرفون عن الخط بخضوعهم لسلطة الانحراف ، ويعيشون الذلة لشعورهم بالضعف .

وكانوا يـظنون لانفسهم العـذر في ذلك كله ، فهم مستضعفـون لا يملكون القوة على المقاومة ، ولا يستطيعون مجابهة التحديات المـوجهة اليهم ، ولا يجدون في انفسهم القدرة العمليـة على أن يرفعـوا أصواتهم في مواجهة الـظالم ليردعـوه عن ظلمه او ليحتجـوا على الظلم أو ليقـولوا كلمـة الاستقامـة في مواجهـة الانحراف ليصححـوا الانحـراف وليقـوّمـوا الاعوجاج ، ولهـذا ساروا مـع الظلم ينفـذون مخططاتـه ويتبعون اسـاليبه ويعملون في خدمة أهدافه وعادوا قوةً مناصرة للظلم وهم يكـرهونـه ككل القـوى التي لا تملك أن تريـد او لا تريـد وارتاحـوا الى حيـاة الـذل مـع الظلم لأنها تجنبهم مشاكل الصـراع والمقاومـة ، وشعروا بـراحة الضميـر في ذلك كله نظرا الى واقع الضعف .

فجـاءت هذه الآيـة لتشجـب هذا الـواقع ، ولتحملهم المسؤوليـة في ذلك كله ، ولتقول لـلانسان الـذي يستشعر الضعف امـام قوة الـظلم في الارض :

ان عليك ان لا ترضى بـالامر الـواقع مـا دمت تستطيـع الهجرة من بلد الظلم الى ارض جديدة لتتخذ موقفا جديدا من موقع قوة جديد .

وبهذا صنفت هؤلاء الى قسمين :

القسم الاول : القـادرون على الهجرة الى مـواقع جـديـدة ، وقـد قـالت الآية لهؤلاء ان الارض ليست محصـورة في النطاق الـذي تعيشون فيه لتفقدوا الأمل في القدرة على المقـاومة ، فهي واسعـة يمكن الانسان ان ينـطلق فيها من مـوقـع الى مـوقـع ومن مكـان الى مكـان فـاذا ضـاق

عليك بلد ، فهناك بلد آخر يتسع لك ، واذا فقدت القدرة على الحركة في مكان ، فهناك اكثر من مكان تستطيع ان تتحرك فيه ، واذن فان بامكانكم الانطلاق من البلد الذي تشعرون فيه بالضعف مام قوة الظلم .. الى بلد تستجمعون فيه القوة لمواجهة الظلم .. ثم القضاء عليه . من هناك .

ثم ركزت على أن من يهاجر في الارض يجد في الارض مراغما كثيرة واسعة وأهابت بأن من يهاجر في سبيل الله ثم لا يبلغ هدفه فيما أراد فهو مجاهد في سبيل الله واجره على الله .

القسم الثاني : المستضعفون غير القادرين على الهجرة والانتقال ، هؤلاء الذين لا يملكون أية حيلة يتخلصون بها من المأزق الذي وقعوا فيه ، ولا يجدون أي سبيل ينطلقون معه بعيدا عن هذا الواقع .. فقد قالت الآية عن هؤلاء : ﴿ **عسى الله ان يتوب عليهم** ﴾ ولعل التعبير بـ « **عسى** » ينطلق من لفتةٍ تحاول أن توحي لهم ببعض المسؤولية لتثير فيهم الشعور بالقوة من جديد .

* * *

[٦]

ما هو طريق الذل في الإسلام ؟

في أكثر من حديث نلاحظ تركيز الاسلام على اعتبار القاعدة النفسية أساسا للحكم على شخصية الانسان بالذلة أو العزة ، فلكي يكون الانسان عزيزا في نفسه ، لا بد له من ان يملك حرية التصرف امام رغباته وشهواته ، فلا تستعبده رغبة ولا تسيطر عليه شهوة لان ذلك هو السبيل الوحيد الذي يجنبه الانزلاق في مزالق الانحراف امام عوامل

الاغـراء التي تدعـوه لان يعطي من نفسـه ومن مواقفـه في الحيـاة الكثيـر لـلآخـرين ، على حسـاب عقيـدتـه ووطنـه من أجــل ان يحقق رغبـة أو يستسلم لشهوة .

وقد نجد ملامح ذلك في حديث الامام الباقر (ع) .

بئس العبد عبد له طمع يقوده ، وبئس العبد عبد له رغبة تذله .

وحديث الامام جعفر الصادق (ع) .

ما أقبح المؤمن ان تكون له رغبة تذله .

ففي هاتين الكلمتين نلمح الفكرة التي قدمنـاها ، فـالانسان الـذي تتحكم فيه رغباته يفقد السيـطرة على نفسه ، وبـالتالي يفقـد القدرة على التحكم في تصرفاتـه لأنه يكـون مسوقـاً في ذلك كله بـوحي الرغبـة التي لا تخضع للعقيدة ولا تسير على خطى الحق .

وعلى أســاس ذلك يستـطيع الآخـرون من الكـافـرين والمنحـرفين والـطامعين ان يسيطروا عليـه ، ويتحكمـوا فيـه ، ليستغلوه ويستثمروه من خـلال اشباع رغبـاتـه وارواء شهـواتـه وقـد عشنـا واقـع هـذه الفكـرة في الاساليب التي يتبعها الاستعمـار في السيطرة على الشعـوب المتخلفة من خـلال تحقيق الرغبـات الشخصية لقـادة هذه الشعـوب من ملوك ورؤساء وغيرهم .

فقــد تتحكم في بعضهم رغبــة الجنس حتى لا يملك لنفســه أي زمام أمام سعارها فيحاول المستعمرون ان يحققوا له ذلك بأكثر مما يبلغه خيـاله او تتـطلبه رغبتـه فيتحول الى عبـد ذليل لهم يحقق لهم من خـلال النسـاء اللاتي يـرسلونهن اليه كـل ما يـريدونـه من سيطرة على الحكم او الاقتصاد او الثقافة وغير ذلك .

وقد تتحكم في البعض الآخر رغبة المال او رغبة الملك ، فيغدقون على الاول ما يشاء من اموال ، وعلى الثاني ما يريد من ملك ، فيجعلون البلد الواحد دولا عديدة ليحققوا لهذا رغبة الملك ولذلك رغبة الرئاسة ، ويحصلون من خلال ذلك على كل ما يريدون ، ما دام هذا الانسان او ذاك لا يستطيع أن يملك الخيار امام رغبته وما دامت الرغبة ملك ايديهم وطوع امرهم .

وقد شاهدت احداث الحرب العالمية الاولى والثانية كيف لعبت رغبة الجنس وغيرها دورا كبيرا في اذلال الكثيرين من القادة أمام النساء اللاتي كن صنيعة هذا المعسكر او ذاك من اجل التعرف على الاسرار العسكرية وغيرها ، ولا تزال قصص استخدام النساء الفاتنات في قضايا التجسس تلعب دورها الكبير في عالمنا المعاصر .

ولهذا كله يعتبر الاسلام ان السيطرة على الرغبة والتحكم في الشهوة هي الاساس للعزة الانسانية التي لا تتنازل ولا تعطي من نفسها أي شيء مهما كانت الظروف ومهما كانت الضغوط ، ومهما كانت درجة الحرمان وقسوة العذاب .

وهذا ما تعبر عنه ـ اصدق تعبير ـ كلمة الامام الحسين (ع) .

ألا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة ، وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت ونفوس طهرت من ان نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام .

وقوله الآخر :

لا والله لا اعطيكم بيدي اعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد .

وكلمة الامام الصادق (ع) :

ان المؤمن أعز من الجبل . ان الجبل يستفل منه بالمعاول والمؤمن لا يستفل من دينه شيء .

ومن البديهي ان هذه المواقف لا يمكن ان تتحقق اذا كان الانسان ينهار امام رغبة الحياة او ضغط الشهوات .

ولعل الفكرة تبلغ الذروة في الكلمة التي قالها الامام علي (ع) في وصيته لولده الامام الحسن (ع) :

أكرم نفسك عن كل دنيئة وان ساقتك الى الرغائب فانك لن تعتاض بما تبذله من نفسك عوضا .

فكل موقف منحرف دنيء تقفه ضد مبادئك من اجل أن تحقق رغباتك يقابله جزء من نفسك ومن كرامتك ، فأنت لن تحصل على رغباتك مجانا فأنت تعطي العوض من نفسك .

ويريد الامام ان يوحي للانسان ان أيّ رغبة لا يمكن أن ترقى الى ما تبذله من ذاتك وما تعطيه من نفسك ، مهما كانت قيمتها .

* * *

واذا استطاع الانسان أن يمسك زمام نفسه فيخضع كل تصرفاته ورغباته لمبادئه وعقيدته ، أمكنه ان يخطو الخطوة الاولى في الاتجاه السليم لحركة العزة والكرامة في الحياة ، فلا يقف في المواقف التي تجعله يشعر بالحاجة الى الخضوع للآخرين أو الانسحاق امام رغباتهم او شخصياتهم .

وقد نجد التعبير الواقعي عن ذلك في كلمتين للامام الصادق (ع) اجاب بها عن سؤال واحد : كيف يذل الانسان نفسه .

قال : ان يدخل فيما يعتذر منه ، أو يتعرض لما لا يطيق .

أمّا الكلمة الاولى ـ فتمثلَ الموقف الذي يستسلم فيه الانسان لبعض الرغبات الذاتية فيتصرف بعض التصرفات غير المسئولة فيؤيد من لا يستحق التأييد او يرفض من لا يستحق الرفض ، او يتحرك في بعض الاتجاهات الخاطئة او المنحرفة او يقف موقفا سلبيا في بعض الحالات التي تفرض عليه مبادؤه ان يتخذ الموقف الايجابي ، أو يتكلم بعض الكلمات التي لا يؤمن بها او لا ينبغي له ان يتكلم بها لانها تختلف مع عقيدته او مع تهذيبه أو مع خط العدل والحق الذي يؤمن به ، او يقوم بأي مشروع لا ينسجم مع المصلحة العامة ، كل ذلك لقاء رغبة مستحكمة او نزوة عابرة ، او شهوة عارمة .

ثم ينطلق من جديد ليقف موقف المعتذر للآخرين ليختلق الاعذار من جهة او ليطلب تقدير ظروفه من جهة اخرى ليرضى عنه هذا ، ولئلا يغضب عليه ذاك ، الأمر الذي يجعله يشعر بانسحاق شخصيته عندما يضطر الى أن يقف موقف المعتذر امام الانسان الذي يؤنبه او يحاسبه .

ان الفكرة التي عالجها الامام الصادق تقول لك :

قبل ان تتخذ أي موقف في الحياة فكّر جيداً هل باستطاعتك تحمل مسئوليته ، وهل في قدرتك الدفاع عنه أو لا ، فاذا لم تجد في نفسك ذلك فوفر على نفسك مسئولية الاعتذار والوقوف امام الآخرين موقف الخضوع من اجل ان يعطوك العذر على ما قمت به كرما وحنانا .

ان الانسان القوي العزيز في الاسلام هو الذي يعمل بما يؤمن به

ويتحمل مسئولية الدفاع عن موقفه حتى لو كان العالم كله ضده ، لانه يشعر ـ مقدما ـ انه موقف الحق .

* * *

أمّا الكلمة الثانية التي تحدد للانسان بعض مظاهر الذل في السلوك : ان يتعرض لما لا يطيق .

فتتمثل في الاعمال والمشاريع التي يقدم عليها الانسان وهو يعرف انها فوق طاقته ولذلك فهو يضطر معها ـ في نهاية المطاف ـ الى الاستعانة بالاخرين والخضوع لشروطهم وطلباتهم من اجل إكمال المشروع وتخفيف أعبائه ، وهذا سلوك يعرِّض الانسان لمواقف الذل أمام الآخرين . وربما نجد نماذج هذا السلوك في الواقع الفردي والاجتماعي .

ففي المجال الفردي ، نجد امامنا هؤلاء الذين يدخلون في مشاريع عمرانية وصناعية تفوق رصيدهم المالي والمعنوي فيسقطون بالآخرة تحت رحمة المرابين والمستغلين نتيجة عجز المشروع وحاجته الى مال جديد لا يملكه صاحبه .

وربما يكون من هؤلاء الذين يغريهم الشراء بالتقسيط لسهولته في بداية الامر مما يجعل الانسان يشعر انه قادر على توفير حاجاته المنزلية والكمالية بأسهل طريق ، دون أن يحسب حساب المستقبل عندما تبدأ مواعيد دفع الاقساط وهنا تتجمع الاقساط من هنا وهناك دون ان يستطيع سبيلا الى الوفاء فيضطر الى بذل ماء وجهه للمرابين ليفرضوا عليه الفوائد التي يريدونها وهكذا يتحول الى انسان يشتغل لهؤلاء المرابين ولمصلحتهم دون ان يملك القدرة على الوفاء بفوائد المال

فضلا عن اصله ، وقد يلجأ ـ بفعل ضغط هذا الواقع الى الرشوة والسرقة والخيانة والتجسس .

فمن الذي أوقعه في ذلك كله ؟

انه هو الذي أوقع نفسه في الذل وظلم نفسه عندما لم يدرس ميزانيته ومقدار طاقته على الوفاء ، فلم يصبر على رغبات نفسه ليفكر في تطبيق نظام المراحل على حاجته ليستطيع تحقيقها بعزة وكرامة .

وفي المجال الاجتماعي والدولي نجد أمامنا الدول الصغيرة التي ترهق نفسها بالديون الكبيرة من الدول الكبيرة لتحقيق بعض المشاريع الحيوية دفعة واحدة ، دون ان تدرس الموارد الطبيعية وغيرها ومدى امكانياتها التي تمكنها من الوفاء في المواعيد المحددة فتكون النتيجة أن تضطر الى الخضوع لسيطرة هذه الدول تدريجيا عندما تحاول ـ تلك الدول ـ أن تضع ايديها على مصادر الثروة لتضمن لنفسها حماية ديونها وبالتالي تضع يدها على نفس البلاد لتحقق لنفسها السيطرة على تلك المصادر فتسقط البلاد ضحية الاحابيل الاستعمارية ـ عبر الديون غير المدروسة التي عرضت البلاد نفسها ـ معها ـ لما لا تطيق .

ولا يزال تاريخ الاستعمار القديم والحديث يقدم لنا القصص الكثيرة عن البلاد التي سقطت تحت نير الاستعمار بحجة الديون الاستعمارية التي حاول الاستعمار ان يجعلها طريقا الى السيطرة على تلك البلاد . . ، وربما نجد هذا المبدأ يتمثل في الواقع العسكري للشعوب التي قد تدخل في مغامرات عسكرية يغذيها الحماس والانفعال الساذج دون حساب لما تملك من قوة ، وما يملك العدو من معدات ، فربما تكون قوة العدو اضعاف ما لديها من قوة ، وربما تكون الخطط التي أعدها للمعركة أكثر دقة من خططها .

فتكون النتيجة الهزيمة العسكرية والوقوع تحت سيطرة العدو السياسية او العسكرية .

وهكذا نفهم هذه القضية على جميع المستويات على النحو التالي :

ان على الإنسان الذي يريد ان ينطلق في أية قضية ، أن يجمع قواه ويفكر فيها تفكيراً واسعاً دقيقاً حتى يدخل فيها دخول الواثق الذي يعرف ما له وما عليه حتى لا يضطر للانسحاق أمام مفاجآت المواقف غير المدروسة .

ولن نحصل على ذلك حتى نفحص قوانا في كل شيء ونقدر حركاتنا وأعمالنا على أساس ما نملك من قوة ذاتية ، مادية أو معنوية ، سواء منها القدرة الفعلية ، أو الاحتياطية أو المستقبلية .

وأحسب أننا لو اتبعنا هذا الأسلوب ـ على مستوى الفرد والمجتمع ـ وتحركنا على أساس ما عندنا من قوى دون الانحراف مع الأساليب العاطفية ، لاستطعنا أن نوفر على أنفسنا خسائر كبيرة وهزائم كثيرة .

وربما كان الكثير من هزائمنا في التاريخ القريب ، منطلقا من عدم حسابنا للقوى التي يملكها العدو ، بالاضافة الى القوى التي نملكها .

وقد يكون من الامثلة على ذلك ـ على مستوى الامة العربية في معركتها مع الصهيونية ـ الفكرة التي كان يخيل لنا فيها اننا نملك قوة مائة مليون عربي لاننا نملك هذا العدد من النفوس ، وربما كانت درجة الحماس كبيرة أمام عظمة هذا الرقم الذي يثير الكبرياء في النفوس امام حالات الاندفاع .

ولكن ـ وبحساب بسيط ـ ادركنا ان القوة التي نملكها للمعركة قليلة جدا ، لان دور الاكثرية الساحقة من هؤلاء ، هو دور المتفرجين الذين يتابعون الاخبار والتعليقات في الصحف وفي المذياع والتلفزيون دون أن يشعروا بمسؤوليتهم في المشاركة العملية بأقل قدر ممكن من الطاقات التي يملكونها لفقدان الاعداد السياسي والعسكري لهم من قبل المشرفين على القضية ليعيشوا المعركة بما عندهم من قوى وما يملكون من طاقات .

وكلنا يعلم ـ ماذا كلفنا هذا الواقع من أخطاء في الحساب ومن كوارث في المعارك، على مستوى الضحايا وعلى مستوى العزة والكرامة .

وبكلمة واحدة : ان قضية العزة والكرامة لا تخضع في حركتها الواقعية للتشنجات والانفعالات التي يثيرها الحماس والاندفاع وانما تخضع للتخطيط الواعي الذي يحسب لكل خطوة حسابها الدقيق لكل الظروف والاحتمالات القريبة والبعيدة ، لنخرج بنتيجة حاسمة تحدد لنا موقع الحركة وتوقيتها على أساس ما نملك من قوة ، حتى اذا تحركنا ، كانت حركتنا حركة القوة الواعية التي تعرف ماذا تواجه وماذا تريد وبالتالي كان الموقف الطبيعي انسجاما مع ما نطيق لا تعرّضاً لما لا نطيق .

وينبغي ان لا يخطر في البال : اننا ندعو الى الاستسلام والضعف عندما تكون القوى التي نقابلها أعظم منا في العدة وفي العدد ، بحجة ان التحرك يمثل تعرضا لما لا نطيق .

اننا لا نحاول هذه المحاولة لاننا في سبيل التخلص من واقع الذل الذي يفرضه التعرض لما لا نطيق ، فكيف يمكن ان نشجع

الاستسلام للذل امام ما لا نطيق ؟

ولكن نقول : انك عندما تدرس قوة خصمك بالاضافة الى قوتك - ستحاول ان تفكر في مواقع جديدة للقوة ، وتحرك جديد للموقف ، وبالتالي ستنطلق نحو الهدف في حركة مرنة تحسب للعمل حساب وتحرك جديد للموقف ، وبالتالي ستنطلق نحو الهدف في حركة مرنة تحسب للعمل حساب الزمان والمكان ، ولو بعد حين ، دون أن تخوض معركة انتحارية لا تحل المشكلة بل تعقدها من جديد على حساب العزة والكرامة .

وخلاصة القول : ان قضية الذل والعز في الحياة هي قضية السلوك العملي الواعي للانسان الذي يشعر انه يملك زمام نفسه ، فلا تدعوه رغبته الى ان يدخل فيما يتعذر منه ، او تدفعه انفعالاته وشهواته الى ان يتعرض لما لا يطيق .

انها الخطوط العريضة للحياة العزيزة الكريمة ، يرسمها لنا الإسلام من خلال القرآن الكريم والسنة الصحيحة لنبدأ من جديد رحلة التفاصيل الدقيقة للحياة ولنعرف كيف نضع النقاط على الحروف .

لكل سؤال جواب

- قضايا العدوان
- الهزيمة النفسية .
- مقومات الصمود .
- هدف الندوات .
- التلفزيون هل هو حرام .
- الحروف المقطعة في القرآن .. الخ .

س ١ ـ اننا نواجه العدوان الاسرائيلي الذي لا يفرق بين المدني وغيره ، ونحن نقف موقف المتفرج المنسحق امام الضرباتالمتوالية ، فهل يوافقنا الإسلام على هذا الموقف ؟

ج ـ من وجهة نظر مبدئية عامة ، يجب ان لا نقف موقف المتفرج او المنسحق امام هذا الواقع ، ولكن علينا أن نفكر في الطريق الى التحرك .

يعني القضية ليست قضية ما هو المبدأ في هذا الموقف فليس هناك شك في أن هذا الواقع ليس واقع العزة والكرامة .

ولكن القضية هي قضية ماذا نستطيع أن نعمل في هذا الاتجاه على أساس ما نملك من قوى على الصعيد المحلي وفي هذا الوقت بالذات .

ان الانفعال قد يدفعك الى التفكير بالثورة على واقعك ، ولكنه ـ وحده ـ لا يقدم لك أي نتيجة في طريق الحل .

فربما يشعر الانسان ـ في بعض الحالات النفسية ـ أمام بعض المواقف ، بالحاجة الى ان يدمر نفسه وما حوله وقد يكون في هذا السلوك

ما يفجر الغيظ ، وينفس عن الكبت المتحفز للانفجار ، ولكنه لن يحل المشكلة .

ان الذي أحسبه هو ان الانسان العربي العادي وصل الى المرحلة التي حاولت ان تخطط لها السياسة الصهيونية ومن ورائها السياسة العالمية المتحالفة معها ضد قضية العزة والكرامة في حياتنا وهي مرحلة الضياع ، التي تضيع فيها الخطوط في الرمال المتحركة على اكثر من اتجاه ، وقد شاركت الأوضاع السياسية القلقة التي تقود عالمنا العربي في الوصـول السريع الى هذه المعركة ، فقد لعبت المزايدات دوراً كبيـراً في ابتعاد الانسان عن واقع القضية ، كما حاولت الاساليب الملتوية ان تخفي عنا الكثير مما يخطط لنا ويراد بنا في أروقة المحافل الدولية ، مما ساعد على أن تبقى الصورة مهتزة في عيوننا بين حالة الاقدام والاحجام وبين نوازع التفاؤل والتشاؤم . فإذا اضفنا الى ذلك الاساليب التربوية والتوجيهية التي تعتمد الحماس والانفعال في اثارة المشاعر وفي ربط الناس بالقضية على اساس سياسة النفس القصير التي تعدهم بالمعركة الفاصلة بعد مدة قريبة لتوحي لهم بأن المشكلة ستصل الى نهايتها الحاسمة في وقت قريب الامر الذي لا يجعل الانسان مستعداً لمجابهة الحرمان على المدى الطويل ليخطط لحياته على هذا الاساس ثم . . هناك الاساليب التي تدعم هذا الاتجاه ، المنطلقة في ربط الاخطار العدوانية . بأوضاع محليـة خاصـة لأبعادنا عن مؤامرة التخطيط العدواني الطويل الأجل للسيطرة على بلادنا وثرواتنا وبالتالي لأخراجنا من اوطاننا تحت شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » .

وقد نجحت الى حد بعيد في أثارة المشاكل الداخلية . وتضخيم الاخطاء الصغيرة وتوجيه الانظار الى فروع المشكلة لتحويلها عن جذورها

الاصيلة العميقة التي هي بكلمة واحدة العدوان الصهيوني على فلسطين.

وربما كان للسياسات المخدرة التي تتبعها كثير من انظمة الحكم لدينا الأثر الكبير في ابعادنا عن الاساس الصحيح للمشكلة وافقادنا الامل في امكانية الوصول الى حل لأبعادنا عن العمل من أجل تحقيقه في المستقبل اما نحن هنا في جنوب لبنان ، فقد نكون أقرب الى الصورة الواضحة لهذا المخطط المتعدد المراحل ، فنحن هنا نشعر امام الواقع المنسحق اقتصادياً واجتماعياً ، من خلال التخلف الذي تركه لنا التاريخ الطويل من الظلم والاضطهاد والافقار والتجويع والجهل ، وحاولت السلطات ان تكرسه بطريقة وبأخرى على يد الفئات المتزعمة التي تقود خطى هذا الشعب الى أمجادها التاريخية والحاضرة والمستقبلة . إننا نشعر ـ بأننا نعيش في أرض مكشوفة ، لا ابواب لها ولا سقوف نتيجة فقدان الحماية الجادة التي تختلف مبرراتها ـ حسب اختلاف تصريحات المسؤولين ـ بين عدم القدرة تارة ، وبين تحميلنا المسؤولية على افساح المجال لأسباب الخطر أخرى .

فإذا اضفنا الى ذلك السياسة الاعلامية المحلية والدولية التي تثير من جديد في افكارنا ـ ان نسينا ـ واقع الهزيمة امام رياح السياسة العالمية ، التي تحتضن فيها الولايات المتحدة وأكثر دول الغرب ، اسرائيل ـ بكل ضراوة حتى لتكاد توحي لنا باستعدادها للدخول في حرب عالمية ثالثة لحساب اسرائيل . كنتيجة حتمية لارتباطها العضوي بها تبعاً لارتباط مصالحها الاستعمارية ، الاستراتيجية منها والاقتصادية ، بوجود اسرائيل ومخططها الجهنمي ، بينما لا نجد المعسكر الذي نرتبط به ، ويحتضن القضية بهذا المستوى لا سيما في ظل سياسة التعايش والتفاهم السلمي التي انطلقت خيراً في حركة الدول الكبرى نحو اللقاء .

وربما تكمل الصورة اذا أضفنا إليها زاوية الخلافات العربية التي لا تهدأ الا لتثور ، ولا تضعف الا لتقوى من جديد سواء على مستوى اليمين واليسار ، أو اليمين في داخله ، أو اليسار في داخله ، وبذلك اختلطت الأوراق حتى لم تعد تعرف المخلص للقضية من الخائن لها ، ومن الطبيعي ان ذلك لن يبتعد عن أصابع الأستعمار والصهيونية التي تتحرك في كل مكان ، ولكنه على كل حال ـ يكمل صورة الضياع في نفس المواطن العادي البسيط .

ان العدو بدأ يخطط للهزيمة النفسية للحصول على مكاسب الهزيمة العسكرية ، وما زالت الخطط تنفذ على مراحل ، يصنع هو بعضها ليدفع الخطة الى مرحلة جديدة ربما نقوم نحن الآن بصنعها على جميع المستويات من أجل ان يتقدم الى مواقع جديدة ومراحل متقدمة تقربه من الهدف .

اننا ننهزم الآن فكرياً ، فقد نجد انفسنا نملك الكثير من السلاح والقوة . ولكن فكرنا بدأ يفقد القدرة على التركيز نظراً للشلل الفكري الذي انطلق يتحدى وجوده .

كل هذا الواقع جعلنا نشعر بالضياع ، ونحس بأن ارتباطنا بأية فئة من الفئات المطروحة في الساحة لا يحقق لنا أي شيء .

ولذا فمن الصعب في مستوى الواقع المحلي ، وفي هذا الوقت بالذات الذي يحاول العدو أن ينشر الخراب والرعب والدمار والموت في كل مكان بأية ذريعة تحلو له .

من الصعب ان يعيش الانسان عندنا الشعور بالعزة والكرامة ، ما دام لا يملك الحماية على مستوى الداخل ولا يملك القوة على مستوى الخارج ، ولا يملك النافذة الكبيرة التي يطل منها على الامل الكبير في

المستقبل المنظور .

ومن الصعب جداً ، في مستوى هذه المرحلة من وجـوده ، أن نطالبه بالصمود والتضامن مع أية قوة أخرى ما لم نهيء له الظروف الموضوعية ، النفسية والفكرية والعملية ، التي تساعده على ان يخطو أول خطوة في طريق التماسك والصمود . . والنصر .

تلك هي الصورة فيما أظن فماذا عن الموقف ؟

أحسب اننا نستطيع أن نلخص القضية في كلمات بسيطة .

أن نبدل نظرتنا الى خطط العدو ، فنتجاوز النظرة الساذجة الى النظرة العميقة التي تحاول كشف مخططات المستقبل من خلال تجاربه في الماضي والحاضر . ثم . . نخطط لحياتنا السياسية والاقتصادية والعسكرية على هذا الاساس ، لنخرج بنتيجة واحدة ، هي ان الشعوب التي تنتظر أن تأتيها الحلول من خلال الأوضاع السياسية في العالم ، او يحل لها الآخرون مشاكلها . سوف تظل دائماً تقتات من دموع المشاكل واحزانها دون جدوى ودون نهاية .

وأن الأمم التي لا تنظر بعيداً في الافق البعيد سوف تواجهها الهوّة وهي تحلم بالقمة في دروب المستقبل .

لقد خطط العدو لأحلامه فاستطاع ان يحولها الى واقع يهدد أحلام العالم في الحياة الهادئة المطمئنة ، فلماذا لا نخطط لواقعنا هذا المرتبك المضطرب من أجل أن نتجاوز احلاف اليقظة الى خطوات الواقع .

أما كيف نضع النقاط على الحروف فهذا حديث لا ينطلق في دروب الكلمات وإنما يتجه في دروب الواقع . . وحتى نصل الى بداية الطريق ، يجب أن نتعمق في دراسة هذا الواقع ، وننطلق في الاستفادة

من بعض اللمحات المضيئة التي تبعث على التفاؤل ، لنأخذ منها زاد الأمل للمستقبل . . وبالتالي لنبقى في تماسك داخلي متين .

س ٢ - انهم يطالبوننا بالصمود ، هنا ، في الجنوب ، واشغالنا معطلة .

ج - ربما يشعر الانسان - في بعض اللحظات - ببعض الكلمات التي يطلقها الوعاظ والمسؤولون ، ككلمة الصمود مثلاً - في حالة الانسحاق الداخلي للشعب - بأنها لا تمثل شيئاً حتى في أفكار قائليها ، بل هي مجرد كلمات جوفاء لا معنى لها ، ميتة لا روح فيها .

ان الصمود يحتاج الى مقومات ، ومن مقوماته اعداد الارض التي يصمد فيها الانسان ، لكي توفر له الحياة الكريمة ، وليشعر بأنها تمثل له الشيء الكثير في وجوده وفي كيانه الامر الذي يدفعه الى التعلق بها بإصرار بعيداً عن قصائد الشعراء وأحاديث الأدباء حول الوطن .

ومن أبسط وسائل الاعداد ، ايجاد المشاريع الزراعية والصناعية التي يشعر معها بالطمأنينة والاكتفاء الذاتي بعيداً عن هواجس الهجرة ومشاكلها .

ولكن قد يبدو لنا ان السياسة المتبعة في الجنوب سياسة مرسومة تستهدف ابقاء الجنوب متخلفاً لتبقى مبرراً للعدو في احتلاله . أمام العالم ، وربما تعيش مشكلة « مشروع الليطاني » في هذا الاطار ، وإلا فكيف نفسر هذه الحركة السلحفاتية لهذا المشروع في دوائر الدولة وفي خطوات الدراسات التي تنتقل من خبير الى خبير دون جدوى ، وفي مسرحية السياسة التي تدور في تقدير المستوى بين ٦٠٠ و ٨٠٠ متر ألا تبرز لنا اساليب التخدير والالهاء في ذلك كله ، التي ان ابعدتنا عن

الواقع فقد قربتنا من الاحلام . ربما يبدو لنا ان القضية قضية خطة مرسومة لابقاء الجنوب في تخلف .

اما دورنا فهو ان نتحدى هذه الخطة ونكشفها من أجل الغاء مخططاتها وألاعيبها ، وننطلق بعيداً من جو البساطة والسذاجة والتزلف الذي يجعلنا نحقق لهم اهدافهم بأبخس الأثمان وأيسر الوسائل .

س ٣ - متى يشعر الانسان انه انهزم نفسياً ؟

ج - عندما يفقد الأمل ، ومن هنا يبرز عنصر الايمان بالله كعامل حيوي في غرس الأمل في القلوب وهذا ما تمثله الآية الكريمة في جواب يعقوب مع اولاده ، وهو يستعيد الأمل في رجوع يوسف - بعد عشرين سنة من غيابه في ظروف وامارات تتجمع لتلغي كل بارقة أمل عادية .

« يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » ان مشكلتنا هي مشكلة النفس القصير التي تجعلنا نيأس عندما نلتفت الى حدود الزمان والمكان وكأنها تخنق كل بارقة للأمل .

وسوف تختلف القضية اذا عشنا النفس الطويل الذي يعتبر ان منطلق قضيته الحياة في امتدادها ، وان الأمل لا يمثل سذاجة في الفكر ما دامت الفرص كثيرة امام المستقبل ، ورجعنا الى تاريخ الأمم التي انهزمت وخسرت ثم انتصرت وعوضت خسارتها ، الأمر الذي يجعلنا نفكر ان الهزائم والخسائر ليست ابدية في حياة الامم ، وان العمل على مستوى التخطيط لمراحل العمل يحقق اكبر النتائج .

س ٤ - يقولون « مسافة ميل تبدأ بخطوة ، فما الخطوة الأولى التي يجب ان نخطوها في طريق الحل » ؟

ج - ان نفهم ما نريد ، ان نعرف هدفنا ونفكر بشيء من العمق

والجدية ، ثم ندرس قوانا ونؤمن بقضيتنا وننطلق على ضوئها في سلوكنا العملي .

ان علينا ـ قبل كل شيء ـ ان نُقنع أنفسنا بقضيتنا ، فنلتفت الى اعماقنا ونشعر أنها تعيش في الأعماق تماماً كما حدثنا القرآن الكريم عن الرسول الأعظم محمد (ص) :

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ . [سورة الزمر : ٣٣] .

علينا ان لا ننطلق بفعل الحمى التي نعيش فيها ، فإذا عدنا الى أنفسنا وجدناها فارغة من القضية وليست هناك إلا بقايا الحماس والأنفعال .

وقد نجد المثل على ذلك في حالات الأزمات السياسية المحلية كالانتخابات النيابية الأخيرة فإذا لاحظنا القضايا التي طرحت ، والأساليب التي أتبعت ، نجد أنها كانت تتجه بعيداً عن قضايانا المصيرية ومع ذلك فقد اندفعنا إليه بكل ما عندنا من قوة وعصبية وحماس وتركنا كل شيء خلفنا حتى كأننا لا نواجه مشكلة المصير .

هذا ليس عمل انسان يؤمنون بقضيتهم ، اننا لا نريد توزيع الاخطاء والمسؤوليات على الآخرين ، ولكننا في سبيل دراسة واقع ، انت عندما يؤلمك جرحك تنسى الأكل ، أليس من المفارقات المبكية المضحكة ان تتألم وتعيش الانسحاق بكل معنى الكلمة « ومع ذلك فأنت مستعد لأن يلهيك أي انسان بأي شخص ، أو بأي أسلوب » .

حتى الآن . . . كل ما حولنا من تصرفات وأساليب يجعلنا نشعر أننا لم نصل إلى مستوى الاحساس ـ بعد ـ بقضيتنا فطبيعة الاجواء التي حولنا ، أساليب التلقين ، والانتساب الى هذا الاتجاه أو ذاك ، والسير

مع هذا الشعار أو ذاك ، كلها عمليات تواجهنا من الخارج ، اما الداخل فلا يوجد فيه الا الاصداء وبقايا الانفعال ، عندما ننطلق من الداخل يجب أن يكون لدينا قاعدة ذاتية من إيمان وأخلاق . . . انهم يقولون الأخلاقيات لا مجال لها الآن !، اننا نعيش الواقع بكل ضراوته ، قد يكون هذا صحيحاً من بعض الجوانب . ان لديك واقعك الذي يجب ان تهتم له ، ولكن . . من أين يبدأ هذا الواقع ؟ وكيف يتحرك ؟. . انه يبدأ من الانسان فهو الذي يطلق الكلمة ، وهو الذي يحل المشكلة ، وهو الذي يمسك المدفع ويقود الطائرة ، قل لي بربك ، كيف يمكن لهذا الانسان أن ينطلق بعيداً في قضية المصير اذا لم يعش القضية بإيمان عميق وأخلاقية قوية لا تنهار أمام عوامل الاغراء .

اعطنا ايماناً وأخلاقاً تجد البداية الاولى لولادة القيادة التي تنطلق في إتجاه النصر .

س ٥ ـ كيف تحل مشكلتنا هذه كجنوبيين ؟

ج ـ لن تحل المشكلة إلا متى حلت المشكلة الكبرى ككل ، ان قضية الجنوب اصبحت جزءاً من القضية الفلسطينية وكل ما يقوله السياسيون ، أو يريده البعض من أن خروج الفدائيين من المنطقة سيحل المشكلة ، كلام في كلام ، وأقوال عابرة ، وتخدير مرحلي ، فهو قد يفقد العدو بعض مبرراته أمام العالم ، ولكن تجربتنا مع الصهيونية ، علمتنا أنه لا يعدم مبررات جديدة معقولة أو غير معقولة كلما احتاج إلى واحدة منها . ان الجنوب هو حلم اسرائيل منذ عشرات السنين ، وما زالت تسير نحو تحقيق هذا الحلم على مراحل

تحطم فيها القوى تدريجياً لتسيطر بعد ذلك دون أية مقاومة وبكل سهولة .

س ٦ ـ هل تؤمن ان مخطط اسرائيل هو « من الفرات الى النيل » ؟

ج ـ هذا هو مخطط اسرائيل الذي اعلنه مفكروها وقادتها بأكثر من طريق ، ونتمنى ان لا يتحقق ، ويجب أن نعمل على الا يحصل .

اننا نلاحظ ان اسرائيل في حروبها الثلاثة معنا ، كانت تحاول تصعيد التأزم في كل مرحلة من المراحل الى درجة الانفجار حتى تدخل حرباً جديدة ، لتكسب ارضاً جديدة ، ولذا فهي الآن تحاول من خلال مطالبتها بالمفاوضات المباشرة لتكرس هذا الواقع ، وأحسب أننا لو قبلنا معها ما تريد فسوف تخلق مشاكل جديدة لتشعل من جديد الحرب التي تعين وقتها الملائم لها لتكسب أرضاً جديدة .

تلك هي طريقة اسرائيل ، وذلك هو هدفها البعيد ، وعلينا ان نعمل على هذا الاساس لنعرف كيف نواجه الصراع بعقلية متحركة تدرس احتمالات المستقبل في أكثر من اتجاه ، وتتعامل مع الحاضر في أكثر من مجال .

س ٧ ـ ما هو الهدف الاساسي من هذه الندوات ؟

ج ـ الهدف هو التوعية الدينية التي تجعل الشباب ينفتح على مشاكل حياته من خلال الدين ، ليؤمن بأن الإسلام لا يتنكر لحياته بل ينظمها ويخطط لها وسائلها وأهدافها على أساس من العلم والواقعية واليسر ، فلا يغفل جانباً لمصلحة جانب ، ولا يغلب موقفاً على حساب موقف آخر ، بل هو الاعتدال والاستقامة في كل الاتجاهات .

هـدفنـا : هـو ردم الهـوة المفتعلة بين الشبـاب وبين الـدين بسبب عدم وجود فكرة كاملة لديه عن الدين .

والمعـرفة المـرتكزة على الحـوار الهادىء العميق الحـر هي إحدى وسائلنا لتحقيق هذا الهدف .

س ٨ ـ مـا هـو مـوقف الإسـلام من التلفـزيـون وغيـره من أجهـزة الاعلام التي تنفتح على الخير والشر والحرام والحلال ؟

ج ـ للتلفزيون ـ ككل أجهزة الاعـلام الاخرى ـ منـافع ومضـار تبعاً للبرامج التي تعـرض فيه ، فـربما يكـون البرنـامج تـربويـاً أو توجيهيـاً أو علميـاً يستهدف انفتـاح المستمعين على التـطور التـربـوي أو العلمي في العـالم فتكون مشـاهدتـه والاستمـاع إليـه من الأمـور التي يشجـع عليهـا الـدين المنـطلق أبـداً مـع كـل تقـدم يخـدم قضيـة الانسـان ونمـوه في الحياة .

وربما يكون البرنامج خلاعيـاً يستهدف تحـطيم المناعـة الأخلاقيـة لدى الشباب وتفتيت القيم الروحية في نفـوسهم بإثـارة غرائـزهم وميولهم بشكـل داعـر ، وربمـا يكـون إجـرامياً ـ ان صـح التعبيـر ـ يهـدف إلى تشجيع الجريمة ومحاولة تصويـر اللصوص والقتلة وقـطاع الطرق بصـورة الأبطال في نظر المراهقين ـ الأمر الـذي يشجع هؤلاء على الاقتـداء بهم وتقليـدهم في كـل شيء ممـا يفسح المجـال لانتشـار الجـريمـة في المجتمـع كما ورد في بعض احصـائيات محـاكم الاحداث الـذين كانت الـدروس الاولى التي تلقوهـا في اللصوصيـة والقتل من أفـلام الجـريمـة والرعب التي شهدوها في السينما والتلفزيون .

ومن الـطبيعي ان لا يشجـع الـدين ذلـك كله ، لأن مثـل هـذه

البرامج لا تتلاءم مع الخط الذي يريد الإسلام للإنسان أن يعيشه في الحياة مع الآخرين .

إذن : فالتلفزيون نافذة تطل على الحياة الطيبة من جهة ، وعلى الحياة الشريرة من جهة أخرى ، فمن استطاع ان يغلق النافذة الشريرة ، ليكتفي بالتطلع من النافذة الخيرة كان منسجماً مع امر الله ورسوله .

ومشكلتنا مع التلفزيون او السينما ، هي مشكلة الأجهزة التي تسيطر على شركاتهما وتوجه برامجهما ، فهي شركات تجارية تقوم على اساس الاعلان وتنطلق في مجال الاستثمار الاعلاني ولذا فهي تعتبر ضرورة كل برنامج يزيد من عدد المشاهدين وبالتالي يزيد في عدد المعلنين ، دون نظر إلى طبيعة الآثار التي يتركها في عقلية الناشئة وأخلاقتها في الحياة .

وقد قرأت مرة عن أحد الرجال الذين يملكون شركة التلفزيون عندنا انه سئل ما هو هدفك في الحياة فأجاب أنه المال المال المال قالها ثلاث مرات ، فماذا تنتظر من الشخص الذي يفكر هذا التفكير ؟

وبكلمة واحدة : ليست أجهزة الاعلام كالتلفزيون وأمثاله محرمة اسلامياً في ذاتها ، ففيها برامج مفيدة ، وأكثرها غير صالحة حتى الآن ، فمن استطاع ان يحمي بيته من الانحراف في برامجها فلا مانع من استعماله .

س ٩ ـ أسمع أن هناك ديناً باطنياً وديناً ظاهرياً فهل هذا صحيح ؟

ج ـ ليس هناك دين باطني ، بل الدين الذي نؤمن به هو الذي

نزل على محمد (ص) ليعرفه الناس ويفهموه بكل وضوح في مفاهيمه وأحكامه ، اما الدين الذي لا يفهمه الناس ، فليس ديننا ، ان الله ـ عز وجل ـ خاطب عباده بما يفهمون ولم يخاطبهم بما لا يفهمون .

نعم هناك مذاهب باطنية تعتمد التأويل والرمز في تفسير النصوص وترى ان للشريعة ظاهراً وباطناً وربما يعتقد بعضهم ان الظاهر هو شريعة العامة ، اما الباطن فهو شريعة الخاصة وقد يحاول البعض ان يجد في بعض الآيات القرآنية أساساً لدعواه ، ولكن ذلك كله لا يرتكز على أساس اسلامي لدعواه ، ولا يرتكز على أساس إسلامي متين ، بل يظل في مجال التأويلات والتعليلات التي لا دليل عليها ولا حجة لها .

س ١٠ ـ إذن كيف نفسر الحروف المقطعة في القرآن ؟

ج ـ هناك عدة آراء في موضوع تفسير الحروف المقطعة في القرآن مثل ألم ، كهيعص ، حم عسق ، الخ ، إلا أن أقربها إلى الفهم تفسيران :

الأول : انها تسكيت للكفار لأن المشركين كانوا تواصوا فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن وان يلغوا فيه ، كما حكاه القرآن عنهم بقوله :

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ .
[سورة فصلت :٢٦] .

فربما صفروا وربما صفقوا وربما لغطوا فيه ليغلطوا النبي(ص) في تلاوته فأنزل الله هذه الحروف فكانوا اذا سمعوها استغربوها واستمعوا إليها وتفكروا فيها واشتغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن في مسامعهم .

الثاني : أنها من قبيل تعدد حروف الهجاء ، والمراد بها أن هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التي

تتحاورون بها في خطبكم وكلامكم فإذا لم تقدروا عليه فاعلموا أنه من عند الله ، وإنما كررت الحروف في مواضع تأكيداً للحجة .

تماماً كما يقول قائل ـ عندما يقف أمام عمل فني عظيم ـ أنني أستطيع عمل مثله ، فيقال له خذ هذه المواد الخام التي صنع منها هذا الأثر الفني ، واصنع كما صنع هذا الفنان إذا كنت تملك مثل فنه أو عبقريته . وقد ورد هذا التفسير في بعض الاحاديث الواردة عن أهل البيت (ع) .

ففي التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري (ع) أنه قال : كذبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا : سحر مبين تقوله فقال الله تعالى : ﴿ ألم ذلك الكتاب ﴾ أي يا محمد هذا الكتاب الذي انزلناه عليك هو الحروف المقطعة التي منها ألف لام ميم وهو بلغتكم وحرف هجائكم فأتوا بمثله ان كنتم صادقين واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم .

س ١١ ـ كيف خلق الإنسان منذ البداية ؟

ج ـ النظرية الدينية تقول : ان الله خلق آدم وحواء بشرين سويين بقدرته ، وكان النسل منهما .

س ١٢ ـ يقال انه خلق من تراب ، فهل هذا مختص بالانسان الأول ، او بكل انسان على وجه الأرض ، وكيف ذلك ؟

ج ـ القرآن ينص : في أن الإنسان الأول خلق من طين كما ورد في احتجاج إبليس على أمره بالسجود لآدم ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وقول الله سبحانه مخاطباً الملائكة :

﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٢٩﴾ [سورة الحجر : ٢٨ ـ ٢٩] .

أما بقية أفـراد الإنسان فهم كـذلك ولنحلل المـوضوع بـاختصار : من أين يتكون الانسان بشبكل مباشر ؟

من نطفة ، والنطفة تتكون من غذاء ، والغـذاء يتكون من الحيـوان والنبات ومرجعهما الى التراب والطين .

إذن فـالانسان الأول مخلوق من الـطين بشكل مبـاشـر ، امـا بقيـة أفراد الانسان فهم مخلوقون منه بشكل غير مباشر .

س ١ ـ هــل ورد في القـرآن حــديث عن وجـود مخلوقــات غيـر منظورة وغير معروفة لنا ، فيما عدا الجن ؟

ج ـ ربمـا نلمـح ذلـك في بعض الآيـات القـرآنيـة كمـا في قـولـه تعـالى :

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾

[سورة الحـاقـة : ٣٨ ـ ٣٩] .

فقد تكون كلمة ﴿ما لا تبصرون﴾ إشارة إلى الحيـوانات الـدقيقة التي لا يستطيع الإنسان إدراكها بـطاقته العـادية وقـدرته الـذاتية ، وربمـا تكون إشارة إلى الحيوانات الصغيرة التي لا يستطيـع الإنسان معـرفتها إلا بواسطة المكبرات بآلاف المرات أو أكثر .

أما عن العوالم الاخرى ، فقد نجـد في بعض الاحاديث المنسـوبة الى الإمـام علي (ع) ما يشيـر الى ذلك كمـا في الحديث المعـروف« أن في السماء مدناً كمدنكم هذه » .

والحديث المشهور عنه .

« سلوني قبل أن تفقدوني فإني بطرق السماء أعرف مني بطرق الأرض » .

س ١٤ ـ ما هو الاساس الذي ارتكز عليه الإمام علي (ع) في قوله هذا الكلام ؟

ج ـ الاساس هو علم رسول الله (ص) المستمد من الله سبحانه بالوحي وبغيره وهو قول الإمام (ع) : « علمني رسول الله الف باب من العلم يفتح لي من كل باب الف باب » .

واحسب ان الإمام علي (ع) لم يدرس ـ حتى الآن ـ الدراسة الوافية الشاملة التي تستوعب كل مجالات ومنطلقاته وأفكاره .

بل كل الدراسات التي وجدت كانت تحاول التعرف عليه من خلال حكمه وزهده وبطولته . أما فكره فلم تعط الدراسة الكافية .

س ١٥ ـ ما معنى الطارق في الآية الكريمة :

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ . [سورة الطارق : ١] .

ج ـ جاء في بعض التفاسير : الطارق : اصله كل ما يأتي ليلاً وأريد به الكوكب لظهوره ليلاً ﴿ **وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب** ﴾ المضيء لثقبه الظلام بضوئه ، أريد به زحل أو الثريا أو جنس النجم .

س ١٦ ـ ما معنى كلمة الخنس في قوله تعالى :

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝١٥﴾ . [سورة التكوير : ١٥] .

ج ـ النجـوم التي تخنس أي تـرجـع ، وهي مـا عــدا النيـرين من الكواكب السيارة (الجـوار الكنس) التي تكنس اي تخفي بالنهـار أو في مغيبهـا وعن علي (ع) انهـا كـل الكـواكب تخنس بــالنهـار فــلا تـرى وتكنس بالليل أي تأوي الى مجاريها فتأوي .

الحلقة الرابعة

اليَأسُ وَالأمَل في مَفهُومِ الاسْلام
و
لِكُلِّ سُؤالٍ جَوَاب

● اليأس والأمل في مفهوم الاسلام .
● لكل سؤال جواب .

اليأس والأمل في مفهوم الإسلام

[١]

الحديث عن اليأس في حياة الانسان ، حديث عن حالة عميقة الجذور في كيانه ، صعبة المعالجة في تعقيداتها المتشابكة وانفعالاتها المجنونة الهائجة .

ولذلك لا يعتبر هذا الحديث ترفا عقليا يراد به الأخذ بالأفكار التي تبتعد عن واقع الانسان وتقترب من خيالاته .

بل هو حاجة ملحة على مستوى الفرد والمجتمع والأمة كلها ، في الجوانب الخاصة الشخصية من مطامح الانسان ، او في المجالات العامة حيث الدين والفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع في حالة السلم والحرب .

أمّا التركيز في الحديث على موقف الاسلام من اليأس والأمل فلأننا نحاول الانطلاق في حياتنا على أساس النظرة الاسلامية للحياة ، ليكون موقف الانسان المسلم من واقعه منسجما مع الخط الاسلامي الأصيل في النظرية والتطبيق لئلا يعاني من ازدواجية الشخصية حين يحاول أن يوجه حياته في غير وجهة الاسلام فيما يواجهه من مشاكل ،

وفيما ينتابه من نوازع ، أو يهزه من أزمات .

[٢]

اليأس في طريق الانتحار :

يمثل اليأس الثورة النفسية على الحياة من جانبها السلبي عندما يطغى على وجدان الفرد وتفكيره ، فيشعر ان الحياة تختنق في داخله لتتحول الى سجن مظلم يعيش فيه ، دون أن يجد منفذا للنور او متنفسا للهواء .

فيتمرد على حياة عندما يشعر انها عادت عبئاً ثقيلاً يحمله ، ومصدراً دائما للألم والدموع .

وقد ينتحر عقله في بعض الحالات إزاء شدة الأزمة وهول الصدمة . . وربما تنتحر حياته بيده ، في أكثر الحالات ، برصاصة او خنجر ، او سم يشربه ، او صدمة عنيفة تدمر جسمه عندما يلقي نفسه من علو شاهق في البر او البحر .

وقد نلمح الكثير من الأمثلة على ذلك في حوادث الانتحار العديدة ، في عصرنا لدى جميع الأمم . مع اختلاف الانظمة والثقافات ، وتنوع المستويات الاجتماعية . . فنجد الانسان الذي يشعر باليأس الخانق ، أمام الاخفاق في مشكلة غرامية خاصة تمثل عنده المتنفس الوحيد للأمل بالحياة ، ووضع عائلي معين ، أو حالة مزاجية خاصة في اطار البيت او الرفاق ، الامر الذي يجعله يفقد معنى الحياة معها ازاء الفشل .

وتكثر هذه النماذج لدى الشباب ، الذين يمرون بفترة المراهقة ،

من الفتيـان والفتيات ، فهم يستسلمـون لليأس لـدى أول بادرة للفشـل ، دون أن يتـركوا للحيـاة الفـرصـة في تـأكيـد وجـودهـا في ذواتهم بقـوة ، فيسلمهم اليـأس للانتحـار . ولعل ركن المشـاكل العـاطفية ، او مشـاكل القلوب في الصحف المعـاصرة تستـطيع أن تعـطينا صـورة حيـة للحـالـة النفسية اليائسة التي يعيش فيها هؤلاء الشباب أمام بوادر الفشل .

[٣]

وهكـذا تمتد الاسبـاب الشخصيـة التي تـدفـع الذين ينتحرون أمـام نـوازع اليـأس من وجـود الجـديـد الـذي يغـريهم بـالحيـاة ويبـرر لهم الاستمرار معها حتى النهاية .

[٤]

وتتنوع الاسباب لتصل الى اليأس من حـالة سيـاسية او دينيـة معينة عنـدما يصـطدم بعض الاشخاص بـواقع سيـاسي او ديني لا يملكـون لـه تغييراً من خلال واقعهم الخاص وطاقـاتهم المحدودة ، فـلا يجدون معـه متنفسـاً للحيـاة ، ويتعـاظم اليـأس في نفـوسهم حتى يؤدي بهم الى الانتحـار تخلصا من هـذا الواقـع في بعض الحـالات او محـاولـة لاثـارة الآخرين ضد هذا الواقع من خلال الانتحار .

وهم في كلتـا الحالتين ينـطلقون من حـالة اليـأس من التغيير بغيـر هـذه الطريقـة : وقد نجـد المثـل على ذلـك في حـالات الانتحـار عنـد البوذيين احتجاجا على بعض الاوضاع السيـاسية . فهي وان انـطلقت من جـذور دينيـة تجعـل من الانتحـار عمـلاً دينياً يتصـل بـالحيـاة بعـد المـوت ، لكنها ـ في واقعهـا الأصيل ـ حـالة يـأس تجمع بين الفـرار من الحياة ، أملا في الراحة فيما بعد الموت .

وربما نلمح اليأس في حالات الانتحار من خلال الآلام الشديدة التي يعانيها المريض في مرضه ، او السجين في سجنه ، او الفقير في فقره .

وهكذا تتنوع حالات اليأس الذي يدفع للانتحار تبعا لتنوع حالات الحياة لتجمع بين الفاشلين الذين ينتحرون أمام قمة الفشل وبين الناجحين الذين ينتحرون امام قمة النجاح . . وهكذا تمتد لتشمل هؤلاء الذين يختنقون باليأس امام اللذة ، وأولئك الذين يخنقهم اليأس من اللذة .

* * *

ذلك هو بعض الحديث عن حالة اليأس وآثارها في الجوانب الشخصية لحياة الانسان ، الفردية في مستوى نزواته وشهواته ، وآماله وآلامه ، ومطامحه ونوازعه وهمومه وغمومه .

فماذا عن الجوانب العامة لحياة الانسان ؟

وهل لليأس فيها دور ؟

[٦]

العاملون للحق أمام اليأس :

ربما نجد اليأس متمثلا في حياة العاملين من أجل المُثُل العليا ، والقيم الكبيرة والمعاني السامية عندما يصطدمون بواقع الناس الذين لا يستجيبون لهم بسهولة ولا يتجاوبون معهم بسرعة ، بل يجدون أكثر من ذلك ،تمردا وجحودا وكفرانا .

وربما يواجهون بعض التعذيب والتنكيل والاضطهاد او السجن

والتشريد فيسقطون ـ في بعض الاحيان ـ صرعى أمام الصدمة ، ويخيل لهم أن القضية انتهت ، وأن زمن القيم الكبيرة قد ولى ، وأن ظروف الحياة لا تشجع على مواصلة السير من جديد .

فينكمشون ويتضاءلون ، ويختنقون باليأس فيوحون لانفسهم ـ في عملية تبرير للهروب ـ ان الحياة قد تجاوزت أفكارهم وان الناس قد انقلبوا على أعقابهم فليس هناك أمل في أن يسمعوا فضلا عن ان يعوا ويهتدوا .

وهكذا يسمحون للكفر والضلال والانحراف أن يمر ويعيش دون مقاومة ،ويتركون للأفكار الضالة والكافرة ان تنمو وتمتد دون صراع ، بحجة انه لا جدوى من المقاومة ، ولا فائدة من الصراع .

وعلى ضوء ذلك ، نستطيع ان نقول : ان تاريخ المبادىء الكافرة والضالة والمنحرفة ، في أكثر الحالات هو تاريخ العاملين اليائسين الذين يقابلون قوافل تلك المبادىء بالحسرات والدموع والالتفات الى الماضي الزاهر بحنين سلبي لا يقترب من الحاضر الا ليثير انفعالات الرثاء .

[٧]

أساليب الاعداء في اثارة اليأس :

وقد نلمح في أساليب الكفر والضلال بعض الخطوات العملية الذكية التي تعمل على أن تزرع اليأس في نفوس العاملين بذرةً بذرة ، بإعطاء الوقائع المعادية صورة أكبر منها بكثير ، وحشد الاجواء بالاوضاع المثيرة التي يشعر العاملون معها بأن الجو كله قد تحول الى صفوف الاعداء وتضخيم الأخطاء التي يقع فيها العاملون ، الى الحد

الذي يشعرون معه بانهيار معنوياتهم أمام الناس . . . وبذلك يفقدون الشعور بقيمة العمل وجدواه ، عندما يفقدون قداسة الفكرة في ضمير الناس .

وقد تتمثل الاساليب بالايعاز الى بعض المنحرفين عن الخط الصحيح بالسير في اتجاه الخط ، وحمل شعاراته ، كممثلين رسميين له ، لينسفوا الفكرة من الداخل بأساليب جهنمية ، وخطط شيطانية تلبس لبوس التقوى وترتدي رداء الايمان . الأمر الذي يجعل الدخول معهم في معركة اثارة لمعارك شخصية في نظر الناس وتمزيقاً لوحدة الصف في نظر آخرين .

وربما نلمح ذلك واضحاً في الصور المشوهة التي نشاهدها لأدعياء العلم والدين الذين استطاع أئمة الكفر والضلال أن يجعلوا منهم واجهةً لمحاربة أساس الفكرة في الصميم .

كما قد نلمحه في الواجهات التي يعرضها الاستعمار وعملاؤه أمام الشعوب كصورة رائعة للمبادىء الكبيرة والقيم الرائعة التي تنطلق نحوها أهداف الشعوب ، ليلتف الناس حولها بعفوية وبساطة فتكون النتيجة الخراب والدمار والضياع باسم القيم وتحت مظلة المبادىء والافكار الكبيرة .

[٨]

اليأس في المجال الوطني :

وينطلق اليأس ـ بعد ذلك ـ ليعيش في الاوضاع القاسية التي قد يمر بها الوطن عندما تشتد حوله الازمات وتثور في داخله العواصف حتى لتكاد أن تقتلعه من جذوره .

فقد يقع فريسة استعمار سياسي او عسكري او اقتصادي من قِبَل قوى كبيرة لا يملك أمامها أية قوة تقترب من قوتها فضلا عن ان تتساوى معها .

وقد يقع تحت رحمة تحديات خارجية او داخلية تتحدى عزته وكرامته وسلامته دون ان يجد في امكاناته وقدراته ، ما يجعله في مستوى مواجهة هذه التحديات . فيضعف ويتضاءل ويتعاظم لديه الشعور بالضعف حتى يتحول الاستسلام عنده الى واقعية ، ويعود الخضوع لديه ليتحوّل الى حركة بارعة من حركات المحافظة على القوة والسلام وينقلب الذل الوطني ـ في نظره ـ الى اسلوب ذكي من أساليب الحفاظ على السلامة الوطنية .

ويحاول الأعداء ـ في هذا الجانب ـ أن يخططوا لليأس في البلاد التي يستعمرونها لئلا تثور ، او البلاد التي يريدون استعمارها او استغلالها ، لئلا تتحفز للنضال . . فيوجهون الاجهزة من الداخل ، لتفتش عن عوامل الضعف لتستغلها . وتبحث عن عوامل اليأس الرافدة في اللاشعور لتوقظها في خدمة الخطة الطويلة الأمد .

وينطلقون مع الاجهزة من الخارج ، من إعلام ومال ورجال وسلاح ليوجهوها الى هذا الوطن الصغير او الضعيف ليشعر ، مع هذا المد الطاغي من الدعايات المضللة عن قوة المستعمر أو حلفائه من ناحية السلاح والمال والرجال ، أن لا فائدة من المقاومة والوقوف أمامه ولذا فلا بد من الاستسلام ليسلم ويعيش تحت رحمته راضيا مطمئنا انطلاقا من قول القائل :

اذا كنت مأكول الطعام فرحِّب .

اليأس بصورة عامة :

واذا جرينا مع اليأس في مجالات أخرى فسنجد انه يمثل الحالة التي تكرِّس التأخر والتخلف في جميع المجالات .

فهو يمنع العالم عن الانطلاق بعيداً في التفكير في حلِّ المسائل المعقدة عندما يصعب عليه الحل السريع .

ان اليأس يجعله حائرا أمام علامات الاستفهام الحائرة دون جدوى وهو يمنع العاملين في المجالات الاجتماعية من السير قُدما امام التجارب الفاشلة الكثيرة في حياتهم العملية .

كما يشارك في تهديم الحياة العائلية عندما تواجه الاطراف المشاكل اليومية او الحياتية التي يحتاج حلها الى جهد وصبر طويل ، فقد يؤدي اليأس من معالجة هذه المشاكل لدى الطرفين الى عاملٍ قويٍّ في إنهاء العلاقات الزوجية بسرعة دون مبرر .

وهكذا يشارك اليأس في تدمير حياة الانسان على المستوى الشخصي والفكري والوطني والحياتي بشكل عام .

فماذا نفعل أمام هذا كله ؟

وما هو موقف الاسلام من قضية اليأس والأمل في الحياة ؟

هل لديه شيء جديد ؟

[٩]

اليأس موقف غير اسلامي :

لقد حاول الاسلام ـ في القرآن القرآن الكريم ، أن يعطي اليأس مفهوما دينيا يصل به الى مستوى الكفر بالله .

فمعنى أن تؤمن بالله أن يظل الأمل يبعث في نفسك اخضرار الحياة ، ومعنى أن تيأس ، أنك تعيش الكفر بالله في أعماق ذاتك ، وان كنت تعلن كلمة الايمان بلسانك .

أمّا كيف يكون ذلك فسنحاول التعرف عليه من خلال الآيات الكريمة :

يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ .

[سورة يوسف : ٨٧] .

٢ ـ ﴿ ونبئهم عن ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال : انا منكم وجلون ، قالوا : لا توجل انا نبشرك بغلام عليم ، قال : أبشرتموني على أن مسني الكبر فبمَ تبشرون ، قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ، قال : ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون .

* * *

فنحن نلاحظ في البداية ان الظروف التي أحاطت بالقضية التي تحدثت عنها الآية الاولى ، لا تشجع على الأمل من خلال الوقائع والاحداث التي تجسدت فيها انطلاقا من الرواية التي مثّلها اخوة يوسف

بشكـل مسـرحي مثيـر يبعث على الاطمئنـان ، الى المـدة الـطويلة التي يُقدِّرها بعض المفسـرين بعشرين سنـة دون أن يأتي عن يـوسف أيّ خبر من قريب أو بعيد ، الأمر الذي يجعـل موضـوع الأمل بـوجوده وعـودته ، فكرةً خيالية تعيش في نطاق الآمال والاحلام اللذيذة البعيدة .

ولكن ذلـك كله لم يمنع يعقـوب أن يعيش الأمل في مثـل الـوحي الـداخلي الذي ينبـع من ايمانـه ، حتى ليحس معـه بـطعم الحقيقـة في روحه وكيانه فيبدأ في تذكر يوسف في أكثر من مناسبة .

فنـراه في بعض الحالات يقـول : « . . . فصبـر جميـل عسى الله أن يـأتيني بهم جميعا انـه هو العليم الحكيم » الأمـر الذي يـدلنا على ان اليـأس لم يتسرب الى وجـدانـه ، ولكن اللوعـة لا تـزال تثـور في داخله كنتيجة للاحساس ببعد الأمل وصعوبته ، كما تشير اليه الآية الكريمة .

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ .

[سـورة يـوسف : ٨٤ ـ ٨٦] .

فهو يثير الحزن واللوعة في نفسه أمام الله ليهبه الطمـأنينة والسـلام الروحي ، والإيحاء الذاتي بالفرج القريب حتى لكأنه ينـظر إلى المستقبل يشرق أمامه ـ بعد ذلك ، في إشراق روحي رائع يغمر قلبه فتنطلق كلماته بالأمل القـريب الذي يستـروح فيه روح الحيـاة من جديـد وكأنـه الحقيقة الماثلة أمامه في صدق وإيمان .

« ولما فصلت العير قال أبوهم اني لأجد ريح يوسف لو لا أن تفندون » .

وكان يخاف من لومهم وتأنيبهم لانهم لم يرتفعوا الى مستوى الايمان الذي يرتفع اليه ، ولم يعيشوا مع روح الله الذي يغذيه بالأمل كما عاش . ولهذا بادروه بهذه الكلمة اليائسة الخانقة : قالوا : « تالله انك لفي ضلالك القديم » .

* * *

كيف حدث هذا كله ؟

هل هناك تعليمات معينة ووحي خاص من الله ليعقوب كما يحاول بعض المفسرين أن يفترضوا ؟

او ان القضية قضية الايمان الذي يظل يزرع اخضرار الحياة في نفس الانسان .

اننا نميل الى الفرض الثاني انطلاقا من طبيعة القضية ومن أوضاع يعقوب ، ومن تركيزه على رفض عنصر اليأس باعتباره عنصرا من عناصر الكفر والضلال .

* * *

أمّا في الآيات الأخرى التي حدثتنا عن قصة ابراهيم مع الملائكة الذين وفدوا اليه رسلا مبشرين من قبل الله بغلام حليم ، فأنكر عليهم الفكرة في البداية على أساس القوانين الطبيعية التي تمنع حدوث الولادة لمن كان في مثل سن ابراهيم وعمر زوجته التي تجاوزت الحد الطبيعي الذي تحمل فيه المرأة كما تشير اليه بعض الآيات الكريمة في سورة هود :

وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾.

[سورة هود : ٧١ - ٧٣] .

فالقضية لا تشجع على الأقل من زاوية النظرة العادية التي تخضع للقوانين المألوفة للأشياء .

ولكننا نلاحظ أن الملائكة أثاروا أمامه قضية اليأس والقنوط وأوحوا اليه بأن هذا الموقف يمثل اليأس بعينه من رحمة الله ، فلم تكن البشارة على أساس الوضع المألوف . بل هي خاضعة للقدرة الالهية التي تتضاءل الحدود والقوانين المألوفة أمام قوتها اللامتناهية . وهكذا رأينا ابراهيم يرجع الى القضية في اطارها الايماني فيقرر بصورة لا تقبل الشك بأن الموضوع أصبح مختلفا من خلال هذه النظرة التي تتجاوز القوانين الطبيعية . الى الآفاق الواسعة لقدرة الله تعالى فأطلقها قاعدة عامة للحياة توقظ الأمل في نفس الانسان عندما يختنق باليأس أمام الواقع المنظور لتربطه بالواقع غير المنظور الذي تتحطم أمامه الحواجز وتتلاشى القوانين .

قال : ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون .

* * *

ففي كلا الموقفين نجد اليأس يفرض نفسه على الانسان في ظل

الـوقائـع القاسيـة والقوانين المـألوفـة ، ومع ذلـك يأتي الأمـل من خلال الايمـان ليجعل النفس تعيش في جـو الانفتـاح والـطمـأنينـة أمـام رحمـة الله .

كمـا نلمح الاسـاس الديني في رفض اليـأس في حـديث ابـراهيم ويعقوب ، اللذين اعتبرا اليأس كفرا والقنوط ضلالا ، وكـلاهما ينـطلقان من منطلق واحد ويرجعان الى أساس واحد .

* * *

أمّـا كيف نعتبـر اليـأس كفـرا وضـلالا فهـذا مـا يشيـر اليـه الفخـر الرازي في تفسيره الكبيرج ١٨ ، ص ١٩٩ بقوله :

« واعلم ان اليـأس من رحمة الله لا يحصـل الا اذا اعتقد الانسـان أن الالـه غيـر قـادر على الكمـال ، او غيـر عـالم بجميـع المعلومـات او ليس بكريم بل هو بخيل ، وكل واحد من هذه الثلاثـة يوجب الكفـر فاذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصـول أحد هـذه الثلاثـة ، وكل واحـد منها كفر،يثبت ان اليأس لا يحصل الا لمن كان كافرا » .

ومن خلال ذلك كله نعـرف ان القرآن الكـريم أراد أن يقتلع جذور اليأس من نفس الانسان بـاعادتـه الى ايمانـه لينطلق معـه في وعي ويقظة كبيـرين يجعلانـه يشعر بـالأمل يتفجـر من ينابيـع الايمان كمثـل الشعـاع المنسكب من قلب الشمس في روعة الشروق .

وبهـذا يلتقي الايمان بـالأمل في وحـدة رائعـة تجعـل الـروح التي تفرض احدهما على الانسان تفـرض الآخر عليهـا ككل شيئين متـلازمين في الوجود .

أمّا اليأس فجـذوره تمتد الى الجـذور الاولى للكفر وان لم يشعـر

الانسان به بشكل مباشر .

وعلى ضوء هذا فان على الانسان الذي يعيش اليأس في قلبه أن يعيد النظر في إيمانه ليجده هل هو منطلق من أساس متين أو أنه ليس بعميق الجذور .

وقد نجد في بعض الآيات القرآنية ، روح الفكرة التي استوحيناها من الآيات السابقة في اثارة الأمل الأخضر في قلب الانسان عندما تجدب روحه بعوامل اليأس وذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ ﴾ . [سورة الطلاق : ٢ ـ ٣] .

فنحن نستوحي من هذه الآية انها تريد ان تصوّر للمؤمن الذي يتقي الله ، الحالات الصعبة في حياته سواءٌ منها التي تتعلق بواقعه المادي ، او التي تشمل واقعه الحياتي بشكل عام ، عندما يلتفت الى كل الابواب فيجدها مغلقة ، والى كل الطرق فيراها مسدودة ، فليس هناك منطلق للحركة ، وليس لديه منفذ للتغيير .

تم توحي له بكل ثقة وطمأنينة ، انه سيجد المخرج من هذا المأزق حيث لا مخرج وسيلتقي بالرزق من حيث لا يحتسب ، فليست الوسائل للحياة هي هذه الوسائل المحدودة التي يراها الانسان في عالمه المنظور ، بل هناك ألف وسيلة ووسيلة ، وألف باب وباب ، لا يعلمها الانسان الذي لا يفكر الا من خلال ما حوله ولكن الله الذي

خلق الحياة ووسائلها يعلم ذلك كله لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء .

وإذاً فان على الانسان أن يثق بالله ويتوكل عليه فهو يكفي الانسان من كل شيء ومن كل ضيق .

وهكذا نجد في هذه الآية ، أنها لا تكتفي بمحاربة الجانب السلبي الذي يتمثل باليأس ، بل تحاول أن تثير في نفس الانسان الدوافع الذاتية للامل . من خلال الايمان بالله لتربطه بالجانب الايجابي للحياة الذي يجعله ينطلق بأفاقه الى أبعد من الواقع المنظور المحدود .

[١٠]

الأمل من خلال النظرة الواقعية للحياة :

لا يكتفي الاسلام بإثارة الامل في نفس الانسان من خلال الايمان فحسب لان ذلك قد يفقد أثره ـ في بعض الحالات ـ ما لم يرتكز على أساس واقعي ملموس ، فان النفس عادةً تتأثر بالواقع المحسوس أكثر مما تتأثر بالفكر النظري .

ولهذا حاول القرآن الكريم ان يربط الانسان بالايمان بالغيب من خلال التفكير بأسرار الحياة ودقائقها التي تربط الانسان بالينبوع الخالد للايمان . . وعلى ضوء ذلك ، اتخذ القرآن الكريم اسلوبا واقعيا في إثارة روح الأمل في الانسان ، انطلاقا من السُنّة الطبيعة التي أُجرىٰ الله عليها الحياة من ، أن الشدة يعقبها الفرج ـ والعسر يتبعه اليسر فالحياة تحتضن المشاكل كما تحتضن الحلول ، وتفرض الخسارة كما تفرض الربح وتزرع الابتسامات كما تهرق الدموع .

واذا لم يكن في الحياة حالة نهائية فما معنى أن تتجمد في فكرك على هذه الحالة وتغلق بصرك عن الحالات الاخرى .

انك ـ بذلك ـ تنحرف عن التصور الصحيح للحياة فتعطي للحياة غير معناها وتتجه بها غير طريقها الطبيعي .

فاذا عصرتك ظروف الحياة الخانقة ، وأحكمت الطوق في عنقك حتى الاختناق فلا تتصور خلود هذه الظروف الصعبة ، بل التفت الى حياتك الماضية أو حياة الآخرين لتجد أكثر من شاهد على ان الظروف الصعبة تتغير الى ظروف طيِّعة سهلة تمحو عن النفس كل آثار الصعوبة . .

وعلى ضوء هذا ، فما الذي يجعل من ظروفك القاسية الحالية بدعاً من الظروف وما الذي يغيّر من حركة الحياة التي لا تستقر على حال .

ان القرآن ـ وهو يعرض للانسان صور الحياة المتحركة في اكثر من اتجاه ـ يحاول أن يغيّر نظرتك الضيقة التي تتجمّد في حدود اللحظة الحاضرة ، لتشعر ـ من خلال ذلك ـ أنه لا مانع من أن يتبدل الحاضر ليعيش المستقبل مع الخير كما عاش الماضي معه ـ في تجاربك الذاتية الماضية ، او تلتفت الى حياة الآخرين الذين عاشوا في ظروف مماثلة لظروفك ، ومشاكل مشابهة لمشاكلك ، ثم عادوا وتغلّبوا على المشكلة بأفضل الحلول التي اهتدوا اليها من خلال البحث والصبر الايجابي الواعي ، وتمردوا على الظروف باصرار المترقب للفرج ، فانطلقوا مع الظروف الجديدة التي استطاعت ان تخرجهم من الواقع الخانق الى الواقع المنفتح على الحياة الواسعة بأرحب مجالاتها ومنطلقاتها .

وقد نلمح هذه الفكرة في الآيات الكريمة التي تتحدث عن الانسان الذي ييأس عندما تنزع منه مظاهر رحمة الله ، وآثار نعمة الله ، دون ان يلتفت الى ان الذي نزع الرحمة بعد أن وهبها قادرٌ على أن يرجعها مرة ثانية كما أرجعها في حالات مماثلة في حياة الانسان وحياة لآخرين .

ولنقرأ الآيات الكريمة :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ (٩) . [سورة هود : ٩] .

﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ (٤٩) . [سورة فصلت : ٤٩] .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ (٨٣) . [سورة الإسراء : ٨٣] .

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (٣٦) . [سورة الروم : ٣٦] .

﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٧) . [سورة الطلاق : ٧] .

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (٦) . [سورة الشرح : ٥ ـ ٦] .

فهي تشجب في الانسان يأسه وقنوطه أمام البلاء وتدعوه الى أن ينظر الى الحياة نظرة واقعية ، فلا تطغيه النعمة ، ولا تصرعه النقمة بل يواجه الحالتين بروح المؤمن الواعي الواثق بالفرج بعد الشدة والعارف بأن الحياة لن تدوم على حال واحدة .

* * *

وخلاصة الحديث : ان اليأس من خلال ما قدمناه موقف غير اسلامي لانه يتنافى مع الجذور الاساسية لعقيدة الايمان بالله من جهة ، ويتعارض مع النظرة الواقعية التي رسمها الاسلام للحياة .

واذا وعى الانسان هذه الحقيقة استطاع أن يعالج حالات اليأس لتي تعصف بروحه ، في حالة غفلته عن ايمانه ، وانحرافه عن التصور لصحيح للحياة ، وذلك بالعودة الى ينابيع الايمان ، والرجوع الى الآفاق الرحبة للحياة التي تفتح للانسان باب الأمل كأوسع ما يكون الأمل ، ليعود ـ بعد ذلك ـ الى حياته كانسان ايجابي يواجه الحياة بقوة انطلاقا من الموقف الصحيح بدلا من الموقف الخطأ .

فان المؤمن يمثل العودة السريعة عن الخطأ والرجوع الواعي عن الغفلة في أول لحظة لليقظة ، وأقرب فرصة للتذكر انسجاما مع الآية الكريمة :

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ .

[١١]

النظرية في اطار التطبيق :

وما دامت القضية قد وضحت الى حد بعيد واستطاعت أن تمنحنا القدرة على إثارة الأمل في داخل الانسان ، من بين نوازع اليأس

وعـوامله ، فقد يجـدر بنا أن نبـدأ في الانتقال بهـا من اطار النـظرية الى واقع التطبيق ككل نظرة تتصل بالحياة وتؤثر في مسيرة الانسان .

* * *

ولعـل من أكثر الجـوانب إلحاحـاً في مـوضـوعنـا هـذا هـو جـانب الانتحـار الذي يمثل قمة الآثار السلبية لليـأس بـالنـظر الى أكثـر حـوادث الانتحار في العالم ، من دون فـرق بين الناجحين وبين الفـاشلين ، وفي الـدول التي تحكمهـا النـظم الـرأسمـاليـة والـدول التي تحكمهـا النـظم الاشتراكية كما ألمحنا اليه في بداية الحديث .

* * *

وقـد عرفنـا أن الانتحار ينـطلق من الشعور بـالاختناق أمـام حـالـة اليأس من وجود الجديد في الحيـاة ، أو من تحقيق الرغبـة الشخصية في موضوع عاطفي ، أو وطني أو ديني . . فاذا استـطعنا أن نـأخذ من واقـع الحيـاة تعدد مجـالاتهـا ، وتنـوُّع مسالكها ، ففي كـل يـوم هنـاك جـديـد يتعلمـه ، وفي كل منـطلق هدف يتجـه اليه ، والقمم في الحيـاة كثيرة ، فـلا تنتهي الحيـاة عنـد قمـة واحـدة ينتهي اليهـا الانسـان ، فهنـاك قممٌ أخرى يستطيـع ان يبدأ طـريقه اليهـا من جديـد ، ليشعر بلذة الاكتشـاف ويحقق رغبتـه الذاتيـة في التعرف الى المجهـول ، فـاذا أتخمته اللذة ، فقـد يجد بعض راحتـه في بعض ألوان الحـرمـان ، واذا أسكـره النجـاح حتى لم يعد يجد نشوة جديدة ، فقد يتجـه اتجاهـا آخر يجـرب فيه طعم الصعوبة والمشقة التي لا بد منها في الشعور باللذة من جديد .

* * *

أمّا الذين وقفوا امام رغباتهم الظمـأى يائسين ، فلم يشعـروا بطعم الحياة في ظلال الحرمان . . . فقـد ينبغي لهم أن يتلفتوا الى الحيـاة هنا

وهنـاك ، ليشعروا بـأن العسر سـوف يتحول الى يُسـر ، وان الصعـوبـات التي تعترض الاشخاص في طـريق تحقيق رغباتهم ، ليست خـالدة خلود الحياة .

وربمـا يجربـون اعـادة النـظر بعض الشيء في رغبـاتهم ، فلعلهم يستطيعون تعديل بعض ملامحها ، وأوضاعها ، فقـد يكون في ذلـك حل المشكلة ، لان كثيـرا من الصعـوبـات التي تـواجـه الانسـان في طـريق رغبـاته ، قـد تنشـأ من النـظر فيهـا الى القضيـة من جـانب ضيق ، معـه الأمل .

أمّـا اذا تبـدلت النـظرة الى مجـال أوسـع فقـد يتسـع الأمـل حيث تتسع امكانية الحلول .

وقـد يكون من الـوسـائـل العمليـة للوصـول الى ذلـك أن يستعين الانسان بالأحداث التي واجهها الآخـرون ممن كان لهم نفس مشكلتـه ، ونفس حـــالتـه ، فلم تتحقق رغبـــاتهم ، ولم يصـرعهم الحـرمـان بـــل تجاوزوه الى واقع جديد انفتحت لهم فيه آفاق جـديدة ، عـادوا يسخرون ـ من خلالها ـ من المـاضي الذي كانت تلح فيـه الرغبـات المجنونـة لانها تكشّفت لهم عن أشياء هزيلة لا تستحق من الانســان أي اهتمام ، يشعـر معه بضرورة التضحية امامها بأغلى الاشياء .

ان كثيـرا من رغبـات الانســان التي تنـدفـع الى حيـاتـه بجنـون ، ترجع الى نزوات عابـرة ، يحوّلهـا الخيال الى وهم كبيـر يوحي لـلانسان باتصالها الوثيق بالحياة وارتباطها الكبير بقضية المصير .

ولكن قليـلا من التحليل للدوافـع والعوامـل المحيـطة بـالقضيـة ، يكشف للانسان كيف يتحول السراب الى وهم كبيـر يحسبه الـظمآن مـاء

حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فيعرّفه كيف تنطلق الحقيقة من خلال الصبر العميق .

* * *

أمّا ما يحتاجه الشباب والفتيات في الخروج من أزمة اليأس التي تهدد حياتهم بالاختناق ، وتتجه بها في اتجاه الانتحار . . **فهو** أن يقفوا قليلا ليقارنوا بين تفكيرهم الماضي وتفكيرهم الحاضر ليجدوا ـ في النتيجة ـ أن مرحلة العمر التي تجاوزوها قد استطاعت أن تمنحهم تجربة جديدة وسّعت أفق تفكيرهم، فماذا يمنعهم أن ينتظروا المرحلة الجديدة ، ليشعروا بتفاهة ما كانوا يفكرون ازاء واقع المرحلة الحالية للفكر .

ان الحرمان لن يصرع الانسان ، اذا استطاع أن يكتشف مناطق جديدة تغذي جوع الانسان للحياة .

وللحياة أكثر من ينبوع يتفجر بالري ، وأكثر من حقل يهتز بالخضرة ،وفيما بين هذا وذاك يجد الانسان الحياة تفتح ذراعيها لكل متعب محروم .

* * *

أمّا العاملون من أجل الاصلاح والخير للانسان الذي تواجههم الصعوبات في الطريق حتى ليشعروا باليأس يتحدى خطاهم السائرة نحو القمة اما هؤلاء ، فقد لا نجد كثيرا من الجهد في الانطلاق معهم الى تجارب الأنبياء والأولياء والمصلحين الكبار في العلم الذي وقفت ضدهم عقبات الطريق بكل قوة حتى كأن الأفق ينتصب أمامهم كجدار يرتفع حتى ليحجب عنهم الهواء ولكن الحياة فتحت لهم أبوابها ـ بعد ذلك ـ فدخلوها بكل قوة واستطاعت رسالاتهم ودعواتهم أن تقتحم

الخلود لتسير معه في حركة الأجيال الصاعدة في كل زمان ومكان .

لقد واجه المسيح عليه السلام في رسالته كل ألوان الاضطهاد والتعذيب ، ولم يجد اليأس سبيلا الى قلبه لانه كان ينظر الى المستقبل بأمل يرتكز على النظرة الواقعية للحياة .

وامتدت رسالته بامتداد الزمان وتساقطت العقبات واحدةً واحدةً على الطريق ، وانفتح الدرب أمام خطي الرسالة .

وواجهت الصعاب النبي محمد (ص) كما لم تواجه أحداً من قبله ، وتحمل العذاب والحرب على جميع الجبهات ، ولم تكن عوامل الأمل كثيرة لديه من خلال الواقع المنظور ، ولكن الرسالة بما تحمله من وعي للحياة وفهم عميق لطبيعة التطور في حياة الأمم ، وايمان كبير بالله استطاعت أن تملأ قلبه بالأمل الأخضر الذي امتد الى كل ما حوله ومن حوله ، فانطلقت الرسالة من خلال الخطوات الصغيرة الهادئة الى خطوات كبيرة واسعة تقتحم معها كل أسوار الحياة التي تنطلق في اتجاه القمم .

وعاشت الرسالة شاهداً على أن الخطوات التي تنطلق من خلال الأمل المنفتح ، لن تتعثر أبداً أمام عقبات الطريق .

ولم يكن هذا الأمل لدى الأنبياء والمصلحين ، نتيجة خيال واسع كبير يفتح أبواب المستقبل على أجنحة الاحلام .

بل كان نتيجة فهم واقعي لطبيعة عمليات التغيير في الحياة ، فان من الملاحظ أن التقاليد والأفكار الموروثة والرواسب الماضية التي استطاعت السنون الطويلة أن تعمّقها في النفس الى حدّ التحجّر . . لا يمكن أن تزول ـ فجأة ـ أمام الدعوات الجديدة ، او تنهار سريعا أمام

التحديات الصارخة بل لا بد لها من أن تستيقظ لتدافع عن نفسها أمام الغزو الفكري الجديد ، بكل ما لديها من قوى ذاتية تدفع اليها غريزة حب البقاء .

ولا بد للقوى الجديدة من أن تخوض عملية الصراع بكل ما تملكه من أساليب فكرية ، وقوى متحركة فتحاول أن تقتحم الاسوار في بعض الحالات والابواب في حالات أخرى ، لتستطيع من خلال ذلك أن تضع قدميها على الارض في حركة بارعة للنفاذ الى الأعماق حيث الجذور الاولى تمد فكر الماضي بقوة البقاء .

ومن الطبيعي ان حركة الصراع لا بد لها من أن تستمر وتمتد وتطول لكي يتسنى لها اضعاف الفكرة القديمة تدريجيا لتأخذ مكانها من جديد .

ان الانسان الذي يفهم الاساس العملي لتطور الحياة لا بد له من أن يعيش الأمل في أعماقه ، حتى في الأفق الذي لا يحمل أيّ بصيص من النور فقد يكون النور كامنا في طيات الأفق بانتظار ولادة الفجر الجديد .

* * *

ولعل آروع الآيات التي تمثل كيف يعيش الأمل في قلوب العاملين ، مهما كانت عوامل اليأس قوية ، هي قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

[سورة الأعراف : ١٦٤] .

فنحن نلاحظ أن الآية قد فرضت الجماعة التي يراد هدايتهم في مستوى الهلاك والعذاب المحقق يوم القيامة فليس هناك أي أمل يرجى لديهم ازاء الاعمال التي يقومون بها ، والجرائم التي يرتكبونها .

ولكن العاملين كانوا في مستوى الرسالة ، فهم يريدون أن يُعذروا الى الله سبحانه في اداء رسالتهم ويحاولون ان يلاحقوا الأمل البسيط ولو بنسبة واحد في المائة ، لئلا يفقدوا القدرة على الأمل . . فكأنهم يقولون لهؤلاء الذين يلومونهم : لماذا تيأسون من هدايتهم ما دامت النفس الانسانية تخضع للحق وللخير في كثير من لحظات النور الذي يشرق في داخل الناس سريعا ثم يغيب ، فقد نستطيع في هذه اللحظات السريعة أن نجعل النور يستمر في النفس من خلال الرسالة التي تلاحق كل فرصة جديدة وكل أمل جديد .

* * *

أمّا الذين يصرعهم اليأس فيقعدهم عن النضال والجهاد في معركة العزة والكرامة عندما يبدأ العدو بحرب الأعصاب النفسية التي يخيل اليهم بأن العدو لا يقاوم وأن كثرة العدو وقوة سلاحه ، وتعدد مجالاته ، يجعل الحرب خاسرة منذ البداية .

وهكذا يستسلمون للاستعمار وللاستغلال ويستريحون للحياة الذليلة الخاضعة الخانعة التي توحي لهم بالأمن والطمأنينة والسلام .

أمّا هؤلاء فقد استطاع القرآن أن يخاطبهم ليشعرهم بأن الكثرة ليست مقياس الانتصار ، كما ان القلة ليست مقياس الهزيمة ، فهناك أكثر من فرصة للنصر أمام الفئات القليلة اذا استطاعوا استغلالها واستعمالها في طريق الصراع ، انطلاقا من التاريخ الذي يحمل كثيرا من النماذج التي تؤكد الفكرة ، ومن النظرة الواقعية لقضية النصر

والهزيمة التي تخضع لاساليب عديدة لا تجعل المسألة تعيش في اتجاه واحد .

وهكذا نستطيع ان نتغلب على الحرب النفسية التي يريد العدو من خلالها أن يخلق اليأس في نفوسنا ليربح المعركة قبل أن يدخل المعركة . . باستخدام قوانا التي نملكها في المجالات التي تحرك القضية ، ومحاولة ربح قوى جديدة من خلال الظروف التي تحيط بنا ، والتطلع الى المدى الطويل الذي قد يخسر في حركته بعض المعارك ولكنه يستطيع في النهاية أن يربح الحرب .

وليس هذا حلما نحلم به ، أو خيالا نتخيله ، أو تمنيات تعيش في النفس ، بل هو واقع الحياة العملية الذي يعيش في حساب القضية كما يتمثل في تاريخ الشعوب .

* * *

خاتمة المطاف :

وهكذا نبلغ خاتمة الحديث لنجد أمامنا القضية واضحة على مستوى النظرية وهي ان الايمان يساوي الأمل ، واليأس يساوي الكفر ، كما ان الأمل يمثل النظرة الواقعية العملية ، أمّا اليأس فيمثل النظرة الضيقة للحياة . أمّا على مستوى التطبيق فهناك أكثر من مجال ، وأكثر من منطلق يستطيع الانسان أن يعيش معه في حياته الخاصة والعامة ليثير الأمل في نفسه من خلال واقع حياته ومن خلال تجارب الآخرين في الماضي والحاضر .

وقد أراد القرآن الكريم من الانسان أن يتعلم من التاريخ كيف يجابه مشاكله من خلال الظروف التي عاشها الآخرون ليعرف ان الحياة

لن تتجمّد في زاوية واحدة وأن الجليد سوف يذوب مهمـا امتد الشتـاء ، ومهما اشتد الصقيع ، فان الربيع سـرعان مـا يخفق بدفء الحيـاة لينطلق في حياة الينابيـع من جديـد عندمـا تتدفق السيـول الهادرة لتغني للظامئين أغنيات الحياة المتفتحة في كل زمان .

لكل سؤال جواب

- هل يحرم الاسلام على الانسان مباهج الحياة .
- ما موقفه من الحرية الشخصية في هذا الجانب .
- ما معنى : أتق شر من أحسنت إليه .
- ما معنى الحديث الشريف : تفكر ساعة خير من عبادة سنة .
- بين كلام الامام علي (ع) وكلام الامام زين العابدين حول صنع المعروف مع غير أهله .
- كيف كانت نشأة الطبقة الثانية للانسان ؟

س ١ ـ يتردد على لسان البعض : ان العقيدة الإسلامية تقيد حرية الانسان الشخصية وتحرّم عليه التمتع بمباهج الحياة .

فهل للإسلام رد على هذا القول ؟

وما هو موقفه من الحرية الشخصية في هذا الجانب ؟

ج ١ ـ هناك جانبان للسؤال :

١ ـ موقف الإسلام ـ من وجهة مبدئية ـ من التمتع بمباهج الحياة .

٢ ـ نظرته إلى الحرية الشخصية في هذا النطاق .

أما موقف الإسلام من الاستمتاع بالحياة ، بما تحتويه من لذائذ وشهوات وما تشتمل عليه من مباهج فنستطيع أن نؤكد ـ من خلال النصوص الإسلامية ـ الفكرة التالية :

ان الإسلام يريد للإنسان أن يعيش في الحياة عيشة طبيعية ، تتمثل في اشباع الجوع الطبيعي للغرائز البشرية التي أودعها الله فيه ،

فلم يخلقها الله ، ليقوم الإنسان بتجميدها ، بل لتمارس دورها الطبيعي في عملية النمو والحركة والحياة .

ولهذا وقف الإسلام ضد الرهبانية وقفة حاسمة تلغي هذا الاسلوب من الإسلام رأساً ، فجاء الحديث الشريف ليقرر بكلمة جازمة . . . « لا رهبانية في الإسلام » لأن الرهبانية تمثل اغلاق النوافذ التي يطل منها الإنسان على نعم الله في الحياة .

وعلى ضوء هذه الفكرة انطلقت الآيات الكريمة في القرآن ، لتتحدث عن الطيبات ، وتدعو الإنسان إلى الأخذ بها وعدم تحريمها على نفسه بأساليب عديدة ، تشتد وتلين حسب اختلاف الجو الذي يُراد إيجاده للفكرة .

فنقرأ في سورة الأعراف / ١٥٦ قوله تعالى : ﴿ **ويحل لهم الطيبات** . . . . ﴾ في معرض الحديث عن الاساسية التي ترتكز عليها الدعوة الذي جاء بها النبي محمد (ص) .

ونقرأ قوله تعالى :

وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ.

[سورة المائدة : ٨٨] .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.

[سورة النحل : ١١٤] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.

[سورة البقرة : ١٧٢] .

ثم نقرأ بعد ذلك الآيات التي تنهي عن تحريم الانسان الطيّبات على نفسه كما في قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ . [سورة المائدة : ٨٧] .

ثم نقف مع الآية الكريمة التي توجه الإنسان إلى أن يأخذ زينته عند كل مسجد وتستنكر فكرة تحريم الزينة في الحياة والطيبات من الرزق :

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ .

[سورة الأعراف : ٣١ ـ ٣٢] .

وربما نلمح الفكرة واضحة جلية في القصة التي يذكرها المفسرون في الأجواء التي نزلت فيها الآية المتقدمة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل لكم**﴾ الخ . . .

قال المفسرون كما في مجمع البيان ـ جلس رسول الله يوماً فذكر النار ووصف القيامة ، فرقّ الناس وبكوا واجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي ، واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ولا

يقربوا النساء ولا الطيب ، ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويسيحوا في الأرض .

فبلغ ذلك رسول الله (ص) فأرسل إليهم وقال لهم : ألم أنبأ انكم اتفقتم على كذا وكذا ، قالوا : بلى يا رسول الله وما أردنا إلا الخير ، فقال النبي (ص) إني لم أؤمر بذلك ، ثم قال : ان لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتي النساء ومن رغب عن سنتي فليس مني .

ثم جمع الناس وخطبهم وقال : ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا . أما اني لست آمركم ان تكونوا قسيسين ورهباناً فإنه ليس في ديني ترك اللحم ولا النساء ولا اتخاذ الصوامع ، ان رهبانية أمتي الصوم وسياحتهم الجهاد اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . . .

فنحن نلاحظ ـ أن النبي قد أعطى القضية أهمية كبيرة نظراً إلى أن هذا الفهم الخاطيء للموعظة وموقف الإنسان من مباهج الحياة ، يؤثر تأثيراً كبيراً على النظرة العامة للحياة ، بالتالي على الممارسة العملية في سلوك الإنسان المسلم ازاءها .

فلم يكتف النبي (ص) بإصلاح خطأهم وتوجيههم للخط الصحيح ، بل انطلق ليمنع تأثير هذه النظرة الضيقة على الأمة فانطلق يتحدث إليهم بشكل عام ليركز الفكرة الصحيحة على المستوى العام للأمة دون تحديد .

وقد نجد ملامح هذا الموقف الصلب أزاء الفهم الخاطيء الذي

يدفع الى السلوك المنحرف على أساس هـذا الفهم ـ في حديث الإمام علي أمير المؤمنين (ع) الذي خاطب به عاصم بن زياد الـذي لبس العباءة وتخلى عن الدنيا . فقد جاء في نهج البلاغة أنه قال له :

« يـا عُـدي نفسـه ، لقـد استهـام بـك الخبيث ! أمـا رحمت أهلك وولـدك ! أترى الله أحـل لك الـطيبات وهـو يكره أن تـأخذهـا أنت أهون على الله من ذلـك » . ثم يحدثنـا الرضي (رض) في النهـج أن عـاصمـاً اعترض على الإمام (ع) مشيـراً إلى سلوك الإمام العملي الـرافض لمتع الحياة ولذائذها قائلاً :

يا أمير المؤمنين ، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوية مأكلك .

فقـال له الإمـام (ع) : ويحـك اني لست كـأنت ، ان الله فـرض على أئمـة العدل أن يقـدروا أنفسهم بضعفة النـاس كيلا يتبيـغ[1] الفقيـر فقره .

وبهـذا حسم الإمـام المـوقف كله ، فـإن سلوكـه العملي خـاضـع لمركزه القيادي الذي يفرض عليه أن يقيس نفسـه بأضعف رعيتـه ، ليجد الفقير بالإمام أسوة حسنة فيصبر على فقره ريثما تحل مشكلته .

٢ ـ أما نظرة الإسـلام الى الحريـة الشخصية في هـذا الجانب من الحيـاة فتنطلق من الفكـرة التي تريـد أن تصوغ الإنسـان صياغـة جديـدة تـرتكز على أسـاس التـوازن في الحيـاة ، الـذي يحقق لـه السـلامـة في جسمه وروحه وعقله .

وعلى ضوء ذلك كـانت المحرمـات التي حدد الإسـلام فيها حـرية الإنسان في ممارسة شهواته ولذائـذها ، لتكـون بمثابـة الضوابط العمليـة

(١) يتبيّغ : كي لا يهلكه فقره .

التي تحمي الإنسان من الهلاك الجسدي والروحي .

فأباح للإنسان استعمال الطيبات في الأكل والشرب ، ونهاه عن الإسراف في ذلك ، كما حرم عليه الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله والخمر وغير ذلك لأنها تحمل له الاضرار الصحية والروحية والعقلية وأباح له ممارسة الجنس ، فلم يعتبره عيباً بل جعله أمراً طبيعياً جداً ورغّب به في اطار العلاقة الزوجية ، ونهاه عن العلاقات الشاذة ، والعلاقات غير الشرعية مع غير الزوجة من المحرم والاجنبيات لأنها تسيء الى النظام الذي يحقق سعادة الانسان الروحية والمادية في جو الأسرة ، وتساعد على الفوضى في ممارسة الجنس الأمر الذي يسبب للإنسان مشاكل كثيرة في جميع المستويات .

وأطلق للإنسان حرية اللعب واللهو وحرّم عليه الميسر والأساليب التي تسيء إلى أخلاق الإنسان وتضيع طاقاته في غير طائل . . وهكذا نجد أن حدود الحرية الشخصية تبدأ حيث تبدأ مصلحة الإنسان الفردية والاجتماعية وتنتهي حيث تتعرض حياة الإنسان للضياع والانهيار .

وبكلمة واحدة : أن الحرية المطلقة تساوي الفوضى ، التي تتحول الى قيد يخنق ـ في نهاية المطاف ـ حرية الإنسان وحرية غيره .

فلا بد لنا من تقييد الحرية ، بالقيود التي تضمن للإنسان ممارستها دون أن تسيء الى نفسه وإلى غيره .

ولعلنا نلمح ذلك في بعض الآيات التي عقبت الحديث عن الطيبات بالدعوة الى تقوى الله وشكره ، وعدم الطغيان ، والاعتداء كما في قوله تعالى في المتقدمة في سورة المائدة : ﴿ **ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين** ﴾ .

س ٢ ـ جاء ـ في نهج البلاغة ـ قول الإمام علي (ع) :

اتق شر من أحسنت إليه .

ما معنى هذا الحديث ؟

ربما يبدو للفهم الساذج ـ من هذا الحديث ـ أنه يوحي باستتباع الاحسان للشر الذي يجازي به الإنسان من أحسن إليه ، ولذا فإن على المحسن أن يستعد للشر ويحذره .

وربما يؤدي هذا الفهم الخاطيء إلى ابتعاد الإنسان عن أعمال الخير ومواقف الاحسان ، ما دام ذلك سيؤدي الى مبادلته بالشر والجحود والكفران ونكران الجميل الامر الذي يشعر الانسان معه بأنه في غنى عنه لا سيما اذا كان من الاشخاص الذين لا يطيقون الحياة في نطاق المشاكل والملابسات ولكن هذا بعيد عن مرامي الإمام (ع) ومقاصده الذي يطلب منا في بعض كلماته القصار أن نعاتب أخانا بالإحسان إليه وأن نرد شره بالأنعام عليه .

فماذا يريد الإمام من هذا الحديث ؟

الذي يبدو لنا : أن الحديث يحاول أن يخرج الإنسان من جو الثقة الساذج الذي يشعر به الإنسان ازاء الاشخاص الذين يحسن إليهم فيستسلم إليهم في اطمئنان ، ويتخلى عن الحذر في علاقته بهم وتعامله معهم ، انطلاقاً من استبعاد قيام هؤلاء الاشخاص بأي عمل شرير تجاهه ، لأن الخدمات التي قدمها لهم ، والاحسان الذي واجههم به ، يعتبر ضمانة قوية أمام كل احتمال آخر .

إن الإمام يريد أن يقول للإنسان ـ فيما نستوحيه من الحديث المذكور ـ ليس لك أن تعتبر الإحسان الى أي شخص ضمانة لك من

شره لأن هُناك الكثير من الناس الذين لا يتفاعلون بالروح الخيّرة التي تنطلق من الآخرين اليهم ، او الذين يشعرون بعقدة ذاتية ازاء الاشخاص الذين يقدمون إليهم خدمات الحياة ، أو الذين قد يكونون طيبين في بداية الأمر ولكن المصالح المعقدة والأطماع الطارئة التي يصطدمون بها معك ، تحوّلهم إلى أناس يشعرون بالحاجة الشديدة إلى الاعتداءات عليك ومقابلتك بالأساءة والنكران .

فإذا كان واقع الحياة يحتضن أمثال هؤلاء كما يحتضن غيرهم من الطيبين الذين يقابلون الأحسان بمثله والخير بأكثر منه ، فكيف يمكن أن يستسلم الإنسان إلى جو الأحسان كضمانة تحميه من كل شر .

ان الحديث يمثل الدعوة إلى الوعي والحذر وعدم الاستسلام الى الثقة المطلقة .

ومعنى الحذر أن يظل الإنسان متحسباً للطوارىء والعوارض فيحض نفسه ضدها ، حتى إذا ما واجهه الخطر كان مستعداً له فلا يؤخذ على غرة ، ولعل كلمة الإمام علي الأخرى التي يقول فيها :

« لا تثقن بأخيك كل الثقة فإن صرعة الاسترسال لا تستقال » .

لعل هذه الكلمة تعيش في الجو الذي يريد الإمام أن يضعنا فيه من خلال كلمته التي نتحدث عنها ، وهو جو الابتعاد عن الاسترسال في العلاقات الاجتماعية مهما كانت درجة الثقة ، ومهما كانت عواملها الداخلية والخارجية .

س ٣ ـ قيل : ان تفكر ساعة خير من عبادة سنة أو أكثر فمن هو القائل ، وفيم هذا التفكير ؟

ج ـ قائل هـذا الحديث الشـريف هو رسـول الله (ص) والصحيح في نص الحـديث ـ حسب ما جـاء في حديث الإمـام الصـادق (ع) ـ : « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » .

أمـا مجالات هـذا التفكير انهـا لا تنحصر في مجـال واحـد ، بـل تتسع لتشمل الأمـور التي تقرب لـلإنسان معـرفة الله ، وتفتـح آفاقـه على الكون الواسع الفسيح حيث يجـد في كل ظـاهرة من ظـواهره دليـلاً على عظمة الخالق ووجوده .

فيعيش الإنســان في عبـادة روحيــة صـامتــة تحتضن في داخلهـا الصفاء والسمو الروحي والفكري في ظلال الله .

وتمتد مجالات التفكيـر لتتسع لكـل فكر يفهم الإنسـان من خلالـه نفسه ، ويتعرف على أخطائه ، ويكتشف واقـع الحياة ومسؤوليتـه العملية ازاء ذلك كله .

ويبـدو لنا ان هـذا التقييم للتفكير ينـطلق من المنطلقـات القـرآنيـة التي اعتبرت التفكير الانسـاني في خلق السماوات والأرض ، وفي نفسـه وفي غيــر ذلـك ، الــطريق الأمثـل في الــوصـول الى الله ، وفي ادراك الحقيقـة في الكون والحيـاة وفي اكتشاف الانسـان نفسه من خـلال ذلك كله .

امـا اعطاء التفكيـر قيمة تفضـل عبـادة ليلة ، فـربمـا نستـطيـع أن نفهمـه اذا عرفنـا أن دور العبـادة هـو الاتصـال بـالله والالتقـاء بـالمعـاني الـروحية الخيّـرة التي ترتبط بـه والانسجام مـع هذه الصلة الآلهيـة ، في نطاق تلك المعاني في حيـاتنا العمليـة ومن الطبيعي ان التفكيـر يستطيـع أن يمنحنـا هذا اللقـاء بالله ، وبـالمعـاني الخيّـرة بشكـل أعمق وأسلوب

هادىء ، ينساب في الداخل بعيداً عن ضجيج الكلمات ، ليلاحق الكلمات التي تحلق في سماء المعرفة دون صوت . . وربما أمكن لهذا التفكير أن يعطي العبادة التي نمارسها ـ بعده ـ معنى أعمق حيث يتحول الاحساس بكلمات العبادة وأفعالها ، إلى أحساس لا يطفو على سطح النفس وإنما يتصل بالينابيع التي تعيش في الأعماق وتهدرُ في حياة الانسان من بعيد .

وقد وردت لدينا أحاديث كثيرة عن أئمة أهل البيت (ع) تؤكد هذا الأتجاه في أعتبار التفكير عبادة وفي شمول التفكير للآفاق الواسعة التي عرضناها .

١ ـ ففي حديث الإمام الصادق (ع) : أفضل العبادة ادمان التفكير في الله وفي قدرته .

٢ ـ وفي حديث الإمام علي الرضا (ع) : ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم انما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل .

٣ ـ وفي حديث آخر للإمام الصادق (ع) : التفكر يدعو الى البر والعمل به .

٤ ـ وفي حديث ثالث عنه : جواباً على سؤال : كيف يتفكر ؟

قال : يمر بالدار والخربة فيقول : أين بانوك ؟ أين ساكنوك ؟ ما لك تتكلمين .

وهكذا نجد ان الإسلام لا يريد من الانسان العبادة التي يعلق فيها نفسه على الحركات والكلمات الخاصة دون وعي ، بل يحاول أن يربط الإنسان بالله من خلال الفكر الواعي العميق في الكون الواسع الفسيح ، وفي احداث الحياة وظواهرها وقضاياها ، ليكتشف من خلال

ذلـك معنى الايمان ، من خـلال المعـرفـة ، ويتعـرف روعـة العبـادة من خلال الفكر .

ونحسب ان هـذا الاتجاه في اعـطاء هـذه القيمـة لعبـادة الفكـر ، وتفضيلهـا على العبادة المـألـوفـة التي لا تعيش مـع المعـرفـة ، يعـطينـا الفكـرة الصحيحـة عن المضمـون الإسـلامي للحيـاة الـذي يبتعـد عن الشكـل ليـرتبط بـالمضمـون ، ويـرفض الصـورة اذا كـانت بعيـدة عن الجوهر .

س ٤ ـ ورد فـي نهـج البـلاغـة عن الإمـام عـلي (ع) بعض الأحاديث التي تنهي عن صنع الإنسان المعروف مع غير أهله .

في بعض كلمـاتـه (ع) : . . وليس لـواضـع المعـروف في غيـر حقـه وعند غيـر أهله من الحظ فيما أتى إلا محمـدة اللئام وثنـاء الاشرار ومقالة الجهال ، ما دام منعمـاً عليهم : ما أجـود يده ! وهـو عن ذات الله بخيل .

وفي وصيته لولده الإمام الحسن (ع) : أحمـل نفسك من أخيـك عنـد صرمـه على الصلة وعنـد صـدوده على اللطف والمقـاربـة ، وعنـد جموده على البذل ، وعند تباعده على الدنـو ، وعند شـدته على اللين ، وعند جرمه على العذر حتى كأنك له عبد وكـأنه ذو نعمـة عليك . وإيـاك أن تضع ذلك في غير موضعه ، أو أن تفعله بغير أهله .

وجـاء في الحـديث عن الإمـام علي بن الحسين زين العـابـدين (ع) ، في وصيتـه لولـده : يا بني اصنـع المعروف مـع أهله ومـع غيـر أهله فإن لم يكن من أهله فأنت من أهله .

فكيف نـوفّق بين كـلامي هـذين الإمـامين من أئمـة أهـل البيت

(ع) ، وهل يمكن أن يختلف لديهم الرأي ، ما دمنا نعرف أن كلامهم واحد لا يختلف أولهم وآخرهم فيه .

ج ٤ ـ الذي يبدو لنا ـ من خلال المقارنة بين الكلامين ـ هو اختلاف موضع كل منهما .

فالإمام علي (ع) ينطلق في كلمته الاولى من فكرة الإيحاء للإنسان بضرورة اختيار بذل المال الذي يملكه في المواضع التي يقوي فيها الخير ، ويثمر فيها العطاء بدلاً من المواضع التي تشجع الشر ، ولا تنتج أي نتيجة صالحة سوى ما يتزلف به المتزلفون من كلام لا يجدي الباذل شيئاً .

فالكلمة تتجه في اتجاه أولئك الذين يبخلون بأموالهم عن سبيل الله ، ويبذلونها في سبيل الشيطان طمعاً في المدح والثناء وما الى ذلك .

ويشير إلى ما قلناه ، كلمة الإمام في ختام الحديث : وهو عن ذات الله بخيل ثم قوله : بعد ذلك .

فمن آتاه الله مالا فليصل به القرابة ، وليحسن منه الضيافة ، وليفك به الأسير والعاني ، وليعط منه الفقير والغارم ، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب ابتغاء الثواب فإن فوزاً بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل الآخرة .

فنحن نلاحظ ان الإمام (ع) يريد أن يقارن بين مواضع العطاء ، ويفضل جانب الخير على جانب الشر .

أما كلمته الثانية : فتنهي عن التسامح مع الذين يواجهون الإنسان بالصدود والقطيعة والشدة والتباعد اذا كان التسامح يزيد غلوائهم

وانحـرافهم ويوحي لهم ـ على أسـاس العُقَد النفسيـة المركبـة فيهم ـ أن ذلك الموقف المتسامح يمثل نقطة ضعف لدى صاحبه .

وبـذلك يفقـد الموقف الخيّـر معناه ، ويتحـول الى مـوقف يغـذي عقـدة الشـر لـدى الشـريـر ، بـدلا من أن يـوقظ في قلبـه معـاني الخير والمحبـة والسلام . الأمـر الذي لا يجعـل القضية في صـالـح المجتمـع بـأسره حتى هـذا الشخص المنحرف الـذي قـد يخيـل إليـه أن أسـاليبـه المنحرفة تمنحه خضوع الآخـرين واحترامهم وتـواضعهم وبالتـالي تزيـده أمعاناً في ضلالة وعناده .

أما كلمة الإمام زين العابدين (ع) فإنهـا توجـه الإنسان في اتجـاه آخر ، فتوحي له ، بأن يستثيـر طبيعة العـطاء في نفسه دون أن يلقي بـالا الى طبيعة الانسان الـذي يعطيـه . . هل يستحق العـطاء . . على أساس الأعمال التي قدمها هذا الإنسـان في مجتمعه ليستحق من خـلالها تقـدير المجتمع واحترامه .

او انـه لا يستحق العـطاء لأنـه لم يقم بـأيـة خـدمـة تؤهله لـذلـك كله . . . وعلى ضـوء ذلك فـإن الفكرة التي تعـالجهـا كلمـة الإمـام زين العـابـدين (ع) هي ان على الانسـان في الحيـاة أن يعيش ـ في داخله ـ روح العطاء والبذل والخيـر للآخـرين بعيداً عن الشعـور بانـطلاق العطاء عن عـوض يقابله تمـاماً كمـا تعـطي الشمس النـور ، وكمـا يفيض الينبـوع بالماء انطلاقاً من الطبيعة الذاتية للعطاء .

ولعل أقرب شيء الى هذه الكلمة الـدعاء المـأثور عن أهـل البيت (ع) : « اللهم ان لم أكن أهـلاً أن أبلغ رحمتـك فـرحمتـك أهـل أن تبلغني وتسعني لأنها وسعت كل شيء يا أرحم الراحمين » .

فالأهلية وعدمها ، هي أهلية الاستحقاق على أساس العمل لا أهلية العطاء من حيث تقبّل العطاء بروح إيجابية واعية خيّرة .

وخلاصة الحديث : أن الإمام علياً أمير المؤمنين (ع) ينهي عن صنع المعروف مع غير أهله ممن يضرهم أسلوب المعروف لفقدانهم الروح التي تتقبله بوعي .

اما الإمام علي زين العابدين (ع) فإنه يطلب صنع المعروف مع أهله ومع غير أهله ممن لا يستحقون المعروف لأنهم لم يقدموا شيئاً يمنحهم هذا الاستحقاق ، ولكنهم يتقبلونه وينتفعون به . اذا قُدم اليهم . ومما يؤكد هذا التفسير الحديث المروي عن الإمام زين العابدين (ع) في رسالة الحقوق :

« واما حق من ساءك فإن تعفو عنه فإن رأيت ان العفو يضره انتصرت » .

وهكذا يلتقي الحفيد الكريم بالجد العظيم ، في رسالة الخير والمحبة والعطاء من أجل الحياة على أساس متين من الوعي في ملتقي القيم .

س ٥ ـ هل نستطيع أن نعرف كيف كانت نشأة الطبقة الثانية في الإنسان ، وكيف تناسلت .

فهل تزوج أولاد آدم ـ ذكوراً واناثاً ـ اخوانهم وأخواتهم ، أو ان الله خلق لهم خلقاً آخر من السماء او الأرض فزوجهم منه كما تحدثنا بعض الروايات .

والسؤال هنا : كيف يسمح في بدء الخليقة ـ على أساس

الافتراض الأول ـ بتزويج الأخوة من الأخوات من الوجهة الدينية التي تحرم هذه العلاقة ـ كما نعلم ـ وتعتبرها علاقة غير شرعية .

ج ٥ ـ ربما نميل إلى أختيار الأفتراض الأول ـ وهو أن الخليقة تطورت في المراحل الأولى من خلال العلاقة الزوجية الطبيعية بين الأخوة والأخوات من ولد آدم .

وقد نستطيع فهم هذا الرأي من القرآن الكريم كما حاوله بعض المفسرين ـ في تفسير الميزان ـ في قوله سبحانه وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ .

[سورة النساء : ١] .

فقد يظهر من قوله تعالى : « وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » انتهاء النسل إليهما لأنه جعلهما مصدر النسل الوحيد ، دون ان يحصل هناك عنصر آخر .

وليس في ذلك أي مخالفة للقوانين الطبيعية وإنما هو مخالف للشرائع السماوية التي حرمته مؤخراً للمحافظة على المصلحة الانسانية في استقرار الاسرة وعدم تعرضها للمشاعر الغريزية بين الأخوة والأخوات الذين يكثر الاجتماع فيما بينهم بطبيعة جو الاسرة ونظامها وقد كان حلالاً قبل ذلك وإذا كانت شرعية العلاقة وعدم شرعيتها تابعة للحكم الشرعي الصادر من الله فلا مانع من أن يحلل الله شيئاً لمصلحة في ذلك ، كإنحصار مبدأ النسل في آدم وزوجته فتكون العلاقة بين الاخوة والأخوات شرعية في ذلك الوقت .

ثم يأتي التحريم لأن المصلحة النوعية للانسان التي تدور حولها الاحكام والتشريعات ، تقتضي التحريم من أجل إيجاد الحواجز النفسية في داخل الاسرة بين أفرادها المباشر كالأخوة والأخوات والآباء والبنات ، لتستمر الأسرة بعيداً عن انفعالات الغرائز وفوضى الفحشاء ، فإن من الطبيعي أن الجو الحميم الذي تخلقه الألفة في أطار الأتصال المباشر داخل المنزل في كل وقت ، قد يؤدي إلى شيوع الفحشاء فيما بينهم ، لولا الحواجز النفسية التي يخلقها التشريع في نفوس الجميع .

وتتضح الفكرة تماماً في حديث الاحتجاج الذي ورد عن الإمام زين العابدين (ع) في حديث له مع قرشي يصف فيه تزويج هابيل بلوزا اخت قابيل ، وتزويج قابيل بأقليما أخت هابيل :

قال له القرشي : فأولداهما ؟. قال : نعم فقال له القرشي فهذا فعل المجوس اليوم ، قال : فقال ان المجوس فعلوا ذلك بعد التحريم من الله . ثم قال : لا تنكر هذا انما هي شرائع الله جرت ، الحديث .

ويعلق صاحب تفسير الميزان ـ على هذا الحديث فيقول :

وهذا الذي ورد في الحديث هو الموافق لظاهر الكتاب والاعتبار . وهناك روايات أخر تعارضها وهي تدل على أنهم تزوجوا بمن نزل إليهن من الحور والجان وقد عرفت الحق في ذلك .

الحلقة الخامسة

النَقدُ وَالنَقدُ الذاتي في الاسلام
و
لِكُلِّ سُؤالٍ جَوَابْ

● النقد والنقد الذاتي في الاسلام .
● لكل سؤال جواب .

بسم الله الرحمن الرحيم

[١]

بين يدي الحديث :

في حديثنا هذا . . نحاول الوصول الى فكرة موضوعية كاملة عن النقد بصورة عامة ، سواء منه الذي يتجه الى حياة الناقد ، أأو الذي يقتحم حياة الآخرين .

ثم . . عن النقد الذاتي ، بصورة خاصة ، هذا الذي يعني الوقوف وقفة هادئة مع الذات في عملية اكتشاف للداخل ، من أجل معرفة مواطن الضعف ومواطن القوة ، فيها ، للوصول الى فهم أفضل لمنطلقاتها وحركاتها ، والحصول على وعي دقيق لأفكارها ومشاعرها كأساس لتقييم الذات من خلال طبيعة العمل ، أو تقييم العمل من خلال دوافع الذات .

* * *

وليس هذا الحديث الا محاولة متواضعة لاعطاء صورة واضحة عن حاجتنا الملحة الى هذا الاسلوب العملي في مواجهة واقعنا الذاتي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري ، لان ذلك هو السبيل

الأمثل الذي ينبغي أن تسلكه عملية النمو والتطورّ في حياتنا العامة والخاصة ، لنتلافى كثيرا من الاخطاء والانحرافات التي قد تضيع معالمها في الطريق اذا لم تلاحقها عين الناقد ولم يناقشها فكره .

* * *

واذا كان ذلك يعتبر حاجة ملحة ، فلا بد أن يكون للاسلام فيها رأي حاسم ينطلق به في ميادين التوجيه والتشريع ، ليرسم للانسان الحدود التي لا يجوز له أن يتخطاها في تحقيق الهدف ، وليخطط له الطريق التي تصله بالغاية دون مضاعفات أو ملابسات . . نظرا الى اختلاف الاساليب حسب اختلاف الأهواء الشخصية والاجتهادات الخاصة التي قد تذهب بالنقد مذاهب شتى تبتعد به عن هدفه ، وتتيه به عن مراميه .

* * *

وهكذا نجد أن هذا الحديث هنا ، لا يستهدف رسم صورة مجردّة عامة ، بل يحاول إعطاء الصورة الحية للمفهوم الاسلامي للنقد من خلال تصور الاسلام للحياة ، ويعمل على اكتشاف الاسلوب العملي الذي يجسّد له الصورة في الواقع ، ويحوّلها الى عمل وحياة . . لنصل من خلال ذلك الى الفكرة الاصيلة الشاملة التي تقرر للحياة كل خطواتها الفكرية والعملية على أساس الاسلام ، انطلاقا من الحقيقة التي تفرض شمول التشريع الاسلامي لجميع الجوانب الحياتية للانسان ، لئلا يضيع في متاهات النظريات المختلفة ، ويغرق في خضمّ التيارات غير الاسلامية ، فيستسلم للحيرة القاتلة التي تعقّد له نفسه ، وتشوّه روحه وتفقده الثقة بكل شيء .

* * *

[٢]

ما هو النقد ؟

للنقد في كتب اللغة عدة معان ، ولكن أبرزها معنيان يرتبطان بحديثنا هذا :

١ ـ التمييز بين الجيّد والرديء من الدراهم والدنانير ، فيقال : نقدت الدراهم وانتقدتها اذا أخرجت الزيف منها .

٢ ـ العيب والثلم والتجريح ، فيقال : نقدت رأسه باصبعي اذا ضربته ، ويذكرون شاهدا عليه حديث أبي الدرداء « ان نقدت الناس نقدوك وان تركتهم تركوك » أي : ان عبتهم او اغتبتهم قابلوك بمثله .

* * *

ولعل المعنى الثاني ، هو المعروف الشائع من هذه الكلمة ، فقد استعمل النقد في معنى تعقُّب الادباء والفنيين والعلماء والدلالة على أخطاءهم واذاعتها قصد التشهير أو التعليم ، وشاع هذا المعنى في عصرنا هذا وصارت كلمة النقد اذا أطلقت فهم منها الثلم ونشر العيوب والمآخذ [١] .

ولهذا اعتبر النقد في كثير من المجتمعات مظهراً من مظاهر العداوة والبغضاء وسبيلا من سبل الاهانة والايذاء ، لأنه يمثل البحث عن عيوب الشخص من أجل إظهارها للناس كوسيلة من وسائل التحقير والتشهير .

أمّا المعنى اللغوي الاول ، فلعله أنسب المعاني وأليقها بالمراد

(١) أصول النقد الأدبي صفحة ١١٥ لأحمد الشايب .

من كلمة النقد في الاصطلاح الحديث من ناحية ، وفي اصطلاح أكثر المتقدمين من ناحية اخرى فان فيه معنى الفحص والموازنة والتمييز والحكم .

واذا ما وقفنا عند ما يقوله الثقات من النقاد رأيناهم لا يجاوزون هذه المعاني في حدّ النقد وفي ذكر خواصه ووظيفته .

فالنقد : دراسة الاشياء وتفسيرها وتحليها وموازنتها بغيرها المشابهة لها او المقابلة . . ثم الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها . . يجري هذا في الحسّيات والمعنويات ، وفي العلوم والفنون وفي كل شيء متصل بالحياة [1] .

* * *

ونحن هنا . . عندما نريد الحديث عن النقد والنقد الذاتي في الاسلام . . لا نريد ان نخص به معنى واحداً من هذين المعنيين ، فان لنا موقفا مع كل منهما في شريعة الاسلام لأن كلا منهما يعبّر عن مظهر حيٍّ من مظاهر السلوك الانساني في الحياة .

فهناك الذين يعتبرون عملية النقد وسيلة من وسائل التشهير والتحقير والتخريب والتهديم ، كنتيجة طبيعية لحالة الحقد والبغضاء التي يعيشها الناقد ازاء الآخرين ، وهناك الذين يعتبرون النقد عملية تقييم للمواقف ، وتصحيح للسلوك ، من اجل وضع كل شيء في موضعه ، وإعطاء كل عمل قيمته ، وتمييز الخطأ من الصواب والصحيح من الفاسد . . انطلاقا من الرغبة الذاتية في البناء والتركيز واستقامة الخطى في طريق الحق .

---

(١) المصدر السابق ـ نفس الصفحة .

واذا كانت الحياة تحتضن كلا هذين النموذجين ، فلا بد لنا من أن نقف معهما لنتعرف موقع اقدامنا في الطريق عندما نريد السير مع كل منهما فيما يحطط وفيما يريد ، لنعرف كيف نحفظ خطانا من الانحراف في غير طريق الله .

[٣]

النقد في نطاق التشهير :

أمّا الحديث عن النقد الذي ينطلق من مفهوم العيب والثلم والتجريح ، وموقف الاسلام منه . . . فقد نجد الكثير منه ومن احكامه في الاحاديث التي عرضت للغيبة واحكامها ، وللتعيير والبهتان والتفتيش عن عثرات المؤمنين وزلاتهم وغيرها من المواضيع التي تلتقي عند نقطة واحدة ، هي محاولة التعرف على عيوب الانسان ونقائصه . . ثم مواجهته بها في حضوره ، او الحديث عنها في غيبته بما يكشف عن سره ويحط من قدره .

* * *

ولكي تبدو الفكرة واضحة أمامنا ، لا بد لنا من ان نطرح أمامنا عدة علامات استفهام تناقش اصل القضية وتبحث تفاصيلها . . وعلى هدى الاجوبة ، تتحدد النتائج ، وتتضح ملامح الفكرة .

أ ـ كيف ينظر الإسلام إلى الحياة الذاتية للانسان المسلم من خلال اعتبارها منطقة محرّمة على الآخرين لا يجوز للآخرين اقتحامها أو الاقتراب منها وتسلّق أسوارها ، أو منطقة مفتوحة يحق لكل إنسان اختراقها دون استئذان .

ب ـ هل يحق للانسان ان يواجه المؤمن بعيوبه وزلاتّه في أية حالة من الحالات ؟

ج ـ هل يحل لنا أن نتحدث عن الناس ـ في غيابهم ـ بما نعرفه عنهم من نقاط الضعف ؟ . . . وإذا كان ذلك حراماً ، فهل يختلف الحكم باختلاف الدوافع النفسية التي تدفع إلى مثل هذا الحديث ؟

د ـ متى يمكن اعتبار التشهير والتجريح ونشر عيوب الناس عملاً أخلاقياً وشرعياً ؟ وهل يختلف الحكم حسب اختلاف الحالات التي تحيط بأجواء النقد ؟

* * *

[٤]

حماية الاسلام حياة الانسان الذاتية :

ما هي نظرة الاسلام الى حياة الانسان الخاصة ؟ هل هي منطقة مفتوحة للناس أو هي منطقة محرّمة عليهم ؟

والجواب عن ذلك ، ان لكل انسان حرمة مقدسة ، في نظر الاسلام ، فليس لأي شخص ان يقتحم حياته الخاصة دون رضاه ، أو يعتدي على أسرارها دون اذنه ، لان ذلك هو معنى احترام حريته وكرامته التي قررها القرآن الكريم ، فله أن يمارسْها ويحافظ عليها دون ان يملك الآخرون حق التدخل فيها بضغط أو في نطاق الشعور العام بالمسؤولية .

ولهذا حرّم الاسلام التجسس على حياة الآخرين في قوله تعالى في سورة الحجرات « **ولا تجسسوا** . . » لان في التجسس اعتداء على حريةالانسان في الاحتفاظ بأسراره الخاصة ، وحمايتها من الآخرين .

وجاء في الحديث الشريف ، النهي عن محاولة التحقق والتثبت من الظنون التي تتعلق بحياة انسان مّا ، في أيّ جانب من جوانب حياته .

« اذا تطيّرت فامض ، واذا حسدت فلا تبغ ، واذا ظننت فلا تحقق . . . » لان محاولة التأكد من صحة ظنونك وفسادها تعتبر عدوانا على حياة هذا الانسان الخاصة ، من دون ضرورة تدعو الى ذلك سوى إشباع غريزة الفضول في داخل ذاتك .

وربما تعتبر بعض احاديث ائمة أهل البيت (ع) إحصاء زلّات المؤمن ، من أجل تعييره بها بعد ذلك ، من أقرب الامور الى الكفر ، ومن أبعد الاشياء عن الايمان .

ففي حديث للامام محمد الباقر (ع) : أن أقرب ما يكون العبد الى الكفر أن يؤاخي الرجل الرجل على الدين فيحصي عليه زلاته ليعنفّه بها يوماً ما .

وفي حديث الامام جعفر الصادق (ع) قال : أدنى ما يخرج به الرّجل من الايمان أن يؤاخي الرجل الرجل على دينه فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعيّره بها يوماً ما .

بل قد نجد في بعض النصوص الدينية ما يحرمّ على الانسان المؤمن التحدث عن اسراره الخاصة التي تهدم كيانه وتهتك حرمته ، لانه لا يجوز للانسان ان يهتك حرمة نفسه . كما نجد في نصوص أخرى الارشاد للمؤمن الى الاستتار بالمعصية فيما اذا ابتلي بها ، لان الله لا يريد للانسان أن يفضح نفسه فقد ورد في الحديث : **« اذا بليتم بالمعاصي فاستتروا . . . »**

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نقرر حماية الاسلام لحياة الانسان الخاصة ، فلا يمكن أن نجعل الفضول الشخصي مبرراً لاقتحام أسوار هذه الحياة .

وبهذا التشريع يغلق الاسلام باباً كبيرا من أبواب النقد التشهيري الذي يدور في نطاق العيب والتجريح ، لانه يمنع الانسان من تغذية المعرفة الشخصية بعيوب الناس وأسرارهم التي يتعمدون اخفائها ويرفضون السماح للآخرين بالاطلاع عليها ، ولا يبقى له الا ما يطّلع عليه من طريق الصدفة ، أو ما ينقله الآخرون اليه .

ولا فرق في ذلك بين الصحفي وبين غيره ، فكما لا يجوز للذين لا يمارسون الصحافة أن يتلصّصوا على حياة الناس الخاصة لمجرد إشباع الفضول الذاتي ، كذلك لا يحل للصحافيين ممارسته لمجرد إشباع الفضول الصحفي الذي يحاول التعرف على أكبر قدر ممكن من حياة الافراد الذين يعملون في الحقل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، من أجل تزويد الصحيفة بالمادة الدسمة من أخبار المجتمع أو السياسة أو الاقتصاد ، طمعاً في زيادة عدد القراء التي تتبع كمية الفضائح الخاصة والعامة التي تنقلها هذه الصحيفة أو تلك .

* * *

[٥]

مواجهة الانسان بعيوبه :

ونقف من جديد امام السؤال الثاني :

هل يحق لنا ان نواجه الانسان بعيوبه وزلاّته في أية حالة من الحالات ؟

ولعل الجواب عن ذلك يختلف حسب اختلاف الدوافع التي تدفع الانسان الى هذه المواجهة ، او الأجواء النفسية التي يخلقها الحديث في نفس الطرف الآخر .

فقد يكون الدافع الذي يدعونا الى مواجهة الانسان بعيوبه ، هو النصح والتوجيه والارشاد من أجل أن يصحح هذا الانسان موقفه الخاطىء ، أو يغير طريقه المنحرف .

وربما يكون الدافع هو التعيير والتحقير او الايذاء والاهانة من اجل ان يحطم له شخصيته ، أو يخفف من شعوره بالكرامة .

ففي الحالة الاولى : نجد التشريع الاسلامي يتجه الى تشجيع مواجهة الانسان أخاه المؤمن بالاحاديث التي تكشف له عن عيوبه وأخطائه لتأخذ بيده الى الطريق المستقيم وتبعد به عن الطريق المنحرف ، لان ذلك يمثل الاسلوب العملي لتعاون المؤمنين مع بعضهم على تسديد خطاهم وتقوية شخصياتهم ، وتنمية ذواتهم في الاتجاه الصحيح انطلاقا من الفكرة الاسلامية التي عبر عنها الحديث الشريف الذي يخاطب كل مؤمن .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . . . »

هذا من جهة .

ومن جهة اخرى نلتقي بالحقيقة الاجتماعية التي ترى أن انحراف الفرد يترك أثره الكبير على استقامة المجموع لما يحدثه من آثار سلبية على حركة المجتمع ونموّه ، كنتيجة طبيعية للارتباط العضوي بين المجتمع وأفراده .

وقد حاولت النصوص الدينية التركيز على النقد في هذا الاتجاه بأسلوبين :

احدهما : يدعو الناقد الى أن يقوم بهذه المهمة الصعبة تجاه اخوانه المؤمنين بروح ايجابية واعية تنطلق في طريق البناء لا الهدم ،

الامر الذي يجعل من عملية النقد عملية نصح وتوجيه .

ثانيهما : الاسلوب الذي يدعو الشخص الذي يواجه بالنقد الى أن يشعر بالامتنان تجاه الناقد ، ويتحسس بالروح الخيّرة التي تملي عليه نقده ، ويوجهه الى مطالبة اخوانه بأن يواجهوه بعيوبه ليقوم باصلاحها ، كما يواجهونه بحسناته ليستزيد منها دون أن يجد في نفسه أي رد فعل معاكس ازاء ذلك .

أما الاسلوب الاول : فيتمثل في الاحاديث المأثورة عن النبي محمد (ص) وعن أئمة أهل البيت (ع) التي تتحدث عن حقوق المسلم على المسلم .

فمن ذلك الحديث الشريف المأثور عن النبي محمد (ص) الذي ذكر فيه ثلاثين حقا للمسلم على المسلم وجعل من تلك الحقوق . . أن يديم نصيحته .

ومن الواضح . . أن النصيحة تكون بتوجيه الانسان الى المواقف الصحيحة بدلا من المواقف الخاطئة ، كما تكون باعطاءه الرأي الحق في حالة المشورة .

ومن ذلك الاحاديث الشريف التي اعتبرت المؤمن مرآة أخيه ، كما في الحديث النبوي الشريف :

« المؤمن مرآة أخيه يميط عنه الاذى . . . »

والحديث المأثور عن الامام جعفر الصادق (ع) :

« المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله . . . »

وفي حديث آخر عنه ـ وهو يعدد حقوق المؤمن على المؤمن ـ :

« الحق الرابع : ان تكون عينه ودليله ومرآته . . . » .

ولعلنا نقف من هذه الاحاديث على طبيعة الروح التي يعيشها الانسان المؤمن تجاه أخيه من خلال التعبير بالمرآة .

فنحن نعرف أن مهمة المرآة ان تكشف للانسان عيوب وجهه في نظافته واناقته بكل وضوح ، دون أي تأثير سيء ، بل كل ما هناك ان تثير في نفسه الرغبة في الاصلاح والتغيير ، وبعبارة أدق : ان تضعه وجها لوجه امام العيب في صورته أو الخطأ في اناقته ليتولى ـ بعد ذلك ـ مهمة اتخاذ الموقف المناسب .

فاذا اعتبرنا المؤمن مرآة لأخيه ، وأضفنا اليه ـ بعد ذلك ـ أن يكون عينه ودليله فسنجد أنفسنا نواجه الاساس النفسي للنقد ، وهو ان ينطلق النقد عن قصد صحيح يستهدف تعريف الانسان ما لا يستطيع معرفته ـ بنفسه ـ بسهولة ، تماما ، كما هي عيوب الوجه التي لا يستطيع التعرف عليها بدون المرآة ، أو كما هي عيوب الاعمى التي لا يتمكن من الاطلاع عليها بواسطة عيون الآخرين .

وعلى ضوء ذلك : نعرف حاجتنا الى الشعور بالمحبة في عملية النقد ، تماماً ، كما هو شعور الانسان الذي يحاول أن يدل الاعمى على عيوب وجهه التي لا يراها ليكون له بمثابة العين التي يبصر بها .

أما الاسلوب الثاني : فيتمثل في الحديث الشريف المأثور :

« رحم الله امرءاً أهدى الي عيوبي » .

فهو يوحي الينا أن يكون شعورنا واحساسنا الذاتي ازاء الانسان الذي يقدم لنا عيوبنا وأخطاءنا على طبقٍ من محبة ونصيحة ، كشعورنا

ازاءه عندما يقدم لنا حسناتنا ومآثرنا ، أو هدية ثمينة من المطعم والملبس أو غير ذلك ، في الاحساس بالامتنان لان قيمة الهدية انما تكون بمقدار ما تحل للانسان مشكلة أو تجلب له منفعة على اساس حاجاته الغريزية أو رغباته الذاتية .

ولن يكون هناك أسمى من ان يقدّم له عيوبه التي تشوّه له روحه وتحطم كرامته من أجل أن يتفادى ذلك فيعيد الى روحه صفاءها ونقاءها ، والى كرامته قوتّها وسلامتها .

وربما نجد بعض ملامح هذا الاسلوب ، في الحديث المتقدّم الذي اعتبر المؤمن مرآة أخيه لانه في الوقت الذي يدعو المؤمن الى أن يقوم بدور المرآة الداخلية تجاه عيوب أخيه الذاتية كما تقوم المرآة بكشف العيوب الخارجية .

كذلك يوحي للمؤمن الآخر أن يعتبر اخوانه مرآة له ، ويتعامل مع نصائحهم وتوجيهاتهم ، كما يتعامل مع المرآة فيدعوهم الى نقد صفاته وأعماله ، كما يدعو المرآة الى كشف أخطاء نظافته وأناقته .

ولا يقتصر هذا الاسلوب على الحديث الشريف بل يتعداه الى الدعاء الذي يدعو به الانسان ربه ، فنجد في دعاء مكارم الاخلاق الفقرة التالية :

« . . . ووفقني لطاعة من سددّني ومتابعة من أرشدني . . . » .

فهي تعتبر السير على هدى النقد في عملية التغيير الداخلي والاصلاح العملي حاجة دينية وانسانية تحتاج الى مزيد من توفيق الله ورعايته ، مما يجعل الانسان يحس بالرغبة الروحية الى أن يطلب ذلك من ربه في خشوع العبادة وروحانية الدعاء .

وخلاصة الحديث : ان الاسلام يحاول أن يوجه الناقد والمنقود ، الى ان يواجها عملية النقد بروح واعية مخلصة ، ينطلق معها الناقد ، ليكتشف أخطاء الآخر بوعي ومحبة ، وينسجم معها المنقود ، ليشعر بالامتنان لذلك ، وليبدأ عملية التغيير على هذا الاساس .

* * *

وأمّا الحالة الثانية : وهي الحالة التي يتجه فيها النقد الى التحقير والإيذاء ، فتتحول المواجهة الى أسلوب حاقد يستهدف التحطيم فحسب .

أمّا هذه الحالة ، فنجد التشريع الاسلامي يرفضها رفضا قاطعا ، فلم يعط الانسان هذا الحق ولم يمنحه هذه الحرية .

نجد الاشارة الى ذلك في الحديثين المتقدمين عن الامامين الباقر والصادق (ع) ، اللذين اعتبرا إحصاء الإنسان زلّات أخيه المؤمن بداعي التعيير والتعنيف والإيذاء من أقرب الاشياء الى الكفر ، ومن أبعد الامور عن الله .

وقد نلمح الاشارة الى ذلك في جميع الاحاديث التي تشجب ايذاء المؤمن وتحقيره واذلاله بأي أسلوب من الاساليب .

وربما نتعرف على ذلك في حديث الامام جعفر الصادق (ع) .

« من أنّب مؤمناً أنّبه الله عز وجل في الدنيا والآخرة » .

وفي حديث آخر عنه :

« من عيّر مؤمنا بذنب لم يمت حتى يرتكبه » .

وقد يكون السر في هذا الرفض ، وهذا التشديد ، هو تركيز

الاسلام على بناء العلاقات الانسانية بين المؤمنين على أساس احترام كرامة الانسان ، لان ذلك هو الذي يخلق عنده الشعور بانسانيته وبالتالي : يساهم في حفظ قيمة تلك العلاقات وتنميتها واستمرارها وحيويتها ودورها الايجابي في خلق المجتمع الاسلامي الصحيح الذي يرتكز على قاعدة متينة من المعرفة والمحبة والاحترام المتبادل ورعاية حقوق الجميع .

[٦]

النقد الغيابي أو الغيبة :

هل يحل لنا أن نتحدث عن الناس في غيابهم بما نعرفه عنهم من عيوب ونقائص ؟ وهل يختلف الحكم حسب اختلاف الدوافع ؟

* * *

هذا هو السؤال الثالث الذي يطرح نفسه علينا في محاولتنا لمعرفة الموقف الاسلامي من النقد ـ بمعنى العيب والثلم والتجريح ـ في حالة حصوله في غيبة الانسان . . هذا الذي تصطلح عليه الاحاديث المأثورة وكلمات الفقهاء ، باسم الغيبة .

ونحاول استحداث كلمة أخرى تنسجم مع حديثنا هذا ، لنصطلح عليه اسم « النقد الغيابي » وسواء جرينا على كلمة الغيبة ، أو « النقد الغيابي » فان الحكم واحد ، وهو الرفض الحاسم له في القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ففي القرآن الكريم تواجهنا الآية التي عرضت للغيبة وتحريمها بأسلوب يتحرك بطريقة رائعة ليثير في النفس القرف والاشمئزاز من الجو النفسي الذي حاولت الآية ان تضعه فيه .

قال تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه . . . »

تلك هي الصورة الحقيقية للغيبة . . أن يموت أخوك ، وتقف انت أمام جنازته . . والسكين في يدك تعمل في كلّ جانب من جوانب جسمه ، فتقطع جزءاً من هنا ، وجزءاً من هناك . . ثم تبدأ عملية التهام قطع اللحم الميتة ، لحم أخيك . . في نهم الجائع ولذته .

هل رأيت أبشع من هذه الصورة وأفظع ؟

وهل عرفت تعبيرا عن الوحشية والقساوة ، أوضح من هذا الانسان الذي يتحرك داخل اطارها ؟

فاذا ارتفع عندك الاحساس بالفظاعة ، والشعور بالبشاعة الى القمة . . فتعال الى الصورة المماثلة ، ثم انظر . . هل تحس معها بنفس الاحساس ، او تشعر بذات الشعور .

انها صورة اخيك الغائب عنك ، وصورتك ـ أنت ـ عندما تقف أمام حياته بكل ما فيها من عيوب ونقائص واخطاء . . وتبدأ العملية ذاتها في اتجاه آخر .

فالجثة هي كرامته وسمعته وشخصيته ، والسكين هنا كلماتك التي تقطع اوصاله تماما كالسكين . . وتنتهي القصة هنا ، كما انتهت هناك امام نهم الجائع ولذة المسعور .

ان الصورة هي الصورة مع اختلاف الخطوط والالوان .

فكرامة الانسان كجسده لها نفس الحرمة ، ونفس الحقوق ، وبهذا يلتقي نهش الكرامة بنشر العيوب ، بنهش الجسد ، بالتهام قطع اللحم الميت .

ان الصورة هي الصورة ، ولكن لماذا لا نشعر بالبشاعة مع هذه كما نشعر ببشاعة تلك .

ربما يرجع ذلك الى اننا نتأثر عادة بالجانب الحي المحسوس من الحياة ، اكثر مما نتأثر بالجوانب المعنوية ، ولذا اعتبرت الصورة المحسوسة وسيلة من وسائل الايضاح للصورة غير المرئية في الحياة .

* * *

أما في الحديث الشريف ، فنجد في احاديث السيرة النبوية ، أن الرسول الاعظم (ص) قال :

« الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الاكلة [1] في جوفه » .

وفي حديث آخر عنه في وصيته المأثورة لأبي ذر (رض) :

« يا أبا ذر اياك والغيبة ، فان الغيبة أشد من الزنا ، قلت : ولم ذلك يا رسول الله » ؟

قال : لان الرجل يزني فيتوب الى الله فيتوب الله عليه . والغيبة لا تغفر حتى يغفرها صاحبها . يا أبا ذر : سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معاصي الله . . .

* * *

---

(١) الأكلة : داء في العضو يأكل منه .

[٧]

ما هي الغيبة :

جاء في الحديث عن الرسول الاعظم (ص) ـ جوابا عن سؤال أبي ذر ، ما الغيبة ـ :

« انها ذكرك أخاك بما يكره »

ويتكرر السؤال من أبي ذر :

فأن كان فيه الذي يذكر به ؟

ويجيب الرسول فيما يقول الحديث :

« أعلم انك اذا ذكرته بما هو فيه فقد اغتبته ، واذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهتّه » .

وجاء في حديث الامام جعفر الصادق (ع) قال :

« ان من الغيبة ان تقول في أخيك ما ستره الله عليه ، وان من البهتان أن تقول في أخيك ما ليس فيه » .

* * *

وعلى ضوء هذين الحديثين الشريفين . . نستطيع أن نعرف خطأ الفكرة القائلة : ان كلمة الغيبة تعبر عن الحديث الذي تتحدث به عن انسان ما في غيبته بذكر بعض العيوب أو النقائص التي تلصقها به الصاقا دون أن يكون لها اساس من الحق ، أو وجه من وجوه الصدق .

ولعل هذه الفكرة الخاطئة عن مفهوم الغيبية هي التي توحي للمغتاب أن يبرّر غيبته بأنه لا يتكلم الا حقا ، معتقداً أن الغيبة تمثل

الحديث الكاذب .

إن الحديثين الشريفين يحددان لنا مفهوم الغيبة ، بالعيب المستور الذي يعيش في واقع حياة الانسان .

أمّا العيب الذي ليس فيه ، فهو البهتان بعينه .. هذا الذي يجمع بين الكذب من جهة ، وإيذاء المؤمن من جهة أخرى .

* * *

[٨]

هل للدوافع السيئة دور في التحريم ؟

ويحاول البعض أن يربط الغيبة بدافع خاص فيعتبر للدوافع الذاتية دورا كبيرا في حرمتها .. فلكي نحكم بحرمتها لا بد لنا من أن نلمس النية السيئة لدى المغتاب ، كإرادة القدح والتشهير والانتقاص .

أمّا اذا عرفنا خلوّ الحديث من النية السيئة ، وان لم يكن هناك نية حسنة أيضا ، كما اذا كان القصد من الحديث هو ملء الفراغ والتلهي بأقاصيص الناس وقضاياهم بكل ما فيها من خير وشر دون ان يكون هناك قصد غيره ... أما اذا عرفنا ذلك فلا مجال للحكم بالحرمة .

ويحاول هذا البعض أن يبرر هذه الفكرة بالحديث المروي عن الامام علي (ع) انه قال :

« من قال في مؤمن ما رأت عيناه وسمعته أذناه مما يشينه ويهدم مروءته فهو من الذين قال الله تعالى فيهم » : **﴿ ان الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ... ﴾** .

فقد لاحظ ان الحديث جعل الغيبة في نطاق حب شياع الفاحشة الذي توعدت عليه الآية بالعذاب والرغبة فيها . . الأمر الذي يعبّر عن النية السيئة في الحديث .

وهكذا نحصل على النتيجة الحاسمة وهي أن الحديث الذي يخلو من ذلك لا تشمله الآية الكريمة .

* * *

ولكن هؤلاء أخطأوا فهم الآية ، فهي تعبر عن فعل ما يوجب شياع الفاحشة ، لان المسألة ليست مسألة حالة نفسية تتحدث عن الانسان من خلال دوافعه ونواياه لتصنف الناس الى صنفين ، صنف يعيش دوافع الخير في تصرفاته مع الآخرين ، وصنف يعيش دوافع الشر في علاقاته معهم . . بل المسألة مسألة حالة اجتماعية يراد منها حماية الانسان من اعتداء الآخرين على حياته الداخلية ، بفضح اسرارها ، وكشف ما فيها من نقاط الضعف ، ومواطن النقص ، كما يقصد بها حماية المجتمع من أجواء الفحش والسوء والضعف التي تثيرها احاديث المنكر والفحشاء التي تتحدث عن فضائح الآخرين وجرائمهم مما يسبب خلق الارضية الصالحة لهذه البذور في حياة المجتمع، واذا كانت القضية كما عرضناها ، فلا يعود للقصد أي دور في هذا الموضوع الا من حيث اعتباره احد العناصر التي تهيء لمثل هذه الاحاديث ، تماما كبقية الاسباب التي تدعو لها ، مثل الرغبة في ملء الفراغ بما يتيسر من الحديث أياً كان لونه وطبيعته ، كما يحدث للكثيرين الذين يفقدون العمل الجدي الذي يملأ أوقاتهم ، فيعمدون الى اضاعة الوقت بأي شيء دون التفات الى نوعيته ، فقد تكون المصادفة ان يحفظ هذا الانسان احاديث الآخرين التي تتعلق بأسرارهم

وعيوبهم فيحدِّث بها لانها الحديث الجاهز لديه لا لأهمية خاصة ، أو لرغبة معينة ، ولذا ، فلا مانع عنده من أن يتحدث بحديث آخر بعيد عن الموضوع أو قريب اليه ولكن بلون آخر يصور فيه حسنات الآخرين وأعمالهم الخّيرة كما يقول الشاعر .

« يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما » .

وهكذا نجد ان النقد الغيابي لا ينطلق من مبدأ ارادة التحقير والتشهير والاهانة ، بل يتمثل في مجردّ ذكر العيب ، والتحدث عن مواطن الضعف التي يكره الانسان ظهورها وشياعها سواء كان الدافع إليها سيئا أو لم يكن .

ان القضية أولا وأخيرا هي ارادة المحافظة على كرامة الانسان من أن تُهدر ، وسمعته من أن تحطّم ، وأسراره من أن تُجعل عرضةً للامتهان ، بدافع العبث أو اللغو او غيرهما .

ان الاسلام لا يريد لحياة الانسان الخاصة أن تخضع لمزاج الآخرين وحاجتهم للتنفيس عما في داخلهم من كبت ، أو في حياتهم من فراغ وحرمان ، ولذا حرمّ كل عدوان عليها بالكلمة أو بالعمل . . . وذلك هو سر تحريم الغيبة فيما نظن .

* * *

[٩]

الحالات الاستثنائية للتحريم :

متى يمكن اعتبار التشهير ونشر عيوب الناس عملا شرعيا أو اخلاقيا ؟

وبتعبير أدق : هل هناك حالات استثنائية يحل فيها للانسان غيبة

الآخرين ؟

هذا هو السؤال الرابع الذي نواجهه ونحن نعالج النقد في نطاق التجريح . . . وربما نجد المبرّر لهذا السؤال في الحالات الكثيرة التي تواجهنا بشدة في أكثر من موقف ، فتفرض علينا التحدث عن عيوب الآخرين ونقاط ضعفهم من أجل قضايا حيوية جدا لا يمكن للفرد او المجموع اغفالها واهمالها في قليل أو في كثير . . لان ذلك يضرّ بالمصلحة العامة للناس ، ويؤدي الى انحرافات واسعة في حياتهم .

فماذا نفعل ازاء هذه الحالات ؟

هل ندعو الانسان الى أن يمسك عن الخوض في حديث الناس ، وليكن ما يكون ، وليحدث ما يحدث ؟ أو نطلق له الحرية فيما يتحدث عنه ، وفيما ينقده في نطاق القضايا التي تواجهنا في الطريق وان كان في ذلك تشهير بالآخرين واساءة لكرامتهم .

لا يمكن أن نختار الحل الاول ، لان معنى ذلك جمود التشريع أمام الحالات الصعبة وفقدانه القدرة على الحركة في معالجة مشاكل الآخرين ، الأمر الذي يجعله بعيداً عن حياة الناس متعسفاً في حلوله العملية . . وهذا ما لا ينسجم مع دور التشريع الاساسي ، وهو الاخذ بحياة الناس الى اهدافه بيسر وسهولة ، فلا يشعر الانسان معه بالحرج والضيق ، ولا يجد حاجة حياتية تضطره الى التمرد عليه تحت ضغط المطالب الملحّة التي تجابهه في حياته ، وانما يشعر بدلا من ذلك بالراحة والطمأنينة الى شريعته لانها انطلقت من الواقع كما هو ، ولم تنطلق من المثالية والخيال .

ولا يمكن للتشريع الذي ارتكز على أساس فهم الواقع ووعي

جذوره الا أن تستريح له الحياة ويستجيب له الناس في محبة وواقعية دون حاجة الى الشكوى منه أو الانحراف عنه .

وعلى ضوء هذا .. فلا بد للاسلام ، الذي جاء من أجل أن يرفع مستوى حياة الانسان على أساس واقعي ، أن يكون تشريعه منسجما مع هذه الخطة وسائرا في هذا الاتجاه ، فلا يمكن له - والحالة هذه - أن يحرّم علينا غيبة الآخرين أو نقدهم في غيابهم عندما تمس الحاجة الى ذلك أو تدعو المصلحة اليه ، لان في هذا التحريم ابتعاداً عن علاج مشكلة الحاجة الملحّة ، أو مراعاة المصلحة اللازمة .. وبالتالي يؤدي الى ايقاع الانسان في الحرج الشديد الذي نفاه الله تعالى في قوله : ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ... ﴾

ولهذا فمن الطبيعي أن نختار الحل الثاني : وهو اعتبار الغيبة في القضايا الحية التي تمس حياة الانسان في الصميم ، خارجة عن نطاق التحريم فلا حرج علينا في الحديث عن عيوب الناس في تلك الحالة ، أمام الله وان أدى ذلك الى التشهير والتحقير .

أمّا الحالات الاستثنائية للتحريم فقد ذكر الفقهاء بعضاً منها في كتبهم الفقهية وأفتوا بحليّتها انطلاقا من الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة .

١ - المتجاهر بالفسق ، وهو الذي يرتكب المعاصي جهاراً دون أن يحاول التستر فيها ، فلا حرج علينا في غيبته ، لأنّ تجاهره بالتمرد على الله يفقده حقه في احترام حياته ما دام لم يحترم ربه .

وقد جاء في الحديث الشريف عن الامام الصادق (ع) قال :

« اذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة » .

وربمـا يرى البعض خـروج هذه الحـالة عن الغيبـة أساسـا ، لانها تمثل ذكر العيب المستور ، والتجاهر يتنافى مع الستر .

٢ ـ الظالم لغيره ، فيجوز للمظلوم غيبته .. وذلك، لقوله تعالى :

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ . [سورة النساء : ١٤٨] .

وقد نجد في بعض النصوص الدينيـة اعتبار اسـاءة ضيافـة الضيف ظلما له ومبررا للتحدث عنه .

فقد جاء في تفسير العياشي عن الإمـام جعفر الصـادق (ع) حول الآية المتقدمة ، قال :

« من أضاف قوما فأسـاء ضيافتهم فهـو ممن ظلم فلا جنـاح عليهم فيما قالوا فيه » .

ولعـل السبب في ذلك هـو اننا لـو منعنا المـظلوم من التحدث عن ظلمه لأغلقنا عليه باب الانتصـار لنفسه ، أو الأخـذ بحقه من ظـالمه .. وفي ذلك حرجٌ كبير عليه من جهة ، وظلمٌ له من جهة أخرى ..

ثم .. ان السلبيـة في هـذا الجـانب تقتضينـا احتـرام الـظالم في ظلمه وتشجيعه عليـه وهذا منـاف لسماحـة الاسلام وعـدله وانـطلاقه في اثارة الحرب ضد الظلم والظالمين .

وقد جاءت الآية الكريمة التي توضح هذا المعنى ـ بـالاضافـة الى الآية السابقة ـ :

﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .

[سورة الشورى : ٤١ ـ ٤٢] .

٣ ـ نصح المؤمن .. فتجوز الغيبـة بقصد النصـح فيها اذا تـوقفت

النصيحة عليها، كما اذا استشار انسان انسانا في تزويج امرأة أو في شراكة شخص ، او الارتباط به في أي جانب من جوانب الارتباط ، ولم يكن للمستشير مصلحة في ذلك ، لنقص في المرأة يعقّد له حياته ، أو عيب في الشريك يفسد ماله ، أو مفسدة ، في هذا الارتباط أو ذلك . . فاننا ـ في هذه الحالة ـ نستطيع التحدث عن ذلك ـ لو لم يكن هناك مجال آخر ـ وان لزم منه اظهار عيوب هؤلاء بل لا يبعد جواز ذلك ـ في نظر بعض الفقهاء ـ ابتداءً بدون طلب أو استشارة اذا علمنا بترتب مفسدة كبيرة على ترك النصيحة .

ولعل الاساس في هذه الفتوى هو الاخبار الكثيرة التي تدل على لزوم النصيحة للمؤمن ـ وقد تقدم بعضها فيما قدمنا من حديث .

٤ ـ اذا قصد المتحدث بالغيبة ردع المغتاب عن المنكر فيما اذا لم يمكن الردع بغير ذلك . فاذا علمنا أن شخصا يشرب الخمر او يسرق الناس مثلا ، وكان متسترا في ذلك ، ولم نستطع ردعه عن الجريمة أو المعصية الا بالتشهير به والتحدث عنه بذلك امام الناس ، لان ذلك يشق عليه ، فيتركه ليسترد كرامته ويحفظ نفسه . . فيجوز اغتيابه بل قد يجب ، لما دل على وجوب النهي عن المنكر بأي اسلوب من الاساليب الممكنة .

٥ ـ اذا خيف على الدين أو الوطن من الشخص المغتاب فتجوز غيبته دفعا لهذا الضرر وذلك في الحالات التي نعلم فيها بانسان يتجسس لمصلحة العدو ، أو يدعو الى افكار مبتدعة أو نحو ذلك مما يضر بالدين أو الوطن ، فانه يجوز لنا أن نعمد الى كل اساليب التشهير التي تفقدهم الثقة والاحترام لدى الناس ، فيبطل بذلك اثرهم في الحياة الاجتماعية .

أمّا الأساس في هذا الحكم الشرعي ، فهو أهمية دفع الضرر عن الدين أو الوطن ، من الإضرار بسمعة انسان مبدع أو جاسوس وفضحه بين الناس . . . وهذه قاعدة عامة يذكرها علماء الاصول . . وهي ان كل حالة من الحالات التي يتزاحم فيها حكمان متنافيان لا يقدر المكلف على امتثالهما معا ، فيرجح ما كانت المصلحة فيه أهم في الواجبات ، أو ما كانت للمفسدة فيه اعظم في المحرمات .

وقد نستفيد ذلك من الحديث النبوي الذي نقله الامام جعفر الصادق (ع) :

قال رسول الله (ص) : « اذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبهم والقول فيهم والوقيعه وباهتوهم كيلا يطمعوا (أو يطغوا) في الفساد في الاسلام ويحذرهم الناس ولا يتعلموا من بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات » .

٦ ـ اذا كان هناك خوف على حياة الشخص الذي تغتابه ، أو كان هناك ضرر كبير لا تستطيع دفعه عنه الا بالتشهير به ، فانه يجوز لنا اغتيابه حفظا لنفسه فان مصلحة حفظ النفس اعظم من مفسدة الغيبة .

٧ ـ جرح الشهود . . فاذا كانت هناك دعوى قضائية ، وجاء المدعي بشهود فاسقين لا يعرف فسقهم ، فيجوز لمن يعرف ذلك عنهم أن يذكر ذلك عنهم لئلا يقضي الحاكم بشهادتهم « فان الاجماع دل على جوازه ، ولان مصلحه عدم الحكم بشهادة الفسّاق اولى من الستر على الفاسق ومثله بل أولى بالجواز جرح الرواة فان مفسدة العمل برواية الفاسق اعظم من مفسدة شهادته ويلحق بذلك الشهادة

بالزنا وغيره لاقامة الحدود » .

٨ ـ رد من ادعى نسبا ليس له . . فان مصلحة حفظ الانساب اولى من مراعاة حرمة المغتاب .

٩ ـ نقد آراء الآخرين ، وان استلزم ذلك نقصا في اصحابها كسوء الفهم وغيره ، اذا توقف حفظ الحق واضاعة الباطل عليه (١) .

ويحاول الشيخ مرتضى الانصاري ـ احد العلماء الكبار في الفقه والاصول ـ ان يعفينا من تعداد الحالات الاستثنائية ، فيرسم لنا القاعدة الكلية التي يلزمنا مراعاتها في كل حالة لنعرف مورد الحلال من الحرام فيقول ـ في كتاب المكاسب المحرمة ـ :

« ان المستفاد من الاخبار المتقدمة وغيرها ان حرمة الغيبة لأجل انتقاص المؤمن أو تأذّيه منه ، فاذا فرض هناك مصلحة راجعة الى المغتاب » الذي يحدث بالغيبة أو الذي يتحدث عنه ، أو الى شخص دل العقل والشرع على كونها أعظم من مصلحة احترام المؤمن بترك ذلك القول فيه وجب كون الحكم على طبق أقوى المصلحتين كما هو الحال في كل معصية من حقوق الله وحقوق الناس .

ولهذا فان « الضابط في الرخصة وجود مصلحة غالبة على مفسدة هتك احترام المؤمن ، وهذا يختلف باختلاف تلك المصالح ومراتب مفسدة هتك المؤمن فانها متدرجة في القوة والضعف ، فرب مؤمن لا يساوي عرضه شيئا من المصالح فالواجب التحرى في الترجيح بين المصلحة والمفسدة » (٢) .

---

(١) المكاسب . . للشيخ مرتضى الانصاري ص ٤٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٦ .

وهكذا ، نعرف ـ مرونة الاسلام في الشريع ، فاذا كان التشريع منطلقا من مصلحة الانسان في الحياه ، فلا بد أن تلاحق الشريعة المصلحة أين كانت ، فلا تتجمد أمام حالة من الحالات بل تنطلق في حياة الانسان خيراً وسلاما وبركة من اجل ان يعيش الانسان حياته في راحة وطمأنينة وكرامة بين يدي الله في الدنيا قبل الآخرة .

[١٠]

النقد في نطاق تقييم الآخرين :

هذا هو الوجه الآخر للنقد ، الذي نواجه معه الحاجة الملحة الى التطلع في حياة الناس من أجل الوصول الى فهم دقيق واسع لها ، ومعرفة عميقة لهم ، ليكون تعاملنا معهم على اساس واضح متين ، لا ينطلق من النظرة الساذجة ، ولا يخضع للحكم السريع ، ولنحصل ـ من خلال ذلك ـ على معرفة صحيحة للمجتمعات التي نعيش فيها ، ونتحرك معها . . فان دراسة طبيعة الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع هو السبيل الامثل للحركة الواعية في الحياة ، لان أي حركة لا تخضع للحسابات الدقيقة لأجواء العمل وأشخاصه واوضاعه ، لا يمكن ان تسير في الاتجاه السليم أو تنتهي الى اهدافها بسلام .

وقد لاحظنا في الكثير من النصوص الدينية ، الإشادة بهذا الجانب من النقد في حياتنا العملية ، وذلك بإثارة التساؤل والفضول في نفس الناقد ، حول الجوانب الخفية التي تحتاج الى دراسة وخبرة عميقتين ، لئلا يصدر في حكمه عن اللمحات السريعة التي قد يواجهها في بادىء الرأي .

وقد اختلفت اساليب هذه النصوص في هذا المجال . . فنجد

بعضها يتجه الى الحديث عن النماذج البشرية التي تبدو في مظهر معين يوحي بالثقة ، ويبعث على الاطمئنان ولكنها لا تلبث أن تنكشف عن موقف مضاد تماما ، أمام التجربة الحاسمة التي تكشف عن الخفايا الدفينة في النفس ، وتعبر عن الصفة الحقيقية التي لم تستطع الاختباء طويلا أمام المظاهر الخادعة .

ونجد بعضها يتجه اتجاها اخر . . فيحاول تفسير كثير من المظاهر الطيبة بأكثر من وجه . . الامر الذي لا يجعلها معبّرة تعبيراً حاسماً عن المعاني الطيبة ، ما دامت تلتقي مع المعنى الخبيث في بعض الحالات ، ومع المعنى الطيب في بعضها الآخر .

النقد أمام النماذج المزيفة من الناس :

ففي الاسلوب الاول : نلتقي بالآية الكريمة .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ . [سورة الحج : ١١] .

فهي تصور لنا بعض النماذج الحية التي لا يتمثل الإيمان في حياتها إلا من خلال الحياة الطيبة الرخية التي يسير معها الإنسان . . فما دام الإيمان لا يقترب في مسؤولياته وفي نتائجه مع هذه الحياة . . فليس هناك ما يوجب التنازل عنه ، وليس لديه ما يمنع من السير معه .

أمّا اذا جاءت التجربة من خلال مواجهة الايمان المسئولية ، فاقترب الأيمان من الحياة ليثير فيها المشاكل ، وليخلق لها المتاعب ، وليبعث معها بعضا من الخسائر وبعضا من الآلام .

أمّا اذا حاولت الفتنة ان تمتحن هذا الايمان ، أو تختبر حقيقة هذا الانسان فلا يبقى هناك ايمان ولا مؤمنون ، بل هو الانقلاب على الاعقاب والخسران المبين الذي يلاحق الانسان معه مصالحه وملذاته بعيدا عن الايمان ومسؤولياته ، والحق ومتاعبه .

ان هذه الصورة الحية تثير في أنفسنا الوعي نحو الاشخاص الذين نلتقيهم فلا ننخدع بمظاهر الايمان ، ولا نحكم عليهم بمجرد ذلك قبل أن ننطلق بعيداً مع التجربة الواعية التي تنقد كل عمل نقداً عميقا حتى تنفذ الى داخله لتكتشف ما فيه من حقيقة واصالة .

* * *

ونلتقي ـ مع هذا الاسلوب ـ بالآيات التالية :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ . [سورة البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦] .

ففي هذه الآيات نجد صورة الانسان الذي يستخدم فصاحته وبلاغته في إغراء الناس بالوعود المعسولة ، والاحلام الجميلة مستعينا بالايمان المغلظة ، شاهداً على ما في قلبه ، بكل حرارة واندفاع ، حتى إذا وصل الى غايته ، وحصل على هدفه ، تكشّفت نفسه عن دخائلها الخبيثة ، وانطلق يعبث ويفسد في عباد الله وبلاده ، دون أن يُلقي بالاًالى موعظةٍ أو تحذير او تذكير ، بل تأخذه العزة بالاثم فيرى نفسه فوق الموعظة والواعظين .

ان هـذه الصورة تضـع ايدينـا على كثير من النمـاذج البشريـة التي نلتقي بها على مستوى السياسة أو الدين او الاجتماع ، فتثيـر في نفوسنـا الشـك في وعودهـا وفي أقوالهـا مـع الآخـرين ، بـل لتخلق فينـا طبيعـة الحـذر والبحث عن الاسس المتينـة التي تبعث عـلى الثـقـة وتـوحي بالاطمئنان بعيداً عن كل مظهر خادع أو كلام ساذج .

أمـا قيمـة هـذا الاسلوب الـذي يتمثـل في الآيـات الكـريمـة المتقدمة ، فهي في اعـطاء الشواهـد الحية من الحيـاة على خطأ الاسس النقـدية التي ينـطلق معها النـاس في تقييم الآخرين فيسيئـون ـ من خلال ذلـك ـ الى انفسهم والى الحياة . . . ومن ثم يتجه الى توجيـه الانسـان الى النقـد الـواعي المـرتكـز على الاسس التي تبتعـد عن الانحـراف والخطأ في أكثر الحالات .

النقد امام المظاهر الخادعة في الحياة :

وأما الاسلوب الثاني ، الذي يحاول تفسيـر المظاهـر الطيبـة بأكثـر من معنى ليثير الحذر أمامها قبل التسرع بـاصدار الحكم على اسـاسها ، فنلتقي فيـه ببعض النصوص الـدينية المـأثورة عن بعض أئمـة أهل البيت (ع) :

ففي الحـديث عن الامام علي (ع) ويـروى أيضا عن النبي محمـد (ص) قال :

« لا تنـظروا الى كثرة صـلاتهم وصيامهم وكثـرة الحـج والمعـروف وطنطنتهم بالليل ، انظروا الى صدق الحديث وأداء الامانة » .

وفي حديث آخر عن الامام جعفر الصادق (ع) :

« لا تغتروا بكثرة صلاتهم ولا بصيامهم فان الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش ولكن اختبروهم بصدق الحديث وأداء الامانة » .

ففي هذين الحديثين نجد الرفض الحاسم للمقياس المعروف لدى الناس في تقييم ايمان الشخص ودينه ، انطلاقا من كثرة الصلاة والصوم وممارسته الدائمة لبقية الاعمال العبادية واقباله على المعروف واعمال الخير .

أمّا السبب في هذا الرفض ، فهو خضوع كثير من هذه الاعمال الى العادة التي نشأ عليها هذا الانسان ، فهو ينطلق من الشعور بالالفة معها ، وبالوحشة في حالة تركها ، لا من أساس ديني عميق من الايمان والاخلاص ، فهي لا تعبّر عن الجذور الاصيلة في الداخل ولذلك فانها لا تصلح اساسا للتقويم وللاختبار ، بل لا بد من اتّباع مقياس آخر لا يخطىء في أغلب الحالات ، وهو الصدق والامانة ، لأنهما ينطلقان من جذور الارتباط بالحق لا سيما اذا كانا ضد مصلحة الانسان المادية .

الامام زين العابدين يخطط للنقد :

ونلتقي ـ مع هذا الاسلوب ـ بحديث آخر عن الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع) :

اذا رأيتم الرجل قد حسن سمته وتمادى في منطقه وتخاضع في حركاته ، فرويداً لا يغرنكم ، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام منها لضعف نيته ومهانته وجبن قلبه فنصب الدنيا فخاً لها ، فهو لا يزال يختل الناس بظاهره فان تمكن من حرام اقتحمه واذا

وجدتموه يعفّ عن المال الحرام فرويدا لا يغرنكم فان شهوات الخلق مختلفة فما أكثر من يتأبى عن الحرام ، وان كثر ، ويحمل نفسه على شوهاء قبيحة فيأتي منها محرما .

فاذا رأيتموه كذلك فرويدا لا يغرنكم حتى تنظروا عقدة عقله فما أكثر من ترك ذلك أجمع .. ثم لا يرجع الى عقل متين فيكون ما يفسده بجهله أكثر مما يصلحه بعقله .

فاذا وجدتم عقله متينا فرويدا لا يغرنكم حتى تنظروا ليكون هواه على عقله ، أم يكون عقله على هواه ، وكيف محبته للرياسات الباطلة وزهده فيها فان في الناس من يترك الدنيا للدنيا ويرى أن لذة الرياسة الباطلة أفضل من رياسة الاموال والنعم المباحة المحللة فيترك ذلك أجمع طلبا للرياسة ، حتى اذا قيل له : اتق الله ، اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ، فهو يخبط عشواء ، يقوده أول باطله الى أبعد غايات الخسارة، ويمد به بعد طلبه لما لا يقدر في طغيانه، فهو يحلُّ ما حرم الله ، ويحرم ما أحلَّ الله ، لا يبالي ما فات من دينه ، اذا سلمت له الرياسة التي قد شقي من اجلها . فأولئك الذين غضب الله عليهم وأعدّ لهم عذابا أليما .

ولكن الرجل كل الرجل الذي جعل هواه تبعا لأمر الله وقواه مبذولة في قضاء الله يرى الذل مع الحق أقرب الى عز الابد مع العز في الباطل ، ويعلم ان قليل ما يحتمله من ضرّائها يؤديه الى دوام النعيم في دار لا تبيد ولا تنفد ، وان كثيرا مما يلحقه من سرّائها إن اتبع هواه يؤديه الى عذاب لا انقطاع له ولا زوال ، فذلك الرجل فتمسكوا به واقتدوا بسنته والى ربكم توسلوا به فانه لا ترد له دعوة ولا يخيب في طلبه .

ففي هـذا الحـديث تحليـل دقيق للدوافـع المتنـوعـة التي تختفي خلف المظاهر الطيبة للانسان ، ومحاولة بارعة لتخـطيط الاسس النقديـة التي يرتكز عليهـا الحكم على طبيعة الاشخـاص وذلك بمـلاحقة جميـع هـذه الدوافـع والانتقـال من بعضهـا الى البعض الآخـر حتى يستنفـدهـا بأجمعها ، ليخرج ـ بعد ذلـك ـ بالحكم الصحيـح المستند الى محـاكمة واسعة دقيقة ، وتحليل بارع عميق .

ولعل ذلك كله يرجع الى ان الاسـلام يريـد للانسـان أن يبتعد عن السذاجة والسطحية في نظرته الى النـاس وتقييمه لهم ، لان ذلـك يسيء الى طبيعـة علاقـاته العمليـة بهم ، والى فهمه للجـو الـذي يعيش فيـه ، ممـا يجعله يعيش الفوضى والارتبـاك في حياتـه ، وحياة الآخـرين ، بما تفـرضه السـذاجة من تـأييد لمن لا يستحق الـرفض وتعـاطف مـع بعض المواقف التي لا تنسجم مع مصلحـة الامة ومستقبلهـا في جميع جـوانب الحياة العامة والخاصة .

مناجاتك اذا أنا ناجيتك وما لي كلما قلت قـد صلحت سريـرتي وقرب من مجـالس التـوابين مجلسي عـرضت لي بليـة أزالت قـدمي وحـالت بيني وبين خدمتك .

سيـدي : لعلك عن بابـك طـردتني ، وعن خـدمتـك نحيتني ، او لعلك رأيتني مستخفـا بحقك فـأقصيتني ، أو لعلك رأيتني معرضـا عنـك فقليتني ، او لعلك وجـدتني في مقـام الكـاذبين فـرفضتني ، او لعلك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني او لعلك فقـدتني من مجالس العلمـاء فخـذلتني أو لعلك رأيتني في الغـافلين فمن رحمتـك آيستني أو لعلك رأيتني آلف مجـالس البـطالين فبيني وبينهم خليتني ، أو لعلك لم تحب ان تسمـع دعائي فبـاعدتني ، أو لعلك بجـرمي وجـريـرتي كـافيتني ، أو

لعلك بقِلّة حيائي منك جازيتني » .

* * *

فنحن نجد في هذه الفقرات ان الانسان يجابه موقفاً داخلياً روحياً ، وهي انه لا يحاول الاقتراب من الله بالصلاة والمناجاة ، إلّا ويجد المعوقّات أمامه من الكسل والنعاس وفقدان الروح التي تتصل بالله بخشوع .

ثم نلتقي بموقف آخر يستسلم فيه الانسان الى رغبة ذاتية بالنظافة الروحية من الداخل باصلاح السريرة ، والتوبة الى الله من كل قلبه ، . . ولكنه يجد المزالق أمامه في الطريق لتنحرف به عن القصد ، ويواجه العقبات التي تحول بينه وبين الانطلاق بعيداً في اتجاه الخير واصلاح النفس .

انه يواجه هاتين الحالتين ، ويحاول ان يبحث لهما عن تفسير يبررهما ، ليعرف أين تكمن المشكلة ، فيعرف أين يكون الحل .

وهنا يبدأ عملية استعراض جميع الجوانب التي تصرف الانسان عن الخير وتحول بينه وبين ربه . . ليحلّلها تحليلا دقيقا ويحاكم هذا الواقع من خلالها ـ لينتهي الى النتيجة الحاسمة التي تتمثل في بدء عملية التصحيح من خلال الجذور العميقة التي تتصل بالمشكلة .

* * *

ولعل هذه الطريقة هي أفضل الطرق التي يعتمد عليها اسلوب النقد الذاتي ، لانها ترتكز على الاستقراء الكامل الذي لا يترك جانبا يرتبط به الواقع أو تتصل به الظاهرة ، إلّا ويحاول إبرازه بوضوح .

وربمـا يجد البـاحث الكثير من هـذه النماذج في الأدعيـة المأثـورة التي يتحول فيها الانسان الى ناقد واع ينقد نفسـه وحياتـه بين يدي الله ، بكل اخلاص وروحانية وخشوع .

* * *

وقد أفاض علمـاء الاخلاق الاسـلاميون في الحـديث في موضـوع النقد الذاتي تحت عنوان محاسبة النفس ، ومراقبتها ، وتركـوا لنا الكثيـر من التجارب العملية ، والاساليب المتنوعـة ، التي تعطي لـلانسان نـظرة واعية للطريقة التي يمكنـه فيها ممـارسة هـذا المبدأ في حيـاته ولا بـأس بمراجعة كتاب احياء العلوم للغزالي وجامع السعادات للنـراقي وغيرهمـا من كتب الاخلاق .

النقد الذاتي في الاسلام

أ ـ ما هو النقد الذاتي ؟

النقد الذاتي : هو نقد الفرد نفسه ، أو نقد الامة او بعض قطاعاتها الاجتماعية نفسها . . وذلك ، بالتحليل العميق الواعي ، من اجل تحديد مواطن النقص ، وأسباب العجز والمؤثرات المؤدية الى وجود العيوب والنقائص .

ويتمثل ذلك في الفرد ، في تحليل الدوافع الذاتية للعمل من جهة ، وتحديد المؤثرات الخارجية التي شاركت في اتخاذ هذا الموقف أو ذاك .

فقد يستسلم الانسان لموقف تأييد لبعض الاشخاص ، أو رفض لبعض آخر ، وقد يكون هذا الموقف محاطاً ببعض الجوانب الخاصة من جهة ، وببعض الجوانب العامة من جهة أخرى .

فاذا أراد أن يعرف قيمة عمله من الداخل فبإمكانه تحليل الدوافع الخفية التي شاركت في اندفاعه للعمل ، فقد يكتشف الصفة

الخاصة ، وهو يتخيل انطلاقه من الصفة العامة ، وقد يكون هذا الموقف واقعا تحت رحمة مؤثرات عديدة ، ولا يعرف الانسان السبب الأعمق في التأثير ، فيكتشفه بعد التحليل ، ليكتشف طبيعة المؤثرات الخارجية التي تضغط على ارادته .

مثل ذلك في الامة ، في تحليل المواقف الكبيرة التي تقفها من الأحداث ، او الأحداث التي تقتحم حياتها الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتؤدي بها الى تقدّم أو تأخر ، وتقودها الى هزيمة أو انتصار . . فقد تختلط المؤثرات ، وتتشابك الأسباب . . ويأتي دور النقد الذاتي الذي يحلل ذلك كله من خلال تحليل الافراد المسئولين اعمالهم ، وتحديد المؤثرات العامة والخاصة ، وأسباب الربح والخسارة ، ومواطن النجاح والفشل . . وللوصول الى معرفة أعمق ، وفهم واسع لطبيعة الموقف وأبعاده . .

ب ـ حاجتنا الى النقد الذاتي :

تنبع حاجتنا الى النقد الذاتي من حاجتنا الى فهم أنفسنا في أبعادها الداخلية والخارجية ، والى فهم واقعنا بكل ما يشتمل عليه من ظواهر وحركات ، فان الانسان الذي لا يعرف نفسه لا يملك معرفة وجهة حياته ، لانه لا يدري من أين تنطلق خطاه ، والى أين تسير . . . فهل تنطلق من قاعدة المنفعة الذاتية ، أو من واقع الرسالة العامة ؟

وهل تتجه الى القمة أو تنحدر الى الحضيض ؟

فقد يختلط الامر على الانسان ، فيخيل اليه أنه يسير على أساس الحق في لحظات الانفعال المرتجل ، ولكنه اذا فتش نفسه ، اكتشف انه يسير على اساس ذاتي محض ، لا يتصل بالحق من قريب أو

بعيد ، لان الدوافع الحقيقية للحركة لا تطفو على السطح ، بل تستقر في أعماق النفس ودهاليز الشعور ، بشكل لا شعوري ، فلا تظهر الا للبحث العميق الذي يفتش ويحلل ويحاكم . . . وتبقى الدوافع تعطي للعمل طابعه الظاهري الذي يخدع الأعين التي يبهرها السراب .

وهكذا قد نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام الواقع الذي نتخبط فيه ونعيش في أجوائه سواء أكان واقعا دينيا أو سياسيا او اجتماعيا او اقتصاديا ، فقد يخضع فهم هذا الواقع لتفسيرات سطحية مرتجلة ناشئة عن النظرة الارتجالية التي تستسلم للأسباب القريبة الجاهزة التي تبدو للعين من أول نظرة ، دون ان تكلّف نفسها عناء البحث عمّا وراء ذلك من أسباب ، أو تتعرف الى الجوانب البعيدة التي ساهمت في ولادة هذه الظاهرة أو نشوء هذا الواقع .

أمّا خطر ذلك ، فيتمثل في تشويه الصورة الحقيقية للمشكلة في ظل الواقع ، مما يسبب بعداً عنها وعن الحلول العملية الصحيحة لها ، . . فربما يكون الداء في جانب ، وتكون المعالجة لجانب آخر وربما ترتبط المشكلة بأكثر من جهة ، ويكون الحل منطلقاً من جهة واحدة . . وهكذا تضيع الخطوط التي يسير عليها الانسان في الوصول الى فهم الواقع أو حل مشكلته .

ولن يختلف الامر في هذا الموضوع ـ بين أن يكون الموقف على مستوى واقع الفرد ، وبين أن يكون على مستوى واقع المجتمع او الامة بشكل عام ، لان كلًّا منهما يرتكز على اساس طبيعة الفهم الحقيقي الذي يشارك في علاج الواقع . أو الفهم الخاطىء الذي يساهم في تعقيده وإرباكه من جديد .

فهناك بعض الحالات التي تعيش فيها الامة بعض الهزائم أو

الانتصارات ، فتحاول دراسة الاسباب التي هيّــأت للهزيمـة ، أو شاركت في النصـر . . فاذا انـطلقت من خلال النـظرة السطحيـة التي تحـاول ان تنظر الى الجوانب الظاهريـة للامـور كانت النتيجـة ابتعاداً عن القضيـة ، وعن الحـل الصحيح للمشكلة ، او عن الـدرس العملي الـذي نستفيـده منها للمستقبل ، فقد نرجع النصر الى القـوّة الذاتيـة التي كنا نملكهـا في المعـرفـة ، ونغفـل بقيـة الاسبـاب التي قـد يكـون من بينهـا المـوقف السيـاسي العالمي أو الاقليمي الـذي استطاع أن يعـطي بعض الفرص ، او يخلق بعض المؤثرات وستكون النتيجـة اننا سنعتبـر القوة كـل شيء ، فيخيل لنا انها الاساس الذي ترتبط بـه معارك المستقبـل المماثلة . كمـا ارتبـطت به معـارك الماضي ، فنتصـرف على هذا الاسـاس بينمـا يكـون المـوقف السيـاسي مختلفـا كـل الاختــلاف عن المـوقف في المعــركـة الماضية .

وربما يكون للظروف الخاصة الداخلية والخـارجية ، التي يعيشهـا العـدو المهزوم بعض الاثـر في هزيمتـه . . فاذا لم نـدخلها في حسـابنـا ـ في حالة تحليل الواقع ـ فستكون النتيجـة لمصلحته في الجـولة القـادمة عندما تتغير ظروفه التي ساهمت في انتصارنا او في هزيمته .

أمّـا في حالـة الهزيمـة ، فقـد نسيء فهم الاسبـاب التي شـاركت فيهـا ، فنرجـع السبب الى ظـروف خـارجـة عن ارادتنـا او قـدرتنا ، في محاولة ساذجة للتبرير ، تعتمـدها الشعـوب المهزومـة في عملية سـاذجة لحفظ ماء الوجه ، اوإيحـاءٍ ببقايا الكرامة .

ومن الـطبيعي ان ذلك سـوف يخفي عنـا الاسبـاب الحقيقيـة التي تكمن في تصرفاتنـا العملية في واقعنـا الفكري والسيـاسي والاجتماعي ، فـربمـا يكـون لهـا أكبـر الاثـر في ذلــك كله ، دون ان نلتفت اليهـا او

نحسب لها اقل حساب .

ولن نحتاج الى جهد فكري كبير لنفهم ان ذلك سوف يكرّس الهزيمة للمستقبل ، كما كرّسها للماضي لاننا سوف نظل حيث نحن نراوح اقدامنا في مواقع الهزيمة وبدايات الطريق نتطلع الى خارج قدراتنا وارادتنا ، بعيداً عن الواقع الداخلي الذي ترقد في اعماقه الهزيمة .

وربما تتمثل الحاجة الى النقد الذاتي في دراسة بعض الاوضاع التي درجنا على ممارستها في شؤون الدين والدنيا ، انطلاقا من عادات قديمة ، أو تقاليد مستحكمة ، أو نظرة خاطئة تجد في هذه الاوضاع الشاذة ضماناً لقيم معينة ، أو مبادىء كبيرة ، وترى أن زوال هذه الاوضاع يشكل خطرا على تلك القيم والمبادىء ـ كما نراه في الكثيرين الذين يصرون على ابقاء المظاهر المتخلفة لبعض الممارسات التي اصطبغت بصبغة دينية او اجتماعية ، بحجة انها هي التي تحفظ للمجتمع عقيدته او توازنه او ارتباطه بالقيم ، فاذا فقدناها فقدنا هذه الضوابط التي يحتاجها المجتمع في حياته الدينية والاجتماعية .

ربما نحتاج الى النقد الذاتي ـ في هذه الحالة ـ لنعرف كيف نشأت هذه الاوضاع ، وكيف انطلقت جذورها لتفرض وجودها على الدين والمجتمع ، ثم لندرس تأثيرها العكسي على الواقع الديني أو الاجتماعي بما تمثله من مظاهر التخلف . . ثم لنتعرف ـ من خلال فهمنا لواقعنا المعاصر ـ كيف يمكننا الحصول على ضوابط جديدة بعيدة عن التخلف ، لتحفظ للمجتمع عقيدته وتوازنه وتساهم في التوفيق بين طبيعة الوسيلة وبين طبيعة الغاية في مستوى الممارسة .

* * *

وهكذا نخلص - من خلال هذا العرض الموجز - الى نتيجة حاسمة : وهي ان حاجتنا الى النقد الذاتي ، تنبع من حاجتنا الملحة الى أن نكتشف في ذواتنا وفي حياتنا ، وأقوالنا وأفعالنا مواطن القوة ، ومراكز الضعف ، ونتعرف اسباب ذلك كله ، لنستطيع تطوير ما يمكن تطويره من مراكز القوة ، واكمال ما نستطيع اكماله من مواطن النقص ، وتقوية ما نقدر على تقويته من حالات الضعف .

وربما نحتاج الى النقد الذاتي في الحالات التي يتعرض فيها الانسان الى بعض الاوضاع الاجتماعية التي تتضخم فيها شخصيته ، وترتفع مكانته ، بفعل المؤثرات الخاصة التي تعطي الشخص اكثر من قيمته . . فقد يخيل اليه - في لحظات الانفعال العاطفي - انه يملك هذه الشخصية ، ويرتفع الى هذا المستوى ، فيقع ضحية غرور ذاتي يؤدي به الى الهلاك في النهاية .

ربما نشعر بقيمة الذاتي في هذه الحالة . . بالنظر الى أنه ينفتح به على واقع حياته كما هو ، فيلتفت الى مواهبه ، وكفاءاته ليعرف حجم شخصيته على الطبيعة دون زيادة او نقصان ، لينطلق الى الحياة من خلال ذاته ، لا من خلال الورم الذي يتراكم عليها بلا معنى ودون حساب .

وقد نلمح الدعوة الى هذه الممارسة في دعاء في مكارم الاخلاق :

« اللهم لا ترفعني في الناس درجة الا حططتني عند نفسي مثلها ، ولا تحدث لي عزاً ظاهرا الا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها » .

فنحن نلاحظ ان الدعاء يهدف الى ان يلتفت الانسان الى مواطن الضعف التي تنزل بميزان نفسه الى واقعها الطبيعي بعيداً عن مظاهر الرفعة الظاهرة ، لئلا يختل التوازن في واقع حياته ، كما يدعو الى أن لا تشغله مظاهر العز التي يحصل عليها من خلال نشاطاته ومواهبه عن مواطن النقص التي توحي له باستشعار التواضع والذلة في نفسه ، كنتيجة طبيعية لذلك .

وقد نلمح ذلك فيما يروى عن الامام علي (ع) عندما كان يواجهه بعض الناس بالمدح والثناء انه كان يقول :

« اللهم اجعلني خيرا مما يظنون وأغفر لي ما لا يعلمون » .

فنلاحظ ان المدح لم يصرفه عن النظر الى الجوانب الاخرى التي تكمن بعيدا عن نظر الناس في داخل ذاته .

ولن يختلف هذا الاسلوب بين الحالة التي يخلص الناس له فيها بالمدح عن اعتقادٍ بصلاحه وبين الحالة التي يحاولون ان يتزلفوا اليه ، أو يخدعوه عن نفسه ، لأنه ـ في كلا الحالتين ـ يتعرض لخطر الغرور الذي يؤدي به الى فقدان التوازن في حياته ، وهذا ما لا يريده الاسلام .

وقد نجد مثل هذا النموذج في واقع الهيئات والمنظمات السياسية والاجتماعية التي تنطلق ـ في البداية ـ نحو أهدافها العملية باتزان واستقامة ، فيحاول أعداؤها تفجيرها من الداخل ، بأسلوب التضخيم المتطرف لنشاطاتها العادية ، والتركيز على قيادتها بتسليط الاضواء على شخصياتهم بدون ميزان ، لينتهي الامر ـ بعد ذلك ـ الى الغرور والزهو الفارغ الذي يوحي لها بأنها فوق مستوى النقد ، مما يجعلها تعتبر

الخطأ صوابا ، والانحراف استقامة ، والباطل حقا ، دون التفات الى نقد الناقدين ووعظ الواعظين وارشاد المرشدين . . الأمر الذي يؤدي بها الى الوقوع في الاخطاء الكبيرة التي تجعل مقاتلها باديةً للاعداء دون مقاومة .

ان عملية النقد الذاتي ـ في هذه الحالة ـ تمثل جرس الانذار ازاء هذا الواقع قبل أن يستفحل ويستعصي على المعالجة ، لانه يكتشف الأزمة قبل ان تتعقّد ، ويرجع القافلة الى الطريق قبل أن تبتعد كثيرا في صحارى التيه .

ولذا فان القضية ليست قضية نظرية جامدة تعيش في متاحف النظريات ، بل هي قضيةٌ عمليةٌ يواجه فيها الفرد او الامة ، الواقع الحي على الطبيعة مجرداً عن كل خيال وانفعال ، من أجل التعرف عليه من جميع جوانبه ، والعمل على دفعه نحو التقدم في اتجاه المستقبل .

* * *

[١٢]

موقف الاسلام من النقد الذاتي :

عندما نقترب من النصوص الدينية التي عالجت موضوع النقد الذاتي ، ودعت اليه ، نلاحظ انها بدأت في ايجاد الجو الداخلي له .

ولعل ذلك يعتبر من الامور الضرورية في هذا المجال ، لان من غير الطبيعي أن يمارس الانسان عملية النقد في الأجواء الذاتية التي يشعر معها بالكمال النفسي الذي يتمرد على النقص ، ويعلو على النقد .

وعلى هذا الأساس ، جاءت الآيات الكريمة التي توحي للانسان بأنه ليس فوق مستوى الشبهات ، فهناك مواطن ضعف كثيرة تعيش في داخل نفسه وتقتحم عليه حياته . . وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة في سورة يوسف :

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

[سورة يوسف : ٥٣] .

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ۝٣٢﴾. [سورة النجم : ٣٢] .

فقد نستطيع أن نفهم من هاتين الآيتين ان الاسلام لا يوافق على منح النفس الحكم بالبراءة من كل سوء ، ما دامت النوازع الداخلية تثير في الانسان معاني السوء والشر والضلال ، وما دام الانسان يستجيب لها في بعض الحالات ، فكيف يمكن له أن يزكيها ويدّعي لها العصمة من كل نقص والسلامة من كل سوء .

وقد حاولت بعض الآيات أن تشير الى بعض مواطن الضعف في الانسان بشكل صريح من أجل أن يلتفت الانسان الى ذلك فيحاول تحليل بقية مواقفه واعماله على ضوء ذلك ويعمل على محاكمتها في هذا الاتجاه .

وذلك كقوله تعالى :

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾.

[سورة الأنبياء : ٣٧] .

وقوله تعالى :

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ۝١١﴾. [سورة الإسراء : ١١] .

وقوله سبحانه : ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء : ٢٨] .

* * *

ثم انطلقت الآيات الكريمة لتواجه الانسان بمسئوليّته في أعماله امام الله سواء أكان العمل صغيرا أم كبيرا ، لتثير في نفسه الشعور العميق بالحاجة الى القيام بدور المحاسبة الدقيقة التي تفصل بين العمل الصالح وبين العمل غير الصالح .

اقرأ الآيات التالية :

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴿١١١﴾﴾ [سورة النحل : ١١١] .

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ . [سورة الصافات : ٢٤] .

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ . [سورة الكهف : ٤٩] .

ثم تنطلق الدعوة الى النقد والتأمل والتفكير فيما عمل الانسان ، وفيما قدّم ، لإجراء كشف دقيق على جميع اعماله وأقواله في الدنيا :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ . [سورة الحشر : ١٨] .

ان هذه الآيات تحاول ان تهيء الجو النفسي للقيام بهذا الدور تجاه نفسه ، ليعرف كيف يواجه الله بصدق وايمان .

* * *

وعندما نقترب من النصوص الدينية في نطاق الحديث النبوي الشريف ، وأحاديث أئمة أهل البيت (ع) نجد الدعوة الى المحاسبة والنقد الذاتي ، واضحة صريحة مؤكدة .

ففي الحديث النبوي الشريف :

« حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا وزنوها قبل ان توزنوا » . . .

وفي حديث نبوي آخر ، في وصيته المأثورة عنه ، لأبي ذر :

« يا أبا ذر : لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه ، فيعلم من أين مطعمه ، ومن اين مشربه ، ومن اين ملبسه ، أمن حلال او من حرام ؟ » .

ويروى عن الامام علي (ع) ان النبي (ص) قال :

« أكيس الكيّسين من حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت » .

فقال رجل للامام : يا امير المؤمنين كيف يحاسب نفسه ؟

قال : اذا أصبح وأمسى رجع الى نفسه وقال : يا نفسي ان هذا يوم مضى عليك لا يعود اليك أبدا والله يسألك عنه بما أفنيته .

فما الذي عملت فيه ؟ أذكرت الله أم حمدته ؟

أقضيت حوائج مؤمن فيه ، أنفّست عنه كربة ، أحفظته بظهر الغيب في أهله وولده ؟

أحفظته بعد الموت في مخلفيه ؟

أكففت عن غيبة أخ مؤمن ، أأعنت مسلما ؟

ما الذي صنعت فيه ؟

فيذكر ما كان منه ، فان ذكر انه جرى منه خير حمد الله وكبره على توفيقه ، وان ذكر معصية ، أو تقصيراً استغفر الله وعزم على ترك معاودته .

ونلاحظ - في هذا الحديث - انه يطرح نموذجا لعملية المحاسبة ، ليكون اسلوبا يمارسه الشخص في العمل فقد يكون الموضوع الذي يواجه عملية الحساب فيه ، ماذا عمل ؟ ليكون التحليل لمفردات العمل الذي صدر منه ، . أمّا اذا كان الموضوع هو دوافع العمل ، فلا بد أن تكون النتيجة في الجواب تحديد النوازع الذاتية التي انطلق منها العمل . . وربما تكون القضية قضية موقف خاطىء صدر منه أو شارك فيه ، فينطلق السؤال في مواجهة المؤثرات التي شاركت في الخطأ من قبله أو من قبل غيره .

وعلى أيّ حال ، فليس الامام في معرض التحديد لطريقة المحاسبة ، ونوعية النقد ، بل هو في مجال إعطاء النموذج لذلك ليسير الانسان على هداه فيما يماثله أو يشابهه من قضايا ومواقف . . . وعلى ضوء هذا نعرف ان هذه النصوص وان ركّزت على الحساب في الدنيا من أجل مواجهة الحساب في الآخرة مما يوحي بأن المسألة ليست مسألة النقد الذاتي في نطاق حياتنا التي تعيش . . الا أننا نلاحظ فيها شمول النظرة من جانبين :

الاول : ان الحساب الذي يهدف الى تصفية الانسان اعماله أمام الله في الآخرة لا ينفصل عن المحاسبة في واقع حياتنا المعاش ، لان حياتنا هذه ، بكل ما فيها من خير وشر ، أو قوة وضعف ، أو نجاح أو فشل ، هي التي نحاسب عليها في الآخرة ، لان لكل جانب من هذه الجوانب حكماً لله يراد من الانسان تنفيذه والاخلاص له ، فيثاب على

اطـاعته ، ويعـاقب على عصيانـه والتمرد عليـه ، سواء كـان ذلك الشيء يتعلق بأصل العمل ، أو بنوعيته ، وأبعاده .

الثاني : ان هذه الاحـاديث تستهدف وضـع الانسان في جـو النقد والمحاسبة ليسيـر في هذا الاتجـاه ، . واذا تعلم الانسان كيف يحـاسب نفسـه من خلال الآخـرة ، عرف ـ من خـلال ذلك ـ كيف يحـاسب نفسه في شؤون الدنيا ، لان طريقة الحياة واسلوبهـا في بعض الجوانب ينـطبع على بقية الجوانب ، فان اسلوب الانسان في مـواجهة حيـاته وممـارستها لا يتغير ولا يختلف باختلاف مفرداتها وأبعادها .

ولعـل أوضح كلمـة تضع أيـدينا على المعنى الشـامل لهـذا المبدأ هي كلمـة النبي (ص) المتقدمـة : « وزنوهـا قبل ان تـوزنوا . . » فـانهـا دعوةٌ الى القيام بعملية تقييمٍ للنفس من الداخل والخارج قبـل أن توضـع في الميزان وفي عملية التقييم دون شعور .

وربمـا نجد في بعض النصـوص الدينيـة ، الدعـوة الى أن يمارس عملية النقد فيما يقدم عليـه من اعمال ومـا يريـده من مشاريـع ، قبل ان يقدم عليها او يخوض فيها .

ففي نهج البلاغة : من كلام للامام علي (ع) :

« فليصـدق رائـد أهله ، وليحضـر عقله ، وليكن من أبنـاء الآخـرة فانه منها قدم ، واليها ينقلب فالنـاظر بـالقلب عامـل بالبصـر يكون مبتـدأ عمله أن يعلم . . أعمله عليه أم له ؟ » .

فإن كان له ، مضى فيه ، وإن كان عليه ، وقف عنه فإن العامل بغيـر علم كسـائر في غيـر طـريق فـلا يـزيـده بعـده عن الـطريق الا بعـدا من حـاجته ، والعـامل بـالعلم كسائـر على الطريق الـواضح فلينـظر ناظـر ، أسائر هو أم راجع ؟

وقد نجد في الأدعية الكثيرة التي وردتنا في التراث الاسلامي ـ عن أئمة اهل البيت (ع) نماذج حية من أساليب النقد الذاتي الذي يعتمد على تحليل المواقف والظواهر من اجل الوصول الى الاسباب التي شاركت في حدوثها ، أو الجوانب التي ارتكزت عليها ، او الآفاق التي تعيش فيها . . كل ذلك بطريقة روحية واعية ينطلق فيها الانسان بين يدي الله ، ليكتشف نفسه في أبعادها الخفية والظاهرة .

ولعل من اوضح هذه النماذج الفقرات التالية في دعاء ابي حمزة الثمالي الذي يقرأ في السحر في شهر رمضان :

« الهي ما لي كلما قلت قد تهيّأت وتعبأت واستعدّيت ، وقمت للصلاة بين يديك وناجيتك ، ألقيت علي نعاساً إذا أنا صليت وسلبتني مناجاتك إذا أنا ناجيتك» .

خاتمة المطاف :

وفي نهاية المطاف : نجد أننا نقف وجها امام قضية النقد على جميع ألوانه وأقسامه ، لنواجه الموقف الاسلامي الذي يدعونا الى السير به في نطاقه الذي أراده الله ، وهو الجانب الذي لا يستهدف الهدم لمجرد الهدم ، والتخريب من اجل التخريب ، بل يستهدف البناء والاصلاح والتقييم واعطاء الواقع صفته الواقعية دون زيادة ولا نقصان .

ثم . . . نلتفت الى ذواتنا واوضاعنا العامة والخاصة ، لنعيد النظر فيها على اساس النقد الذاتي الذي يحلل للنفس دوافعها واعمالها ، ويفتش في الظواهر والاوضاع عن اسبابها وأبعادها ، لنلتقي بالحقيقة الخالصة دون لف او دوران . . ولنصل في النهاية الى شاطىء الامان حيث يلتقي الانسان بالحق والخير والايمان جميعا ، بين يدي الله .

لكل سؤال جواب

- ما هو مدلول كلمة : « الدين أفيون الشعوب » وكيف نناقشها ؟
- هل الاساس في نشأة الدين هو حاجة الانسان المتخلف إلى العزاء ؟
- هل يكرّس الدين عجز الانسان أمام الظواهر الكونية ؟
- كيف يبرر ماركس دعوة الدين إلى الانطلاق من الايمان من خلال المعرفة ؟
- هل الدين مخدّر ؟
- ما هو موقف الاسلام من حوادث قتل الفتاة المنحرفة غسلاً للعار ؟

س ١ ـ هناك كلمة مشهورة عن الدين قالها « كارل ماركس » : (انه أفيون الشعب) . . ما هو مدلول هذه الكلمة . . وكيف نناقشها ؟

ج ـ لعل أفضل تحليل دقيق لهذه الكلمة ، هو التحليل الذي كتبه « هنري لوفافر » في كتابه « كارل ماركس » .

ولذا فاننا نحاول أن ننقله بكل امانة ، لتكون المناقشة مناقشة علمية ترتكز على مصدر صحيح ، يبعدنا عن الافتراضات التي يدعو اليها الهوى والغرض ذات اليمين وذات الشمال .

مدلول الفكرة :

قال هنري لوفافر :

كتب ماركس في احد مؤلفاته الاولى « المساهمة في نقد فلسفة الحقوق عند هيجل » : « ان الدين أفيون الشعب » .

من الشائع ان هذه الصيغة تعني ، عن لسان ماركس ، ان الشعب يثمل بالدين كما يثمل الانسان بالخمرة ، لكي ينسى متاعبه .

وان الشعب يُسقى هذا المهيّج لكي ينسى مطالبه ودوره السياسي العظيم .

لا شك ان هذا التفسير يتلاءم مع فكرة ماركس . غير ان هذه الفكرة أرفع مدلولا ، وأكثر دقة .

ولنعد الى قراءة الصفحة كلها :

« الانسان يصنع الدين ، وليس الدين يصنع الانسان . الدين وعي الانسان ذاته ، أمّا حين لم يكن قد وجد ذاته بعد ، واما اثر فقده الذات . والانسان هو عالم الانسان الدولة والمجتمع . هذه الدولة وهذا المجتمع ، ينتجان الدين وهو وعي مزور عن العالم لانه يصدر عن عالم مزور . والدين هو النظرية العامة لذلك العالم ودائرة معارفه ومنطقه الشعبي ، ومفخرته الفكرية والروحية ، ومجال حماسته ، والبراءة التي ترضي حسه المعنوي والاخلاقي ، وشيء جليل يكمل ما يحسه من نقص ، وموضوعه الدائم الذي يجد فيه العزاء والتبرير .

ان البؤس الديني لهو التعبير عن البؤس الواقعي ، والاحتجاج على البؤس الواقعي في وقت معا . الدين زفرة الكائن المثقل بالالم ، وروح عالم لم تبق فيه روح ، وفكر عالم لم يبق فيه فكر . . انه أفيون الشعب » . . . اذن فنقد الدين هو الخطوة الاولى لنقد هذا « الوادي الغارق بالدموع » حيث يركز الدين هالته . ان النقد ينتزع الازهار الوهمية التي كانت تغطي اغلال الانسان ، وذلك لا ليحمل اغلالا عاطلة من الازهار والاحلام وانما ليلقي عنه اغلاله ، ويقطف الزهرة الحقيقية الحية . النقد ينزع الغشاوة عن عيني الانسان ، لكي يفكر ويمل ، ويكيّف حقيقته ، كما يجدر بانسان بلغ سن الرشد » .

ويعلق هنري لوفافر على هذا الكلام فيقول :

« يدل مجمل هذه الصفحة ، بوضوح ، على ان الدين في نظر ماركس لا يتضاءل فيقتصر على « تحمس » فكري فظ . . . وهو لا يأخذ على الدين افتقاره الى الجمال ، وانما يأخذ عليه انه يضيف الى الحياة جمالا موهوما ، من شأنه ان يخلف الحياة الحقيقية في قبحها فلا يغيرها . وهو لا يأخذ على الدين افتقاره الى الروح والفكر ، وانما يأخذ عليه انه ليس الا روحا وفكرا ـ روح عالم بلا روح ، وفكر عالم بلا فكر ـ وان الدين يحوّل الانسان عن نفسه باخفاء اغلال الانسان تحت الازهار . وكيف لا يتنهد « المخلوق الرازح في آلامه » متضرعا الى السماء ؟[1] .

* * *

ونستطيع أن نفهم ـ من خلال هذا الحديث ـ أن كارل ماركس ـ يرتكز في فكرته على الدين على اساس التفسير المعروف لدى بعض المفكرين في كيفية نشوء الدين . . وهو أن ولادة التفكير الديني انطلقت من جهل الانسان وعجزه ، الذي يجعله يفكر في وجود قوى خفية تحميه من الرعب الذي يسيطر عليه ازاء القوى الطبيعية . . . ثم في حاجته الى العزاء الروحي أمام حالات الالم والاضطهاد الذي يجعله يبحث عن العزاء فيما وراء الطبيعة .

وعلى ضوء هذا ، فان الدين ـ في نظر ماركس ـ الصورة الحقيقية للواقع الذي يعيشه الانسان ، فهو نتاج الواقع الذي فقد العزاء في الداخل فبدأ يبحث عنه في الخارج ، وصورة العالم الذي افتقد الروح

---

(١) كارل ماركس ، هنري لوفافر ، دار بيروت .

التي تمده بالحياة في اوضاعه العامة ، فانطلق يتلمسها في آفاق بعيدة عن حياته واوضاعه .

ولذا فان علينا ـ من خلال وجهة نظره ـ أن ننطلق بعيدا في نقد الدين بازاحة الغشاوة التي تحجب عينيه عن حقائق الطبيعة ومؤثراتها ، وارشاده الى الطرق العملية للتغلب على مشاكلها التي تعترضه في الطريق ، ليشعر بفقدان الحاجة الى العزاء فيما وراء الغيب ، ما دام قادرا على ان يجد عزاءه في هذا العالم بازالة اسباب الاضطهاد التي اكتشفها بنفسه . . . وبذلك يتحرر من الحاجة الى حماية القوى الخفية التي يفترضها خياله وتخلقها أوهامه كوسيلة من وسائل التفسير والتبرير .

وهذا هو الذي عبر عنه في حديث آخر يقول فيه :

« يجب نقد الدين ، بل ان هذا النقد لهو الشرط الاول لكل نقد . . . » فكيف ننقده ؟ ننقده بتفسيره ، وبالرجوع الى التاريخ لكي نرى كيف ولماذا بحث « الكائن المضطهد » عن عزاء له في ما وراء الطبيعة . . . وتحليل الشروط الواقعية للحياة الانسانية يفسر لنا كيف أطلق الانسان على غيوم الغيب الخيالية صورته الخاصة ، وما يعتلج في نفسه من مشاغل وهموم ، فبدت مضخمة مثالية ، وذلك لان الوعي لا يحدد الحياة وانما الحياة هي التي تحدد الوعي [1] » .

وهكذا يكون الدين نتيجة طبيعية للواقع الذي يعيشه الانسان ، انطلاقا من الفكرة التي تقول ان الفكر نتاج المادة ، ليس عنصراً سابقا لها يؤثر فيها في نطاقه المجرّد ، وعلى ضوء هذه الفكرة ، يتحول

---

(١) المصدر السابق

الدين الى أفيون يخدر الانسان عن حياته ويبعد به عن مشاكله ، فبدلاً من أن يتجه الى حياته ليملأها بالحقيقة الحية التي تقيم اوضاعه كلها على اساس عقلي نجده يتجه الى الخيال ليجعلها تعيش في نقاب صوفي غامض ـ على حد تعبيره ـ .

* * *

مناقشة الفكرة :

اننا نحاول مناقشة هذه الفكرة من خلال عدة علامات استفهام نثيرها حول هذه الفكرة التي قررها ماركس ، وتبعه عليها الماركسيون .

أ ـ اننا نريد ان نتساءل عن الاساس الذي انطلق منه التفسير الذي يربط نشوء فكرة الدين بالعجز والجهل ويفلسف الحاجة الى الدين بالحاجة الى العزاء خارج نطاق الطبيعة ، ليكون النقد نقدا يرتكز على اساس علمي ، لا على أساس افتراضي ، لان الافتراض لا يصلح ان يكون نقدا لافتراض آخر .

في البداية : لا بد من ان تكون القضية التي تفرض نفسها على الانسان ، هي الاجابة على السؤال التالي :

هل يمكن ارجاع العقيدة الدينية الى أساسٍ عقليٍّ متينٍ أو لا يمكن ذلك ؟

فاذا كان الجواب ايجابا ـ كما يقرره المفكرون الدينيون ـ وأمكننا بذلك تبرير العقيدة الدينية من وجهة نظر عقلية ، فكيف يمكن اعتبار الاساس الوحيد فيها هو العجز والجهل والحاجة الى العزاء . . وهل تعدو المسألة على أقل الفروض أن تكون وقوفا بين الاحتمالين ؟

ان هناك فرقا كبيرا بين الحقيقة العلمية ، وبين الافتراض

العلمي . . . فالحقيقة العلمية تخضع للأسس التي لا تقبل الشك لكي تصل الى مستوى الحقيقة ، سواء منها الأسس المنطقية للتفكير ، او الأسس التجريبية للاستنتاج . . أمّا الافتراض فهو يعبر عن حدس مجرد قد يخضع لملاحظات ذاتية ، أو شواهد محدودة لا تستطيع أن تمنح الانسان الطمأنينة واليقين . .

ثم . . كيف نفسر وجود العقيدة الدينية لدى الشعوب التي استطاعت أن تقتحم الكثير الكثير من اسرار الكون حتى اصبحت تشعر بالثقة الكبيرة بنفسها ، وبما تملك من وسائل السيطرة على الطبيعة ، ولم تعد تحس بضرورة التعلق بالمجهول في فهم الظواهر الكونية أو في الشعور الذاتي بالامن والحماية .

واذا أرجعنا العقيدة الدينية بين هذه الشعوب المتقدمة ، الى الرواسب التاريخية التي لا تزال تضغط على وجدان الانسان وتفكيره . . فكيف نفسر وجودها لدى الرجال الاقوياء من العلماء الذين واجهوا الكون بالشك من أجل أن يكتشفوه ويفهموه ، وانطلقوا معه بروحية العالم الدقيق الذي يحسب لكل شيء حسابه ، ويرى لكل ظاهرة سببها الطبيعي المعقول . . فهو لا يعيش العقلية التائهة في ضباب المجهول ، ولا يختنق في غيوم الغيب الخيالية في تفسير الكون ، بل يعيش في ملاحقة دائمة لكل سؤال ، ليضع أمامه الجواب .

هل نستطيع تفسير هذه العقيدة لدى هؤلاء بالرواسب التقليدية التي تمنعهم من التمرد على موروثاتهم وهم الذين تمردوا على كثير منها وحملوا راية الدعوة الى هذا التمرد ؟

وهل يمكن أن يكون الشعور بالجهل والعجز والحاجة الى

العـزاء ، وهـم الذين يعملون من اجـل تغيير الـواقـع المتخلف الى واقـع متقدم .

فـاذا أمكن للقضيـة أن تبتعـد عن التفسيـر الـذي يحـاول مـاركس وغيره نقد الـدين من خلالـه فكيف يمكن اعتباره اطـاراً للحقيقة العلميـة المزعومة التي تجعل من الدين روحا لعالم يعيش بغير فكر .

اننا لا نمانع في قابلية هذا الافتـراض للتطبيق على بعض الـظواهر الـدينية المنحـرفة في بعض المـراحل ولكننـا نمنـع تصحيـح الافتـراض كشيء يفسـر لنـا العقيـدة الـدينيـة بكـل أشكـالهـا وألـوانهـا ومـراحلهـا التاريخية .

* * *

وربمـا يجد بعض المفكرين المـاركسيين ، مـلامـح هـذا التفسيـر المـاركسي للدين ، في النـظريــة التي يقـرهــا كثيـر من « المفكــرين » الدينيين الذين يعتقدون بأن ما رزح فيه الكـائن البشري من عجـز وبؤس يبـرران وجود الـدين . . ولكنهم يرون ان هـذا واقـع أبـدي لا رادّ لـه ، ويعتقــدون أن حـالــة الانسـان هــذه المؤلمـة تــرتبط ارتبــاطــا حتميـا « بـانحـطاطـه » وانحـرافـه عن جـوهـره « وسقـوطـه من الفـردوس » . . « وبخطيئته الاصليه » . . وهذا ما لا يؤمن به ماركس ولا الماركسيون .

* * *

أمّا تعليقنا على هـذا الرأي . . فهـو ان هذه النـظرية ليست نـظرية كـل المفكـرين الـدينيين بـل هي نــظريـة البعض منهم ، فهــل يمكن اعتبـارها شاهداً على التفسيـر المتقـدم ، مـا دام القسم الآخـر منهم لا يتبنى هذه النظريات ، فهو ينطلق في ايمانـه بالـدين من الاسس الفكريـة التي تفـرض هذا الايمـان كمـا انـه يـرفض فكـرة الانحـطاط والخـطيئة

الاصلية ويعتبر الانسان كائنا يعيش الصراع في داخله على اساس تكوينه الطبيعي ، دون أن يخضع لخطيئة حتمية مفروضة عليه دون اختيار .

اننا نجد في هذا التعلق برأي هؤلاء ما نستطيع اعتباره شاهدا على ضعف الاساس الذي يرتكز عليه التفسير الماركسي للدين . .

* * *

ب ـ هل يكرّس الدين عجز الانسان أمام الظواهر الكونية ، ليكون ذلك بمثابة شاهد على انطلاق الدين من فكرة الشعور بالعجز امام الكون .

اننا نلاحظ ـ امام الجواب على هذا السؤال ـ ان القرآن الكريم لم يحاول التركيز على ضعف الانسان أمام قوى الكون ، بل حاول التأكيد على ضعفه امام الله من جهة ، وعلى ضعفه الذاتي من خلال تكوينه المادي من جهة اخرى ، تماماً ، كما هو الحال في الموجودات المادية الاخرى ، التي تتأثر وتنفعل بما حولها من الاوضاع الكونية .

ولكن التأكيد على ضعف الانسان أمام المطلق لا يراد منه التعبير عن انسحاقه نتيجة هذا الضعف ، بل يقصد منه الإيحاء بأن قوته ، مهما بلغت من العظمة والامتداد ، لا تستغني عن قوة الله ، فانها تستمد منها في كل لحظة شيئاً جديداً ، تماماً كما يكون امتداد الطاقة إزاء مصادر الطاقة في الحياة . . . ليعرف الانسان ـ من خلال ذلك ـ قيمة قوته ، أين تبدأ ، وأين تنتهي ، وكيف تنطلق ، ليكون اكثر واقعية ، وأشد تواضعا في ممارسته لهذه القوة .

أمّا تكوينه المادي الذي يجعله يضعف فينفعل بما حوله ، فلا يوحي له بالضعف أمام القوى المادية الاخرى التي تحيط به ، بل

القضية ـ على العكس من ذلك ـ تتجه الى الإيحاء بامكانية السيطرة عليها جميعا .

فقد قرر الاسلام ـ في اكثر من آية . اعتبار القوى الكونية مسخّرةً للانسان . . . والتسخير قد يعطي معنى الانتفاع بفوائدها في بعض الحالات، وقد يعطي أنها مسخرة له فبامكانه تطويرها واخضاعها لارادته في نطاق القوانين الطبيعية التي تتحكم فيها .

وقد نجد في بعض الآيات القرآنية الكريمة ملامح الايحاء ـ ولو من بعيد ـ بقوة الانسان العظيمة وذلك لانه يحمل ما لا تستطيع القوى الكونية أن تحمله ، وان انحرف عن الخط في النهاية وذلك قوله تعالى :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾.

[سورة الأحزاب : ٧٢] .

فان هذه الآية ، قد انطلقت في نطاق التعبير عن المسئولية التي حملها الانسان ولم يتلاءم مع متطلباتها . . ولكن في التأكيد على عدم حمل السماوات والارض والجبال ، لما يحمله بعض الايحاء بقدرة الانسان على أن يحمل ما لا تحمله هذه القوى الطبيعية العظيمة .

وهكذا نخلص الى النتيجة الحاسمة وهي : اننا لا نجد في الدين أيّ تكريس لعجز الانسان امام الكون ، بل القضية ـ على العكس من ذلك ـ هي التأكيد على قوته الكبيرة أمامه .

* * *

ج ـ اذا كـان الدين كمـا يتصوره مـاركس وغيره ـ ينـطلق من فكـرة الجهـل بالاسبـاب والقوانين الـطبيعية التي تحكم الكـون ، ولذا يحـاول الانسان افتراض قوى غيبية تفسر له ما حوله من ظواهـر وحركـات . . اذا كـان الـدين ـ كمـا يتصـورون ـ فكيف نفهم دعـوة الـدين الى أن ينـطلق الانسـان في طريق معـرفة الـطبيعـة بكـل مـا فيهـا من ظـواهـر وقـوى ، للوصـول الى فهم اعمق يعرف فيـه الانسـان عـظمـة الخـالق من خـلال عظمة الخلق .

فنحن نـلاحظ ان الاسلام لم يحـاول دعـوة الانسـان الى الايمـان الاعمى عنـدما دعـاه الى الايمـان بـالله بـل حـاول دعـوتـه الى الايمـان الواعي المنفتح على المعرفة بالكون وأسراره .

وهنـا يتخذ الاسـلام المـوقف القـوي الـذي يعكس الـزعم الـذي فسرت به النظرية الماركسية نشوء الدين ، فيعتبـر المعرفـة العلمية طـريق الـدين ، فكلما زاد الانسـان علما زاد ايمـانا ، وبهـذا جاءت الآيـة التي تقـول : ﴿ **وقـل رب زدني علمـا** ﴾ ، كمـا يعتبـر الجـهـل طـريق الانحـراف ، ومن هنا جـاءت الآية التي تفسـر الانحراف بقـوله تعـالى : ﴿ **ولكن اكثـر النـاس لا يعلمـون** ﴾ . . . فكـانت الـدعـوة الى تحكيم العقل ، وتطور العلم اسـاس الاسلام في دعـوته وعقيـدته . . ولم يكتف الاسلام بتقرير هذا الخط في أطار المظاهـر الطبيعيـة للكون ، بـل حاول ان يفسر الظواهـر الاجتماعيـة بأسبـابها النـابعة من القـوانين العامـة التي تتحكم بمسيرة الكون وحركته في الحياة .

فهـو عندمـا يتحدث عن انحـراف الانسان يؤكـد على ان انحرافـه خـاضع للواقـع الذي يصنعـه بيده وليس خـاضعا لأوضـاع غيبية خفيـة لا يعلمهـا ، كما في قـوله تعـالى ـ وهو يحـدثنا عن الـظلم الـذي يمـارسـه

الانسان ضد نفسه ، ليربطه بارادة الانسان واختياره :

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ۝٥٧ .

[سورة البقرة : ٥٧] .

أما اذا تحدث عن تغيير المجتمع ، فانه لا يتحدث عنه من خلال اوهام الغيب الخيالية ـ كما يحلو لماركس ان يقول ـ بل يتحدث عنه من خلال تصورات الانسان للحياة وارادته النابعة من ذاته وظروفه .

قال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ .

[سورة الرعد :١٢] .

وقال في آية اخرى :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ .

[سورة الانفال : ٥٣] .

فهو يقرر قانون التغيير في الحياة ، ويحدثنا أنه لا يخضع للصدفة أو للغيب . . بل يخضع لواقع الانسان الذي يصنع عملية التغيير من خلال فكره وممارساته في الحياة .

وفي الحديث عن الفساد والظلم الاجتماعي ، لا يعتبره قدرا مفروضا على الانسان من فوق دون ارادته بل يجعله منطلقا من عمل الانسان وتحركاته ، ولنقرأ هذه الآية :

قال تعالى :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ۝٤١ .

[سورة الروم : ٤١] .

فهـو يثير أمام الانسان اسبـاب الفسـاد ، ويـوحي لـه بـالآلام التي تنتج عنه ، ليكتشف طريق خلاصـه من خلال عمله وارادتـه التي تتحكم في العمل .

اننـا نحاول في هـذا الحديث اشـارة هذه الجـوانب ، لا الافاضـة في الحـديث عنها ، لنؤكـد الفكرة التي نحـاولها وهي : ان الـدين الذي يـدعـو الى معـرفـة اوضـاع الحيـاة وظـواهـرهـا من داخـل الحيـاة لا من خارجها ، لا يمكن ان ينـطلق من فكرة الشعـور بالعجـز والجهل بتفسيـر الكون .

د ـ هل التصور الـديني للحياة يحجب من الانسـان مطالب الحيـاة وحاجاتها ليكون مخدراً يثمل به الانسان كمـا يثمل بـالخمرة . . ومهيجـا يسقى به الانسان لينسى مطالبه ودوره السياسي العظيم .

ان الجواب عن هذا السؤال يفرض علينا التعـرف على جوانبـه . . فقـد نجد هـذا المعنى في دعوات الصبـر والرضـا بالقضـاء والقـدر ، أو التوكل ، أو الوعد بالجنة التي يجـد فيها الانسـان كل سعـادة وكل راحـة بدلا من هذه الحيـاة ولكن هل الـدين يدعـو الى هذا كله بـالمعنى الذي يتصوره الآخرون .

اننا نلاحظ باختصار ، ان في هذه الدعـوات معاني إيجابية تبتعـد عن هذا التصور المخدر ، وربما نفهم ذلـك من دعوة الاسـلام للانسـان الى أن يمـارس دوره في الحيـاة في اقـامـة العـدل ، ودحـر الـظلم من خـلال الكفـاح في سبيـل ذلـك . . حتى المـوت ، ويشجب مـوقف الضعف والذل والخضوع والاستكانة ، ويـرفض اعتبارهـا مبرراً لـلانسان في مواقفه السلبية والايجابية المضادة ، كما يؤكد لـلانسان انـه هو الـذي يصنع مصيره ولذا فان عليه أن يجاهد في سبيل ذلك كله .

اننا لا نعرف كيف يكون مثل هذا مخدراً ينسى بـه الانسان مـطالبه ودوره السياسي العظيم . . .

ان ذلـك هـو واقـع الـدين في فكـره الاصيـل ، أمّا الممـارسـات الدينية المنحرفة التي يحاول بعض المتاجـرين بالـدين او الجاهلين بـه ، أن يفـرضـوهـا عليـه . . فهـذه لا يتحملهـا الـدين ، ولا يمكن للمفكـر المنصف أن يعتبرها اساسا للحكم على الدين .

* * *

س ٢ ـ هنـاك واقع نعيشـه في بلادنـا العربيـة والاسـلاميـة ، وهـو معـاقبة الفتـاة التي تنحرف أخـلاقيـا بـالقتـل تحت شعـار « الـدفـاع عن الشرف » و « غسل العار » فما هو موقف الاسلام من ذلك ؟

* * *

ج ـ ان الاسـلام يرفض هـذا الـواقـع جملة وتفصيـلا على أساس الملاحظات التالية :

أ ـ ان الـذين يمـارسـون هـذا التصـرف لا ينـطلقـون من فكـرة المحـافظة على الشـرف من حيث هـو قيمـة كبيـرة من قيم الاخـلاق في الحيـاة ، بل ينـطلقون ـ فيـه ـ من فكرة التخلص من العـار ومن مواجهـة تعييـر الآخرين . . ولـذا نجد الكثيـرين من هؤلاء لا يهتمون لـلانحـراف اذا كـان خفياً لا يعـرف به أحـد ، ولم يتحول الى فضيحـة اجتمـاعيـة ، كمـا نلاحظ في سلوكهم العملي في هـذا المجال . . انهم لا يتصـرفون هـذا التصرف في حـالة انحـراف الرجـل ، لانـه لا يمس شـرف العـائلة الاجتمـاعي ، كما هـو الحال في المـرأة . . فكأنـه قدِّر للمـرأة ازاء هذا المفهوم الجاهلي ـ أن تتحمل مسئوليـة الشرف ، دون ان يحمـل الرجـل من هذه المسئولية أيّ شيء حتى ولو كان ـ هو ـ صانع المأساة .

وربما يؤكد لنا هذه الصـورة ، ان هؤلاء لا يقصرون هـذا التصرف على حالة الانحراف بل يمارسونه في حالة حدوث إشاعـةٍ حـول الفتاة ، وان كانوا يعلمون انها كاذبة ، او في حـالة إقـدام المرأة ، او الفتـاة على الـزواج بشخص لا يرتضيـه الاخ او الاب او القريب مـع كـونـه كفؤا لهـا ومنسجمـا مـع عقلـهـا وذوقهـا وحيـاتهـا ، لان ذلـك يسيء في مفهـوم التقاليد العشائرية ، الى شرف العائلة وكرامتها .

وهـذا كله بعيد عن شـرع الاسلام وتفكيـره ، لانـه يعتبـر القضية قضية قيمة اخـلاقية تتصـل بحياة الانسـان الفرديـة او الاجتماعيـة ، التي يحمـل الـرجـل مسئـوليتهـا بنفس المستوى الـذي تحمله المـرأة من المسئـولية ، بـل ربما يحمـل الـرجـل ـ وحـده ـ المسئـوليـة كـاملة غيـر منقـوصة ، وقـد تتضاعف مسئـوليته وعقـوبته اذا كـانت المـرأة خـاضعـة لضغَط الاكراه على الانحراف من قبل الرجل .

أمّا موضـوع الشرف فليس مقيـاسه العـرف الجاهلي المنحـرف بل مقياسه الاول والاخير هو الاطار الذي وضع الاسلام فيه احكامه .

فـالتهمـة التي لا تـرتكـز على أسـاسٍ ثـابت لا تبـرّر أي عمـل تجـريمي مهمـا كـانت الـظروف والاحـوال ، لانهـا لا تصلح ـ وحـدهـا ـ اساسا للحكم . . كما ان الزواج بـالكفؤ ، وان لم يرض بـه الاقربـاء ، لا يعتبر عملا ضـد الشرف ، وان رفضتـه الاعراف الاجتمـاعية والتقـاليد العائلية ، لان الاسلام أعطى للفتاة حريـة الزواج بـالكفؤ ولـم يجعل لأي انسان سلطة منعها من ذلك حتى لو كـان ـ هذا الانسـان ـ أباهـا ، ثـم ان الاسـلام ـ حتى في صورة الانحـراف ـ لا يوافق على الفكـرة التي تحمّل العـائلة او القبيلة ضـرر ذلـك ليكـون في ذلـك تعـريض لشـرف العـائلة للخـطر ، لان شرف كـل انسان يخصّـه ولا يتعـداه الى غيـره في حـالـة

الاستقامة او الانحراف . فكل انسان ينعكس عليه عمله ولا ينعكس على غيره حتى ولو كان قريبا منه .

ب ـ ان انحراف الفتاة بالزنا . لا يبرر الحكم عليها بالموت مطلقا على اساس قانون العقوبات الاسلامي ، لان الزانية أو الزاني لا يحكم عليهما بالاعدام رجماً بالحجارة الا في حالة الاحصان ، وهو الزواج ونحوه ، أمّا في غير ذلك فالحكم الاسلامي هو الجلد حسب النص القرآني ، الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله .

وعلى أي حال فان الحكم الشرعي يخضع لعنصر الاختيار فلا عقوبة مع الاكراه من أي من الطرفين .

ج ـ ان هناك قاعدة شرعية مسّلمة بين الفقهاء ، وهي : ان الحدود تدرأ بالشبهات فلا حدَّ الا فيما اذا ثبت الزنا بشكل لا يقبل الشك بأن يشهد الشهود الاربعة بتفاصيل الواقع ، او يقر الانسان على نفسه بالزنا بالشكل المحدّد الذي لا يحمل الشبهة .

ولعل مثل ذلك لا يتوفر في اكثر الحالات التي يمارس فيها هؤلاء هذا العمل .

د ـ ان السلطة الشرعية الحاكمة هي السلطة المنوط بها رعاية شئون هذه الامة فلم يجعل لأيّ انسان حق التنفيذ بعيداً عن حكم السلطة ونظرها ، لان ذلك يحوّل الامر الى فوضى تبعا لأهواء الناس وشهواتهم ومنافعهم . وقد ورد ذلك في الحديث المروي عن الامام الصادق (ع) :

عن حفص بن غياث قال : سألت أبا عبد الله « الصادق » (ع)

من يقيم الحدود ؟ السلطان أو القاضي ؟ قال : إقامة الحدود إلى من إليه الحكم .

وربما يكون الاساس في ذلك ، هو ان ممارسة هذه العقوبة يتوقف على ثبوت الجرم ولا يتحقق اثبات الجريمة بعيدا عن الاهواء والاغراض الشخصية الا في نطاق السلطة الشرعية ، لان الافراد غير المسئولين يتصرفون غالبا على اساس انفعالاتهم التي ترتكز على الشبهة والتهمة ، دون تثبت او اطمئنان .

ولهذا كله يعتبر الاسلام الذي يقدم على هذا العمل وهو تصفية حياة الفتاة ـ في هذه الحال ـ قاتلا يترتب عليه ما يترتب على القاتل من عقوبة دون أية ظروف مخففة ، كما يصنعه المشترع الوضعي في القانون المدني . . وهذا شيء متفق عليه في غير حالة الاحصان ، أمّا في تلك الحال ، فان الكثيرين من الفقهاء يرون ان القاتل لا يتحمل الا الاثم دون القصاص ، لان المقتول ليس بمحقون الدم فلا حرمة له ولكننا نميل الى رأي الفقهاء الآخرين الذين يقولون ان القاتل لا يملك سلطة تنفيذ الحكم على هذا الانسان ، ولذلك فهو قتل بغير حق ويترتب عليه ما يترتب على القاتل من عقوبات انطلاقا من أدلة القصاص .

الحلقة السادسة والسابعة

مَوقفُ الاسلامِ مِنَ الانفِعَالِ
و
لِكُلِّ سُؤالٍ جَوَابْ

● الانفعال في علم النفس والأخلاق .
● موقف الاسلام من الانفعال .
● لكل سؤال جواب .

المقدمة

بِسم الله الرحمن الرحيم

كنـا نـود أن تكـون حلقـات هـذه السلسلة متقـاربـة ، او متصلة ، حتى نـظل على صلة بـالقـارىء الكـريم ، ولكن الـظروف العـامـة والخـاصة ، أخّـرت صدور هـذه الحلقة ، إلى هـذا الوقت ، راجين من الله التـوفيق لأصـدار هـذه السلسلة بشكـل منتـظم ودقيق ، لتستـطيـع المساهمة الفعليـة المتواصلة في ايضـاح المفاهيم الاسـلامية ، لـلانسان المسلم ، حـذراً من ان يـظل يعـاني الضيـاع في زحمـة المفـاهيم اللاإسلامية .

واننـا نـود أن نـوضـح للقـارىء الكـريم ، أن هـذه البحـوث التي نعـالجهـا في هـذه الحلقـات ، قـد لا تخلو من الجـدة في هـذا الاطـار الذي تحاوله ، لاننا لم نعثر ، حتى الآن ، على معالجـة المواضيـع التي أثرناها ، بهذا الشكل من الشمول والموضوعية .

ولـذا فاننـا ـ ونحن لا ندّعي لانفسنـا العصمة والاستيعـاب ، فقـد تكون هناك جوانب لم نهتد اليها ، وربما تكـون هناك نقـاط لم نوضحهـا ـ نـرجـو من القـراء الكـرام ان يـوافـونـا بمـلاحـظاتهم في جميـع هـذه

القضايا ، لنصل إلى الهدف الذي نعمل من اجله . وهو تركيز المفاهيم الاسلامية ، بعيداً عن أيّ انحراف أو تحريف أو غموض والله سبحانه من وراء القصد . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

محمد حسين فضل الله

الحلقة السادسة

القسم الأول

الانفعال في علم النفس والأخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

الانفعال في علم النفس والاخلاق

القسم الأول

[١]

في حياة كل منا لحظات محمومة ، نشعر فيها بحالة غير طبيعية ، تأخذ على النفس كل جوانبها ، وتستفزّ كل مشاعرها فتتوتر الأعصاب ، وتلتهب الأحاسيس ، وتتصاعد من الأعماق رياحاً مجنونةً تجتاح في طريقها كل شيء .

إنها لحظات الأنفعال التي يعيشها الأنسان أمام أزمات الحياة ومشاكلها عندما تتعقد في كيانه ، أو تفاجئه في حالات الصراع مع الآخرين الذين يعايشهم ويعايشونه ، فيغضب تارةً ، ويرضى أخرى . . أو يرزّح تحت أثقالها في مصائب الدهر وخسائره وآلامه ، **فتطغى** معها عواطفه ، وتفيض بمشاعر الحزن التي قد يفقد لديها أية رؤية واقعية للموقف .

وقد تتمثل هذه اللحظات في الاندفاع المجنون أمام انتصاراته غير المتوقعة ، او أرباحه غير المحتسبة ، فتمتلىء ذاته بمشاعر الفرح الذي يتعاظم ويتعاظم حتى يأخذ على النفس وعيها وتفكيرها .

. . . وتتنوع اللحظات في أسبابها ، وتختلف في ألوانها ،

وتفترق ـ تبعاً لـذلك ـ في مـظاهرهـا التعبيريـة ، من انقبـاض وتقلص ، وانبســاط وانشــراح ، أو صــراخ او قهقهــة ، او تصفـيق ، او رقص او تطبيل ، او حركات استعراضية ، او كلمات عاطفية .

فما هو موقفنا من ذلك كله ؟

هـل نندفـع مع هـذه الأنفعالات . . فنجـري مـع التيـار المجنـون الهـائج ، ونتـرك للنفس مداهـا في الأندفـاع ، وحـريتهـا في التعبيـر عن مشـاعرهـا دون ضابط او رادع ، لئـلا تنكمش وتتعقـد وتختنق في أجـواء الكبت الخانقة . كما يحلو للبعض أن يقول .

أو نقف وقفـة هدوء وتـأمـل وتفكيـر ، فنعـطي للنفس مجـالهـا في التنفيس عن العـاطفة دون أن نسمـح لها بـالتجاوز عن الحـدود الطبيعيـة للمواقف، قبل أن يتحول الموقف إلى كارثة تأكل الأخضر واليابس .

ما هو موقف الاسلام من هذه الحالات ؟

هل هناك وجهة نظر اسلامية تحـدد للانســان تصرفـاته أو تـوجه لـه سلوكه امام حالات الانفعال .

هذا ما نحاول التعرف عليه لننطلق في حيـاتنا العمليـة على أساس المفاهيم الاسلامية الواضحة في الحياة .

[٢]

لماذا هذا الحديث ؟

ربمـا نجد الجـواب في دراسة الـواقع الحيـاتي لـلانســان المسلم الـذي ابتعد عن مفـاهيمه الاسـلامية في الحيـاة فلم يعتبـر ان لـلاسـلام مفهـوماً في هـذا الجانب او ذاك ، بـل القضيـة عنـده في أغلب الـظن ،

قضية احكام شرعية متفرقة تنهى عن فعـل ، وتأمـر بفعل ، وتبيـح آخر ، دون ان يكون هناك قـاعدة واحـدة او مفهوم واحـد يربط بين هـذه الأمور ويـوحدّجوانبها .

وهكـــذا أصبحنـا نعيش الفـــراغ الفكـري والنفسي من المفـــاهيم العـامة للحيـاة في مقابـل امتلاء تشـريعيٍّ نمارسـه بحرفيتـه دون اهتمـام بجذوره ومنابعه .

ولعل الخطورة في ذلك كله ، تتمثل في أنـه يفسح المجـال لولادة مفـاهيم اجتمـاعيـة او نفسيـة جـديـدة تختلف عن المفـاهيم الاسـلاميـة وتتصادم في كثير من آثارها وظواهرهـا مع الممـارسات العمليـة للتشريـع الاسـلامي في الحيـاة . . . الأمـر الـذي يجعـل الانسـان المسلم يبتعـد تـدريجيا عن التشـريع ، وبـالتالي عن الاسـلام ، بشكـل لا شعـوري ، وربمـا يخضـع لاسلوبٍ خـادع يـوحي لـه بـأنـه يسيـر مـع الحق . . في الوقت الذي يذهب فيه بعيدا مع الباطل .

لذلك فنحن هنـا نحاول أن نجمـع بعض المفردات التشـريعية من هنا وهناك لنؤلف منها قاعـدةً تشريعيـة إسلاميـة واحدة تنـطلق الى الحياة من مفهوم اسلامي اصيـل يمدهـا بالـروح ويموّنهـا بالتشـريع . . . الأمـر الـذي يجعلنا نصـل الى الهدف الـذي نريـد بلوغـه ، وهـو الخـروج من الممـارساة الجـامدة لـلاحكام الشـرعية ، إلى الممـارسة العمليـة الحيـة الـواعية التي تضـم الـروح والجسد في وحـدةٍ رائعـة يمتـزج فيهـا الفكـر بالعمل والايمان بالتطبيق .

* * *

[٣]

ما هو اطار البحث ؟

هـل نحن أمام حـديث (سيكولـوجي) نفسي يضيف الى ابحـاث علم النفس شيئـا جديـداً في تحليل طبيعـة الانفعال ومـدلـولـه النفسي ، ليشـارك في عمليـة فهم أعمق للنفس الانسـانيـة من اجـل التغلب على عُقدتها المستحكمة وازماتها الداخلية الشديدة .

أو أننا نحاول الـدخول في أبحـاث اخلاقيـة تحدد القيمـة الحقيقية للانفعال من وجهـة نظر علم الاخـلاق لتساهم في تـوجيه خُـطى الانسان نحو الطريق الأقوم والهدف الأفضل .

أو اننا هنا لنتلمس الأخطار والأضرار التي تلحق بـالفرد والمجتمـع من خـلال السمـاح للسلوك الانفعـالي في الانـطلاق إلى حيـاة الانسـان دون ضـوابط تحدّ من جمـوحه ، وحـواجـز تخفف من انـدفـاعـه ليكـون حديثنا حديثاً وعظيـاً يستنفر الناس ويخوّفهم من عواقب هذا السلوك .

* * *

الحديث في الاطار الواسع :

من الحق لنـا أن يكون الجـواب عن هذه التسـاؤلات ، هو اعتبـار هذه الجوانب التي أثيرت مجالاً للبحث ومنطلقا للحديث .

لأننـا نريـد من اثارة هـذا الموضـوع ، أن نضع اليـد على المفهوم الاسلامي للسلوك الانفعالي في حيـاة الانسان لينـطلق في سلوكه العملي على أساس عميق ودقيق ، من خلال النظرة الاسلامية العامة للحياة .

وعلى ضــوء ذلـك لا بــد للحــديث من أن يتشعب في جــوانب

عـديدة ، منهـا النفسي والأخلاقي والاجتمـاعي ، وغير ذلـك من الأمـور التي يرتبط بها الانفعال كحالة نفسية ، او ظاهرة اجتمـاعية او أخـلاقية ، لان أيّ سلوك انسـاني ، لا ينحصر في دائـرة خاصـة ، بـل يتسـع لعـدة مجالات في الحياة .

واذا كان الأمر ـ كما أشرنا ـ فلا بد للاسـلام . حينما يحـدد موقفـه من حـالة معينـة او ظاهـرة خاصـة ، من ان يدرس مصلحـة الانسـان من خلال جميع الجوانب الحية التي تحيط بحيـاته من خـلال هذه الحـالة ، او تلك الـظاهـرة ، لأن ذلـك هـو السبيـل الى تحقيق التـوازن الأصيـل لحركة التشريع في نظامه المعصوم .

* * *

حديث الانفعال كظاهرة عامة :

أمّـا مجالات هـذا الحديث ، فليست مختصـة بجـانب من الحيـاة دون جـانب ، فلا تنحصـر في الحياة الفـرديـة التي يعيش الانسـان فيهـا نـزواته الـذاتية وأزمـاته الشخصيـة التي تثيـر في داخله هـذا الانفعـال او ذاك .

ولا تختص بـالحيـاة الاجتمـاعيـة التي يـواجـه فيهـا المجتمـع من خلال التحديات التي تواجهه ، والصراعات التي تتجاذبـه ، والانفعالات الحادة التي تعصـف به فتحوله الى كتلة من نار ، أو بركان من جحيم .

ولا تضيق بـه مجالات الحيـاة السيـاسيـة التي تلف وتـدور وتنـاور وتحاور ، وتخدع وتغـوي ، فتختلق الأزمات ، وتثيـر المشاكـل ، وتبتدع الخـلافات فتهـز الحياة من حـولهـا فيمـا يشبـه عصف الـريـاح ، وتخلق المشـاكـل والاضـطرابـات في أجـواء العـالم حتى تتحـول إلى فـوضى مجنونة تجتاح أمامها كل شيء .

وهكذا نستطيع أن نقترب به الى الحالات الحربية التي يتكلم فيها الحديد والنار فتثير الرعب والخوف في كل قلب ، وتنشر الفناء والدمار في كل افق ، وترسل الصواعق فتصيب بها من تشاء .

فليست مجالات الحديث محصورة في واحدة من هذا أو ذاك ، بل الحياة كلها بجميع مظاهرها وأشكالها ومنطلقاتها . . لأن مجال حديثنا هو السلوك الأنساني الذي يتحكم في الحياة على مستوى الفرد والمجتمع ، وعلى مستوى السلم والحرب والسياسة والاجتماع ، والنظرية والتطبيق .

ولذلك فانه يترك أثره في كل واحد منها تبعاً لطبيعته العملية التي قد تلتقي مع الضوابط القوية التي تحفظ له التوازن في الخطى والانسجام في الخطط ، وقد تبتعد عنها ، فيكون الاختلال في الوسائل والارتباك في الأهداف .

انه حديث الانسان في كل منطلقاته وتطلعاته ، في كل مراحل حياته ، وفي كل زمانٍ ومكانٍ .

كيف نفهم الانفعال :

حاول علماء النفس البحث عن طبيعة الانفعال ومدلوله واهدافه ، واختلفت نظرياتهم في ذلك اختلافا شديداً ، قد يصل ببعضها الى حدّ الغرابة في بعض الحالات كما تلاحظ ذلك في نظرية جيمس لانج .

نظرية جيمس لانج :

وتتلخص [1] هذه النظرية في أن الانفعال هو مجموعة الاحساسات المختلفة المتسببة عن التغيرات العضوية وتختلف

---

[1] علم النفس . أسسه وتطبيقاته التربوية ص ١٧٠ ـ ١٧١ عبد العزيز القوصي .

الانفعالات بعضها عن بعض باختلاف هذه الاحساسات العضوية .

ويمضي جيمس بعيداً في هذه النظرية فيقول : إن المظاهر الجسمية والعضوية ليست نتيجة للانفعال بل هي السبب في ظهوره ، فنحن لا نبكى ـ في نظره ـ لأننا نشعر بالحزن ، ولا نضرب لاننا نشعر بالغضب ولا ترتعد فرائصنا لاننا نشعر بالخوف ، وانما نشعر بالحزن لاننا نبكي ، ونغضب لاننا نضرب ، ونخاف لأن فرائصنا ترتعد .

وقال ايضا : انه اذا أمكن تجريد الفرد من جميع التغيرات الجسمية والعضوية في موقف ما ، فان الموقف يصبح موقفاً إدراكيا خاليا من أيّ شعور وانفعال .

ولكن هذه النظرية ـ فيما يظهر ـ انطلقت من « عدم التمييز بين الحالة الانفعالية والتغييرات الجسمية » وفوق ما تقدم ، فالمنطق السليم يقول : ان الانسان يهرب من الخوف ، ويقتل من الغيظ ، ولا يقول إن الانسان يغتاظ من القتل ، ويخاف من الهرب .

نظرية مكدو جل :

وهناك نظرية أخرى لـ (مكدو جل) في كتابه علم النفس الاجتماعي .

وتتلخص هذه النظرية في اعتبار كل التغيرات الجسمية والعضوية المصاحبة للانفعال ذات غرض أساسي بيولوجي وهو خدمة الفعل الغريزي .

فاذا ما اثير انفعال الخوف فان الغرض الحيوي المطلوب يتحقق بسرعة الخلاص من الموقف . وقد يتم هذا الفعل عند الطيور

بطيرانها ، وعند الغزلان بالجري ، وعند الحيوانات المائية بالغوص في الماء .

ولكي يتم هذا نجد أن الاعضاء الداخلية تتكيف لتساعد على تحقيق هذه الغاية ، فيسرع القلب في عمله ليوزع الدم في شيء من السرعة على أجزاء الجسم ، وتسرع الرئتنان في عملها لأخذ الهواء النقي وطرد غيره ، وبذلك تساعدان عملية الاحتراق الضرورية لاعطاء الجسم طاقته اللازمة ، ويتوزع الدم كذلك بحيث يترك أجزاء الجسم التي يمكن وقوف عملها في هذا الوقت ، فيترك المعدة والامعاء وسطح الجلد ويتوزع في المخ وفي العضلات الاخيرة التي تساعدنا على سرعة الهرب ، وتتسع حدقة العين حتى تستقبل اكبر قدر ممكن من الضوء لتستعين به على ادراك الاشياء وتمييز المواقف .

ويتفق « شاند » مع مكدوجل في فكرته عن فطرية الانفعال ويعرفه بأنه استعداد فطري معقد ينظم الغرائز ومظاهرها الحاسية الحركية .

* * *

وتدرسه مدارس التحليل النفسي من زاوية الصراع القائم بين الفرد وبيئته ، وما تنطوي عليه هذه البيئة من آثار تدفعه الى كبت انفعالاته كبتاً لا شعورياً يؤثر في سلوكه ورغباته وذكرياته .

ويؤكد بولهانز أثر البيئة في نشأة وتطور الانفعال ، ويذهب إلى أنه يبدأ حينما يواجه الفرد موقفا لا يجد له حلاً مباشراً سريعاً ، فيستعد الجسم لمواجهة التطورات النفسية التي يعانيها الفرد فتزداد ضربات القلب وترتفع نسبة السكر في الدم لمدّ الجسم بالطاقة التي يحتاج إليها ، وهكذا تستطرد هذه التغيرات لتحفزّ الفرد لمواجهة الموقف .

ويلخص « درفر » أهمّ الصفات المشتركة بين جميع المذاهب المختلفة في دراساتها للانفعال فيعتبر « انه حالة نفسية معقدة تبدو مظاهرها العضوية في اضطراب التنفس وزيادة ضربات القلب واختلال إفراز الهرمونات . وتتميز مظاهره النفسية بوجدان يبدو في القلق والاضطراب ، وقد يؤدي هذا القلق الى قيام الفرد بسلوك معين ليخفف من توتره النفسي هذا ، وقد تعوق حدّة الانفعال ، النشاط المعرفي للفرد [١] .

* * *

الغزالي يحلل الانفعال :

وقد تعرض علماء الاخلاق المسلمون للانفعال في بعض نماذجه ، ومنهم الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ، في حديثه عن الغضب الذي هو احدى مظاهر الانفعال ، فتلتقي فكرته مع فكرة « مكدوجل » في غريزية الانفعال ، وهدفه ، فنراه يعرّف الغضب « بأنه قوة غريزية خلقها الله في الانسان لتدفع المهلكات عنه » .

ويوضح هذه الفكرة فيقول :

فخلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها في الانسان وعجنها بطبيعته ، فمهما صدّ عن غرض من اغراضه ، ومقصود من مقاصده ، اشتعلت نار الغضب وثارت ثورانا يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ، ويرتفع الى أعالي البدن ، كما ترتفع النار ، وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها . .

---

(١) فؤاد البهي السيد . الاسس النفسية للنمو ص ١٦٥ .

ويستطرد في كلامه فيقول : « وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام وانما تتوجه هذه القوة عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، والى التشفي والانتقام بعد وقوعها » .

* * *

وعلى ضوء هذه النظرية التي سبق الغزالي ، علماء النفس ، نستطيع ان نقرر ان الانفعال ليس قوة شريرة بطبيعتها بل هي من القوى الطبيعية التي اودعها الله في الانسان لحمايته من الاوضاع التي تحيط به ، او القوى التي تواجهه ، فتدفعه الى استنفار طاقاته الذاتية للدفاع عن نفسه ، او لتحقيق اغراضه .

ولكنها ـ كأي قوة أخرى من قوى الانسان ـ تبقى خاضعة لطريقة الانسان في استخدامها في سبيل الخير او في سبيل الشر .

* * *

الانفعال في صورتين :

للانفعال صورتان : احداهما في الداخل ، والاخرى في الخارج .

وربما تكون الثانية تنفسياً عن الاولى وتعبيراً عمليا لها ـ في اغلب الحالات ـ وقد تتعقد الاولى في كيان الانسان فلا تفسح المجال للصورة الأخرى بالظهور والبروز .

* * *

أمّا الصورة الاولى : فتتمثل في الحالة الشعورية التي تسيطر على الانسان امام عوامل التوتر وأجواء التأثر ، . . فهي حركة داخلية تنطلق من العوامل الخارجية التي تحيط بالشخص ، فتضغط على

الأعصاب ، وتلح على المشاعر فتتوتر وتلتهب بسرعة ، وبذلك يتحول الانسان إلى انسان ملبد في الداخل بفعل العواصف الهائجة المخبولة التي تعصف به .

وذلك كما في حالة الحزن العميق ، والخوف الشديد ، أو الفرح الداخلي ، أو الغضب المكبوت ، أو غير ذلك من الحالات النفسية التي تثيرها الخسائر او المصائب او الارباح أو الازمات .

وأمّا الصورة الثانية ، فتتمثل في السلوك العملي الذي يمارسه الانسان في حياته العملية ـ الفردية والاجتماعية ـ تحت ضغط تلك الحالات ، فيتحول الهياج الداخلي الى هياج خارجي يطبع تصرفاته وحركاته بطابع التوتر والاضطراب الذي تختلف اشكاله حسب اختلاف طبيعة تلك الحالة .

فنلمح الحزن يتمثل بالصراخ أو بالبكاء الهادىء ، او بتمزيق الثياب ، وخمش الوجه ونتف الشعر ، ونلمح الفرح يتمثل بالضحك والرقص والغناء والتصفيق وغير ذلك .

ونجد الغضب في تحطيم الأواني والأبواب والضرب والصراخ الشديد والشتائم البذيئة وغير ذلك ونشاهد الخوف يتمثل في الهروب او في الانكماش والاختباء ونحو ذلك .

ويشير الدكتور القوصي[(١)] الى هاتين الصورتين من الانفعال فيقول

« يستعمل الناس عادة كلمة الانفعال لتدل على معان مختلفة ، أحيانا تؤخذ متفرقة ، وأحياناً تؤخذ مجتمعة ، فيعتبرون أن الانفعال هو الشعور الخاص ، كالألم ، مجرداً من أي عنصر آخر ، وأحيانا يعتبرونه

(١)علم النفس اسسه وتطبيقاته التربوية ـ ص ١٦٩ .

المظهر الجسمي الذي يصحب الانفعال وأحياناً يأخذ ونهما معاً . والذي أدخل المظهر الجسمي هو أن كل حالة انفعالية يصحبها تغيرات جسمية نشعر ببعضها ولا نشعر بأغلبها » .

أين نحن من الصورتين ؟

أمام هاتين الصورتين نقف .

فأين يقع حديثنا منهما ، وما الذي نريده من هذا الحديث .

هل نحاول تبريد الانسان من الداخل . وتحويله الى شخص لا ينفعل أمام عوامل الانفعال ، ولا يثور أمام دوافع الثورة .

هل القضية قضية صنع الانسان الذي يفكر بعقله بدلا من الانسان الذي يفكر بأعصابه ، فلا يتحرك داخله في حركة عصبية ، بل يخضع لحركة العقل فقط ، وبذلك تتحول أعصاب الانسان الى جليد لا يذوب الا على أساس حسابات دقيقة .

أو أن القضية ليست قضية الانسان في الداخل ، فلسنا هنا في محاولة للتحكم بمشاعر الانسان ، وأعصابه ، بل القضية هي قضية التصرفات العملية للانسان .

فنحن هنا في محاولة للتحكم بحركات الانسان وأقواله أمام حالات التوتر الداخلي ، فليس من المهم ان لا يثور الداخل بل المهم أن لا تنعكس الثورة الداخلية على اوضاع الانسان في الخارج .

* * *

في الجواب عن السؤال نقول :

إننا نواجه الحاجة الى الحديث عن كلا الوجهين للانفعال ،

الداخلي والخارجي ، فقد نشعر بضرورة الوصول إلى الهدف الكبير الذي يتمثل في السيطرة على الانفعال في الداخل في محاولة لخلق الشخصية العقلانية التي يتحرك فكرها بحساب ، وتنطلق مشاعرها بحساب ، فليس هناك إحساس طائش ، وليس لديها تفكير مرتجل .

ذلك ما تمثله نظرية تبريد الانسان من الداخل .

وقد نحتاج ، في سبيل الوصول الى هذا الهدف الكبير ، الى تحقيق هدف مرحلي أولي ، يتمثل في السيطرة على الانفعال في الخارج ، كمحاولة لايجاد الشخصية القوية التي تستطيع أن تخنق مشاعرها الملتهبة ، وتكظم غيظها العنيف ، فلا تدعها تتحكم في تصرفاتها العملية ، بل تظل التصرفات تسير على أساس فكري دقيق هادىء ، وان كان الداخل يلتهب بالنار .

وربما تشارك هذه السيطرة العملية على الانفعال كواقع حركي خاص ، بالإيحاء الدائم للداخل بالجو الهادىء الذي يسيطر على الخارج ، لأن الخارج كما يتأثر بالداخل الشعوري في بعض الحالات ، فهناك الجانب الشعوري في الداخل يتأثر بالواقع الخارجي ، أو بالطريقة العملية التي يمارس الانسان بها حياته لأن الخارج هو البيئة الطبيعية التي ينمو فيها الداخل ويعيش .

ولعل من الخير للبحث أن نشير هنا ، ولو بشكل سريع ـ الى أننا لا نهدف في الهدف المرحلي أو الكبير إلى إلغاء الانفعال من حياة الانسان ، كمبدأ ، لان في ذلك إلغاءً لجانب ذاتي من جوانب الانسان التكوينية .

بل كل ما نريده هو تنظيم الانفعال و (تعقيله) . ان صح

التعبيـر ، ليبقى الجانب الانفعـالي من حياتنـا مرتبـطا بالجـانب العقلاني لئلا يبتعد عن الطريق ، وينحرف عن الهدف .

* * *

هل الانفعال غريزة ؟

قـد نجـد في بعض كلمـات علمـاء النفس مـا يـوحي بـاعتبـار الانفعالات التي تحدث لـلانسان في سلوكـه ، من الغرائـز فتلتقي بكلمة غريزة الغضب ، وغريزة الخوف وغير ذلك .

ولكن الـظاهر ـ كمـا يقـول بعض علمـاء النفس ـ أن هـذا التعبيـر يفتقـد الدقـة ، فليس الغضب غريـزة وليس الخـوف غـريـزة ، بـل همـا انفعالان ومظهـران لغريـزتين أساسيتين في حيـاة الانسان ، وهمـا غريـزة المقاتلة التي يتمثل انفعالها بالغضب ، وغريـزة الخلاص او الهـرب التي يتمثل انفعالها بالخوف .

ولعل الذي أوقع هؤلاء في هذا الخـطأ ، هو ثبـوت الانفعال ، من حيث نوعه في السلوك الغـريزي ، فنحن نـرى الاستعداد للمقـاتلة يتمثل في الغضب في حـالة تعـرض الانسان لإهـانـة شخصيـة ، او وقـوع ظلم على إنسان ضعيف أو مهاجمـة عدو للوطن او التجـديف على العقيدة من كافر

فقـد تختلف الـدوافـع والمثيـرات للغضب حسب اختـلاف طبيعـة الادراك ، ولكن الغضب يبقى هـو هو في جميـع الحالات مـع اختـلاف في الدرجة .

وهكـذا نجد الانسـان يختلف في ممـارسته لغضبه ، من الكلمـة القاسية ، الى الضـرب الشديـد ، إلى الشكوى للسلطة ، الى غيـر ذلك

من وسائل التعبير التي يتمثل فيها السلوك في حال الغضب. . ربما يكون لهذا التلازم ، بين الغريزة والانفعال في السلوك ، الذي يجعل الانفعال ثابتا في طبيعة الانسان ثبوت الغريزة .

ربما يكون لهذا بعض الأثر في إضفاء صفة الغريزة على الانفعال ، إطلاقاً للسبب على المسبب كما يقول علماء البيان .

* * *

هل يمكن السيطرة على الانفعال ؟

ربما يبرز امامنا سؤال .

إذا كان الانفعال ملازماً للغريزة فكيف يمكن السيطرة عليه ، ما دمنا نعلم ان الغريزة من الامور الفطرية غير القابلة للزوال بذاتها ، وبآثارها .

ولعل الجواب الدقيق على هذا السؤال يرتكز على طرح سؤال آخر .

ما الذي نقصده من كلمة السيطرة على الانفعال ؟

هل هو إلغاءه بالمرة ، او أن هناك معنى آخر نقصده ، وهو توجيهه الوجهة التي نستطيع معها أن نجعل منه قوة تخدم حياة الانسان بدلا من ان يكون قوة تؤدي الى الانهيار .

لن نريد المعنى الاول ، لان الغاء الانفعال غير ممكن أساساً . كما المحنا الى ذلك فيما سبق ـ ولأن ذلك لا يخدم حياتنا ـ لو كان ذلك ممكنا ـ لان للانفعال نتائجه الايجابية الكثيرة التي يمكن توظيفها في نشاطات الانسان الفكرية والعملية ـ كما سنرى ذلك فيما يأتي من حديث ـ

ولذا فاننا مع المعنى الثاني ، وهو ترويض الانفعال وتوجيهه نحو التحرك الذي ينسجم مع مبادىء الانسان ومصالحه في الحياة ، ومنعه من ان يتحول الى عنصر يسيء اليه في مبادئه ومصالحه ، أو يساهم في إبعاده عن سلامة الوسائل والاهداف .

وقد أشار الغزالي الى ذلك في كتابه احياء علوم الدين فقال :

إعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية ، وزعموا ان الرياضة ، اليه تتوجه ، واياه تقصد . . وظن آخرون أنه اصل لا يقبل العلاج . وهذا رأي من يظن أن الخُلق لا يقبل التغيير . وكلا الرأيين ضعيف ، بل الحق فيه ما نذكره ، وهو انه ما بقي الانسان يحب شيئا ويكره شيئاً فلا يخلو من الغيظ والغضب وما دام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلا بد أن يحب ما يوافقه ويكره ما يخالفه ، والغضب يتبع ذلك فانه مهما اخذ منه محبوبه غضب لا محالة ، واذا قصد بمكروه غضب لا محالة .

ثم يسترسل الغزالي في بيان الامور التي يحبها الانسان ويتعلق بها ، وينتهي الى نتيجة حاسمة ، وهي ان المطلوب هو السيطرة على الغضب برده الى الاعتدال في حالة ، وبازالة اسبابه في حالة أخرى حتى لا تعود هناك حاجة اليه .

ما هي وسائل السيطرة على الانفعال ؟

يذكر علماء النفس عدة وسائل للسيطرة على الانفعال ويطلقون عليها اسم «تعديل السلوك الفطري او الغريزي» ويذكرون له عدة أنواع .

الاول : التعديل من الناحية الادراكية ، فاذا كانت الدوافع

الغـريزيـة تستثـار بمثيـرات طبيعيـة ، فيمكن العمـل على استثـارتهـا في مواقف غير المواقف العادية .

الثاني : التعديل من الناحيـة النزوعيـة ، وهي أساليب التعبيـر عن الانفعال التي يصل بها الى الغرض الغريزي .

الثالث : التعديل بسبب دوافع مختلفـة في وقت واحد ، من أجـل تحقيق التـوازن بينهـا أو تغليب بعضهـا على بعض في عمليـة صـراع بينها في مجال السلوك . . .

* * *

فنـلاحظ في النوع الاول ، وهـو التعديـل من الناحيـة الادراكيـة ، ان الصـوت العـالي قـد يكـون مثيـراً طبيعيـا لانفعـال الخـوف ، ولكنـه سـرعان مـا يفقد عنصـر الاثارة عنـدما يضـع الانسـان يـده على تجـربـة خاصة بصوت عال لا يقترن بالخطر ، وقد نجـد في الظلام مثيـرا مكتسبا للخـوف نتيجة اقتـرانه بـالتصور بـوجود الحشـرات المؤذية أو الحيـوانات المفتـرسة ، أو المخلوقـات الاسطوريـة التي تجعلهـا الاقـاصيص تعيش في الظلام ، ولكنه يتحول الى شيء عادي ، بالوعي والممـارسة الكثيـرة للعيش في الـظلام حيث يكتشف الانسـان خـطأ الفكـرة التي تـوحي بالخوف فلا يثير في نفسه أي شيء غير عادي .

وعلى ضـوء هـذا يمكننـا أن نلغي من حيـاة الانسـان كثيـراً من انفعالات الخوف الناتجة عن تصوره لعظمة قوى كثيـرة مجهولـة . بحيث يثيـر في نفسه الشعـور العميق بالـرهبة والانسحـاق امامهـا ، الأمر الـذي يجعله يعيش الاحسـاس الـدائب بـالخـوف من سـطوتهـا فيتحـول هـذا الخـوف الى عبادة وتقـديس عنـدمـا يمتـزج بـالشعـور بقـداستهـا ، كمـا نلاحظه في الشعوب التي كانت تعبد الانهار العظيمة وتقـدم لها القـرايين

لتأمن بذلك من مواجهة غضبها وطغيانها .

إننا نستطيع ان نلغي هذا كله من حياة الانسان اذا استطعنا ان نملأ وعي الانسان وادراكه بالحقائق الواضحة الملموسة لهذا الشيء ، الأمر الذي لا يترك هناك أيَّ جانب خفي يوحي بالرهبة ويشعر بالقداسة .

وربما نحتاج الى هذا الاسلوب في واقع الشعوب المستعمرة إزاء القوى الاستعمارية التي تظل تعمّق في وعي هذه الشعوب ، احساسها بالضعف في كل شيء أمام قوة المستعمر الذي يملك كل شيء مما يجعل قضية مقاومة نفوذه قضيةً خاسرةً على كل حال ، فيتحول ذلك كله الى الشعور بالانهيار والانسحاق تحت ضغط هذا التفكير الخطر .

وربما نشعر بضرورتها في حركة العاملين من أجل التغيير الاجتماعي والفكري عندما يواجهون بالقوى التقليدية التي تملك كثيرا من القوى المادية ، في مقابل القوى الجديدة الناشئة التي لا تملك الا النزر القليل من ذلك مما يثير في نفس العاملين الشعور بالرهبة والخوف من مواجهتها ، أو تحدّيها بما تملك من وسائل التحدي الضعيفة .

ان الطريقة التي يمكن أن نلجأ اليها في هذه الحالات ، هي أن نكشف للشعوب ، او للعاملين طبيعة القوى التي يملكونها ذاتيا ، او التي يمكن أن تنضمّ الى قوى اخرى مساندة ، ونحاول ـ في الوقت ذاته ـ أن نعمّق الاحساس بهذه القوة في انفسهم بالممارسة العملية المتنوعة .

ثم نكشف لهؤلاء نقاط الضعف الكثيرة الموجودة في تكوين

القوى الاستعمارية او التقليدية ، التي كانت تختفي وراء الصورة الزائفة للقوة المطلقة . ونعمل ـ من جهة أخرى ـ على إثارة الاحداث التاريخية والمعاصرة التي استطاعت فيها شعوب مماثلة أن تصرع هذه القوى ، بكفاحها الدائب ، وبقواها المتجددة ، فتتخلص من سيطرتها وطغيانها الى الأبد .

وبذلك تتحطم الصورة المزيفة ، ويتحطم ـ من خلالها ـ الواقع الذي يتحرك من خلال الحالة النفسية التي تترك أثارها عميقة على مسيرة الانسان في كل حركاته وافعاله .

ولكي تتضح الصورة جيداً للانسان في تأثير هذا الجانب في حياة الانسان من النواحي السلبية والأيجابية علينا أن نتلفت إلى وسائل الاعلام والتربية والتثقيف التي تستخدمها الدول الاستعمارية ، او القوى التقليدية المتخلفة ، في العمل على أن تفقد الشعوب ثقتها بأنفسها وبتاريخها وبحضارتها وبقدرتها على الاستقلال بذاتها في ادارة مواردها ، وذلك باستغلال كل نقاط الضعف التاريخية والحضارية والفردية والاجتماعية في حياة هذه الشعوب .

وتحاول ـ في مقابل ذلك ـ أن تقوم بأعمال استعراضية في السلاح والثقافة والحضارة توحي بعظمة القوى الاستعمارية والتقليدية ، وتقدمها وسيطرتها التي لا تقهر .

إن الانتباه الى هذه الاساليب والعمل على محاربتها ومواجهتها بالاساليب المتنوعة ، يُفقد قوى التخلف سلاحها الأكبر في السيطرة على الموقف في جميع الحالات .

* * *

أمّا التعديل من الناحية النزوعية ، فنجده يتمثل في اختلاف

الحالات التي يلجا اليها الانسان في الوصول الى غرضه ، عندما يفاجأ بفشل بعض الاساليب ، ولهذا نلاحظ تنوع طرق القتال ، فهناك الملاكمة والمصارعة والمبارزة واستعمال السلاح الناري ، والسباب والهجاء ، وتدبير المؤامرات ، وترويج الشائعات ، وحرب الاعصاب ، وحرب الميكروبات والحرب الذرية وغير ذلك [١] .

وهكذا نلاحظ أن الإنسان لا يشعر بالفشل في تحقيق أغراضه أمام سلوك إلّا ويحاول أن يلجأ إلى سلوك آخر يتفق مع الاتجاهات الجديدة والأوضاع الجديدة .

وعلى ضوء ذلك ، يستطيع العاملون في الحقل الاجتماعي والسياسي وغيرهما أن يغيّروا باساليبهم التربوية والعملية من وسائل التعبير عن الانفعال بما يستحدثونه من وسائل تتلاءم مع الاهداف والاغراض الكبيرة التي يستهدفونها في تقدم المجتمع ونموه .

« واما النوع الثالث من التعديل ، وهو استشارة اكثر من دافع واحد في وقت واحد ، فيحدث أن يستثار البحث عن أكثر من دافع واحد في وقت واحد ، فيحدث ان يستثار البحث عن الطعام والخلاص من الخطر في نفس الموقف فالجائع يبحث عن الجوع لأخذه ويمنعه الخوف (أو غير الخوف) من ذلك[٢] » .

وعلى ضوء هذا نستطيع ان نثير في نفس الانسان معاني مختلفة تمنع من انطلاق بعض الغرائز والشهوات في إثارة انفعال خاص ، او سلوك معين كما يشير الى ذلك الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ،

(١)عبد العزيز القوصي . علم النفس اسسه وتطبيقاته التربوية ص ٤٨ ـ ١٤٩ .

(٢)عبد العزيز القوصي . علم النفس اسسه وتطبيقاته التربوية ص ٤٨ ـ ١٤٩ .

في حديث عن علاج الغضب بعد هيجانه وتعداد وسائل العلاج قال :

الثاني ان يخوِّف نفسه بعقاب الله وهو ان يقول قدرة الله اعظم من قدرتي على هذا الانسان فلو امضيت غضبي عليه لم آمن ان يمضي الله غضبه علي يوم القيامة احوج ما اكون الى العفو فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة يا بن ادم اذكرني في غضبك اذكرك في غضبي فلا أمحقك فيمن أمحق .

الثالث : ان يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعي في هدم اغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو من المصائب فيخوّف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا وان كان لا يخاف من الاخرى . وهذا يرجع الى تسليط شهوة على غضب [1] .

توجيه الانفعال بتوجيه النزعات الفطرية :

وهناك طريقة أخرى يمكن اعتمادها للسيطرة على الانفعال بالاتجاه نحو ميادين جديدة تلبي نداء الغريزة وتتفادى عملية الكبت المضرة بسبب ما تخلّفه من عقد نفسية حادة تربك حياة الانسان وتبعثر طاقاته وذلك بالسير بالغريزة نحو ما يطلق عليه علماء النفس مصطلح (الاعلاء) وهو أن تسير بالطاقة الغريزية في اتجاه راق يحترمه المجتمع ويستفيد منه . فحب الاستطلاع يسير نحو الكشف والاختراع ، والميل للمقاتلة يسير نحو مقاتلة الامراض الجسمية والاجتماعية ، ومقاتلة ما من شأنه ان يضر بكيان للمجتمع . وهكذا يمكننا ان نحوّل الطاقة الغريزية من مجراها الطبيعي البدائي الى مجارٍ واقية تنفع الفرد والمجتمع .

---

(١) احياء علوم الدين ج ٣ ص ١٧٣ .

ولعل من مظاهر ذلك تحويل الانفعال الغريزي الذي يكون نتيجة غريزة الميل للمقاتلة والسيطرة في المجرى الطبيعي والذي يتمثل بالاتجاه نحو الانتقام بوسائله الخاصة تأكيداً لاثبات الذات الى اسلوب الصفح في حالة المقدرة ، فان اثبات الذات عن هذا الطريق يكون أعلى من اثباتها في طريق الانتقام (١) .

ولكن هذه العملية ليست مجرد عملية يسيرة يمارسها الانسان كما يمارس بعض اوضاعه اليومية ، بل يتعين علينا ، أن نعيد تنظيم الشخصية بكاملها على أساس جديد لتقوية جميع نواحيها وتحقيق وحدتها وتكاملها بتأثير المثل الاخلاقية العليا . والتربية السديدة الصالحة ، هي التي تحقق إعلاء الغريزة وتنقية الميول مما يشوبها من عوامل الاثرة والضعف ، وذلك بتحقيق وحدة الشخصية وتكاملها ، وبتقوية الارادة وتوفير وسائل ضبط النفس (٢) .

وهناك طريقة أخرى تحوّل النشاط الى نشاط آخر يختلف في طبيعته اختلافا كليا فينصرف الى عمل او رياضة بدلا من الانتقام ـ ويقصد به ان ينشغل الفرد عن اتجاه غريزي معين باتجاه آخر يختلف عن الاتجاه الاول في اصله . فالمراهق قد يشغل اوقات فراغه بالنواحي الرياضية والمعسكرات وبعض الاعمال الفنية وبذلك يتلهى عن الانشغال بالنواحي الجنسية التي لا يكون معدّاً لها من الناحية الاجتماعية (٣) .

---

(١) القوصي . علم النفس ، ٣١ ـ ٣٣٢ .

(٢) مبادىء علم النفس العام ص ١٥٣ .

(٣) القوصي : علم النفس ص ٣٥١ .

اثر الانفعال في الحياة العقلية :

يلاحظ علماء النفس تأثير الانفعال في الحياة العقلية بنتائج سلبية تترك أثارها على سلوك الانسان وتفكيره ، فربما يساهم في اكثر الحالات ، كما في حالات الغضب ، في اختلال التفكير الدقيق المنظّم ، الذي يرتكز على الصور الواضحة والمعاني الدقيقة ، التي يعمل الفكر على التنسيق بينها وربط بعضها ببعض لتحويلها الى نتائج جديدة .

ومن الطبيعي أن ذلك يحتاج الى أجواء هادئة في داخل النفس تفسح المجال لأكثر من فكرة أن تنمو وتتحرك وتترابط او تتصادم ، ليتحرك الفكر في اكثر من اتجاه فيتمكن من إعطاء فكرة كاملة عن الموضوع من جميع جهاته .

بينما يلاحظ بعض الباحثين إن الانفعال يثبّت في داخل النفس فكرة واحدة ، فالغاضب الحزين لا يسيطر على عقله الا فكرة واحدة هي التي اثارت غضبه وحزنه . . هذا في حالة الانفعال الشديد .

أمّا في حالات الانفعال المعتدلة فنجد ان تفكير المرء يصطبغ عادة بصبغة وجدانية خاصة وينتبه المرء لنوع من الافكار دون الافكار الأخرى ، فاذا شعر المرء بالانقباض فانه يرى انه سيء الحظ ، ولا يرى فيما يرى ، او يفكر الا بعناصر الانقباض ولا يقدر النكتة او المزاح ، أمّا عند شعوره بالمرح فانه يرى السرور في كل شيء ويضحك للنكتة ويقدرها .

ويقول بعض الباحثين النفسيين ان مستوى النشاط الذهني اثناء الانفعال يكون أقل تماسكا وجودة من مستوى نشاط الشخص الهادىء

الضـابط نفسه . فـان الانفعال يؤدي الى تـلاشي مـراقبـة الارادة للتفكيـر والعمل ، والى تضاؤل مقـدرة الشخص على النقد والتمحيص ، وعنـدما تضعف الارادة وقوة النقد يصبح الشخص خاضعـاً لحوافـز عمياء ودوافـع جبرية .

. . . وعنـدمـا يستعصي علينـا حـل مشكلة عمليـة معقـدة يتضخم الانفعال بتوالي المحاولات القاصـرة فنلجأ الى تبسيط المشكلة ، وحلهـا بـطريقة غليـظة تعسفية ، وقـد يصحب الحل أحيـانا شيء من المجـازفة والتهـور ويشـاهـد تحت تـأثيـر الانفعـال تفكـك المعلومـات المكتسبـة حـديثا ، والمعلومـات الدقيقـة المعقدة التي تكـون قـابليتهـا لـلاختـلال والارتباك بدرجة تعقيدها ودقتها [1] .

وقد يذكـر للانفعـال بعض النتائـج الايجابيـة في الحياة العقليـة ، فنلاحظ أنه قد يكون عنصـراً منشطاً للمخيلة ، فتتـدفق المعاني والصـور بسرعة ، ويبزغ نور الالهـام فجأة بعـد فترة من الخمـول ومن المحاولات غيـر المجديـة ، وقد يحمـل هـذا التيـار الجـارف من الصـور والمعـاني افكاراً جديدة تمهد السبيل الى الاختراع والابتكار [2] .

ولكن علينا أن نلاحظ أن مثل هـذه النتـائـج لا تنـطلق من حـالـة مركزة ، بل تخضع في سلامتها ودقتهـا ، لطبيعـة الحالـة الوجـدانية التي تتحكم في النفس من الـداخل ، دون ان تـرتكز على أسـاس ثابت سليم يحميها من الاهتزاز والارتباك والخضوع لرغبات غامضة .

ولذا فان هذه النتائـج الايجابيـة لا تشجع على اعتبـار الانفعال في حركة النشاط العقلي ، حالةً صحيةً طيبـةً بل لا بـد من محاولـة تطويقهـا

---

(١)و(٢)مبادىء علم النفس العام ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

وترويضها ببعض من الهدوء النفسي الذي يحاول أن يعطي الحالة الوجدانية بعض الهدوء الذي يخفف من حدة التوتر ويقوي من حركة الارادة .

وقد نستطيع الذهاب بعيداً في هذا المجال فنوافق الرأي القائل[1] بأنه لا بد من شحنة وجدانية تصحب العمليات الذهنية لتغذية النشاط العقلي بالدوافع والرغبات ولتذكية الشوق الى مواصلة العمل . فباختلاف قوة هذه الشحنات يختلف مستوى النشاط العقلي فيرتفع حينا ويهبط حينا آخر .

قد يحدث ان تتناقض نتائج الانفعال في التذكر ، فقد نجد بعض الحوادث المصحوبة بانفعالات شديدة الايلام يصبح من الصعب نسيانها ، وان كانت بعض الحوادث الاخرى المماثلة تنسى نسيانا تاما في حالات شاذة .

ولكن الحالات الانفعالية المؤلمة تقلل الاستعداد للتذكر فالطفل الذي يتعلم تحت تأثير العصا يكون تقدّمه أبطأ من غيره الذي يتعلم بالطرق الحديثة التي تعتمد على الحرية لا على الارهاب والعقاب في التخويف [2] .

* * *

اثر الانفعال في الحياة الاجتماعية والتربوية :

لا يستطيع الباحث أن ينكر قيمة الانفعال الأساسية في حياة الانسان من الناحية الاجتماعية والتربوية فقد نجد أن الانفعال يمثل أهم

---

(١) مبادىء علم النفس العام ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .
(٢) القوصي . علم النفس ١٨٢ .

دوافع الانسان نحو العمل ، فلولا الشعور بالخوف لما شعر الانسان بالحاجة الى الدفاع عن نفسه ووطنه ومصالحه . أمّا احتمالات الخطر التي تواجهه من قبيل الآخرين ، الأمر الذي يمنحه القوة والثبات والاستقرار .

ولو لا انفعالات الفرح والحزن والغيرة لما استطعنا أن تتعرف قيمة الحياة وأهدافها ومثلها العليا ، ولهذا نلاحظ أن من أفضل الوسائل لاستثارة الآخرين وتوجيههم نحو عمل مّا يتعلق بحياتهم العامة والخاصة ، هو استثارة انفعالاتهم الذاتية وتوجيه مشاعرهم نحو هذا الشيء أو ذاك .

وربما نجد اوضح شاهد على ذلك ، هو ما يمارسه الاشخاص الذين يعملون في الحقل السياسي والديني والاجتماعي من التركيز على الاساليب العاطفية التي تثير المشاعر ، وتهيّج الانفعال . وترتفع بالأحاسيس العاطفية الى أعلى درجة من التوتر ، مما ينتهي بالجماهير الى الثورة في بعض الحالات ، أو التظاهر والقيام بأعمال العنف الشديدة دون وعي وانتباه ، ولعل خطب الامام علي (ع) في نهج البلاغة ، في الحالات التي كان يريد فيها إثارة اصحابه نحو الجهاد، او غير ذلك من الامور المهمة ، هي أبلغ شاهد على ذلك حيث حشد الامام فيها كل ما يمكن من اساليب الاثارة العاطفية بالاضافة الى الاساليب الاخرى التي تربطهم بالفكرة ، من الجوانب الفكرية والروحية .

* * *

« وقد درس الناس كثيراً من العوامل التي تثير الانفعالات ، فمن هذه الموسيقى والشعر والفن التصويري والتمثيلي وغير ذلك . . وقد

كـان للفنـون بمختلف أنـواعهـا اكبـر الأثـر في انهـاض الأمم في جميـع العصور »[1] .

* * *

ولكننـا ، في الـوقت الـذي نؤكـد على هــذا الجـانب الايجــابي للانفعال في المجال الاجتماعي والتـربوي . لا نـريد أن نغفـل الجوانب السلبيـة التي تتمثل في امكـان استغلال الـوسائـل الانفعاليـة في اوضـاع وأهدافٍ لا تتفق مع مصلحـة الجماهيـر والافراد كمـا نراه في الكثيـر من الحـركات والثـورات التي تملك قياداتهـا الاساليب الانفعـالية الحمـاسية التي تستـطيع إثـارة الجماهيـر لتوجههـا الى اهداف غيـر صالحـة ، كمـا ربمـا نلمـح ذلـك في الآيـة الكـريمـة ﴿ **قـل إنمـا أعـظكم بـواحـدة أن تقوموا لله مثنى وفـرادى ثم تتفكـروا مـا بصاحبكم من جنـة . . .** ﴾ حيث نجـد أن تركيـز القرآن على أن يتفـرقوا مثنى وفـرادى ليتفكروا وليحـددوا مـواقفهم ، لأن الجـو الاجتمـاعي الـذي يعيشـون فيـه ، كــان يخضـع لأساليب انفعالية لا تسمح لهم بـأن يحددوا مـواقفهم بحريـة واستقلال ، في اتجاه الهدى والخير .

وقد تلجأ بعض القوى السياسية في الداخـل والخارج ، الى إثـارة الجمـاهير ودفعهـا نحو التـظاهر والتخـريب حتى لتحطم كـل شيء تصل أيـديها اليـه ، وذلك في الاوقـات الحرجـة التي تمـر بهـا البـلاد فتختنق بالأزمات التي توحي بالثورة وتنفجر بالنقمة حيث تتحـول الثورة المكبـوتة والنقمـة الهادرة الى هـواء ، بفعل عمليـة التنفيس التي يتبخـر معهـا كـل شيء وهذا ما يفسر لنا إطـلاق بعض الانظمـة المنحرفـة ، حريـة الكلام والتـظاهر ، حتى لا يتحـول العسف في الجوانب الاقتصـادية والسيـاسية

(١) القوصي . علم النفس / ١٨١ .

والاجتماعية إلى اختناق يؤدي الى الثورة العملية على النظام .

* * *

ولهذا كله كان الانفعال ضرورةً وخطراً في آن واحد ، الأمر الذي يجعل المهمة الاساسية للعاملين في الحقول العامة هي ، ضبطه وتركيزه على أسسٍ نفسية ثابتة لا تخضع للرياح المجنونة التي تعرف هدفها جيدا ، بل تسير مع الرياح الهادئة الوادعة التي يمكن أن تحمل العواطف على بساط من عقل وفكر لتواجه مشاكل الحياة بوعي واتزان .

* * *

الحلقة السابعة

القسم الثاني

موقف الاسلام من الانفعال

موقف الاسلام من الانفعال

تمهيد :

قـد يكـون من الخيـر لنـا ـ امـام هـذا الحـديث ـ ان نتحـدث عن القـاعدة الاسـلامية التي تحكم السلوك بـوجه عـام ، . . . فنلاحظ ـ في بـدايـة المـطاف ـ ان الاسـلام ينـظر الى الانسـان كمخلوق حي فـاعـل يتحمل مسئولية بناء الحياة وتركيـزها على قـواعد ثـابتة تتجسّـد فيها ارادة الله في الكون عبر نظامه الافضل ، لتكون الحيـاة الانسانيـة منسجمة في نظامها العملي مع النظام الكوني الشامل .

ولهذا فانه يريد منه أن يواجه الحيـاة من خلال الشعـور بالمسئـولية في حياته العامة والخاصة .

ولعـل من الطبيعي لـه ـ وهو يتحـرك في هذا الاتجـاه ـ أن يـواجـه المـوقف كله بدراسـةٍ موضـوعيـة شـاملة تعتمـد على المعـرفـة الـواعيـة للجـوانب الاسـاسيـة المحيـطة بـالمـوقف ، أو المجـالات العمليـة التي يتحـرك فيها ، والاهـداف الحيـويـة التي ينـطلق من خـلالهـا ويعيش من أجلها .

وعلى ضوء هذا ، كان اسلوبه في ذلك كله ، يتجه إلى الاسلوب العقلاني الذي يواجه الحياة ويقف معها وقفة موضوعية هادئة ، تدرس الموقف على الطبيعة ، كما هو ، دون زيادة او نقصان ، بعيداً عن الانفعالات الذاتية التي قد تعطي الصورة حجماً اكبر من حجمها الحقيقي ، في بعض الحالات، او أقل منه في حالات أخرى ، لنستطيع مواجهة الواقع بفهم حقيقي ووعي منفتح ، وبالتالي لنتمكن من السيطرة على ما فيه من مشاكل وقضايا شائكة معقدة .

* * *

قيمة العقل في الاسلام :

وربما يكون من مظاهر التركيز على هذا الجانب من الاسلوب ، هو الاهتمام الكبير الذي أولاه الاسلام للعقل من حيث هو قوة أساسية ، ترصد للانسان تفكيره ، وترعى خطواته العملية في الحياة ، فاعتبره مركز الدائرة في قاعدة المسئولية ، ليوحي لنا بان العقل الهادىء هو الاساس في حساب المسئولية ، فلا مسئولية بدون عقل ، لانه لا معنى للمسئولية ، دون النظر الى طبيعة العمل ونتائجه ، ووسائله وأهدافه ، ليعرف الانسان ، أين تكون البداية ، وأين تستقر النهاية ، ولا مجال لذلك بدون العقل .

ومن أوضح الأدلة على هذه الحقيقة الاسلامية ، الاحاديث الشريفة الواردة في ذلك .

ففي كتاب الكافي ، عن الامام ابي جعفر محمد الباقر ، قال : لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له : اقبل ، فأقبل ، ثم قال له : ادبر فأدبر ، ثم قال وعزتي وجلالي ، ما خلقت خلقاً هو أحب اليّ منك ، ولا أكملتك إلا فيمن أحب ، أما إني اياك آمر ، وأياك أنهى .

وأياك اعاقب ، وأياك أثيب .

وفي حديث آخر عن الامام جعفر الصادق (ع) : قال : قال رسول الله : اذا بلغكم عن الرجل حسن حال ، فانظروا عقله فانما يجازى بعقله .

ويروي أحد اصحاب الامام الصادق أنه قال : ذكرت لأبي عبد الله رجلا مبتلى [1] بالوضوء والصلاة ، وقلت : هو رجل عاقل فقال ابو عبد الله : وأي عقل له ، وهو يطيع الشيطان ، فقلت له : وكيف يطيع الشيطان ؟ فقال : سله هذا الذي يأتيه من أي شيء هو . فانه يقول لك : هو من عمل الشيطان .

* * *

العقل في القرآن الكريم :

وقد تحدث القرآن الكريم في اكثر من خمسين آية ، عن اهمية العقل ودوره في بناء شخصية الانسان وانفتاحه على ما في الحياة من خير وصلاح ، وأشار إلى كثير من الانحرافات الفكرية والعملية التي طرأت على مسيرة الانسان فقادته الى الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة ، وأوضح أن ذلك كله ، يرجع الى فقدان العقل او إهماله ، وترك استعماله ، كأساس للحكم على طبائع الاشياء ومعرفتها بعمق ، كما نلاحظ ذلك في الآيات التالية :

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾

[سورة الملك: ١٠] .

---

(١) اي بالوسواس في نيتهما او افعالهما او شرائطهما .

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ . [سورة الحشر : ١٤] .

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ . [سورة البقرة : ١٧١] .

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ . [سورة المائدة : ٥٨] .

وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ [سورة المائدة : ١٠٣] .

* * *

ففي هذه الآيات إيحاءُ ودلالـهُ ، بأن فقدان العقل ، او سوء استخدامه ، يؤديان بالانسان الى الكفر والهلاك وإلى مواجهة الأمور الكبيرة بأساليب السخرية والاستهزاء . وينتهي بالمجتمع الى الانقسام والتمزق ، او القلق والضياع . . . لأن حركة العقل في الاتجاه السليم هي التي تعرّف الانسان مواطن الخير والشر في الاشياء . وهي التي تكشف له نقاط الضعف والقوة بما تفتحه من آفاق المعرفة الواسعة ، الأمر الذي يبعده عن الخضوع لأجواء الانحراف والضلال ، التي ترتكز على أسسٍ عاطفية انفعالية تفرضها حالة البيئة ودوافع الاغراء .

وهناك آيات تدفع الانسان الى الشعور ، بقيمة الأيات الكونية التي اودعها الله في الطبيعة ، وفي الانسان ، كمنطلق للايمان ،

وتوجهه الى الاحساس بروعة الآيات الفكرية والتشريعية التي فصلها الله في كتابه الكريم ، كقاعدةٍ للعقيدة ، وتدعو العقل الى التحرك في اتجاه التفكير في ذلك كله من أجل أن يفتح وعي الانسان وفكره على جوانب العظمة في الكون وروائع الابداع في التشريع ، كما نجد ذلك في الآيات التالية :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ .

[سورة البقرة : ١٦٤] .

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ . [سورة الروم : ٢٨] .

ولعل السرّ في ذلك ، أن الذين يعقلون ، هم الذين لا يمرون بالاحداث والظواهر المحيطة بهم ، مروراً خفيفاً ، لا يلامس إلا ظاهر الاشياء ، بل يحاولون الوقوف عندها ، والتعمق فيها ، والامتداد بانظارهم وافكارهم ، الى جميع جوانبها ، فيتعرفون من خلال ذلك ـ على أسس القضايا وجذورها ، وينفتحون منها على أفق جديد من آفاق الايمان والمعرفة الواعية العميقة .

* * *

القصة في القرآن . . في طريق العقل :

حتى القصة في القرآن الكريم . . لا يريد الله للانسان أن يمر بها كما يمر بالاقاصيص التي يملأ بها فراغ وقته ، او يشبع بها غريزة

حب الاستطلاع في ذاته ، او ينفعل بأحداثها وايحاءاتها انفعالا عاطفيا عابراً يثير أعماقه دون أن يترك فيها أي أثر كبير ، بل يريد له أن يجعل منها منطلقا للتفكير حتى يستطيع أن يفهم طبيعة احداث القصة في الماضي ، وعلاقتها بالعقيدة والحياة ، وامكانية الاستفادة منها في حياتنا من خلال المبادىء العامة التي تتحرك في إطار القصة دون ان تنحصر في نطاق محدود من الزمان والمكان .

وبهذا كان التاريخ والحديث عنه ـ في مفهوم الاسلام ـ يمثّل اسلوبا من اساليب القرآن التربوية ، التي يهدف ـ من خلالها ـ الى حشد التجارب الانسانية الماضية أمام الانسان ليأخذ منها العبر والعظات والدروس التي تنفعه في حياته الحاضرة ، بعيداً عن أي انفعال او علاقة عاطفية .

فالقضية قضية أن يرتبط الانسان باحداث التاريخ وقصصه من خلال ما تقدمه من تجارب ومبادىء عامة ، ليتحرك الانسان في اتجاه ذلك في خطواته العملية نحو التقدم والنمو ، على أساس ارتباطه بالجذور العميقة من حركة الحياة . ولعلنا نلاحظ ذلك في الآيات التالية :

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾ . [سورة الحشر : ٢] .

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٣٤﴾ . [سورة البقرة : ١٣٤] .

* * *

وعلى ضوء الآية الأخيرة تبرز الصورة الواضحة التي تجعل القصة للفكر والسيرة ، لا للانفعال والعاطفة ، فما دامت الاحداث الماضية ،

لا تدخل في حساب مسئوليتنا المباشرة امام الله تعالى ، فلماذا نجعل منها مثاراً للانفعال غير المسئول الذي ربما يهدم الحاضر على أساس خلافات الماضي التي قد لا تمثل بالنسبة الينا اي شيء في اغلب الحالات إلا في بعض الجوانب التي ترتبط بتحديد موقف للعقيدة والعمل ، فنأخذ منها الموقف السليم ، ونترك كل شيء ما عداه في ذاكرة الزمن لمجرد الحفظ والاطلاع .

وبهذه الروح نتخلص من كثير من الخلافات الدينية والمذهبية وتأثيرها على حياتنا العامة ، وعلاقاتنا الاجتماعية بسبب بعض التفسيرات لبعض قضايا التاريخ الديني . . . عندما ننظر اليها نظرتنا الى أية قضية أخرى ، لمجرد الدرس والانتفاع .

* * *

ذلك هو الموقف العام للنظرة القرآنية للعقل ودوره الاساسي في حركة الانسان الفكرية والعملية . . . وقد حاولنا أن نعرض له بصورة إجمالية تشير الى بعض اللفتات القرآنية في هذا الجانب .

* * *

موقف قرآني بين الانفعالية والعقلانية :

وقد نجد في بعض الآيات الكريمة تأكيداً على هذا الاسلوب في القضايا التي تقع مثاراً للجدل والخلاف ، وتخلق في الساحة جوا انفعاليا حاداً يبعد الانسان عن معرفة الوجه الصحيح للقضية ، كنتيجة طبيعية للتأثيرات الانفعالية العنيفة . . . فيحاول الاسلام ـ من خلال الاسلوب القرآني ،إخراج الانسان من الأجواء الانفعالية ، الى الاجواء الهادئة التي تجعله يفكر بالقضية في اكثر من اتجاه ، بعيداً عن أي تأثر

سريع ليصير بعد ذلك الى معرفة الحقيقة من جميع جوانبها . ونجد ذلك واضحا في الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ٤٦

[سورة سبأ : ٤٦] .

فهي تعرف جيداً ان مستوى الجماهير لا ينخفض عن السطح الا قليلا ، وتدرك ـ الى جانب ذلك ـ طبيعة الغوغائية التي تكمن في نفس كل واحد منهم ، وجانب الانفعال والحماس الذي سرعان ما يطغى ويثور . الأمر الذي يمهد للتهمة ـ أية تهمة ـ أن تنتشر وتمتد الى ذهن كل واحد منهم دون محاكمة او مناقشة ، حتى لتنطلق ـ بعد ذلك ـ في صورة تيار جارف يجرف المشاعر والأحاسيس ويحوّلها إلى ما يشبه الطوفان ، ولذا فان الدعوة تدرك انها تعيش في موقف معقّد ، لا بد لها ـ في معالجته ـ من الدقة والحذر فماذا فعلت ؟

إنها لم تحاول ان تتجه الى الجماهير ـ في وضع خطابي او اقناعي ، لتدفع التهمة عن صاحبها ورائدها الرسول الاعظم (ص) وذلك بتقديم الأدلة والبراهين التي تدحض هذه التهمة وتدفع هذه الفرية ، لأن الجماهير لا تدرك لغة الحجج والبراهين في طوفان الحماس والاندفاع ، فهي لا تستمع إليها ولا تلقي بالاً لما تقول .

.. إنها لم تحاول ذلك ولم ترد هي أن تقوم بنفي التهمة ، لأن صاحبها ـ في حسبان الجماهير ـ لا يعي ما يقول فكيف تقبل منه الحجة بالدفاع عن نفسه .

بل حاولت ان تدل هؤلاء على منهج البحث وطريقة المعرفة ،

وترجعهم الى ذواتهم وفطرتهم . . ولكن بطريقةٍ لبقة لا تشعر الآخرين بالغاية التي تنتمي اليها فقد دعتهم إلى أن يتفرقوا مثنى وفرادى وينفصلوا عن الجو العاصف الذي يعيشون فيه . ثم يحاولون دراسة هذه التهمة ، والتفكير فيها بعيداً عن المؤثرات العاطفية ليصلوا الى النتيجة الحاسمة التي يمليها عليهم تفكيرهم الأصل وملاحظتهم الشخصية لافعال النبي (ص) وأقواله العامة .

فهي لم تقم بنفي الفكرة ابتداءً ، ولم تتخذ صفة الناقد لهم والموجّه لافعالهم ، بل حاولت دعوتهم إلى أن يناقشوا الفكرة ، ويهيّئوا لانفسهم الجو الهادىء للتفكير والمناقشة . فهي في هذا الجو ، أشبه بالمتهم الذي لا يحاول ادعاء البراءة لنفسه أمام القضاة ، بل يكتفي بمحاولة ارشادهم إلى ان يراجعوا الوثائق والمستندات المتعلقة بقضيته . ليحكموا ـ عليه ـ من خلالها بما يوحي اليهم ضميرهم بعيداً عن أيِّ تأثير وهو واثق ـ في الوقت نفسه ـ من ان النتيجة ستكون في صفه [1] .

الطريقة العقلانية تؤدي الى العمل :

وربما نجد في القرآن الكريم بعض الحديث عن هذا الاسلوب العقلاني الذي يعتمد على إثارة التفكير في المعالم الكونية في السماء والارض ، ومدى ما يستطيع أن يثير ، الانسان من التحول إلى المواقف العملية التي تحدد للانسان طريقه في الحياة بين يدي الله تعالى .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

---

(1) اسلوب الدعوة في القران ٦٧ ـ ٦٨ طبعة ثانية .

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ [سورة آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩٤] .

فنحن نرى ان التفكير العميق الهادف هو الذي قادهم الى معرفة الله وعظمته من خلال عظمة خلقه ، وانتهى بهم الى النتيجة العملية التي يشعرون فيها بالايمان يعيش في اعماقهم ينطلق في مناجاة خاشعة واعية ، ثم يتحول بعد ذلك إلى ممارسةٍ للمسئولية ، وترقّبٍ للنتائج الحاسمة لحساب المسئولية أمام الله . .

وهكذا نعرف ـ من خلال هذه الآيات ـ أن الرحلة الاولى التي يريد الاسلام للانسان أن يبدأها في مجال التفكير لا يريد لها أن تقف وتتجمد عند الحدود النظرية للفكر ، بل يريد لها أن تظل سائرة نحو العمل في طريقها الى الله .

* * *

رفض الاسلام للتقليد الفكري للاباء :

ونخلص ، من هذا الحديث عن نظرة القرآن الكريم الى العقل ، والى دوره الكبير في حياة الانسان من جميع جوانبها الفكرية والعملية ، الى نتيجة حاسمة ، وهي رفض الاسلام لأي اتجاه او سلوك يبتعد عن الاطار العقلي في شكله وطابعه ، ومنطلقه وأبعاده .

وعلى ضوء ذلك نفهم رفض الاسلام للفكر الذي يرتكز على أسس انفعالية وعاطفية ، وللسلوك الانساني الذي يرتكز على هذا الاتجاه .

وقد نجد من الخير أن نعرض ـ في نهاية المطاف ـ إلى شاهد قرآني من أوضح الشواهد على ذلك ، في الحملة التي شنها الاسلام في القرآن على أولئك الذين يبررون أفكارهم وعقائدهم ، باعتقاد آباءهم بها وانتمائهم إليها نظراً إلى الروح الانفعالية التي تنطلق من فكرة تقديس الآباء وتعظيمهم ، ومن الشعور بضرورة السير على خطى الآباء والاجداد ، لان الانحراف عن ذلك ، يخلق في داخلهم الشعور بالعار من جهة ، وبالإساءة لذكراهم من جهة أخرى .

وكان القرآن حاسماً في ذلك كله . . فالقضية عنده ، أن علاقة الأبوة وكل علاقات القرابة ، لا تفرض على الانسان الا التعاطف والتراحم ، والانسجام مع المشاعر العاطفية الخاصة ، سواءً في ذلك ، حال الحياة ، وحال الموت .

أمّا العقيدة ، أمّا خط السير في الحياة ، فلا يخضع لأي شيء من ذلك ، لأنه مرتبط بدراسة الفكرة في ذاتها ، وفي موقعها من الواقع .

وإذا كانت القضية تسير في هذا الاتجاه ، فلا بد من التجرد ومواجهة الموقف بموضوعية كاملة لا تنظر الا الى طبيعة الفكرة ، بعيداً عن كل المؤثرات العاطفية التي لا معنى لها .

وبذلك ألغى الاسلام كل اعتبار للعلاقات الانسانية في حال العقيدة ، وحطّم كل قداسة للماضى الذي يرتبط الانسان بجذوره ـ في هذا المجال ـ ليفسح المجال للفكر كي ينطلق ويتحرك بكل قسوة وجفاف ـ إن صح التعبير ـ

وربما تتضح الصورة اكثر في هذه الآيات الكريمة .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ .

[سورة البقرة : ١٧٠] .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ .

[سورة المائدة : ١٠٤] .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ .

[سورة سبأ : ٤٣] .

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ .

[سورة الزخرف : ٢٢و٢٤] .

فهنا منطق يرتكز على أساس الحالة النفسية التي ترفض الانحراف عن خط الآباء ، وتعتبر مخالفة أيّ فكرة لهذا الخط سبباً كافيا لرفضها وجحودها .

أمّا منطق القرآن فيرفض ذلك كله بقوة ، فهو يريد أن يفتح عيونهم على ذهنية آباءهم وتخلّفهم وإمكانية ابتعادهم عن الحق والهدى ، أو عدم ادراكهم للابعاد الحقيقية لذلك كله ، ويوجههم الى

أن يواجهوا الموقف من خلال قناعاتهم وتأملاتهم الخاصة ، بعيداً عن الشعور بقداسة الآباء والاجداد .

* * *

ولكن . . هل نرفض الانفعال من الاساس :

ولكن هل معنى هذا . . أن الاسلام يرفض الانفعال من الأساس ، فيجرد الانسان من كل نوازعه الانفعالية في حياته ، ويحوّله الى مخلوقٍ جامد جاف يتحرك بحساب ، ويقف بحساب ، بعيداً عن كل العواطف والانفعالات ، فليس هناك إلا الارقام التي تتكلم في ميزان الربح والخسارة ، في عملية الجمع والطرح .

لن يكون الجواب ايجابا ـ فيما نظن ـ

فللانفعال دوره الكبير في توجيه الانسان نحو نشاطاته الفكرية والعملية ، وتنمية دوافعه نحو العمل . . . وله تأثيره القوي في إعطاء العلاقات الانسانية طابعا روحيا حميماً يتجاوز لغة الارقام ، الى مجالات جديدة أخرى ، من العطاء والتضحية والايثار ، فان ذلك هو الحافز الأساسي الذي اذا فقده الانسان فقد احساسه بالحياة ، ككائن حيّ تموج المعاني الانسانية في اعماقه ، وتحوَّل الى آلة تتحرك دون روح .

إن كل ما يهدف اليه الاسلام ـ فيما نفهم ـ هو تعقيل العاطفة ، وتنظيم الانفعال ، لأن من شأن العاطفة أن تتدفق إلى حد الفيضان ، فلذا نشعر ازاء ذلك بالحاجة الى الحواجز والسدود التي تمنعها من الوصول الى المرحلة التي تتعرض فيها حياة الناس للخطر .

اما الانفعال ، فقد يطغى الى مستوى الجنون ، فلا يعي الانسان

معه ـ ما حوله ـ الأمر الذي يدعونا الى تنظيمه وتبريره حتى يعرف الانسان جيداً . حين يبدأ ، الى ان ينتهي به المطاف .

وبذلك يتحقق للانسان التوازن الذي يستهدفه الاسلام في حركة الانسان في الحياة ، التي يريدها أن ترتكز على أساس المسئولية الواعية التي تعرف طريقها جيداً ، فلا يسمح بطغيان جانب على آخر ، ولا يتغلب عنصر على عنصر ، بل هي الجوانب والعناصر التي تتحكم وتنسجم لتجسد النفس الانسانية الواحدة السائرة في الاتجاه السليم .

الاسلام أمام نماذج متنوعة من الانفعال :

لكي تتضح الصورة لا بد لنا من استعراض بعض الانفعالات التي حاول الاسلام أن يوجّهها من الداخل ، على أساس تغيير الدوافع والاسباب التي تثير الانفعال ، وتحويلها إلى اسباب ودوافع جديدة يمكن ان يبني الانفعال الحاصل منها حياة الانسان ويشارك في الاتجاه بها نحو الأفضل .

هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، يحاول الاسلام أن يضبط الانفعال في حالة انطلاقه ، ويحصره في نطاق محدود من الممارسة الانفعالية : فشق طريق الصبر والايمان حتى لا يشذ الانسان في انفعالاته ويأتي باشياء منكرة يأباها الخلق والمجتمع فكبح الغضب في عدة سور من القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة وسيرة آل البيت الطاهرين .

قال الله تعالى :

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا

جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

[سورة المائدة : ٤٨ ـ ٥٠] .

فلقد خلق الله الكون وأحسن خلقه وتيسيره . . . وسخّر جميع الكائنات في الارض والبحار في خدمة الانسان . . فكل شيء بحساب ، وكل حركة بقدر . . من أصغر ذرة الى أكبر مخلوق . . فهي تتحرك وتتصرف وفقاً للنظام الحكيم بدقة وانتظام .

* * *

وتكتمل الصورة في مشهد آخر .

فالانسان لم يخلق عبثاً . . فهو ـ في الحياة ـ مخلوق ذو رسالة . يلزمه أن يجسّدها في الحياة من خلال سلوكه وسلوك الآخرين ، ومن خصائص العمل الرسالي ، أن يحدد للانسان مسئوليته ـ ويواجهه ـ بعد ذلك ، بنتائجها . في حساب الثواب والعقاب ، لينطلق في حياته على أساس مدروس ومنظم .

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ .

[سورة الزلزلة : ٦ - ٨] .

وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ .

[سورة الكهف : ٤٩] .

وعلى ضوء هذا كله .

فأين يكون الخوف ؟

في الحاضر أو في المستقبل

هل نخاف من القوى الكونية ؟

إنها ليست الا ظواهر طبيعية تخضع لأسباب معينة يمكن للانسان أن يتعرف عليها من خلال الثقافة العلمية المبسطة ويمكن له أن يوفر لنفسه سبل الحماية في كثير منها .

هل نخاف من قوى البشر ؟

إنهم لا يملكون لنا ضراً إلا بالله . فلا يجوز لنا أن نخافهم ما دام الله قادراً على أن يصرف عنا كيدهم ، وما دمنا نؤمن اننا مخلوقون مثلهم ، وانهم لا يملكون طاقة غير عادية لا نملك تحصيلها . . بل كل ما يملكون من طاقةٍ فهو مماثل لما نملكه ، أو لما نستطيع أن نملكه في قليل أو في كثير . . وكله تحت قدرة الله وسلطته . .

وتلك هي صورة الانسان المؤمن الذي يواجه قدرة البشر كلها ، يصورها لنا القرآن الكريم بقوله تعالى :

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ . [سورة آل عمران : ١٧٣ ـ ١٧٤] .

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٩] .

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ . [سورة آل عمران : ١٧٥] .

هل نخاف من الفقر ؟

إن الرزق بيد الله ، فهو مقدّرٌ منه ، بحسب الظروف التي تحيط بالانسان ، والقدرات التي يملكها ، والفوارق التي تتاح له لا يزيد ولا ينقص .

إن لك أن تبذل كل جهدك . وكل قوتك ، منفرداً أو منضمّاً إلى الآخرين في العمل ، وفي توفير الفرص في تهيئة الأجواء . . فهي الأسباب الطبيعية التي تستطيع في اطارها التحرك من اجل الحصول على الرزق . . ثم يبقى بعد ذلك الفرص التي لم تحتسب ، وغير ذلك مما يوفره الله للناس بأسبابٍ غير عادية .

هل تخاف من المجهول ؟

إن المجهول ليس قوةً مجنونةً تتحرك دون وعي ولا نظام ، حتى تخاف منها أن تقتحم حياتك عليك فتدمرها وتذهب بكل شيء .

إن المجهول . هو حياة المستقبل ، التي تخضع لتدبير الله ونظامه ، وتتحرك وفق السنن الكونية التي أودعها الله فيه على أساس الحكمة والرحمة ، تماماً ، كما هي حياة الحاضر والماضي التي كانت

سائـرةً وفق الحكمة والنظام .

ولـذا ، فان عليـك ان تواجـه التطلّع إلى المجهـول بروح تحسب مـا تستطيـع عمله ، وتترك لتقـدير الله وتـدبيره مـا لا تستـطيـع إدراكـه او عمله ، لتشعـر بالـرضا والـطمأنينـة وتبتعد عن الشعـور بـالضيـاع والقلق المدمِّر .

وهـذا ما يفسـر مفهوم التـوكل على الله ، الـذي يجسّد الـطمأنينـة الهادئة بالمستقبل لانه في رعاية الله وتدبيـره ، بعد أن قـام الانسان بكـل ما يجب عليه تجاهه .

وقـد ورد في الحديث الشـريف في تحديـد معنى التوكـل : ان لا تخاف أحداً الا الله . . من قوى كونية ، او قوى بشرية .

هل تخاف من الموت ؟

إن الأعمـار بيد الله ، فهـو الذي حـددها ضمن النـظام الكـوني ، وهـو الذي خلق المـوت والحياة ، فـاذا جاء أُجلهم لا يستقـدمون سـاعة ولا يستأخرون .

ماذا تخاف منه ؟

أتخـاف شكله أو أجـوائه ، انه جـواز المرور الى حيـاة جـديـدة ، أفضل من حياتك في السعة والامتداد والشمول والتجرد .

أتخـاف من حـدوثـه ؟ كيف ؟ ايمكن ان لا يحـدث أبـداً . . واذا كان أمراً حتمياً ، فاين يكون الخوف ؟ ما معناه ؟

* * *

إذن . . فـالصورة ليست ضـائعة الالـوان والخطوط ، حتى نخـاف وحشـة الاشبـاح فيهـا . . فنحن جـزءٌ من هــذا النـظام . . وفي إطـاره نتحـرك ، في ظـل رعـايـةٍ رحيمـةٍ حكيمـةٍ ، هي الاول والآخـر في كـل

شيء ، وليس لغيرها من الامر شيء .

فلماذا نخاف من الحياة ؟

ولماذا نخاف من الموت ؟

إنك في الحياة في رحمة الله ، وبعد الموت في رحمة الله . . فاين يكون الخوف ، وما معناه ؟

* * *

وتزول المثيرات المادية للخوف من نفس الانسان ، بفعل الايمان بالله ، والاطمئنان للقضاء والقدر .

ويبقى عنصر واحد يشغل عقل الانسان وروحه ، فيثير فيه انفعالات الخوف من المستقبل ، ولكنه ليس مستقبل الدنيا ، بل مستقبل الآخرة .

إنه عنصر المسئولية العملية التي يتحرك فيها الانسان ، ليواجه حسابها امام الله ، فيظل نهب الشعور بالخوف من التقصير والقلق من الإهمال .

ويظل الخوف من الله ، من غضبه وعقابه ، يهز ضمير الانسان المؤمن وكيانه ، ليحرك فيه الحافز الاعمق للسير في الخط المستقيم . الذي يؤمّن له الاطمئنان الى رضاء الله ورحمته .

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

[سورة الأنعام: ١٥] .

وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ [سورة الأنعام: ٥١] .

يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ [سورة النور: ٣٧] .

وحتى الخوف من الله . . لا يتحوّل الى عقدة مرضية تشلُّ في الانسان قدرته على العمل . . فهناك بابٌ يفتحه الاسلام للأمل والرجاء لله ، في العفو والمغفرة . . ولكنه رجاء لا يبعث على التمادي في الضلال ، كما كان الخوف لا يشجعه على اليأس والقنوط .

* * *

الغضب في مفهوم الاسلام :

في بعض النصوص الدينية : ان الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم ، وان احدكم اذا غضب احمرّت عيناه وانتفخت أوداجه ، ودخل الشيطان فيه .

وفي حديث النبي محمد (ص) : الغضب يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل .

وفي حديث الامام جعفر الصادق : الغضب ممحقة لقلب الحكيم .

وفي حديث آخر له : الغضب مفتاح كل شر .

وفي حديث ثالث عنه : من لم يملك غضبه لم يملك عقله .

* * *

هذه هي بعض النصوص الاسلامية التي تتحدث عن الغضب ، وعن آثاره في حياة الانسان الروحية والعقلية والعملية فنلاحظ في الحديث الأول : انه اعتبره من الحالات الوجدانية التي تتقّد في كيان الانسان وقلبه ، كما تتقد الجمرة فتبعث الشرر واللهب فيما حولها ، فيتحول الانسان الى أعصاب تلتهب بالمشاعر العنيفة ، والى نوازع تتحرك بجنون ، وعند ذلك تنطلق عوامل السوء ونوازع الشر . لتملأ

كيان الانسان فتحركه نحو غاياتها بكل سهولة ، لأن النفس تفقد ـ مع الغضب ـ وداعة الملاك وخيره ، لتخضع لجنون الشيطان وشره .

انها تتحول الى اعصاب ثائرة بدون عقل ، ومشاعر هائجة دون ردع .

وربما نجد ملامح هذا المعنى في الحديث الرابع : لان النفس إذا عاشت هذا الجو المحموم الحاد ، فقدت الحاجز الذي يغلق عنها أبواب الشر ، الأمر الذي يهيىء للشر ان يندفع نحوها بكل قوة وجنون .

* * *

اما الحديث الثالث والخامس فيتعرضان للآثار السيئة التي يتركها الغضب في عقل الانسان وفكره ، فهو يمحق قلب الانسان الحكيم (والمراد بالقلب : الفكر) لأن الغضب ـ كما ألمحنا إليه ، يساهم في اختلال التفكير الدقيق المنتظم الذي يرتكز على الصورة الواضحة ، والمعاني الدقيقة التي يعمل الفكر على التنسيق بينها وربط بعضها ببعض لتحويلها الى نتائج جديدة .

وكما يمنع الغضب من التفكير الدقيق ، يمنع ـ من جهة أخرى ـ من قدرة العقل على مراقبة العمل والتصرف ، ويخفف من حركته في مجال النقد والتمحيص ، وعندما تضعف الارادة ، ويتضاءل دور النقد لدى الانسان ، يصبح الشخص خاضعا لحوافز عمياء ودوافع جبرية .

* * *

وفي الحديث الثاني المأثور عن النبي (ص) نعرف تأثير الغضب في الايمان ، فنرى انه يفسد على الانسان ايمانه ، كما يفسد عليه عقله ، لان الايمان بالله يرتكز على وعي الانسان العميق ، لعلاقته

بالله ، وارتباطه بأوامره ونـواهيه ، الأمر الـذي يحتاج الانسـان معه الى أن يظل على اتصال بالروح الهادئة والتفكير العميق .

وقد عرفنا ان الغضب يفقد الانسان هدوء روحـه وسلامـة تفكيره ، واذا فقد ذلك فقد وعيه لله والتزامه بارادته .

كيف يثور الغضب ؟

في حـديث الامام جعفـر الصـادق (ع) : قـال الحـواريـون لعيسى (ع) أيّ الاشيـاء أشد ؟ قـال : أشـد الاشيـاء غضب الله قالـوا : بم نتقي غضب الله قال : بأن لا تغضبوا قالـوا : وما بـدء الغضب ؟ قال : الكبـر والتجبر ومحقرة الناس .

* * *

فقـد نلاحظ ـ في هـذا الحـديث ـ ان بعض اسبـاب الغضب ـ في مجال العلاقات الانسانية ، يكمن في شخصية الانسان من الداخل .

فـالانسان الـذي يعيش الكبـر في نفسـه ، والتجبـر فيمن حـولـه ، ويشعر بالاحتقار للاخرين ، لا يستطيع أن يملك نفسه عنـدما يثـار ، فهو يـرى لنفسـه الحق على النـاس في كـل شيء ، ولا يــرى لهم عليـه أي حق . . . وبـذلـك تبقى حيـاتـه معهم ، في حــالـة تـوتـر دائم ، وقلق مـدمر ، يُرهف جانب الاحسـاس الذاتي لـديه ، حتى تتحـول ذاتـه الى عقـدةٍ . . وتتـطور العقـدة الى جنـون يشعـر معـه بنفسـه وكـأنــه قـدس الأقداس الذي ينبغي للحياة أن تظل صـاغرة لـديه تسبّح لألائه وتقـدّس رغباته .

وتتبدل نظرته الى ما حـوله ومن حـوله تبعـاً لذلـك ، فالحيـاة كلها في خـدمته ، والآخـرون ـ من بني الانسان ـ مسئـولـون عن راحتـه حتى

على حساب راحة أعصابهم ، فليس لهم أن يتكلموا معه إلا من خلال الشعور بقداسته ، والإحساس بعظمته ، وإلّا ، فعليهم أن يعرّضوا أنفسهم لغضبه ، فيما اذا صدرت منهم بعض الكلمات او الحركات او الاوضاع العامة او الخاصة التي لا تتلاءم مع مزاجه ، أو لا تنسجم مع رغباته ، وان لم يكن لها صلة به من قريب او من بعيد ، لأنه يرى أن من حقه ، ان يدرس الناس كل شيء من خلال راحته لا من خلال السنة الطبيعية للحياة .

إن هذا التركيب المرضي لطبيعة هذا الانسان هو الذي يدفع الانسان الى الثورة العمياء على من حوله وما حوله ، لدى أقلّ شيء مزعج ، وان لم يكن له أثر في نطاق الحياة العادية .

وهذا هو ما نشاهده بارزاً في سلوك كثير ممن يملكون الثروة الكبيرة أو الجاه العظيم ، او السلطة الواسعة .

ان الاشياء تتضخم عندهم من خلال شعورهم بضخامة شخصياتهم ، وحقارة شخصيات الآخرين حتى تتحول المطالبة بالحق ـ عندهم ـ الى عدوان على السلطة ، لانهم لا يشعرون بأن للآخرين حقاً لديهم ، ولذا فانهم يثورون ويغضبون لذلك ، وربما يقودهم الغضب الى الجريمة .

وقد تنطلق الكلمة طبيعيةً من الناس في عتاب أو غيره مما يشبهه ، فتتحول ـ في وجدانهم المريض ـ الى ما يشبه الشتم والسباب ، إذ ليس للناس ان يخاطبوهم كما يخاطبون بعضهم البعض حتى في أشد العلاقات الحميمة ، كعلاقة الزوج بزوجته . . فقد نلاحظ ان بعض هؤلاء يتصور ان على زوجته ان تعيش معه في إطار الاحترام المقدس حتى في الاوضاع الزوجية الخاصة جدا .

من الطبيعي أن نقرر ، أن مثل هذه الحالة تختلف في الانسان شدة وضعفاً ، ولذلك فان تأثيرها في اثارة الانفعال يختلف في شدتّه وضعفه تبعاً لذلك ، فكلما ازداد الانسان شعوراً بذاته ، كلما ازدادت عوامل الاثارة لديه حتى فيما لا يثير بشكل عادي ، وكلما فقد الانسان الشعور بذاته بشكل مميز يجعل له الحق على الناس ، كلما كان أبعد عن الاثارة وأقرب الى الهدوء ، والى مواجهة القضايا من خلال ظروفها الطبيعية وأحوالها العادية .

* * *

وربما يظن بعض الناس : ان الغضب مظهر من مظاهر الشجاعة ، ووسيلة من وسائل تأكيد الذات ، وشعورها بالعزة والكرامة أمام عوامل الاثارة من قبل الآخرين . . ويذكرون شاهداً لذلك كلمة الامام الشافعي المعروفة : من استغضب ولم يغضب فهو حمار ، ويخيّل اليهم انهم حينما يغضبون او يثورون لا يفعلون شيئا ، الا ما تمليه عليهم مواقف العزة والكرامة التي يريدها الله للمؤمنين .

* * *

ولكن هذا الظن خطأ ، فان الغضب بعيدٌ كل البعد عن هذه المعاني الكبيرة ، وقد ورد عن النبي في الحديث المأثور « ليس الشديد بالصُّرعة ، انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .

ويعجبني في هذا المجال كلام الغزالي في كتابه احياء علوم الدين قال :

« وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة ، جهل ، بل هو مرض قلب ونقصان عقل ، وهو لضعف النفس ونقصانها وآية أنه لضعف النفس ، ان المريض أسرع غضباً من الصحيح ، والمرأة اسرع غضباً من

الرجل ، والصبي أسرع غضبا من الرجل الكبير ، والشيخ الضعيف اسرع غضبا من الكهل ، وذو الخلق السيىء والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل ، فالرذيل يغضب لشهوته اذا فاتته اللقمة ، ولبخله اذا فاتته الحبة حتى أنه يغضب على اهله وولده [1] » . .

وقد ينطلق الغضب من الحالات الحادة التي تواجه الانسان بما يكره ، كالاعتداء على شيء يقدسه أو يحبه أو حرمانه من بعض الحاجات الشخصية ، او تعرّضه لبعض المواقف المحرجة ، وغير ذلك من الحالات التي يفقد فيها الانسان انسجامه مع الواقع الذي يواجهه ، أو يحيط به ، فيتحول الى حالة انفعال حادةٍ تشبه الهياج الجنوني الذي يفقد الانسان فيه عقله نتيجة فقدانه لتوازنه .

ولعل أقرب التحليلات للغضب في مثل هذه الحالات ، هو اندفاع الانسان للخروج من المشكلة التي تواجهه ، أو الموقف الذي يكرهه ، بطريقة سريعة ، يختصر فيها الوسائل العملية للوصول الى النتيجة بشكل لا شعوري ، او محاولة التعويض عن الشعور العميق بالفشل والعجز عن الوصول الى حل ، فيلجأ الى الغضب كأسلوب من أساليب تأكيد الذات .

كيف يمكن السيطرة على الغضب :

هناك طريقتان للسيطرة على الغضب .

الاولى : اسلوب السيطرة على دوافعه وأسبابه ، وذلك بأن نحصر مؤثرات الغضب في مجالات معينة محدودة وذلك بإزالة الكثير من المؤثرات التي تدفع الى ذلك .

---

(١) احياء علوم الدين ج ٣ ص ١٧٢ .

وهذا ما نسميه بعملية « التبريد من الداخل » .

فاذا عرفنا ان الغضَب ينشأ ـ في كثير من حالاته ـ عن الكبر والتجبر واحتقار النَاس ـ كما جاء في الحديث المتقدم ـ أمكننا أن نبدأ في التخطيط لازالة هذه الصفات من شخصية الانسان ، ليتحول الى انسان متواضع هادىء ، يحترم من حوله ، ولا يشعر بان له أيّ حق عندهم ، الا بمقدار ما يقدم اليهم من خدمات ، كما يتحسس بظروفهم واوضاعهم الصعبة التي تدفعهم الى ممارسة بعض الاخطاء في علاقتهم به وبالآخرين . . . فيحاول من خلال هذه الروح ايجاد المبررات والاعذار لهم في ذلك ، مما يجعله يتقبل كل الاوضاع الشاذة بروحية هادئة غير منفعلة .

ومن الطبيعي ، أن ذلك يحتاج إلى جهد كبير ومعاناة شاقة ، يشترك فيه التوجيه الفكري والروحي مع التدريب العملي والارادة القوية ، وهذا هو الذي يسعى اليه الاسلام في بناء شخصية الانسان المسلم في الاحاديث المأثورة عن أئمة اهل البيت (ع) التي تصور لنا المثل الحي للانسان المؤمن في الحياة .

فقد ورد عن الامام جعفر الصادق (ع) قال : ينبغي للمؤمن ان يكون فيه ثماني خصال : وقور عند الهزاهز ، صبور عند البلاءِ شكور عند الرخاء ، قانعا بما رزقه الله ، لا يظلم الاعداء . ولا يتحامل للاصدقاء ، بدنه منه في تعب ، والناس منه في راحة ، إن العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل أمير جنوده ، والرفق أخوه ، والبر والده [1] .

فقد رأينا ـ في هذا الحديث ـ الملامح البارزة للشخصية

(١) وسائل الشيعة ج ٦ / ص ١٤٣ .

الاسلامية التي يريد الاسلام للمؤمن ان يجسّدها في نفسه ، من خلال المعاناة الطويلة المجهدة التي تجعله يعيش في حالة طوارىء داخلية من أجل ان يحصل على النفس القوية المتماسكة التي لا تنهار أمام عوامل الانفعال في ذاتها ، او مع الآخرين .

* * *

وقد كثرت النصوص الدينية التي تصور للانسان مساوىء الكبر ونتائجه السيئة في حياة الفرد والمجتمع . ثم تقارن بين هذه الصورة وبين صورة التواضع ونتائجه الحسنة في حياة الناس . . ثم تنطلق ، في محاولة ثانية ، لتطلب من الانسان القيام بعملية تدريب طويلة ، بأساليب عديدة ، للوصول الى الحالة التي يصبح فيها التواضع خلقا طبيعيا للانسان يتعلم فيه الانسان كيف يحترم من حوله من خلال ظروفهم واوضاعهم الخاصة والعامة .

* * *

وقد نجد ـ الإيحاء بهذا الاسلوب ـ في الاحاديث الكثيرة الداعية الى الحلم ، والمرغبة فيه ، ببيان النتائج الكبيرة التي يحصل الانسان عليها في الدنيا والآخرة من خلال الاتصاف به .

والحلم : « هو طمأنينة النفس بحيث لا يحركها الغضب بسهولة ، ولا يزعجها المكروه بسرعة ، فهو الضد الحقيقي للغضب ، لانه المانع من حدوثه ، وبعد هيجانه »[1] .

وقد يتمثل في الحالة النفسية الهادئة التي تواجه عوامل الغضب بهدوء ، وقد يتمثل في الممارسة العملية الهادئة التي يواجه بها الانسان حالات الغضب بعد هيجانه وثورانه .

---

(١) الزاقي . جامع السعادات ج١ ص ٢٩٥ .

وقد دعا الاسلام الى كلتا الحالتين ، في اكثر من حديث ، وطلب من الانسان أن يدرّب نفسه على تكلّف الحلم ، إذا لم يكن الحلم خلقاً طبيعيا له ، ليتحول بالتدريب الى انسان حليم .

ففي نهج البلاغة : إذا لم تكن حليما فتحلَّم فانه قلّ ان تشبه أحدٌ بقوم الا وأوشك ان يكون منهم .

وفي حديث النبي (ص) : ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم .

وفي حديث آخر عنه (ص) : ينفي فيه اعتبار الحلم ذلا ـ ما اذل الله بحلم قط .

وقال : علي بن الحسين (ع) : انه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه .

وفي نهج البلاغة : أول عوض الحليم عن حلمه ، ان الناس انصاره على الجاهل .

* * *

ولعل من اقرب الاساليب الموصلة الى هذا الهدف ـ اعني تبريد النفس من الداخل ـ هو تعويد الانسان نفسه على أن يفكر في كل قضية تعرض عليه ، وفي كل مشكلة تواجهه ، ويتدبر جذورها ونتائجها ، ليستطيع الوقوف بهدوء ووعي عميق ، لان أغلب دوافع الغضب ، تتمثل في فهم الموقف من وجه واحد بشكل سريع . فقد جاء في حديث السيرة النبوية ، ان رجلا جاء الى النبي فقال أوصني يا رسول الله ، فقال له النبي فهل انت مستوصٍ اذا انا أوصيتك قال : بلى يا رسول الله ، ويكرر النبي السؤال ثلاث مرات ، ويجيب الرجل

بالايجاب ، فيقول له النبي (ص) في نهاية المطاف ، اذا انت هممت بأمر فتدبّر عاقبته ، فان يك رشداً فأمضه ، وان يك غيا فانته عنه .

* * *

الثانية : اسلوب السيطرة على نوازعه ونتائجه ، فنحن نعلم أن الغضب الذي يحدث في الداخل ، يحاول أن يعبر عن نفسه في الخارج بأساليب متعددة ، تختلف حسب اختلاف ذهنية الشخص وثقافته وبيئته ، فقد يكون اسلوب التعبير عملاً يدوياً ، كالضرب والقتل ، وما إلى ذلك ، وقد يكون عملا آخر كالسب والشتم والفحش بالقول او تحطيم ما حوله من أثاث وغيره ، وقد يتحول الى خطة عملية تعتمد على اسلوب اللف والدوران الذي ينتهي الى الايقاع بالمعتدي بطريقة لبقة .

وقد توفرت النصوص الدينية الكثيرة ، على الحديث عن الغضب من خلال نتائجه السيئة ، ففي حديث الامام علي بن موسى الرضا (ع) : ان كفر احدكم في غضبه ولا خير فيمن كان كفره في غضبه [(١)] ، وفي حديث الامام جعفر الصادق (ع) كان أبي يقول : أيُّ شيء أشد من الغضب؟ . ان الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله ويقذف المحصنة . وفي حديث الامام محمد الباقر (ع) : ان الرجل ليغضب فما يرضى ابداً حتى يدخل النار .

وقد عالجت بعض الاحاديث ، الاساليب التي يمسك الانسان فيها نفسه عن التصرف في حالات الغضب ، ففي بعض الاحاديث تذكير للغاضب ، بغضب الله عليه بسبب معاصيه ، كما يغضب ، هو ، بسبب إساءة الآخرين اليه ، ووعده بأن كفّ الغضب عن الناس يؤدي

---

(١) وسائل الشيعة ج ٦ / ص ٢١٤ .

بالنتيجة الى كف الله غضبه عنه .

ولا بد للمؤمن الذي يرجو رضا الله عنه ويخاف من سخطه عليه ، أن يعمل للحصول على هذه النتيجة الطيبة لكف غضبه عن الآخرين ، كلما عرضت له عوامل الغضب ، ودعته الى ان يتصرف بسوء .

ففي الحديث عن النبي (ص) من كف غضبه عن الناس كف الله عنه عذاب يوم القيامة .

وفي الحديث عن الامام محمد الباقر (ع) : مكتوب في التوراة : فيما ناجى الله به موسى : أمسك غضبك عمن ملكتك عليه أكف عنك غضبي .

وفي الحديث عن الامام جعفر الصادق (ع) : أوحى الله الى بعض انبيائه يا بن آدم اذكرني في غضبك اذكرك في غضبي ، وربما نستفيد من هذا الحديث معنى آخر ، وهو ان على الانسان أن يذكر الله عند غضبه ، ليمنعه شعوره برقابة الله عليه وإطلاعه على ما يعمل ، من ان يتصرف تصرفاً في غير رضا الله . . فيهدأ ويطمئن بعد ذلك ، لان التفكير في العواقب والخشية من الله يدفعان الانسان الى فهم الموقف فهما عميقا لا يسمح بالوقوع في الخطأ في اغلب الحالات .

* * *

وقد أشارت بعض النصوص الى الطرق التي تشغل الانسان عن الاندفاع بعيداً في غضبه ، وذلك كالاستعاذة من الشيطان والجلوس ان كان قائما ، والاضطجاع ان كان جالساً ، والوضوء او الغسل بالماء البارد ، ومس ذي الرحم ان كان غضبه على ذي رحم فان الرحم اذا

ست سكنت .

ولعل قيمة هذه الافعال ، انها تخرج الانسان من جوّ الغضب ، إلى جوٍ جديد يرجع فيه الانسان الى نفسه ، ليبدأ تفكيراً جديداً في الموقف ، يبدل فيه مشاعره ونوازعه .

* * *

كظم الغيظ :

وقد اكثرت النصوص الدينية ، من الآيات القرآنية ، والاحاديث الشريفة ، من التحدث عن كظم الانسان غيظه ، واعتبرته من الصفات الكبيرة التي ترفع من مكانة الانسان ، ومنزلته عند الله وعند الناس فقد قال الله تعالى ، في معرض الحديث عن صفات المتقين الذين وعدهم الله بالجنة والمغفرة والرضوان .

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ .

[سورة آل عمران : ١٣٤] .

ويلاحظ في هذه الآية الشريفة ، انها لم تكتف بأن يكبت الانسان غيظه ، بل أرادت أن يعيش الانسان روح العفو عن الناس ، لئلا يتحول الغيظ المكبوت في نفسه إلى عقدةٍ ، ثم طلبت منه ان يتبع ذلك بالاحسان ليزول عنه كل أثر .

وفي الحديث عن النبي (ص) : من كظم غيظا ـ ولو شاء ان يمضيه لأمضاه ـ ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا .

وفي حديث آخر عنه (ص) : من أحب السبيل الى الله جرعتان : جرعة غيظ يردها بحلم ، وجرعة مصيبة يردها بصبر .

وفي الحديث عن الامام الصادق (ع) : ما من عبد كظم غيظا الا زاده الله عزا في الدنيا والآخرة .

* * *

وتهدف هذه النصوص الى تربية الانسان على هذا السلوك من خلال الثواب الكبير عليه ليمارسه الانسان على أساس الحصول على الثواب في البداية ، ويتعود عليه من خلال ذلك حتى يتحول الى طبيعة جديدة ينطلق فيها بشكل عفوي دون التفات الى شيء ، تماماً ، كالصفات الطبيعية المودعة في ذاته .

* * *

الأدب حالة الغضب :

في الحديث المأثور عن النبي (ص) انه نهى عن الادب وقت الغضب .

ولعل السرّ في ذلك ، ان التربية تستهدف تقويم اعوجاج المنحرف ، وتصحيح خطأ المخطىء ، وتقوية نقاط الضعف ولا بد للانسان الذي يمارسها ـ من خلال هذه الاهداف ـ أن يكون واعياً لدوره ، مالكاً لاعصابه ، حتى يستطيع معرفة ماذا يجب عليه أن يفعل ، وماذا يجب أن يترك ، لأن للتربية ميزاناً دقيقاً لا بد من رعايته ، فربما يكون الرفق هو سبيل التأديب في بعض الحالات ، فاذا لجأ الانسان الى العنف انقلب الموقف الى ضده .

وهناك من الناس ، من تصلحه الكلمة ، فلا يجوز ممارسة الضرب معه لان ذلك يخلق عنده عقدةً مضادة ، وهناك قسم آخر ، يصلحه الضرب فلا يمكن للكلمات أن تؤذيه ، وتؤثر فيه شيئاً .

وعلى ضوء ذلك ، لا يمكن للتربية أن تؤدي رسالتها في حالات الغضب ، لان التصرف قد ينطلق من الحالات النفسية الغاضبة ، فيتحول الموقف الى عملية تفجير للعقد النفسية المكبوته إزاء المواقف السابقة البعيدة عن حالات الأدب والتربية ، كما نشاهده كثيراً في موقف بعض الآباء والمعلمين الذين يأتون الى البيت ، او الصف ، وهم يعانون أزمةً نفسية حادة بسبب خلافٍ ، مع بعض الناس ، او فشلٍ في بعض المواقف . . وتكون الصدفة أن يخطأ التلميذ او الولد خطأ ليس بذي بال ، فيتجمع الغيظ في صدر الاب او المعلم ، ويتفجر حُمماً في وجه الولد او الطالب المسكين دون ان يكون قد فعل شيئا يوجب ذلك لولا الازمة النفسية التي يعانيها المؤدب .

الغضب العقلاني :

وهناك نوع من الغضب ، تحدثت عنه النصوص الدينية بكثير من التقدير وهو الغضب لله . ويعبر عن حالة النفسية التي يعيشها الانسان إزاء التعدي على بعض حرمات الله ، والتي تدفعه الى التصرف الثائر لأجل حفظ هذه الحرمات فقد ورد في نهج البلاغة : من أحدَّ سنان الغضب لله قوي علَى قتل اشداء الباطل .

فقد اعتبر الغضب لله ، من احدى الوسائل العملية التي تعطي الانسان قوة مضاعفة على مواجهة انصار الباطل وجنوده الاشداء ، بما يعطيه الغضب من حيوية واندفاع للموقف .

وقد تحدث القرآن الكريم عن موسى (ع) انه غضب واشتد به الغضب عندما قدم من مناجاته لربه ليرى قومه وقد اتخذوا العجل ، فكان غضبه محاولة منه للسيطرة على الموقف من جديد ، لا مجرد

انفعال عفوي يصدر منه دون ارادة .

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

[سورة الأعراف : ١٥٠ ـ ١٥١] .

ويحلو لنا أن نسمي هذا الغضب « الغضب العقلاني » لانه ينطلق من خطة واعية تعتبر الغضب اسلوبا من اساليب تنفيذ الخطة .

ومن مظاهر هذا الغضب ، أن نجد له هدفا معينا يقف عنده ، لا يتجاوزه لغيره ، كما أنه لا يتعدى الحدود المرسومة له شرعاً في وسائل ممارسته ، وفي طريقة التعبير عنه .

وربما نجده في بعض الاساليب التي تتبعها التيارات الاجتماعية والسياسية والدينية ، في إثارة موقف معين حادّ ضد الفئات الأخرى على أن لا يتجاوز حداً معينا تقتضيه الخطة المرسومة .

ولعل قيمته تكمن في أنه يدلل على عظمة الله في نفس الغاضب . الأمر الذي يجعله ينفعل في حالة الاعتداء على مقدساته وحرماته ، انفعالا يتجه لرد الاعتداء بالاسلوب الذي يرضي الله ولا يتعدى حدوده .

* * *

الغضب في نهاية المطاف :

وهكذا نعرف ان الاسلام لا يريد للغضب أن يتحرك ، كما تتحرك الرياح المجنونة التي تنطلق لتحطم كل شيء أمامها بل يريد له أن يتحرك ، في عقلانية واعية يحقق الانسان من خلاله هدفا معينا خطط له في البداية ليكون الغضب جزءً من خطة ، ومرحلةً في طريق الهدف .

... حتى إثارة الغضب لدى الآخرين لا يراد منه ـ في حال ممارسته ـ الا خلق حالة من الاندفاع القوي لديهم نحو العمل حيث يساهم ذلك في تفجير وعي العمل من الداخل .

وبهذا يدخل الاسلوب العقلاني في توجيه الغضب نحو الهدف الأمثل ، توجيهاً يخدم الحياة ويثيرها في طريق الايجابية ، دون أن يترك أية نتائج سلبية في الطريق .

* * *

الاسلام امام انفعالات الحزن :

الحزن من الانفعالات التي تحدث للانسان في حالات المصيبة ، وفي حالات الفشل ، وفي حالات الألم ، ويختلف التعبير عنه ، حسب اختلاف الشخص الحزين ، في نفسه ، وفي درجة الحزن .

فكيف واجه الاسلام هذا الانفعال ؟

إنه واجه الحزن في عدة مواقف .

فهناك الحزن الذي يحصل للانسان في حالة المصيبة .

وهناك الحزن الذي يحدث له في حالة الفشل في عمل او دعوة .

وهناك الحزن الذي يغمره في حالات الخسارة .

* * *

الحزن في حالة المصيبة :

أمّا الموقف الأول ، فقد احترم الإسلام فيه حزن الإنسان ، وأقرّه واعتبره علامةً من علامات الإنسانية التي إذا تجرد الإنسان عنها ، تحوّل إلى مخلوق يشبه الحجر في قسوته وجموده .

ثم اقترب الاسلام من وسائل التعبير عنه ، فشجع الوسائل الهادئة التي تعبر عن الحزن بهدوء ، دون أن تُفقد الانسان تماسكه ، وصموده امام الصدمة . . فسمح للدموع أن تنساب بهدوء ورحمة ، ولكنه لم يسمح للانسان أن يتكلم بكلام غير مسئول ، ولم يسمح للوسائل العنيفة التي يدفع اليها طغيان الحزن الى حد الجزع ، كاللطم وخدش الوجه ونتف الشعر ، وما إلى ذلك من الوسائل التي تعبر عن فقدان الانسان لتوازنه ، وانهيار شخصيته القوية امام المصيبة .

فقد ورد عن رسول الله (ص) انه وقف امام جسد ولده الوحيد ابراهيم وقال :

تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما لا يرضي الرب .

فللقلب أن يحزن ، لان الحزن دليل العاطفة الانسانية التي يعتبرها الاسلام حداً فاصلا بين الانسان وغيره .

وللعين ان تدمع ، لأن للعاطفة الحق في التعبير عن نفسها لئلا

تتعقد في الداخل ، ولكن ليس للعاطفة أن تطغى على ايمان الانسان بالله ، فتتكلم كلاماً لا يرضي الله . . . حتى في الكلمات التي يعبّر بها الانسان عن حزنه وعن مشاعره تجاه الميت ، يمنع الاسلام الانفعال أن يطغى فيمدحه بما ليس فيه ، أو يتكلم عنه كلاماً ليس في محله ، تدريبا للانسان على أن يلجم انفعاله عندما تنطلق المبادىء لتتكلم وتسير .

وعلى ضوء هذا يريد الاسلام للانسان ، حتى ، وهو يعيش الاحساس ألدامي بالمصيبة ، أن يعيش التفكير بالحدود التي يجب أن تقف عندها العاطفة . ولهذا حارب الاسلام الجزع الذي يعبر عن الحالة الوجدانية العنيفة الذي لا يملك الانسان فيه قيادة نفسه في الداخل وفي الخارج ، لأنه يحوّل الانسان الى شخص غير مسئول ، لا ينظر إلا الى الزواية العاطفية من القضية ، فلا يلتفت الى بقية الزوايا الأخرى التي تقف فيها شخصية الانسان أمام تطلعات المستقبل ، وتتجلى معها طبيعة النظام الكوني الذي يحكم الاشياء .

وقد تحدث الامام علي (ع) في كلماته القصار في نهج البلاغة عن الصبر والجزع في عدة أساليب .

ففي بعض كلماته : من لم ينجه الصبر اهلكه الجزع .

وقال : الصبر يناضل الحدثان والجزع من أعوان الزمان .

وفي الحديث الذي يرويه جابر عن الامام محمد الباقر (ع) قلت له : ما الجزع ؟ قال : أشد الجزع الصراخ بالويل والعويل ولطم الوجه والصدر وجز الشعر من النواصي ، ومن أقام النواحة فقد ترك الصبر وأخذ في غير طريقه .

وفي الحديث عن النبي (ص) : ضرب المسلم يده على فخذه عند المصيبة إحباطٌ لأجره .

وهكذا يحاول الاسلام الإيحاء للانسان بالتصرف المسئول عند المصيبة بالطريقة التي لا تحبط أجره ولا تُخمد عاطفته ، ولا تفقده توازنه ، الأمر الذي يجعل الانسان واعيا لايمانه حتى في أشد المواقف حراجةً .

* * *

اسلوب الاسلام في التعزية بالميت يؤكد الفكرة :

وقد نلاحظ في الكلمات المأثورة عن بعض الأئمة (ع) في تعزية اهل الميت .. ان الفكرة لم تكن هي أن يخلق في أنفسهم روح العزاء فقط ، بل كانت ، هي ، ان تثير في داخلهم التفكير العقلاني ، بطبيعة الحالة التي هم عليها ، لينطلق العزاء من حالة فكرية ، لا من حالة وجدانية خالصة .

ونلاحظ ذلك في اسلوب التعزية التي تحدث بها الامام علي (ع) مع بعض الناس :

إن هذا الأمر ليس بكم بدأ . ولا إليكم أنتهى ، وقد كان صاحبكم يسافر فاحسبوه في سفر ، فان قدم عليكم وإلا قدمتم عليه .

ففي هذه الكلمات اتجاهٌ الى ربط القضية بالسنَّة الكونية التي تشمل كل الناس في الماضي والحاضر والمستقبل ومحاولة لاثارة نور جديد للامل من خلال الايمان الحق باللقاء في الدار الآخرة ، الأمر الذي يجعل العزاء مرتبطاً بالواقع من جهة باعتباره أمراً طبيعياً ، وبالانسان من جهة باعتباره مصدراً حقيقيا للامل .

وعلى ضوء هذا نفسر التوجيهات الدينية الكثيرة التي توجه الانسان نحو التكلم ببعض الكلمات التي تبذر في النفس العزاء ، وتخلق في داخلها روح الصبر ، وذلك كما في قوله تعالى في القرآن الكريم .

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧ ﴾

[سورة البقرة : ١٥٦ - ١٥٧] .

فان هذه الكلمة تربط الانسان بالواقع من خلال الايمان ، كما اوضحها الامام امير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة ، إنا لله اقرار بالملك وانا اليه راجعون إقرار بالهلك .

ففي ذلك يعيش الانسان روح التسليم بالواقع وعدم مفاجأته بأي حديث او مشكلة ، ليواجه الحياة بروح واقعية هادئة لا تهتز امام الاحداث ، ولا تنهار امام المصائب .

* * *

الحزن في حالات الفشل :

اما الموقف الثاني : وهو الذي يحدث للانسان في حالات الفشل ، في عملٍ يحبه ، أو دعوة يؤمن بها ، كما يحدث للانبياء أو أصحاب الدعوات الكبيرة في الحياة ، أو رجال المشاريع الانسانية والاجتماعية ، عندما ينطلقون للتبشير برسالاتهم أو القيام بمشاريعهم ، بكل اخلاص واندفاع من اجل رفع مستوى شعوبهم ، فاذا بالعقبات تنتصب في الطريق لتكون جداراً ضخما يحول بينهم وبين البلوغ الى

ما يريدون من اهداف ، واذا بالذين يعملون من اجل رفع مستواهم يقفون في الواجهة في موقف الاعداء ، ليكونوا أول من يطعن الدعوة ويحاربها ويرمي دعاتها بأبشع النعوت وافظع التهم ، ويضطهدهم في حياتهم العامة والخاصة .

* * *

وهنا يقف النبي أو المصلح ، ورجل الاعمال ، وقفة الحزن والأسى ، وتتحول مشاعره الى لات حادة ، تجعله يضيق بدعوته في بعض الحالات ، ويترك الساحة يأساً وهروباً ، وربما يقف وقفة الحزين الكئيب الذي تمتلىء اعماقه بالألم واللوعة لينهار امام ذلك من أجل نفسه ، ومن أجل الآخرين .

وقد صور لنا القرآن الكريم هذه الحالات من خلال التوجيهات الألهية التي كانت تلاحق النبي (ص) في مسيرة الدعوة ، وترصد خطواته ، لتسدده في كل ما يقول وفي كل ما يفعل ، أو يشعر به من مشاعر أو يتعرض له من انفعالات .

ففي بعض الآيات صورة لحالة الضيق النفسي الذي يشعر به الانسان أمام حالة التمرد ، ويدعوه إلى ان ينسحب من المعركة في يأس ولوعة .

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ .

[سورة هود : ١٢] .

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ

﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝٩٨﴾ . [سورة الحجر : ٩٧ - ٩٨] .

فهذا موقف يتعرض فيه النبي (ص) إلى الاقتراحات التعجيزية التي كان يمارسها الكفار ضد النبي ويحاولون أن يشغلوه بها عن مهمته ، ليتحول الى شخص لا شغل له إلا الاستجابة لتمنياتهم وتحدياتهم التي لا معنى لها ، لانها لا تصدر عن محاولة للاقتناع ، ففي معاجزه التي قدمها لهم كل كفاية ، بل تصدر عن رغبة في التحدي لمجرد التحدي .

ومن الطبيعي ان مثل هذا الاسلوب في المعاندة لا يجدي فيه أيّ اسلوب سلبي او إيجابي مقنع ، لانهم لا يريدون ذلك ، كما قدمنا ، ولهذا كانوا يتحولون من عرض الى عرض ، ومن اقتراح الى اقتراح .

ولذلك كان يضيق صدر النبي ـ او هكذا يحاول القرآن أن يوحي من وجهة تربوية ـ الى المستوى الذي قد يبلغ في قوته درجة الرغبة في الانسحاب في بعض هذه المواقف المزعجة .

فجاء القرآن الكريم ليقول له .

لما يضيق صدرك بكلامهم وتحدياتهم ؟

إنك قد قمت بمهمتك ، وهي الانذار والابلاغ بكل ما تملك من طاقة ، فلم تدخّر جهداً في ذلك ، ولم توفّر أي وسيلة .

وإذا قام الانسان بما يجب عليه في نطاق قدرته ، فليرجف المرجفون ، وليقل المتقولون ، فلا قيمة لذلك كله في حساب الله وفي حساب الناس .

* * *

وفي بعض الآيات تصوير لحالة الحزن التي يواجهها النبي (ص) إمام حالات الكفر ، تارةً ، من جهة تكذيبهم له ، وأخرى من جهة موقفهم من الله وتحديهم لارادته وكلماته ، وثالثة ، من جهة حزنه عليهم لانهم لم يهتدوا للايمان .

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . [سورة الأنعام : ٣٣] .

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا . [سورة آل عمران : ١٧٦] .

فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . [سورة المائدة : ٦٨] .

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا .

[سورة الكهف : ٦] .

فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .

[سورة فاطر : ٨] .

إن هذه الآيات بأجمعها ، تطلب من النبي أن لا يستسلم لانفعال الحزن أمام هذه الحالات لانه إذا كان يحزن لأجل الله ، بسبب تحدّيهم له وتمرّدهم عليه فإنهم لن يضروا الله شيئاً . أمّا إذا كان الحزن ، من أجل تكذيبهم له فليس التكذيب موجّهاً له بل هو موجّه لله لأنه يحمل رسالة الله ، كما أن القضية ليست بدعاً في مجال النبوّات ، فلطالما كُذّب الأنبياء السابقون من قبل أقوامهم . . . وإذا كان الألم من أجل المكذبين أنفسهم لأنهم لم يؤمنوا ، فإنهم لا يستحقون الألم ، ما داموا قد اختاروا طريق الهلاك في الدنيا والآخرة .

وهكذا تتنوع الآيات في تحليل كل حالة من الحالات لترجع الموقف إلى جذوره الاساسية التي انطلق منها ، فلا يعود للانفعال أيّ مبرر ، أو أيّ معنى .

ليس الموقف موقف تسلية او تعزية :

ويطيب لنا أن نؤكد على نقطةٍ مهمة في هذا المجال وهي : إن الآيات التي تطلب من النبي (ص) عدم الحزن على حالات الجحود من المشركين ، لا تستهدف تسليته وتعزيته ، كما يخيّل لبعض المفسرين ، بل كانت تستهدف تفريغ نفسه من الانفعال العنيف الذي ينطلق من الشعور بالخيبة أمام العمل .

وذلك بإثارة حقيقةٍ واقعيةٍ تفرض نفسها على الموقف ، وهي : أن قضية النجاح والفشل لا تنطلق من عنصر واحد يتمثل في جهد العامل ونشاطه ، بل تنطلق منه ، ومن عناصر عديدة تشترك فيها الظروف الموضوعية المحيطة بالعمل بما في ذلك مؤثرات البيئة وغيرها ، ولذا فلا بد للعامل من أن يُدخل ذلك في حسابه عندما يبدأ العمل، ولعل من بين الأسس التي يرتكز عليها الموقف هو انطلاق الانسان من نقطة أساسية ، وهي المجالات التي يستطيع أن يتحرك فيها من خلال قدرته ونطاقه ، فهي التي ينبغي أن تثير اهتمامه وانفعاله . . أمّا المجالات التي لا تخضع لارادته وقدرته ، فعليه أن لا يخضع لأيّ انفعال امامها لانها لا تمثّل إلا جهداً ضائعاً في هذا المجال .

* * *

الحزن في حالات الخسارة :

اما الموقف الثالث ، وهو حالة الخسارة ، فالاسلام يقف من الانفعال موقفا فلسفيا رائعاً ينطلق من واقع الحياة الذي يخضع للقوانين الطبيعية التي تتحكم في مسيرتها ونظامها ، الأمر الذي يجعل الخسارة أمراً وارداً وطبيعيا في نطاق الظروف الموضوعية العامة والخاصة ، كما يجعل الربح امراً طبيعياً في هذا المجال ، ولذا فلا داعي للانفعال أمام كلتا الحالتين ، لأن الانفعال ينطلق من فعل وضع غير طبيعي يحدث للانسان ، ومن حالات غير منتظرة . أمّا الحالات الطبيعية المنتظرة ، فهي لا تحدث للنفس إلا احساسا هادئا بالموقف ينسجم مع الجو الملائم بكل هدوء واطمئنان .

وذلك هو قوله تعالى .

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ . [سورة الحديد : ٢٢ ـ ٢٣] .

* * *

وتلك هي مهمة الايمان بالقضاء والقدر الذي يعبر عن خضوع الاوضاع الحياتية لقوانين محددة تجعل لكل ظاهرة او حادثة ظروفها الموضوعية التي تتحرك في إطارها ، وتتحدد النتائج من خلالها .

وهذا هو ما يفسر حالات الرضا والاطمئنان التي يقابل بها المؤمنون الطيبون مصائب الحياة وخسائرها بنفس هادئة ومطمئنة لأحساسهم بأن ما ادركهم لم يكن ليفوتهم ، وما فاتهم لم يكن ليدركهم ، فلماذا الحزن هنا ؟ ولماذا الفرح هناك ؟ ما دامت القضية جاريةً على السنن الطبيعية الحكيمة الخاضعة لارادة قادر حكيم رحيم .

ونلاحظ ـ ونحن نتابع موقف الاسلام من السلوك الانفعالي . بعض النصوص الدينية التي تجعل من السلوك العقلاني في حالة الانفعال ، مقياس شخصية المؤمن ، ودليل إيمانه .

فقد ورد في حديث مستفيض عن النبي (ص) .

ثلاث خصال من كن فيه فقد استكمل خصال الايمان .

إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل .

واذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق .

وإِذا قدر لم يتعاط ما ليس له .

* * *

فاننا نجد ـ في هذا الحديث ـ ثلاث حالات تمر بالانسان ، هي حالة الرضا عن الآخرين ، وعن بعض المواقف ، وحالة السخط والغضب عليهم ، وحالة القدرة والسلطة ، فان هذه الحالات تثير في نفس الانسان انفعالات مختلفة حسب اختلاف حالة كل منهم ، فالرضا والحب قد يتعاظم في نفس الانسان الى المستوى الذي لا يقبل فيه المحب أيّ اتهام أو نقدٍ لمن يحب ، ويحاول في الوقت نفسه إضفاء افضل الصفات والنعوت عليه بدون حساب او استحقاق . . وفي مقابل ذلك ، نجد السخط والكره والعداوة ، فقد تبلغ الحد الذي لا يرضى الانسان معه بأن يذكر خصمه بأية صفة خير ، أو يتصرف معه بأيّ تصرف يشتمل على الانصاف .

أمّا السلطة او القدرة ، فانها تخلق في داخل الشخص شعوراً بالطغيان الذي يجعله يمارس قدرته فيما ليس له بحق ، فيطلب ما لا حق له فيه ، ويمنع غيره مما له فيه حق .

وقد اهتم الاسلام بتربية الانسان على الشعور الدائم بالارتباط بالحق حتى في اشد الحالات حرجاً ، فكانت الآيات الكريمة التي تتحدث عن الشهادة بالحق ، وعن كلمات المدح والذم ، وعن الحكم مع الاعداء والاصدقاء .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ [سورة النساء : ١٣٥] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ [سورة المائدة :٨] .

وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ . [سورة الأنعام : ١٥٢] .

فنحن نلاحظ التركيز في الآيات الثلاث ، على الانطلاق بعيداً عن العاطفة التي تنحرف بالانسان عن خط العدل ، نتيجة علاقة قرابة أو صداقة او عداوةٍ ، فللقرابة أو الصداقة دورها الذي يتمثل بالتعاطف مع الارحام في شؤون الحياة العائلية والاجتماعية ولكنه اذا اقترب من الحد الفاصل بين الحق والباطل ، والظلم والعدل ، فعليه أن يقف عند حدّه ، فلا يتجاوز الحق الى الباطل او الظلم الى العدل .

وللعداوة مظاهرها المتمثلة في المقاطعة ونحوها ، ولكن على أن

لا تكـون سببا للحكم بـالباطـل عليه ، او منـع الحق له فيمـا اذا كان لـه الحق .

وقـد ركـز الحـديث النبـوي المتقـدم على هـذه النقـطة ، فـاعتبـر الوقوف مع الحق في حالات الرضا والغضب ، والقـدرة والضعف علامـة للايمان الحق ، لان ذلك يدل على وجـود القاعـدة الايمانيـة التي تحرك الانســان في اتجاه الحق دون أن تضغط عليـه النوازع النفسيـة والمواقف العاطفية .

* * *

ونلمـح التركيـز على هذا في دعـاء الامام زين العـابـدين علي بن الحسين (ع) في الصحيفة السجادية .

اللهم . . وارزقني التحفظ من الخـطايـا ، والاحتـراس من الـزلـل في حـال الرضـا والغضب حتى أكون بمـا يرد عليَّ منهـا بمنزلـة سـواءٍ ، عـاملا بـطاعتك ، مؤثـراً لرضـاك على ما سـواهما في الأوليـاء والأعداء حتى يـأمن عـدوي من ظلمي وجـوري وييـأس وليّي من ميلى وانحـطاط هواي .

* * *

وقـد أشـار القـرآن الكـريم الى بعض الحـالات الانفعـاليــة التي يعيشها الفرد إزاء حالات العطاء والمنـع فيتعرض لانفعـالات متعاكسـة ، فالعطاء يثير في نفسه انفعال المحبة الـطاغية للمعـطي حتى ليدفعـه ذلك الى أن يمنحـه كل الصفـات الكبيرة دون استحقاق ، بينما يثيـر المنع في داخله انفعال السخط والبغض حتى ليراه جديرا بكـل صفة قبيحـة توجب القدح والذم .

قال الله تعالى .

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ . [سـوره التـوبـة : ٥٨] .

وقد عبر الامام زين العابدين عن هذه الحالة ، وعن هـذا الموقف في دعاء مكارم الاخلاق في الصحيفة السجادية .

« اللهم وصن وجهي بـاليسـار ، ولا تبتـذل جاهي بـالاقتـار . فاسترزق اهل رزقك ، وأستعطي شرار خلقك فأبتلى بحمد من أعطاني وذم من منعني ، وانت من دونهم ولي الاعطاء والمنع » .

* * *

السلوك العقلاني في رد الاعتداء :

وهناك حالات يتعرض فيها الانسان للاعتداء على حياته أو على كرامته ، أو على احد اقربائه ، فتمتلىء نفسه بروح الانفعال الذي يشعر معه بالحاجة الى تدمير المعتدي ، فيرد الكيل كيلين ، والصاع صاعين ، لانه يرى ، في غمرة الانفعال ، ان الكرامة الجريحة لا ترجع إلا بذلك ، أو يشعر بأن الثأر لن يُنال إلا بقتل القاتل وكل اقرباءه ، أو أفضل قرابته ، لان القتيل لا يعادله أحد في المكانة والمركز . . وهكذا ربما تتحول الانفعالات الحادة التي يثيرها الانفعال ، الى كارثة تدمر المجتمع وتهدر سلامة الابرياء الذين لا حول لهم ولا قوة ، فيه .

لهذا جاءت التعاليم الاسلامية ، لتضع حداً معينا لا يتعداه في اخذ حقه ، وهو رد الاعتداء بمثله دون زيادة قليلة او كثيرة .

فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ

[سورة البقرة : ١٩٤] .

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ .

[سورة النحل : ١٢٦] .

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .

[سورة الشورى : ٤٠] .

* * *

ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل .

* * *

فقد أكدت هذه الآيات على مبدأ المماثلة التي تدفع الانسان الى ضبط انفعالاته التي تدعوه للزيادة وللطغيان ثم حاولت أن تثير - في نفسه - نوازع العفو والتسامح والصبر ، لتبرّد له انفعالاته نهائيا .

ومن الطبيعي ، أن ذلك يستدعي منه تفكيراً طويلا يحدد الانسان فيه موقفه على أساس الخط الذي أراده الله .

ونلاحظ في الآية الأخيرة التركيز على أن لا يتعدى القصاص القاتل ، وإلا كان ذلك اسرافا في القتل ، يرفضه الله ، وينكره الشرع .

* * *

الامام علي (ع) يطبق الحكم على نفسه :

وقد تجسدت الناحية التطبيقية في موقف الإمام علي (ع) من قاتله في حادثة مصرعه ، على يد عبد الرحمن بن ملجم فقد التفت الى قومه قائلا :

يا بني عبد المطلب : لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضا . تقولون : قتل امير المؤمنين . قتل امير المؤمنين ، ألا لا يقتلن بي الاقاتلي .

... انظروا إذا أنا متُّ من ضربتي هذه ، فاضربوه ضربة بضربة فإني سمعت رسول الله (ص) يقول : إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور.

* * *

إنه موقف الانسان المسلم الذي عاش الاسلام في روحه وفي ضميره وفي مشاعره وعواطفه حتى عادت انفعالاته صورة حية لإسلامه إنه هنا يفكر في آخر لحظات حياته بكل هدوء وروية ومسئولية في تطبيق حكم الله في قضيته بالذات فهو لا يعيش انفعالات الحقد والعداوة والبغضاء والتدمير ، إزاء الانسان الذي قضى على حياته التي هي ملك الاسلام بكل ما يملك من امكانيات .

بل يعيش التفكير في افضل السبل لضبط حركات أهله واولاده ، لئلا يطغى بهم الحزن إلى الحد الذي يتجاوزون به حكم الله ، عندما يفكرون في القضية من زاوية خطرة ، ان عليا لا يعادله أحد في مركزه وقداسته ، واذا كان الأمر بهذا الشكل ، فلا بد من الثأر على هذا المستوى ، أن لا نبقي أحداً ولا نذر من كل من يمت الى القاتل بصلة القرابة او الفكر .

ان صوت الاسلام النقي الهادىء المنطلق من قلب عليّ المسلم الاكمل يرفض هذا المنطق بقوة .

ألا لا يُقتلنّ بي إلا قاتلي .

وإذا كانت الضربة واحدة ، فلتكن ضربة القصاص مثلها ، لأن التكرار يلغي المماثلة المطلوبة في الاسلام لا تمثيل ولا تنكيل .

لأن الموقف لا ينطلق من عقدة التشفي والانتقام الذاتيين ، بل يرتكز على قاعدة التطبيق لحكم الله وهكذا ضرب لنا الامام علي (ع) مثلا حيا في السيطرة على اقوى الانفعالات الذاتية التي يشعر بها الانسان امام قضية حياته .

* * *

قد يقول قائل : إن الموقف هنا موقف علي .

ومن لنا ، بمن يبلغ هذا المستوى او يقترب منه . . أيبلغ بنا الطموح ان نصل الى مستوى علي .

ونقول لهذا القائل : ان القضية ليست قضية علي الذات ، بل القضية قضية علي المسلم الذي أراد إعطاء المسلمين القدوة من عمله ، ليتبعوه فيه ، حتى يشعروا ان حكم الله ليس مجرد فكرة تعيش في عالم المثال ، بل هي حركة تتجسد في عالم الواقع عقلا وفكرا وروحاً وعملا ينطلق من روح الله .

* * *

أمّا الاعتداء على الكرامة بسب او نحوه ، فالموقف هو الموقف .

إنه رد الاعتداء بمثله ـ دون زيادة ـ أو العفو والتسامح .

الكلمة تقابل بالكلمة ـ لا بالضرب .

والضربة الواحدة تقابل بالضربة الواحدة ، لا بضربتين ولا بالجرح .

والجراح لا تقابل بالقتل ، بل بالجراح ، تحقيقاً لمبدأ المماثلة .

ولدينا ـ في هذا المجال ـ قصتان تجسدان التطبيق العملي للاسلام .

* * *

١ ـ قصة النبي مع اليهودي :

فقد جاء في الحديث الشريف عن الامام ابي جعفر محمد الباقر (ع) قال :

دخل يهودي على رسول الله (ص) ، وعائشة عنده فقال : السامّ عليكم ، فقال رسول الله (ص) وعليكم . . . ثم دخل آخر فقال : مثل ذلك فرد عليه كما رد على صاحبه .

ثم دخل آخر فقال مثل ذلك فرد رسول الله كما رد على صاحبيه .

فقالت عائشة : عليكم السامّ والغضب واللعنة ، يا معشر اليهود ، يا اخوة القردة والخنازير ، فقال لها رسول الله (ص) يا عائشة : ان الفحش لو كان ممثلا لكان مثال سوء ، ان الرفق لم يوضع على شيء الازانه ، ولم يرفع عن شيء إلا شانه .

قالت : يا رسول الله : اما سمعت الى قولهم : السام عليك . فقال : بلى ، أما سمعت ما رددت عليهم قلت : وعليكم .

فنحن نلاحظ ان هؤلاء اليهود الثلاثة حاولوا إثارةالنبي وتحدّيه بالدعاء عليه بالموت باسلوب يوهم السامع الغافل ، انهم يسلّمون عليه .

وفهم النبي القصة ، فرد عليهم الدعاء بمثله ، دون أن يزيد حرفا ، لانه لا يريد الدخول معهم في نزاع أوّلاً ، ولينسجم مع التعاليم الآلهية التي بشربها ثانيا ، وذلك بالاكتفاء برد الاعتداء بمثله .

ولما وقفت عائشة لتعبر عن انفعالاتها العنيفة بالكلام العنيف . والاسلوب الفاحش ، ووقف النبي بكل هدوءليعرّفها :انه انتصر لنفسه اولا ، بهدوء ، وليوجهها الى ان هذا الاسلوب الذي اتبعه هو الاسلوب الذي ينتصر في النهاية ، اذا عرف الانسان كيف يستعمله بحكمة ، دون ضعف ، كما هو الحال ، في موقف النبي الذي انطلق من نقطة قوة ، لا نقطة ضعف لأنه كان قادرا على أن يبادرهم بالشدة والعنف بكل الاساليب الممكنة في هذا المجال .

* * *

٢ ـ قصة الامام علي مع الخارجي :

والقصة الثانية : هي قصة الامام علي مع احد الخوارج .

ففي نهج البلاغة : ان الامام علي كان جالساً ذات يوم مع اصحابه ، فمرت أمرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال الامام ان هذه الفحول طوامح ، وان ذلك سبب هبابها ، فمن وجد منكم في نفسه شيئا فليلامس امرأته فانما هي امرأة كامرأة .

فقال : احد الخوارج ـ وهو يعبر عن اعجابه بهذه الكلمة ـ قاتله الله كافرا ما أفقهه .

فوثب اليه القوم ليقتلوه .

فقال الامام : رويداً انما هو سب بسب او عفو عن ذنب .

* * *

فقد تناول الامام القصة بكل بساطة ، ووضعها في نطاقها الطبيعي من حكم الاسلام ، فقد سبّ هذا الخارجي الامام بتلك الكلمة . . والموقف الاسلامي هنا ، ان الاعتداء يقابل بمثله ، وهو السب أو بالعفو عن الذنب ، أمّا القتل فهو غير وارد في هذا المجال مهما بلغت درجة الاساءة ، ومهما كانت درجة المعتدي بازاء درجة المعتدى عليه .

* * *

وهكذا نجد في هذا التطبيق العملي ، المثال الحي الواضح ، على ان الانسان المؤمن ، يستطيع اذا استحضر ايمانه في حالة انفعاله ، ووعى حكم الله ، وخاف من عقابه ، أن يضغط على انفعاله . ليوجهه في اتجاه العفو ، او في اتجاه حكم الله دون زيادة في قليل او كثير .

خاتمة المطاف :

والآن . . ما هي حصيلة الحديث كله :

لقد رأينا كيف انطلق الاسلام من نقطة اساسية هي أن يربط الانسان بالحياة من خلال الاسلوب العقلاني الذي ينظم للانسان طريقة تفكيره من جهة ، وطريقة ممارسته لعواطفه وانفعالاته من جهة أخرى . . حتى لا يبتعد الانسان عن موقع الشعور الواعي بالمسئولية

في كل ما يعمل ، وفي كل ما يقول .

وعرفنا ان الاسلام لم يحاول الغـاء الانفعال من حيـاة الانسان بـل حـاول ان ينظّمه ويهذّبه ويضبطه لكي يتحـول الى عنصر حي فـاعـل ، يعطي الحياة طراوةً دون أن يُفقدها قوة الموقف .

لكل سؤال جواب

- هل حرم القرآن تعدد الزوجات .
- كيف نفهم الآيات التي تنص على تفضيل بني إسرائيل في القرآن الكريم .

س ١ : هنـاك من يقـول ، ليس في القـرآن حكم بـأبـاحـة تعــدد الـزوجات ، بـل القضية ، على العكس ، فهنـاك تركيـز على تحريمـه ، لأن النص الـذي تحدث عن إبـاحة التعـدد ، ربط الحكم بالحِلّ بشرط غير مستطاع ـ حسب نص القرآن ـ مما يجعـل الحكم غير وارد ، لانتفـاء الحكم بانتفاء شرطه ، كما يقول علماء الاصول .

أما كيف ذلك ؟ فنستطيع معرفته بالمقارنة بين آيتين :

فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾.

[سورة النساء : ٣] .

وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾.

[سورة النساء ١٢٩] .

فنحن نلاحظ أن الآية الاولى أمرت بالاقتصار على واحدة في حالة خوف عدم العدل ، مما نفهم منه اشتراط الاباحة بالعدل وجاءت الآية الثانية ، لتصرح بان العدل غير ممكن للزوج حتى لو بذل جهده ، وإذا لم يكن العدل ممكنا ، فكيف يمكننا الحكم بالاباحة مع فقد الشرط .

وربما نلمح في بعض الكلمات ، نسبة التناقض الى القرآن في مضمون هاتين الآيتين ، لأن تعليق التشريع على الشرط يؤذن بأمكان الشرط ، فكيف يصرح باستحالته بعد ذلك ؟

* * *

ج ١ : لعل هؤلاء الذي يريدون استنباط حكم تحريمي قرآني لتعدد الزوجات ، لم يتأملوا في الآية الثانية ، كما يجب ، لأنها لم تحاول التركيز على فساد العقد الزوجي ولغوّيته ، لعدم استطاعة العدل ، بل وجهت النداء الى الازواج ، ودعتهم الى أن لا يتحول الميل الى ممارسة عملية حادّة تجعل الزوجة كالمعلّقة ، الأمر الذي يؤكد شرعية الزواج ، بدلاً من أن يكون حجةً على عدم الشرعية .

ولعل السر في ذلك ، هو أن العدل المفروض شرطا في الآية الاولى ، هو العدل في النفقة وفي سائر الحقوق الزوجية الخاصة ، أمّا في الآية الثانية ، فهو العدل في الميل القلبي الذي لا يملك الانسان أمر التحكم فيه ، لذلك ركزت الآية على عنصر بقاء هذا الميل في الداخل لكيلا يُفسد على المرأة حياتها العائلية وقد ورد الحديث بذلك عن الامام جعفر الصادق (ع) فقد روى في الكافي ، باسناده عن نوح بن شعيب ومحمد بن الحسن قال : سأل ابن ابي العوجاء هشام ابن الحكم قال له : أليس الله حكيما قال : بلى هو أحكم الحاكمين قال :

فاخبرني عن قوله تعالى : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة اليس هذا فرض ؟ قال : بلى قال : فأخبرني عن قوله : « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فتذروها كالمعلقة » أيّ حكيم يتكلم بهذا . فلم يكن عنده جواب . فرحل الى المدينة الى ابي عبد الله (ع) فقال : في غير وقت ولا حج ولا عمرة قال : نعم جعلت فداك لأمر أهمني ، إن ابن ابي العوجاء سألني عن مسألة لم يكن عندي فيها شيء ، قال : وما هي ؟ قال : فأخبره بالقصة ، فقال له أبو عبد الله أما قوله : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة يعني في النفقة ، واما قوله « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » يعني في المودة . فلما قدم عليه هشام بهذا الجواب واخبره . قال : والله ما هذا من عندك .

ولعل التدقيق في سياق الآيتين يؤكد على هذا الفرق في المعنى .

* * *

س ٢ : لقد ورد في القرآن الكريم : في اكثر من آية ، الحديث عن تفضيل بين اسرائيل على العالمين ، مما يؤكد الفكرة التي يحملها اليهود عن انفسهم من انهم شعب الله المختار ، مع ان هذه الفكرة مرفوضة اسلاميا ، فكيف نفسرّ ذلك .

ج ٢ : هناك تفضيل في القيمة والمنزلة والمكانة ، وهناك تفضيلٌ في النعمة وتوجيه المسئولية ، أمّا التفضيل بالمعنى الاول فهو الذي يتبنوه، فيعتبرون أنفسهم أولياء الله وأحباءه، وهذا يرفضه الإسلام

بنص القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى :

وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والارض وما بينهما واليه المصير ٥ / ١٨ .

وفي قوله تعالى :

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ . [سورة الجمعة : ٦] .

أمّا التفضيل بالمعنى الثاني : فهو الذي تحدث القرآن عنه ، وركز عليه ، فان الله قد أنعم على بني اسرائيل في الماضي بالكتاب والحكم والنبوة ، والنعم الوافرة الكثيرة فلم يقوموا بشكرها ، ولذا استحقوا لوم الله ، وتأنيبه وعقوبته ، وهذا ما يصرح به القرآن في قوله تعالى .

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ .

[سورة الجاثية : ١٦ ـ ١٧] .

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ . [سورة البقرة : ٤٧] .

وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ . [سورة المائدة : ٢٠] .

فهذه الآيات بأجمعها تتحدث عن نعم الله التي أفاضها على بني اسرائيل فلم يؤدوا شكرها ، فعاقبهم الله على ذلك في الدنيا والآخرة ولعل هذا الذي ذكرناه ، يبدو واضحا لدى دراسة الآيات بامعان .

* * *

الحلقة الثامنة

النزعَةُ الوَاقِعية في الاسْلام
و
لِكُلِّ سُؤالٍ جَوَابْ

بسم الله الرحمن الرحيم

يلتقي المعنيون بالدراسات الاسلامية والعاملون في سبيل الدعوة الى الاسلام بألوان مختلفة من علامات الاستفهام التي تثار امام مفاهيم الاسلام عن الحياة او التشريعات الاسلامية التي تمثل الصيغة القانونية العملية لتجسيد هذه المفاهيم .

ومن الطبيعي أن يتجه الحديث الى الصورة الحقيقية للشخصية الاسلامية التي يهدف الاسلام الى بناءها في كيان الانسان المسلم باعتبارها التجسيد الحي المتحرك لفاعلية الاسلام في الحياة في مفاهيمه وفي قيمه وتشريعاته .

وتتجسد علامات الاستفهام في أكثر من سؤال ، يطرح نفسه من خلال الجوانب التي يفكر في اطارها الدارسون والعاملون .

ففي اطار الواقعية والمثالية يتساءل البعض .

أين يقف الاسلام في في مواجهة قضايا الحياة ؟

ـ (هل هو مثالي) . يصوغ للانسان المثال . بعيدا عن الواقع

ليدعوه بعد ذلك الى ان يتطلع اليه كما يتطلع الى الحلم المسحور . . . ثم يبدأ عملية التسلق والزحف والطيران نحو القمة التي تتباعد عن منطلق خطواته بقدر بعدها عن حياته . . . ولذا فانه سيظل يعيش عقدة القمة دون ان يصل الى النتيجة المطلوبة ويسقط بعد ذلك صريعا امام الوسائل العقيمة والافكار الخيالية في مرحلة بعيدة جدا عن المثال ، الحلم .

وتلك هي الفكرة التي تحاول ان تلغي الجسد تماما لحساب الروح فليس للجسد اي حساب في مواجهة الروح فهو الذي يمثل القذارة والدنس والحقارة بينما تمثل الروح الرفعة والبراءة والطهارة وليس للدنيا قيمة في مقابل الاخرة ، ولذا فان الحياة لا تمثل ـ في نظر الاسلام ـ من خلال هذا الفهم ـ اي معنى في حساب القيم الكبيرة التي تلهب طموح الانسان وتوجه مسيرته .

ـ (او هو واقعي) يضع الواقع امامه ، عندما يريد ان يدرس المشاكل ، وينطلق من الواقع ، عندما يريد أو يحاول ان يضع الحلول .

حتى القمم التي يريد ان يبنيها للانسان في الحياة ليثير فيه روح الطموح نحوها ، كوسيلة من وسائل دفع الإنسان إلى الحركة الواعية في آفاق المسؤلية من اجل الافضل . . حتى القمم هذه . . ليست بعيدة عن الواقع الا بالمقدار الذي تبعد به الغاية عن بداية الطريق ، ولذا فان الانسان يظل في قلب الحياة ، وهو يتحرك من اجل الوصول اليها ، لانها تمثل اعلى مراحل الواقع .

وتلك هي « الفكرة » التي تحسب للجسد حسابه كما تحسب للروح حسابها ، ما دامت الحقيقة التي تفرض نفسها ان الانسان ليس

جسدا وحده وليس روحا وحده . . وتنظر للدنيا كما تنظر للاخرة ، ما دامت الاخرة تنطلق من خلال بناء الدنيا على اساس الحق .

وقد يطرح البعض السؤال في صورة اخرى تتحدث عن علاقة الشريعة بالانسان وقيمته في اطارها . هل الانسان في خدمة الشريعة ؟ او العكس هو الصحيح ؟ فالشريعة كانت وما زالت في خدمة الانسان . . . فقد يرى البعض ان الشريعة هي كلمات الله وارادته المتمثلة في نصوص الاحكام وموادها التشريعية ، ولا بد للانسان من أن ينحني انسجاما مع عبوديته لله وخدمته له فلا قيمة للانسان امام الشريعة لانه لا يمثل قيمة ازاء ارادة الله .

وكأن هذا البعض اعتبر الشريعة ارادة منفصلة عن حياة الانسان وواقعه ، ولذا فانها لا تمثل لديه الا شيئا مقدسا يمارس معه طقوس القداسة ، بالخضوع وشعائره ، تماما كمن يمارس طقوس التقديس للقرآن الكريم بالتقبيل والاجلال والاحترام كأي رمز لا اثر له غير ذلك .

بينما يذهب بعض آخر الى ان الشريعة في خدمة الانسان لانها نزلت من اجله وشرّعت لمصلحته ، على اساس من الحكمة والعدل ، ولذا فانها تظل تلاحق حياة الانسان وخطواته بالرعاية من خلال الواقع فاذا انطلقت في طريق يؤدي الى ضرر الانسان ووقوعه في مركز الضيق الشديد والحرج الكبير وقفت ، حيث هي ، واومأت للانسان ان يتقدم ، حيث لا يمارس حياته في حرج ولا يقع معها في ضرر .

وقد يحاول البعض اثارة القضية من زاوية علاقة الغاية بالوسيلة فاذا كانت هناك اهداف محدودة للانسان في حياته واصطدمت تلك الاهداف ببعض الوسائل العملية ، التي تنسجم مع هذه الاهداف ولا

تنسجم مع اهداف اخرى ، فما العمل ؟ . . .

هل يصح ان نقول ان الغاية تبرر الوسيلة فاذا كانت الغاية نبيلة فان وسائلها كلها ، مهما بلغت درجة خطورتها او مفسدتها او حرمتها ، تصبح في مستوى نبل الغاية .

أو أن الغاية لا تبرر الوسيلة فللوسيلة وجود مستقل عن الغاية ، وحكم مستقل عن حكمها ، فلا بد لنا ان نبحث للغاية الخيرة عن وسائل خيرة فاذا لم نجدها جمدنا الغاية ، ووقفنا ، حيث نحن في بداية الطريق ، حتى لا نقع في مشاكل السير مع الخطى الضالة في الطريق الضال ، وان كانت الغاية تعيش في اطار الهدى والصلاح ، لان طبيعة الوسيلة تترك اثرها الكبير في طبيعة الغاية وقيمتها باعتبار الارتباط العضوي الذي يربط الوسيلة بالغاية .

تلك هي بعض القضايا التي يمكن ان يثيرها الدارسون والعاملون ، في اطار التعامل مع المفاهيم والتشريعات الاسلامية .

ولعل هذا العرض السريع الذي عرضناه لعلامات الاستفهام ، التي يمكن ان تطرح في اكثر من اتجاه ، يعطينا النظرة العميقة لخطورة هذا الموضوع واهميته في حياة الانسان المسلم على جميع الاصعدة وفي مختلف المستويات لانه يتصل بالطريقة التي يمارس فيها الانسان حياته ، ويتعامل فيها مع وسائله وغاياته ، وبالتالي مع الصورة الصحيحة لبناء شخصيته على اساس الاسلام الامر الذي قديبعد الانسان عن التعامل مع الاسلام فكريا وعمليا ، على اساس بعض جوانب السؤال ، وقد يقربه اليه على اساس البعض الاخر .

فالفهم المثالي للحياة ـ في نظر الاسلام ـ يجعل الانسان يشعر

بالحاجة الى الهرب من حياته لكي يحوز على رضا الله ، ولذا فقد توقعه الصدمة في هوة اليأس من الوصول الى هذا الهدف ، في بعض مراحل الطريق ، لتنتهي به اما الى الانحراف واما الى الانتحار .

أمّا الفهم الواقعي فيمثل لديه الشعور العميق بالحاجة الى الاندماج في حياته دون أن يشعر بانه قد ابتعد بذلك ـ عن طريق مرضاة الله ، فلا يعيش ـ حينئذ ـ الازدواجية بين حبه لحياته ، وبين حبه لرضا الله ، لان باستطاعته التوفيق بينهما دون حرج او انحراف .

ولهذا فاننا نجد ضرورة التوفر على معالجة هذا البحث ومواجهته بدقة ووضوح لان كثيرا من جوانبه تفتقر الى الخطوات الهادئة التي تضع اليد على المشكلة بكل هدوء لئلا تضيع خطوطها المتشابكة في الضباب الكثيف .

ان القضية التي تواجهنا في امثال هذا البحث هي قضية الصورة الحقيقية للمفاهيم الاسلامية وللتشريع الاسلامي ، باعتبارهما الركيزتين الاساسيتين للقاعدة التي يبنى عليها الانسان المسلم صورته وشخصيته في الحياة .

أما قيمتها العملية فتتمثل فيما نواجهه في صعيد الواقع من الصور الفكرية للاسلام والاوضاع الواقعية للمسلمين ، التي تتنوع في افضل الطرق لتشويه الصورة الحقيقية بمختلف الاصباغ والاشكال ، الامر الذي يجعل الانسان ـ الذي يبحث عن الاسلام ـ يعيش في واقع مشوه فكريا وعمليا يبتعد به عن الاسلام عندما تبتعد الصورة الحقيقية للاسلام عن فكره وحياته .

كيف نفهم النزعة الواقعية

عندما نريد ان نعالج الاسلام في اطار الواقعية والمثالية علينا ان نحدد المصطلح لئلا نقع في فوضى الالفاظ والمفاهيم .

فما الذي تعنيه كلمة « الواقعية » و « المثالية » .

قد يكون لهاتين الكلمتين اكثر من معنى يتسع ويضيق حسب اختلاف موقع الاصطلاح ، من فلسفيِ او اخلاقي او غير ذلك ، ولكننا ـ هنا ـ نريد لهما ان يتحركا في نطاق النظرة للحياة وللانسان من حيث ارتباطها بالواقع الموضوعي لهما او ابتعادها عنه .

وعلى ضوء ذلك نستطيع ان نحدد هذين المصطلحين . .

فالواقعية تعني الاتجاه الذي يحاول فهم الاشياء وتفسيرها من حيث واقعها الموضوعي المتحرك في ظروف حية من الزمان والمكان ، والموجودات المحيطة بها ، والمؤثرات التي تتحرك في داخلها . . فاذا اردنا ان ندرس الانسان في اطار النزعة الواقعية فيجب أن ندرسه من خلال بشريته ، التي تتمثل في هذا الوجود الذي تعيش فيه غرائز الانسان وشهواته وحاجاته المادية والنفسية وعلاقاته الانسانية .

ولا بد للتشريع الذي يريد ان يتحرك مع الواقع ـ وفي اطار هذه النظرة ـ من أن يراعي كل تلك الجوانب مجتمعة ، دون أن يطغى جانب على جانب .

فلو أراد أنَ يلغي بعض الحالات الاساسية ، فلا يحسب لها حسابا في تشريعه ، او يحاول ان يشرع لها بعض الاحكام التي تجمدها ، أو تخنقها ، لكان ـ في ذلك ـ مبتعدا عن الواقع لان معنى ذلك هو الغاء حالة تتصل ببشريته وذاته اساسا ، الامر الذي يجعل قضية التمرد على التشريع شيئا طبيعيا في حياته .

ولعل من الطبيعي لهذا الاتجاه ان يدرس الجانب الروحي والمادي لانهما يمثلان الاساس التكويني لوجوده ، على خلاف الاتجاه الذي يدرس الانسان من حيث هو « مادة » فقط فان ذلك يعتبر انحرافا عن الخط الواقعي للدراسة ، كما المحنا اليه .

واذا عرفنا ان الواقعية تمثل فهم الاشياء من خلال ظروفها الموضوعية ، فان « المثالية » تعبر عن الفهم الذي يبتعد عن ذلك ، فيحاول ان ينظر الى الانسان من حيث هو « ملاك » ليس له غريزة البشر ، او روح يمكن ان تنفصل تماما عن خصائص المادة .

وهذا ما تعبر عنه الفلسفات التي تدعو الى التجرد عن الحياة كل الحياة ، حتى الذوبان في الموت ، كقيمة روحية كبرى ، ويتمثل ايضا في الفهم المنحرف للدين الذي يدعو الى رفض الحياة بكل ما فيها من متع وشهوات ولذائذ كاتجاه يقرب الانسان الى الله في ذاته .

اننا في هذا الحديث نحاول ان نتلمس في الاسلام ـ مفهوما وشريعة ـ الاتجاه الواقعي الذي يرسم الخط في اطار الواقع ، ولا يعتبر

المثال الذي يعيش خارج نطاق الواقع ـ أساسا لحركة الاسلام في الحياة .

وسنحاول ان نجد ـ من خلال هذا الحديث ـ خطأ الفكرة التي ترى في الدين مثالية غير واقعية .

وقد حاولنا ان نحدد الاتجاه الواقعي ـ بهذا التحديد ـ لتمييزه عن الاتجاه الذي يغفل جانب الروح في الانسان انطلاقا من الفكرة المادية التي لا تؤمن بالانسان الا من خلال كونه ظاهرة مادية خالصة ليس لها حركة الا من خلال الوجود المادي فحسب ، وبهذا تعتبر أي اتجاه ينطلق من فرضية وجود الروح اتجاها مثاليا يبتعد بالانسان عن واقعه ككائن مادي .

اننا نرفض هذا الاتجاه لاننا نرفض الاساس الفكري الذي يرتكز عليه من اعتباره الانسان كائنا ماديا فحسب ، وعلى ضوء ذلك نرفض اعتبار الاتجاه المادي اتجاها واقعيا في نظرته للانسان .

ملامح النزعة الواقعية :

لقد طرحنا في بداية الحديث ثلاثة اسئلة :

هل الاسلام واقعي او مثالي في نظرته الفكرية والتشريعية ؟

هل الشريعة في خدمة الانسان او الانسان في خدمة الشريعة ؟

هل الغاية تبرر الوسيلة ـ في الاسلام ـ او لا ؟ . . .

ولعل هذه الجوانب توضح لنا ملامح النزعة الواقعية في الاسلام ، وتلقي الضوء على طبيعة الاتجاه الواقعي ، بشكل عام ، وربما كانت القضايا الثلاث مرتبطة في نتائج البحث ، فاذا استطعنا في

الجواب عن السؤال الاول . أن نصل الى النتيجة التي تحدد الصفة الحقيقية للاسلام ، في اطار الواقع ، أمكننا ان نتقدم في الجواب عن السؤالين التاليين : . . .

لان الاسلام اذا كان يعيش في نطاق الواقع كان لخدمة الانسان ، وبهذا تخضع وسائله لهذه الواقعية العملية في المفهوم والتشريع .

وعلى هذا الاساس . نبدأ الحديث لنضعه في فصول ثلاثة .

الفصل الأول

هل الاسلام واقعي أو مثالي ؟

- النظرة الواقعية في الاسلام للانسان .
- القرآن مع فكرة البشرية وجهاً لوجه .
- وخلق الانسان ضعيفاً .
- وكان الانسان عجولاً .
- الانسان أمام الشدة والرخاء .
- نوازع الضعف أمام مواطن القوة .
- المفهوم الاسلامي للحياة .

قلنا في تحديد الاتجاه الواقعي :

انه الذي يـرسم للانسـان حياتـه من خلال واقعـه ، ويتعامـل معها في اطار ظروفها الموضـوعية ونحن هنـا من اجل أن نتلمس هـذا الاتجاه في نظرة الاسلام الى الانسان ، والى الحياة ، والى التشريع .

١ ـ النظرة الواقعية في الاسلام للانسان :

في نـظرة الاسـلام لـلانسـان نجـد الـواقعيـة تنـطلق من تـأكيـده بشـريته ، التي تـرافقه في جميـع مراحـل حياتـه التي تتصـاعـد في قمـة السمـو ، حتى تبلغ درجـة النبـوة ، أو تنحـدر الـى اقصـى درجـات الانحـطاط حتى تقتـرب من درجـة الشيـطان . . . فـهـو ، في كـلا الحالتين ، البشر الـذي يجلس على القمة منتصـرا على عوامـل الضعف او الذي يهوي في الهاوية مستسلما لنوازع الشر .

ولهـذا جاءت الآيـات الكثيرة ، في القـرآن الكـريم ، لتؤكـد على بشرية النبي أمام الذين يفتـرضون فيـه صفة اخـرى غير هـذه الصفة ، او

يتطلبون منه عملا فوق قدرة البشر .

فقد حدثنا القرآن عن صفة النبي ـ أي نبي كان ـ انه يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ويفرح ويحزن ويتألم ، وتتمثل فيه مواطن قوة الانسان في حياته العامة ، كما تتمثل فيه مواطن ضعفه التي تظل في اطار البشرية ، دون ان تنحرف به الى ما يتنافى مع خط النبوة او قداستها .

وبذلك استطاع ان يعيش آلام البشر ومشاكلهم فيحيا معهم ويعالج قضاياهم من خلال ظروفهم التي يفهمها فهما جيدا من خلال الطبيعة البشرية المتمثلة فيه .

حتى فكرة وجود الملاك مع النبي ، والنبي ـ الملاك ، التي كانت تراود افكار الناس الذين اعترضوا على فكرة النبي ـ البشر ، أو الذي ينطلق بالرسالة وحده دون ان يكون معه ملك منزل من السماء .

حتى هذه الفكرة المطروحة آنذاك عالجها القرآن بشكل حاسم ، يضع القضية في اطارها الطبيعي الذي يقرر ـ بوضوح ـ ان الله لو شاء ان ينزل ملكا يرافق النبي لوجب ان تكون له خصائص البشر ليكون صالحا لمركز النبوة او لاعطاء القوة العملية .

قال الله تعالى :

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ . [سورة الفرقان : ٧] .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾.

[سـورة الأنعام : ٨ ـ ٩] .

فقد رأينا ان « البشرية » لا تنفصل عن كيان « الانسان » حتى في اطار اتصاله بالله عن طريق الوحي وانفصاله عن الناس بارتباطه المباشر بكلمات الله . . فلا يتحول في نظر الناس الى اله او نصف اله . بل هو ـ بالرغم من خصائصه الكبيرة ـ بشر يوحى اليه ، ولا يعلم الغيب الا بمقدار ما يلقيه اليه الله من وحيه ، ولا يستطيع اجتراح المعجزات إلا بقدرة الله ، في إطار محدود ، ولذا فهو لا يستجيب للتحديات التي تقترح عليه ما شاءت من اقتراحات ، لا تنطلق من الحاجة إلى الاقناع بل تنطلق من مواجهة الموقف بالتحدي لمجرد التحدي .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾.

[سورة الكهف : ١١٠] .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) ﴾.

[سورة الإسراء : ٩٠ ـ ٩٣] .

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾

[سورة الأعراف : ١٨٨] .

تلك هي حالة الإنسان البشر في جانب السمو حتى القمة .

أما الإنسان الذي يهوي إلى هاوية الخطيئة كنتيجة لاستسلامه لنقاط الضعف ، فإنه لا يتحول إلى شيطان تمنعه شيطانيته من العودة إلى رحاب انسانيته ، بل يبقى إنساناً خاطئاً يمكن أن يعمل على تصحيح خطأه ، لأن الخطيئة ليست ذاتية له ، بل هي امر طارىء يعرض له من خلال مواجهته حالات الضعف بإرادة ضعيفة ، ولذا فإنه يظل في الطريق إلى الله ليتعلق به في حال التوبة ويرتفع ـ من خلال ذلك ـ من جديد إلى السفح الصاعد أبداً نحو القمة في عملية عودة إلى قمة البشرية المنطلقة أبداً إلى الله وهذا هو سر عظمة النظرة الإسلامية إلى الإنسان فهي لا تجعله تحت رحمة الشعور بخطيئة أصلية مفروضة عليه ، تبتعد به عن مستوى القمة . ولا تدعه يرتفع ـ مهما سما إلى المستوى الذي ينفصل فيه عن تشريعه ليتخذ لنفسه صفة الإله .

فالعقيدة الإسلامية تجعل الإنسان يتطلع إلى الله . وهو في قمة مجده ليشعر بضآلة هذا الجسد ، أمام مجد الله ، كما توجهه إلى أن يتطلع إلى الله ، وهو في أشد حالات الانحطاط ليعرف كيف يمكن للخطيئة ، أن تذوب أمام غفران الله لينطلق ـ من جديد ـ في السير مع نفسه في درب القمة إلى الله .

انها الواقعية التي تنظر الى الانسان على الطبيعة كائنا يعيش بالرجاء الى حد ما ، لئلا يقع في قبضة الغرور ، ويخلد الى الخوف الى حد ما ، لئلا يقع في قبضة اليأس .

القرآن مع فكرة « البشرية » وجها لوجه :

لقد درس القرآن بشرية الانسان ، في حالات الاعتدال وفي حالات الانحراف ، فأثار في حديثه عن ذلك ، نقاط الضعف الموجودة لديه ، المنطلقة من بشريته ، ولكن من حيث هي قابلية واستعداد ولذا فانها لا تفقده حرية الاختيار في حشد نوازع القوة وعواملها ، التي يمكن لبشريته ان تأخذ بها وتسير معها في عملية نمو وتكامل ، لانه يملك قابلة القوة كما يملك قابلية الضعف ، ولكل منهما مؤثرات ومحركات فيما حوله من عوامل الهدى ونوازع الضلال . . . فحاول ان يثير لديه الشعور بضرورة التغلب على نقاط الضعف ، بالتركيز على مؤثرات القوة ، من الايمان بالله في جانب ، وابراز الصورة المضيئة في الانسان القوي الذي ينتصر على ضعفه في مواجهة الصورة السوداء التي ينهار فيها الانسان امام رغبات نفسه الأمارة بالسوء من جانب آخر ، وبالاساليب الرائعة في التشريع التي حاول القرآن من خلالها أن يعالج حالة الرغبة ، باغلاق بعض النوافذ من جهة مع فتح نوافذ اخرى تكفل لها الانفتاح من جانب ثالث .

وخلق الانسان ضعيفا :

فنراه يتحدث عن ضعف الانسان امام رغباته فلا يتركه في اسر الرغبة او ضغط الشهوة ، بل يطلق للشهوة مجالها وللرغبة أميالها ، في عملية تنظيم دقيق بين الحاجة والواجب .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ

﴿ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ . [سورة النساء : ٢٦ ـ ٢٨] .

وبهـذا انسجم الاسلام مـع الواقـع فـاحتـرم نـوازع الضعف لـدى الانسان فلم يطلب منه الغائها وتجميدها تجميدا تاما . بـل هيأ لـه مجال التعـامل معهـا على اساس ايجـاد الجـو الـذي تتنفس فيـه دون ان تفقـد الروح ـ معه ـ طهارتها او ينهار ـ معها ـ الانسان في شخصيته .

وكان الانسان عجولا :

وهكذا ينطلق القرآن في كل حالة ليصـور الانحراف بـاعتباره حـالة طبيعيـة من حـالات الانســان على اســاس النمــو غيــر السليم لبعض خصائصه .

وهـو يتحـدث عن حــالـة العجلة التي يفســر فيهـا دعــاءه للشـر واستعجاله للعقاب ، واستباقـه للامـور قبل ان تتكـامل ، دون النـظر الى نتائج ذلك او البحث في طبيعته .

قال الله تعالى :
﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ .

[سورة الإسراء : ١١] .

﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ .
[سورة الانبياء : ٣٧] .

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه » .

فقـد تجسدت حـالة العجلة في دعـاء الانسان واستعجـاله للشـر ، دون التفـات منه الى طبيعـة الموقف . ومـدى امكانيـة انفجـاره في غيـر

مصلحة الانسان ، بل هي الحالة النفسية التي تجعل الانسان ينطلق من الشعور باللحظة الحاضرة من غير مراعاة للمستقبل ، فيهزأ بالوعيد ، دون تبصّر ، ظنا منه انه غير واقعي من غير أن يفكر بمصدر القوة التي توعدت ، وطبيعة الاسباب التي هيأت للوعيد . وتحاول الآيات ان توحي له بأنه لواعطى نفسه فرصة التفكير ورجع الى منطلقات الايمان التي تمنحه فرصة التأمل والتفكير ، لما استعجل ما استعجله وسخر مما سخر منه .

الانسان امام الشدة والرخاء :

ونراه في اكثر من آية يصور لنا حالة الانسان امامَ الشدائد والاهوال والخطر المداهم التي تجعله يتجه الى الله بقلبه وبروحه مبتهلا متضرعا راجيا منه أن ينقذه من الشدة والهول والخطر العظيم معطيا ـ على نفسه ـ العهد الكبير لله في تصحيح انحرافه واصلاح حاله فاذا استجاب الله دعاءه رجع الى حالته ونسي ما كان يدعو اليه . قال الله تعالى :

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

[سورة يونس : ١٢] .

وتصوره لنا بعض الآيات ، في حالات تبدل اوضاعه من فقر الى غنى او بالعكس ، كيف ينطلق بحالة انفعالية لا ترتكز على اساس متين .

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾.

[سورة هود : ٩ - ١٠] .

انهـا قصـة اللحـظة الحـاضـرة التي تتحكم بتصـرفـات الانسـان واعماله وتوجه انفعالاته ومشاعره فـاذا غابت عنـه استسلم للحظة جـديدة تعيش في جو جديد .

نوازع الضعف امام مواطن القوة :

ونحن نعـرف ـ من هـذا العـرض كله ـ ان الاسـلام يتعـامـل مـع الانسان على اساس وجود نقاط الضعف عنـده ، واعتبارهـا حالـة طبيعية ناتجة من تكوينه البشري عندما يلتقي بآلام الحيـاة ومشاكلهـا . . . ولكنه لا يـراها معقـدة بالمستـوى الذي يسقط معهـا الانسـان عن قـدرتـه على الحركة بحرية واختيار ، بل يحاول ان يثير لـدى الانسان الشعـور العملي بالجانب الايجابي منها ، بالاسلوب الذي يفجر فيه طاقة المقـاومة عنـدما يضـع الموقف في اطـار الاختبار والابتـلاء والامتحـان الـذي تتجلى فيـه النفوس القويـة بايمـانها امـام النفوس الضعيفـة تبعا للمـوقف الذي يقفـه الانسان من ذلك كله . .

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾.

[سـورة العنكبوت : ٢ - ٣] .

فالقضية كلهـا قضية فتنـة يختبر فيهـا الانسان قـدرته على الـوقوف مـع مبادئـه ضد شهـواته ومـع ايمانـه ضد أطمـاعه ، ثم لا يتـرك القضية

تتجمد في هذا الموقف بل يحاول في اكثر من آية ان يوحي له بقيمة الثبات والصبر والصمود امام نوازع النفس واغراءات الرغبة ويعرفه ما اعد الله للصابرين من ثواب ورضوان ومغفرة ونصر كبير وفتح قريب .

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١٠) . [سورة الزمر : ١٠] .

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦)

[سورة النحل : ٩٦] .

وهكذا نشعر بالجانب البشري للانسان يخطو مع نوازع الضعف تارة ، ولكنه لا يسمح لها ان تصرعه . بل يحاول ان يسرع للحاق بمواطن القوة ليثيرها في نفسه ، ويتعامل معها في حياته ، من اجل أن يسير في طريق الفلاح والنجاح . .

وتتنوع الاحاديث في القرآن الكريم عن نجاح التجربة في هذا الاتجاه فيما يحدثنا به عن المؤمنين الذين أفلحوا وانسجموا مع خط الايمان وجاهدوا بانفسهم ، وعن المتقين الذين استطاعوا ان يتجاوزوا خطأ الغفلة بيقظة الايمان . . .

قال الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (٢٠١) .

[سورة الأعراف : ٢٠١] .

« قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم للزكاة فاعلون . . » الى آخر الآيات . .

كل ذلك بطريقة واقعية تواجه النفس بالعلاج تارة وبالاستجابة لبعض نوازعها آخرى وبالوقوف بوجهها باسلوب مرن متحرك مرة ثالثة .

وفي ذلك كله .. تبقى رحلة الانسان مع غرائزه وشهواته وكل نقاط الضعف لديه رحلة صراع واقعية ، لا تتنكر للواقع ولا تغرق في اوحاله ، بل تنتصر تارة لتفلح وتفوز وتنهزم اخرى لتخيب وتخسر .

قال الله تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ . [سورة الشمس : ٧ ـ ١٠] .

٢ ـ المفهوم الاسلامي للحياة

تختلف النظرة للحياة تبعا لاختلاف النظرة لما وراء الحياة . . فاذا رفضنا وجود حياة اخرى غير هذه الحياة التي نحياها فاننا نواجه أهدافا تنبثق من طبيعة هذا الكون الذي نعيش فيه باعتبار هذه الحياة الفرصة التي لن تتكرر أو تتجدد ، ولذا فان الطيبات والشهوات تمثل القيمة الكبرى في وجود الانسان وتفكيره . . فهي النعيم الكبير بينما يمثل الحرمان الجحيم الاكبر في حياته لانه يجسد العذاب النفسي والجسدي الذي يعيشه الانسان في كل لحظة من لحظات الحرمان .

واما عندما نؤمن بوجود حياة اخرى فالموقف يختلف لان اللذة لا تمثل قيمة كبرى كما ان الالم لن يكون ضد هذه القيمة بل القضية تكون نسبية . . . فاذا كانت هناك حياة اخرى تشتمل على لذة اكبر او حرمان اكبر فان الحرمان هنا من اجل اللذة الكبرى لا يعتبر جحيما وعذابا ، كما ان اللذة التي تستتبع الحرمان الابدي لن تكون نعيما وسرورا . . تماما كما هو الحال في الحياة نفسها ـ هذه التي نعيش ـ عندما يتعرض الانسان لحالة حرمان طارئة في اطار العمل من أجل المستقبل الكبير فانه لن يعتبر ذلك حرمانا اذا استطاع التعويض عنه

بالهدف الكبير ، والعكس هو الصحيح ، في الطرف المقابل .

وعلى ضوء هذا ، نحدد واقعية النظرة الاسلامية للحياة ، فقد انطلقت الفكرة الدينية من وجود حياتين للانسان ولكل منهما مهمة . . فالدنيا دار المسؤلية والعمل ، والآخرة دار نتائج المسؤلية . . فلا بد من أن يقاس التشريع ، او المفهوم العام ، بمقياس هذه النظرة .

لن نحاول استخدام كلمتي « المادة » و « الروح » في معالجتنا للفكرة لاننا نعتبر أن هاتين الكلمتين ، بما لهما من مدلول فلسفي ، ليستا من الالفاظ القرآنية التي تحدثت عن الفكرة ، بل نستخدم كلمة الدنيا والاخرة ، فالدنيا ـ في القرآن الكريم ـ تمثل الحياة التي نحياها ، بما فيها من متع ولذائذ وأموال وعلاقات . . أما الآخرة . . فانها تمثل القيم التي تحكم هذه المتع واللذائذ والعلاقات ، وتنظمها في نطاق مخصوص ، وانما اعتبرها من أمر الاخرة ، باعتبارها تمثل الاطار الذي تعيش فيه هذه الاوضاع والاهداف التي تتجه نحوها ، الأمر الذي يجعل الانسان يواجه نوعا من الحرمان على أساس رضا الله .

وعلى ضوء هذا ، نستطيع أن نقرر أن الاسلام لم يواجه انفصالا في العمل بين الدنيا والاخرة ، فقد أعطى الانسان نصيبه من الدنيا بكل ما تمثله من حاجات حسية ومعنوية ، وطلب منه ـ الى جانب ذلك ـ أن يراعي القيم التي وضعها الاسلام في حياته ، واصبحت تمثل الحد الفاصل بين التقييد والاطلاق ، او الفوضى والتنظيم ، كأساس من اسس تنظيم الواقع وعلاقة الانسان به .

لعل أبلغ آية تصور لنا النظرة الاسلامية العامة ، في هذا المجال ، قوله تعالى :

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ . [سورة القصص : ٧٧] .

فهي تركز على الهدف فيما يملكه الانسان من اشياء ، وفيما يمارسه من اعمال ، ولكن على أساس مراعاة التوازن بين طبيعة الهدف وطبيعة الواقع ، فلا يستغرق الانسان في جو القيمة ، بالشكل الذي يغفل فيه عن حياته وعن واقعه ، كما يفعله بعض المتصوفة ، بل بالطريقة التي يحفظ فيها نصيبه من الدنيا .. ولعل التركيز على المسؤولية تجاه الآخرين بالاحسان اليهم ، والمسئولية تجاه الكون بترك الفساد في الارض ... يرسم الخط العريض للقيمة التي تحدد للانسان خط الدنيا وخط الاخرة عندما يلتقيان في طريق واحد كما يوضح لنا الخط الذي ينفصل فيه احدهما عن الآخر فاذا استغرقت في الدنيا حتى تحولت الى انسان أناني يفكر بنفسه ، ولا يهتم بالاخرين وبحاجتهم اليه ، فلا يتعاطف معهم في شيء ، أو استسلمت لنزواتك الذاتية التي تجعلك خاضعا لنوازع الفساد والافساد ... فانك تقف في الخط المقابل لخط الآخرة .

اما اذا استغرقت في الآخرة ـ القيمة ـ الهدف .. فاهملت حياتك وتركت نصيبك من الدنيا ، أو عشت في سكراتك الصوفية الحالمة المغرقة في أجواء الخيال ... فانك تقف في الخط البعيد عن خط الدنيا الواقعية التي يريدها الاسلام للانسان في الحياة .

وربما نفهم هذه الفكرة من الآية الكريمة التي تصور لنا النموذج

الـذي يطلب الـدنيا ، فيقتصـر على لذاتهـا وشهواتهـا لانها ـ في نـطاقها الخـاص ـ لا تعني الا ذلك . . امـا النموذج الاخـر الذي يـطلب الاخـرة فـانه يـطلب الدنيـا والاخرة على أسـاس التفكيـر الاسـلامي الـذي يـرى القيمة الروحية الواقعية في مواجهتها كوحدة عملية رائعة .

قال الله تعالى :

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾ .

[سـورة البقـرة : ٢٠٠ ـ ٢٠٢] .

وفي الحديث الشريف :

« ليس منـا من ترك دنيـاه لآخرتـه ومن ترك آخـرته لـدنياه » . وفي الحديث المشهور :

« إعمـل لدنيـاك كأنـك تعيش ابدا واعمـل لآخرتـك كأنـك تموت غدا » .

ان ذلـك هـو الـذي يحقق لـلانسـان التـوازن بين حـاجـاتـه وواجباته . . .

ونستـطيع ان نلمـح ذلك في الحشـد الكبير من الآيـات المختلفـة التي أنكـرت تحريم الـطيبـات من الـرزق ، ومـا أخـرجـه الله لعبـاده من الـزينة ، ودعت الانسـان الى اكل الحـلال الـطيب مـع التحفظ في تـرك اتبـاع خطوات الشيـطان ، وطلبت منـه القيـام بشكـرهـا عمليـا ، وعـدم الاعتداء فيها .

قال الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ . [سورة المائدة : ٨٧ ـ ٨٨] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ . [سورة البقرة : ١٦٨] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ . [سورة البقرة : ١٧٢] .

وربما تلمح ، في بعض الآيات ، الايحاء بان الله يريد ممارستها من الإنسان، باعتباره الذي اخرجها ورزقها للانسان وأرادها ـ بعد ذلك ـ خالصة للانسان المؤمن في يوم القيامة ، لا يحاسب عليها لانه قام بواجبها ورعاها حق وعايتها كما شرع الله وأراد .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ . [سورة الأعراف : ٣٢] .

وتنطلق في هذا الاتجاه الاحاديث الكثيرة المروية عن ائمة اهل البيت (ع) التي تعتبر ، أن الدنيا اذا اقبلت فاحق الناس بها اخيارها لا

اشرارها لا فجارها .

والحديث النبوي الشريف :

« حبب الي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة » . . .

وهناك الآيات الكريمة التي توضح لنا ما اودعه الله في الانسان من محبة للشهوات والاموال والبنين والخيل والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وغيرها من الامور التي يتجه اليها بطبيعته فعليه ان يوازن بينها وبين ما تطلبه الدار الآخرة من انظباط واتزان .

ونلاحظ ، في هذا الاتجاه ، حوار الامام علي (ع) مع العلاء الذي شكاه اخوه للامام ، لانه لبس العباءة وتخلى عن الدنيا ، فبادره الامام بقوله . « يا عدي نفسه لقد استهام بك الخبيث أما رحمت اهلك وولدك ؟ أترى الله احل لك الطيبات وهو يكره ان تأخذها ، أنت اهون على الله من ذلك . . . واستمع العلاء الى الامام يلقي عليه هذه الموعظة ففاجأه ذلك ، لانه يرى سلوك الامام العملي مرتكزا على ترك الدنيا فبادره بقوله :

يا أمير المؤمنين هذا انت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك .

فقال الامام : ويحك اني لست كأنت ان الله فرض على ائمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس لكيلا يتبيغ بالفقير فقره .

وهكذا نجد ان رفض الحياة بطيباتها ولذائذها ليس قيمة اسلامية كبرى ، يجاهد الانسان من اجل الحصول عليه لينال بها الحظوة عند الله والثواب منه في الدار الآخرة ، بل العكس هو الصحيح ، باعتباره يجسد السلوك الطبيعي الذي يجعل الانسان يمارس فيه حياته بطريقة

واقعية ، لا يسيء فيها الانسان لنفسه ولا يرهق بها غيره .

اما احاديث الزهد التي كثرت في السنة الشريفة ، فانها تنطلق معه ، من حيث هو حالة نفسية ، تمثل الشعور بالغنى الذاتي تجاه الحياة ، مما يجعله لا يواجهها مواجهة الجائع الشره الذي يقدم كل شيء ويضحي بكل شيء ، في سبيل الحصول على متعة او لذة ، حتى لو كان الشيء الذي يضحي به دينه او عقيدته ، بل يواجهها مواجهة الانسان الطبيعي الذي يملك حرية الاختيار ، فيأخذ منها ، بحرية ، ويدع ما يدعه منها بحرية واختيار .

وربما يصور لنا ذلك الحديث الشريف الذي يروى عن الامام علي (ع) في نهج البلاغة .

« جمع الله الزهد في كلمتين لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم » .

انها الفكرة التي تقول لك ان عليك ان تواجه خسائر الحياة وأرباحها بنظرة واقعية ، لا تعتبر أيا منها حالة غير عادية ، ولذا فانها لا تترك في النفس أي شعور غير طبيعي ، وكنتيجة طبيعية ، لعدم الشعور بالعلاقة القوية التي تجعله يعيش تحت ضغط الحاجة اليها بشدة ، لانها لا تمثل الا حاجة عادية ككل وقائع الحياة التي تأتي وتروح تماما كما هو الليل والنهار . . والفصول الاربعة .

وعلى هدى ذلك كله نعرف ان الاسلام واجه في نظرته الى الحياة وممارسته لها الموقف على اساس واقعي ، لا يغفل حاجات الانسان الجسدية ، ولا يتسامح في قيم الانسان المعنوية التي ترتبط بالوجود الثاني للانسان . . وربما نلتقي ، في هذا المجال بنقطة

مهمة ، تؤكد لنا هذه النظرة الواقعية ، وهي : ان الدين عندما دعا الانسان الى ممارسة الحرمان عن اللذات التي حرمها الله ، وعده بالثواب الحسي في الآخرة ، حيث يمارس الانسان فيه لذائذه الحسية بشكل أفضل ، بالاضافة الى الثواب المعنوي ، فهو يعد الانسان المؤمن بالحور والولدان والنعيم الكبير وغير ذلك ، ـ ثم يضيف اليها قوله : ورضوان من الله اكبر . . .

ولعل هذا الاتجاه ، في جعل الثواب منسجما مع احساس الانسان بالحاجات الحسية للجسد للجسد في الدنيا وفي الاخرة ، يلتقي مع النظرة الواقعية للانسان التي تبعده عن الشعور بالحرمان الابدي مما منع عنه الدنيا ـ الامر الذي يجعله طبيعيا في مواجهة حالات الحرمان .

الفصل الثاني

هل التشريع لخدمة الانسان ؟
أو العكس هو الصحيح ؟

- النزعة الواقعية في التشريع :
- مع الخطوط العامة للتشريع :
- مهمة الرسول في رسالته .
- قاعدة الحرج .
- قاعدة لا ضرر .
- حديث الرفع .
- واقعية التشريع في بعض المواطن الخاصة :
- رد الاعتداء بمثله .
- مقياس الشرف في التشريع .
- علاقة المؤمن بغيره .
- طريقة العبادة في التشريع .
- الحيل الشرعية .
- الزواج الموقت .
- في نهاية المطاف .

النزعة الواقعية في التشريع

ما هي الفكرة التي تتحكم في حركة التشريع الاسلامي في الحياة .

هل هي ارهاق الانسان بالواجبات والمحرمات التي تتركه لاهثا وراءها لا يستطيع ـ معها ـ ان يلتقط انفاسه لتكون مهمة الشريعة ـ من خلال ذلك ـ ان تكبل الانسان بالقيود فلا تترك له اية حرية في الحركة ـ جاهدة ـ على ان تضعه في القمقم .

ذلك هو ما نحاول ان نتلمسه من خلال الخطوط العامة للتشريع وفي ضوء التشريعات والتوجيهات الثابتة في بعض المواضع الخاصة .

مع الخطوط العامة للتشريع :

لعل افضل النصوص التي عالجت هذه القضايا من وجهة عامة هي النصوص التي عرضت للدين من خلال الخطوط العريضة له وسنستعرض بعضها بايجاز .

١ ـ مهمة الرسول في رسالته :

قال الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

[سورة الأعراف : ١٥٧] .

فنحن نلاحظ انها تصور ـ من خلال تحديدها لمهمة الرسول في رسالته ـ أن الحلية والحرمة خاضعة لطبيعة الاشياء في واقع الحياة ـ في اطار مصلحة الانسان ـ فالطيب حلال ، والخبيث حرام ، وهدف الشريعة ، هو أن ترفع عنهم اثقالهم وتحطّ عنهم اغلالهم التي كانوا يرسفون بها في حياتهم الماضية ، ابعادا لهم عن المشقة والجهد في ممارسة الحياة .

٢ ـ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ـ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها :

ان القدرة هي حد التشريع الذي يقف عنده فلا يتحرك الا معها ـ فاذا انتهت القدرة ـ وقف التشريع حيث هو لا يتقدم ولا يتأخر في حساب المسئولية .

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ

﴿فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ . [سورة الحج : ٧٨] .

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ . [سورة المائدة : ٦] .

ليس هناك ضيق في التشريع على الانسان ، بل هو المجال الواسع الذي يجعله يتحرك براحة وحرية ، فاذا ضاق عليه حكم وسّعه حكم آخر . كما نلاحظه في أمر الوضوء والتيمم الذي جاءت الاية من اجل تبرير تشريعه على هذا الاسلوب .

وقد نجد لهذا الخط ـ في نفي الحرج ـ تطبيقا عمليا في اكثر من حكم . . . فنلاحظ في تشريع الجهاد ـ استثناء بعض الحالات التي يكون الجهاد فيها حرجا ، وهم الضعفاء والمرضى واصحاب العاهات ، كالاعرج والاعمى ، والذين لا يملكون نفقة المسير .

قال الله تعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ . [سورة التوبة : ٩١] .

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ .

[سورة الفتح : ١٧] .

ونجد هذا الخط في آية اخرى تلتقي مع هذه الآيات في

الفكرة ، وان اختلفت عنها في الاسلوب واللفظ .

قال الله تعالى :

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ . [سورة الأعراف : ١٥٧] .

فقد انطلق التشريع بالرخصة هنا ، من حالة الشدة والعسر الذين يقع فيهما الانسان من تشريع الصيام كفريضة في حالة المرض او حالة السفر ، ولهذا اتسعت له الرخصة لتتسع له الحياة في نطاق التشريع .

قاعدة الحرج :

وقد استطاع الفقهاء ان يجدوا في هذه الآيات قاعدة فقهية عامة تحكم على ادلة الاحكام فترفع أي حكم حرجي بشكل طبيعي ، من دون حاجة الى خاص يرفعه ، فأطلقوا عليها قاعدة لا حرج . وحاولوا ان يعتبروا هذه الآيات بمثابة المؤشّر الذي يشير لنا الى الحدود التي يعيش في اطارها أي تشريع آخر . . .

فكل حكم من الاحكام الالزامية التي تتسع لحالة اليسر والعسر ، والحرج والسعة ، لا بد لنا من ان نتجاوزه لنقف به عند حدود الحرج ، ليختص بالحالات التي لا يشعر الانسان معها بالضيق الذي يواجهه من جراء امتثاله .

وقد اصبحت هذه القاعدة من القواعد المهمة في الدراسات الفقهية الاجتهادية وانطلق الفقهاء ـ معها ـ يبحثون جوانبها ، في دقة

وشمول ، فحصرها البعض في الواجبات ، فلم تتسع لديه للمحرمات فلم يجوز لنا ـ بحكم هذه القاعدة ـ ان نطلق الرخصة بلا حساب في المحرمات لمجرد ان الانسان يقع ـ من خلال امتثالها ـ في حرج وضيق شديد لا يتحملها في الحالات العادية .

وأطلقها بعض آخر فرأى ان النصوص اذا كانت شاملة للمحرمات فلا نجد هناك ما يخرجها عنها وهذا هو ما نرتئيه وفقاً لبعض اساتذتنا المحققين .

وعلى ضوء هذا الشمول في فهم القاعدة ، يستطيع المؤمن الذي يواجه حالات الحرج التي يمر بها في المجتمعات الكافرة والضالة . . . أن يمنح نفسه حرية ممارسة بعض المحرمات اذا كان الانسجام مع خط التحريم يوقعه حالات الحرج الشديد . .

وتحدث الفقهاء كثيرا حول قضية الحرج الذي يقف الحكم عنده ، هل هو الحرج الشخصي الذي يعتبر حالة شخصية للانسان ، او هو الحرج النوعي الذي لا يراعى فيه الجانب الشخصي ، بل يخضع للحالات النوعية ، وانطلق الفقهاء ـ كعادتهم ـ في ابحاث التخصيص والتعميم ـ في هذه القاعدة ، ولكل رأيه ، الذي قد نختلف فيه معه وقد نتفق ، مما لا يعنينا الدخول في تفاصيله ، في حديثنا هنا ، بل كل ما يعنينا من هذا كله ، هو أنهم لا يختلفون في الخط العام الذي يعتبر حالة الحرج من الحالات الرافعة للتكليف بشكل عام .

وقد نجد في بعض كلماتهم التركيز على ان هذه القاعدة مما يستقل بها العقل في طريقة التشريع القانوني قال صاحب العناوين الميرفتاح :

يمكن ان يقال . ان قضية العقل السليم عدم وقوعهما (العسر والحرج) في التكاليف نظرا الى ان المتفق عليه عند اصحابنا وجوب اللطف على الله سبحانه ومعناه التقريب من الطاعة والتبعيد عن المعصية التي هي المهلكة العظمى ولا ريب ان التكليف البالغ حد الحرج يبعد عن الطاعة ويكون باعثا الى كثرة المخالفة ، والله سبحانه أرحم بعباده من ان يفتنهم بما يوقعهم في العذاب غالبا ، وكما أن التكليف بما لا يطاق ممتنع عليه تعالى ، للزوم القبح والخروج عن العدل فكذلك التكليف بالحرج فانه مناف للطف والرحمة .

ويقول ـ بعد ذلك ـ : وان شئت توضيح ذلك فانظر إلى طريقة العقلاء في مقام التربية فان الارشاد الى الحسن والقبيح والامر والنهي من لوازم التربية ، ولا يتحقق بدونهما ، مع انه لو أمر آمر بأمرٍ مستصعب أو نهى عن شيء يعسر اجتنابه للمأمور جدا ، فخالف ، لكان العقلاء يذمون الآمر ويقولون ان هذا ليس مقتضى اللطف ، بل اللائق أن تأمره بما لا يشكل عليه ، ولا تأمره بما يوجب خذلانه ، وبالجملة فرق بين كون الداعي مجرد نقص النفس والتمرد على الاطاعة ـ اعاذنا الله منها ـ وبين كون ما يصدر عن الآمر له مدخلية في ذلك ، لا في تحقيق موضوعه ، بل في صدوره عن المكلف ، ولهذا لو اعتذر العبد المخالف حينئذ عند الناس بان التكليف مثلا بكذا بهذه المشقة هل هو طريقة المولى ، وكيف أتحمل انا هذه المشقة ، وكيف السبيل الى غير المخالفة في ذلك ، يقبله العقلاء ويخطأون المولى وذلك واضح [1] .

وعلى ضوء ذلك يرى كثير من العلماء ـ ومنهم صاحب العناوين

(١)العناوين ـ مير فتاح ١٩٠ ـ ١٩١ .

ـ ان هذه القاعدة غير قابلة للتخصيص بل هي جارية في كل مجال من مجالات الحرج والمشقة الطبيعيين . . وقد يرى آخرون غير ذلك فيقررون انها قاعدة عامة ، تخضع لما تخضع له القواعد العامة من التخصيص ، ويذكرون لذلك بعض الموارد التي قد يختلف فيها الرأي من حيث أنها داخلة في موضوع هذه القاعدة او خارجة مما لا سبيل لنا لذكره ولا حاجة بنا الى الدخول في تفاصيله .

قاعدة لا ضرر :

وهناك ـ في نطاق الخطوط العامة للتشريع ـ قاعدة أخرى هي قاعدة لا ضرر ولا ضرار في الإسلام أو على مؤمن ـ إنطلاقاً من حديث الرسول الأعظم محمد (ص) في قصة سمرة بن جندب الذي كان له عذق وكان طريقه إليه في جوف منزل رجل من الانصار فكان يجيء ويدخل الى عذقه بغير اذن من الانصاري فقال الانصاري يا سمرة لا تزال تفجأنا على حال لا نحب ان تفجأنا عليه فاذا دخلت فاستأذن فقال : لا استأذن في طريقي ـ وهو طريقي الى عذقي ـ قال : فشكاه الانصاري الى رسول الله (ص) فارسل اليه رسول الله (ص) فأتاه فقال : ان فلانا قد شكاك وزعم انك تمر عليه وعلى اهله بغير اذن فاستأذن عليه اذا اردت ان تدخل فقال : يا رسول الله أستأذن في طريقي الى عذقي فقال له رسول الله خل عنه ولك عذق في مكان كذا وكذا فقال لا قال فلك اثنان قال لا اريد فلم يزل يزيده حتى بلغ عشرة أعذق فأبى فقال له رسول الله انك رجل مضار ، ولا ضرر ولا ضرار على مؤمن قال : ثم أمر بها رسول الله (ص) فقلعت ورمي بها اليه وقال له رسول الله (ص) انطلق فاغرسها حيث شئت . (وسائل الشيعة باب ١٢ من كتاب احياء الموات) .

وقد اعتبر الفقهاء هذا الحديث بمثابة القاعدة العامة التي تحكم على ادلة الاحكام كلها فتحصرها في غير حالة الضرر .

وعلى ضوء ذلك حكموا بمنع الانسان من التصرف في ماله اذا كان فيه ضرر على جاره او على الآخرين . ورخصوا له ممارسة بعض المحرمات كالتحاكم الى قضاة الجور اذا توقف استنقاذ الحق على التحاكم اليهم ، باعتبار ان الحكم بالتحريم هو من الاحكام الضررية على الانسان .

وقد تحدثوا عن هذه القاعدة وافاضوا في الحديث كما تحدثوا وافاضوا في الحديث في القاعدة السابقة ، من حيث شمولها للضرر النوعي او عدم شمولها له ، وعمومها للمحرمات او اختصاصها بغيرها ، الى غير ذلك من التفاصيل التي لا شأن لنا في الخوض فيها هنا .

بل كل ما نريده ـ في هذا المجال ـ هو ان هذه القاعدة تنطلق من الخط العام الذي ألمحنا اليه في بداية الحديث وهو ان لا يكون التشريع مصدر ضرر للانسان بل يقف عند هذه الحالة وقفة حاسمة ، تجعل الانسان يرتاح لإلزاميات الشريعة كما يرتاح لرخصها ، ليكون التشريع رحلة طيبة في حياة الانسان ، لا مرحلة شاقة من مراحل حياته العملية .

حديث الرفع :

وفي هذا الاتجاه يلتفت الاسلام الى حالات الخطأ والنسيان والجهل والاضطرار التي يواجه فيها الإنسان موقف الانحراف عن الحكم الشرعي . وتجاوز حدوده كنتيجة طبيعية لوجود إحدى هذه

الحالات فيأتي الحديث النبوي المشهور ، وهو حديث الرفع . ليقرر رفع الحكم في هذه الحالة ، أو رفع مسؤوليته ، لئلا يعيش الإنسان عقدة الذنب ازاء مخالفته للشريعة في هذه الحالة . وليشعر بالأمتنان العملي للجو التشريعي الذي يوحي إليه . بالسعة لا بالضيق ، وبالراحة لا بالتعب .

قال النبي محمد (ص) رفع عن امتي تسعة أشياء الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطروا إليه والطيرة والحسد والوسوسة في الخلق .

ورأى الفقهاء في هذا الحديث قاعدة عامة . استفادوا منها ، في حل كثير من المشكلات التشريعية في حالات الجهل والنسيان والاكراه والخطأ بشكل خاص . فألغوا ـ ببركتها ـ قانونية التصرفات الصادرة عن الإنسان عن اكراه سواء في ذلك التصرفات العملية ، التي توقع الانسان تحت مسؤولية العقوبة في الدنيا والآخرة ، أو التصرفات العقدية التي تفرض على الإنسان التزامات ومسؤوليات قانونية على أساس التزاماته العقدية . في حالة الاكراه .

وهكذا اطلق الفقهاء من هذا الحديث قاعدة البرائة التي حكموا فيها بأن أي حكم لا يعلمه الإنسان فهو مرفوع عنه ، لا يؤاخذ به ، ولا يحاسب عليه في الدنيا وفي الآخرة من غير فرق بين أن يكون الجهل بالحكم نتيجة للجهل بالموضوع أو لإرتباك في مصدر التشريع للحكم .

وقالوا ان هذه القاعدة ، رفعت عن الانسان حكماً كان من صلاحية الشارع أن يضعه ، من خلال الحفاظ على المصلحة التي

انطلق منها الحكم .. ولو جعله الشارع ، لوقع الإنسان من ذلك في ضيق وحرج ولكنه رفعه عنه انطلاقاً من سماحة الشريعة وسهولتها . . . أما الحكم الذي كان يمكن للشارع أن يجعله في هذا المجال فهو ايجاب التحفظ في نطاق النسيان .

وقال الفقهاء والأصوليون : ان هذا الحديث واقع في موقع الامتنان من صاحب الشريعة على الأمة . فكأنه يريد ان يشرح منة الله عليهم ولطفه بهم ورأفته بحالهم ، عندما رفع عنهم هذه الأمور التي لو وضعها عليهم أو حملهم مسؤوليتها لوقعوا في حرج عظيم .

وبهذه الروح قالوا : ان هذا الحديث لا يرفع إلا الأحكام التي يعتبر رفعها عن الأمة امتناناً على الامة بشكل عام ، لا على شكل خاص ، لأن الأحكام الشرعية لا ترفع او توضع ، انطلاقاً من مصلحة خاصة ضد مصلحة خاصة أخرى ، بل من المصلحة العامة ، وان هدرت معها بعض المصالح الخاصة .. ولهذا قالوا ان هذا الحديث لا يرفع حكم الضمان على من أتلف مال غيره خطأ أو جهلاً أو نسياناً لأن رفع هذا الحكم لا يعتبر امتناناً على صاحب المال بل هو ضد الامتنان عليه وإن اعتبر امتناناً على المتلف لأنه يرفع عنه حكم الخسارة .

وليس من شأننا الخوض في ذلك كله . ولكننا نريد أن نضع هذا الحديث في الأطار العام للفكرة التي قررناها من ارتكاز التشريع على الأسس الواقعية التي تدرس الإنسان من خلال ظروفه الواقعية من دون حرج .

واقعية التشريع في بعض المواطن الخاصة :

ربما نجد في بعض الحالات التشريعية الخاصة . وضوح الخط

الواقعي الذي يقترب فيه التشريع من الحالات الطبيعية للجو الداخلي الذي يعيش فيه الإنسان ، ازاء بعض الأوضاع المعينة التي تواجهه في حياته فيشعر ـ معه ـ الإنسان بالانسجام مع الأحكام الشرعية التي تريد اخضاع حياته لأرادة الله وتشريعه وسنحاول استعراض بعض النماذج الحية في هذا الاتجاه .

١ ـ رد الاعتداء بمثله :

في التشريع الإسلامي يعتبر الإسلام مقاومة الظلم من قبل المظلومين حقاً أساسياً مقدساً ركز عليه القرآن الكريم في أكثر من آية ، ودعا الإنسان إلى الأخذ بهذا الحق ، مع مراعاة جانب العدل في ذلك ، بعدم الزيادة عليه في رد الفعل ، على المستوى الذي جاء به الفعل ، سواء في ذلك ، بالكلمة فيما اذا كان الظلم بالكلمة ، أو بالفعل فيما اذا كان الظلم بالفعل .

قال الله تعالى :

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ . [سورة البقرة : ١٩٤] .

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ . [سورة النحل : ١٢٦] .

ولعلّ في بعض الآيات ايحاءاً بأن الإنسان الذي ينتصر لنفسه في حالة تعرضه للعدوان والبغي ، هو في مركز القيمة في نظر الإسلام .

وذلك قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ۝ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝﴾ .

[سورة الشورى : ٣٩ ـ ٤٠] .

فقد جعل الانتصار على البغي والظلم الذي يصيب الإنسان من الآخرين صفةً ممتازةً من صفات المؤمنين مما يجعل الإنطلاق في العفو ، في اطار القيمة الأخلاقية ، حركة وجدانية لدى الإنسان تنبع من تقديره للواقع .

ولعل التركيز على ذلك يتجه إلى ترك القضية للإنسان ليمارسها كما يريد بإعتبار القضية حقاً له يمارسه بالعفو تارة وبالقصاص تارة أخرى ، لأن كلا منهما يمثل القيمة الإنسانية في حساب الكرامة .

وربما كان هذا الاتجاه في تقدير الموقف مرتكزاً على أساس حساب العامل الذاتي الذي يبحث عن الثأر لنفسه من خلال الرد العملي ، وعن الروح المتسامحة التي تنطلق مع العفو ، من خلال واقع الحق الطبيعي في القصاص .

٢ ـ مقياس الشرف في التشريع :

ونلاحظ في التشريع الإسلامي التأكيد على جانب المسؤولية الفردية في العمل الأمر الذي يجعل الإنسان يشعر بالأمان تجاه الله والناس على أساسٍ شرعي فيما اذا كان أحد أقربائه منحرفاً في سلوكه بأيّ شكل من أشكال الإنحراف وذلك قوله تعالى :

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝﴾ .

[سورة الأنعام : ١٦٤] .

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ .

[سورة النحل : ١١١] .

﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

[سورة سبأ : ٢٥] .

ونلاحظ في هذا التشريع أيضاً أن استقامة الآخرين وصلاحهم لا يجدي المنحرفين شيئاً من ناحية عملية أو معنوية وذلك قوله تعالى :

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ .

[سورة النجم : ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١] .

﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ .

[سورة لقمان : ٣٣] .

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ .

[سورة التحريم : ١٠ ـ ١١] .

وقد نجد في هذا الاتجاه التشريعي أساساً لجعل المقياس الواقعي للشرف ، هو السلوك الفردي للإنسان نفسه ، فلا أثر لسلوك الآخرين في التقييم ، من هذه الجهة ، سواء أكان الآخرون عشيرته أو أخوانه أو أهل بلده لأن كل انسان يمثل نفسه ، ولا يمثل غيره ، فهو المسؤول الأول والأخير ، عن عمله أمام الله وأمام الآخرين ، ولذا يختص العقاب به وحده سواء في ذلك حال الدنيا أو حال الآخرة .

قال الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾

[سورة المائدة : ١٠٥] .

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ . [سورة يونس : ٤١] .

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾

[سورة الطور : ٢١] .

وعلى هُدى ذلك كله نقرر أنّ ما يسمى غسلاً للعار وحفظاً للشرف ، في حالة انحراف الفتاة التي تربطها بالقاتل صلة قربى ، هو أمرٌ مناف للمفهوم العام للشرف في الإسلام ، فإن الفتاة لم تسيء بإنحرافها لأحد بل أساءت لنفسها ، لأنها هي التي تتحمل مسؤولية نفسها أمام الله وأمام المجتمع الذي تحكمه شريعة الله لا شريعة الجاهلية . وربما كانت هذه التقاليد منطلقة من الأنظمة العشائرية التي تعتبر العشيرة وحدةً قائمة بذاتها ، يتحمل المجموع فيها مسؤولية ما

يقوم به الفرد ، كما يتحمل الفرد نتائج ما يقرره المجموع[٥] ، أو ما يقومون به ، كما ان التفرقة بين انحراف الفتاة وبين انحراف الشاب يرجع الى المفهوم الجاهلي للشرف الذي يعتبر عرض الأنثى مقياساً للشرف الرفيع ، بينما لا يعتبر عرض الشاب بهذه المنزلة ، ولذا نجده يحاسب الفتاة اذا انحرفت بما لا يحاسب به الشاب في هذه الحال .

وقد انتهى الإسلام من هذا كله ، بما قرره من المسؤولية الفردية التي تجعل الإنسان وحده وجهاً لوجه أمام عمله ، كما تجعل شرفه خاضعاً لما يقوم به من عمل وما يمارسه من سلوك وما يتمثل في حياته من مبادىء وقيم .

٣ ـ علاقة المؤمن بغيره :

كيف تكون علاقة المؤمن بغيره كافراً كان أو ضالاً . . . قريباً كان في نسبه أو بعيداً .

هل يفرض الإسلام على المؤمن أن يقاطع غير المؤمن أو يهجره أو يتنكر له في علاقاته ومعاملاته وكل جوانب حياته .

إننا نواجه واقعية التشريع في نطاق الجواب التشريعي على هذا السؤال ، فإذا انطلق التشريع في اتجاه المقاطعة الكلية كان التشريع ـ في ذلك ـ بعيداً عن الواقع لأنه يكلف المؤمن ما لا يستطيع الانسجام معه إلّا بجهد جهيد . أمّا إذا وقف بين طبيعة الإيمان وما يفرضه من مواقف ، فرسم له مواقفه ، وبين طبيعة الحياة وما تفرضه من علاقات ، فأباح لها علاقاتها ، ونظمها على أساس متين . . فإنه ينسجم مع الواقع ويغري الإنسان المؤمن بالسير معه بعيداً في هذا المجال .

وقد انطلقت الشريعة لترسم للتشريع خطوطه العملية في هذا الاتجاه الذي يجمع بين واقع الإيمان وواقع الحياة فقد حددت علاقة المؤمن بالكافر على أساس أعتبار العقيدة أساساً للرابطة الوثيقة التي يسميها القرآن الكريم بـ (الموادة) و (الموالاة) لأنها العلاقة الوثيقة التي يخضع لها صدق الإيمان في الضمير ، أمّا العلاقة العامة التي تخضع للواقع المعاش على أساس مالي أو اجتماعي أو أخلاقي ، فقد تركها الإسلام للإنسان دون أن يحدد له أيّ تكليف إلزامي إلا المحافظة على نفسه من الغدر والخيانة والإنحراف .

وبهذا يشعر الإنسان المسلم بالحرية في حياته العامة والخاصة ، عندما يريد التعامل والتعايش مع الآخرين دون أن تحدد ذلك قضايا العقيدة وغيرها ، لأن واقع الحياة الملي يمنع ذلك التحديد . . . وقد أكد الإسلام ذلك في علاقة الإنسان المسلم بالرحم الكافر ، فاعتبر له حقاً واحداً على المسلم ، وهو حق الرحم ، كما أكّد على معاشرة الوالدين ومصاحبتهما بالمعروف ، بالرغم من كفرهما ودعوتهما ولدهما الى الكفر . . وتلك هي أسمى درجات الأخلاق والواقعية في حركة التشريع الإسلامي .

قال الله تعالى :

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا . [سورة لقمان : ١٥] .

٤ ـ في طريقة العبادة في التشريع :

أرادنا الله أن نعبده ، وجعل عبادتنا له فرضاً واجباً نؤديه في كل

يـوم ، واعتبر العبـادة مقياسـاً لقرب الإنسـان إليـه وبعـده عنـه في حـالـة ممارسته لها أو تركه لها .

ولكن كيف نعبده ؟ هل يـريدنـا الله أن نجهد أنفسنـا حتى السقوط من شـدة العياء ، هـل يمثل الأرهـاق في العبادة قيمـةً دينيـةً ، يـدعـونـا الإسـلام إليها ، وهـل في حسـاب الإسـلام تصنيف للذين يتـركـون كـل شيء في الحيـاة للعبـادة البـدنيـة ، من صـلاة وصيـام ونحـوهمـا ، ليرفعهم ، من خلال ذلك ، إلى الدرجات العليا ، كمـا يريـدنا الأسلوب الوعظي الـذي درج الواعـظون من مؤلفين وخطبـاء أن يملأوا أفكـارنا بـه من خلال قصص أولئك العباد الذين نـذروا أنفسهم للعبادة في الصـوامع والكهـوف وقمم الجبال ليـدللّوا على أن هؤلاء يمثلون القيمة كـل القيمة والعظمة كل العظمة .

لقـد كان الإسـلام واقعياً في ذلـك كله فقد خلق الله الإنسـان وهو يعـرف ما أودعـه فيه من قـوى وقدرات ومجـالات يتحفز كـل منها ليؤدي دوره في الحياة ، دون اختناق ، فكل طاقة في داخلنا تشعـر بحاجـة إلى أن تـرتاح وتتنفس ، وكـل قدرة من قـدراتنا تحس بضـرورة التخفيف من ضغط العمل والمسؤولية . . .

وكل مجال من مجالاتنا العمليـة يحتاج إلى أن يتفتـح وينفتح على اكثـر من أفق ، لأن الأفق الواحـد في حركـة الحياة يحـول الحـركـة الى روتين ميت . ولهـذا أراد لنا الإسـلام أن نتخفف من عنـاء العمـل وعنـاء العبـادة فلا نثقـل أنفسنا بهمـا إلا بمقدار ، فلم يـرد لنا أن نـرهق أنفسنـا بالعبادة لأننـا بذلـك نلتقي بردود الفعـل الذاتيـة التي تنشأ من الـداخل ، كنتيجـة طبيعيـة للشعـور بـالضغط والأختنـاق الـداخلي ، عنـدمـا تفقـد المتنفس الـذي تتنفس فيه بحـرية ، خـارج حدود الـواجب ، كمـا يلتقي

بـردود الفعل الخـارجية التي تنشـأ من شعور الآخـرين بصعوبـة الانتمـاء لهذا الدين الذي يأخـذ على الإنسان كـل مجالات حيـاته دون ان يفسـح المجـال للحركـة الحرة خـارج نطاق العمـل الديني . ففي حـديث نهـج البلاغة عن الإمام علي (ع) :

« إن للقلوب إقبالاً وإدباراً فإذا أقبلت فاحملوهـا على النوافـل وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفـرائض » . وفي حديث آخـر : « إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً فأتوها من قبـل شهوتهـا وإقبالهـا فإن القلب إذا اكـره عمي » . وقــال : « . . . وخادع نفسك في العبادة وخذ عفوها ونشاطها » .

وفي حـديث الإمام جعفـر الصادق (ع) قـال : « مر بي أبي وأنـا بـالطواف ، وأنـا حدث ، وقـد اجتهدت في العبـادة فرآني وأنـا اتصـابُّ عـرقـاً فقـال لي يـا جعفـر يـا بني ، إن الله إذا أحب عبـداً ادخله الجنـة ورضي عنه باليسير » .

وفي حـديث آخـر لـلإمـام الصــادق عن رسـول الله (ص) وهــو يوصي علياً (ع) قال :

« يـا علي ان هـذا الـدين متين فـأوغـل فيـه بــرفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربـك فإن المُنبـتّ (المفـرط) لا ظهراً أبقى ولا أرضـاً قطع فاعمل عمل من يرجو أن يموت هرماً واحـذر حذر من يتخـوف أن يموت غدا » .

وفي رواية أخرى : ولا تبغض الى الناس عبادة ربك .

امـا الانقـطاع للعبـادة والتخلي عن الحيـاة كـل الحيـاة ، فهي من

الـرهبانيـة التي اعتبرهـا الإسلام ـ في القـرآن الكريم ـ بـدعـة لا يقـرّهـا للخط العملي للإنسان لأن ذلك ضد طبيعة الحياة .

ان القضيـــة في العبـادة في الإســلام ليست في الكم بـل هي في الكيف ولذا ورد في مضمون الحديث عن العبادة .

ليس لـك من صلاتـك إلا مـا أقبلت فيـه على ربـك ، وليست في طبيعـة ما تـأتيه من عبـادات ، بل بمقـدار ما تُحقّق من اهـداف تـربـوية وروحية من خلال العبادة .

وقـد ورد في الحديث النبـوي الشريف ـ من لم تنهـه صـلاتـه عن الفحشاء والمنكر لم يـزدد من الله إلّا بعداً ـ وقـد جاء في نهـج البلاغـة ـ رب صـائم ليس له من صيـامه إلا الجـوع والعـطش وربّ قـائم ليس لـه من قيامه إلا التعب والسهر ، حبذا نوم الأكياس وفطرهم .

إنـه الأسلوب التشريعي الـذي لا يريـد أن يحوّل الانسـان الى آلـة متحركة بدون وعي ، تُمارس الركوع والسجود بدون حسـاب ، بل يـريد ان يتحـول الإنسان الى كيـان نـابض حي متحـرك يعيش اللقـاء الـروحي بحياته من خلال اللقاء الروحي بربـه ويشعر بـأن موقفـه في العبادة يمثـل جانباً حيـاً من جوانب المسؤوليـة التي تتحرك في داخـل الذات لتحـولها الى طاقة كبيـرة زاخرة بـالمعاني الكبيـرة في الصحياة ، وتتفجـر في حياة المجتمع ينبوعاً من ينابيـع الخير والعـطاء والمحبة ، دون حسـاب . إنها عبادة المعنى وليست عبادة اللفظ وعبـادة المضمون وليست عبـادة الشكل وتلك هي سر عبوديـة الإنسان لـربه التي تمثـل فيها الكـرامة والأخـلاص والشعور العميق بالمعنى الكبير لعلاقة المخلوق بالخـالق وعلاقـة الخالق بمخلوقه . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

الحيل الشرعية :

وهناك باب يذكره الفقهاء في كثير من أبواب الفقه يطلقون عليه أسم « الحيل الشرعية » ويريدون بها الوسائل التي يحاول فيها المكلف التخلص من الوقوع في الحرام ، وذلك بالحصول على بعض نتائجه مع اختلاف الوسيلة والعنوان . . . ويبررون ذلك بأن الأحكام الشرعية من حرمة أو وجوب أو غيرها تابعة لوجود موضوعها فإذا وجد الموضوع وجد الحكم وإذا انتفى انتفى ، ولا يرون في وحدة النتيجة ما يمنع من اختلاف الحكم لأن طبيعة الحكم قد تتبع الغاية المرتبطة بوسيلة معينة ، لا الغاية بأي وسيلة كانت . وهكذا يجوز للإنسان أن يتوصل إلى أخذ الزيادة على المبلغ الذي اقترضه ، بطريقة البيع الخياري أو البيع بشرط الخيار ، وهو عبارة عن أن يبيع الإنسان شيئاً عقاراً كان أو غيره بثمن معين ويجعل لنفسه حق الخيار ، والرجوع بالبيع في حالة إرجاعه الثمن الى البائع في مدة معينة ، ويصبح العقار في هذه الحالة ملكاً لصاحب المال ، ولا يعود صاحب العقار مديناً لصاحب المال بشيء ، فكل منهما قد ملك ما انتقل إليه في مقابل ما انتقل عنه من مال ، وله أن يتصرف فيه كما يريد ، كأيّ مالك آخر ، وليس هناك تحفظ في هذا المجال إلا التحفظ الذي يوجبه حق الخيار لصاحبه فحسب . . . وعلى ضوء هذا يمكن لبائع العقار أن يستأجر العقار من صاحب المال الذي انتقل إليه بالشراء ويستحق ـ بناءً على ذلك ـ الأجرة التي قد تلتقي بالنتيجة مع الفائدة ، ولكنها تختلف عنها بالطريقة الشرعية .

وقد يرى بعض الناس في هذا المجال حيلة صورية تأخذ أسم الشرع لا حكمه ، ولكننا نجد فيما يعتبر في هذه المعاملة من شروط :

ان القصد والجدية والالتزام الشامل بالالتزامات التي يفرضها هذا التعاقد وغير ذلك من الأمور هي من العناصر الأساسية لشرعية هذه المعاملة في الحساب القانوني للنتائج الشرعية .. ولعل من أوضح الأمور في هذا المجال أن صاحب العقار لو جاء في مدة متأخرة عن موعد الخيار ، ولو بمقدار دقائق ، لما كان له أي حق على صاحبه ، في ارجاع العقار ، مهما كانت الظروف التي اقتضت التأخير والتأجيل . الأمر الذي يجعل من المعاملة قضية تتعدى الجوانب الشكلية الى الجوانب العملية الحقيقية .

وإذا كان بعض الناس يمارس هذه الحيل ممارسةً لا تتعدى النطق بالالفاظ التي تدل عليها دون القصد الى مضمونها ، فليس معنى ذلك ان التشريع يستجيب لأمثال ذلك ، أو يبرر للقائمين به ذلك ، وليس للشريعة ذنب ، بأنّ اتباعها يسيئون استخدام رُخَصِها كما يسيئون الحفاظ على واجباتها او الالتزام بترك محرماتها ، وان خيل إليهم أنهم يلتزمون بها كلاً أو بعضاً ، فيما يوحون به لأنفسهم أو يوحى اليهم به الآخرون .. ولعلّ هذا الوضع في سوء استخدام هذه الطرق هوالذي اعطى الانطباع السيء عنها لآخرين ..

وربما نجد في بعض الاحاديث الواردة عن أهل البيت (ع) الايحاء بأن هذه الحيل الشرعية تعيش في اطار الحاجة الى الخلاص من واقع معين يضغط على الانسان ولا يستطيع الانسجام فيه مع الخط فيلجأ إلى ما يبرر له هذا الخلاص بالطريقة التي لا تهدم بناء واقعه ولا تسيء الى سلامة التزامه بالخط العام للشريعة تماماً ، كما نلاحظ في الحالات الصعبة التي يعيش فيها الفرد المسلم في المجتمع الرأسمالي الذي يرتكز على الربا دون أن يجد لنفسه أي طريق لترتيب أوضاعه

وعلاقاته من غير هذا الطريق ، فيقف إزاء هذا الواقع الضاغط بين الخروج من دينه ، وبين الخروج من واقعه بالاساءة الى كيانه ، وفي كل ذلك بلاء عظيم .

أما في المجتمع الذي يرتكز على أساس الإسلام ويعتبر التعاون بين المسلمين وبذل المعروف لبعضهم البعض ، أساساً للقاعدة التي يرتكز عليها المجتمع الإسلامي . . أما في هذا المجتمع فلا يحتاج المسلم الى سلوك هذا الطريق لتركيز حياته ، لأن الدائن ينطلق من فكرة المعروف في علاقاته بإخوانه ، والمدين لا يشعر في ضوء هذا بضرورةٍ لممارسة ذلك ، إلا في الحالات الخاصة التي يحتاج فيها المجتمع إلى سلوك ذلك لمواجهة بعض الحالات الاقتصادية الصعبة التي تفرض ذلك .

وقد نجد هذا الايحاء الذي ألمحنا إليه في ما روي من حديث الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر (ع) ـ فيما رواه ولده جعفر الصادق (ع) عنه ـ كان محمد بن المنكدر يقول لأبي يا أبا جعفر رحمك الله ، والله انا لنعلم انك لو أخذت ديناراً والصرف بثمانية عشر فدرت المدينة على أن تجد من يعطيك عشرين ما وجدته وما هذا إلا فرار فكان أبي يقول صدقت والله ؟ ولكنه فرار من باطل الى حق . .

فقد نلاحظ ان حالة الفرار هي من الحالات التي يشعر فيها الانسان بالحاجة إلى ممارسة ذلك لا على أساس طبيعي عادي . ومهما كان الأمر ، فإن اتجاه الفقهاء إلى الفتوى بجواز الحيل الشرعية كمبدأ ، مهما اختلفوا في مواردها وطبيعتها ، يدل دلالة واضحة على مدى المرونة الواقعية التي يتصف بها التشريع الإسلامي في نطاق الخطوط العامة التي رسمت له من قبل صاحب الشريعة ، لأن الفقهاء

فيما يفتون بـه أو يرتـأونه ، لا يخضعـون لتأثيـرات ذاتية أو استحسـانية ، بـل يخضعـون لمـا يجـدونـه أمـامهم من الأدلـة الصحيحـة ، لـلأحكـام الشرعية ، بالشكل الذي يجدون فيه العذر في فتـاواهم أمام الله سبحـانه وتعالى .

ونحن نعـرض مثل هـذه الآراء مـع تحفـظنـا في بعض التفـاصيـل المتعلقـة بالمـوضوع ، للتـدليل على الشـواهد الحية للنـزعـة الـواقعيـة للتشـريـع في آراء الفقـه الإسـلامي من دون أن نلزم أنفسنـا بـه بشكــل حاسم .

الزواج المؤقت أو « زواج المتعة » :

وقد نجد في تشـريع الـزواج المؤقت الذي يجمـع المسلمون على أصـل تشـريعـه وإبـاحتـه في الإسـلام من قِبَـل النبي محمـد (ص) في صـدر الشريعـة ، وإن اختلفوا بين من يـذهب إلى نسخه وتحـريمه بعـد ذلــك من قبـل النبي (ص) ، وهم جمهــور المسلمين ، غيـر الشيعــة الإمامية ، وبين من يـذهب إلى بقاء إبـاحته ومشـروعيته ، لأنـه لم يثبت لـديهم نسخه ، من صـاحب الشريعـة ، بل يـروون أن النسخ والتحـريم كـان متـأخـراً عن وفـاة النبي محمـد (ص) وذلـك بـأمـرٍ من عمــر بن الخطاب الذي خـطب المسلمين وقال ـ فيمـا يروونـه من كلامـه ـ متعتان كـانتـا على عهـد رسـول الله (ص) حللهمـا وأنـا أحـرمهمـا واعــاقب عليهما ـ . . . ويعقبون على ذلـك : أن هذا التحـريم ربما كـان اجتهـاداً شخصيـاً ، يخضـع لـظروف معينـة ، تضـع القضيـة في حـدود الـزمـان والمكـان ، تمامـاً ، ككثير من القضـايا الادارية ، التي تعيش في ظرف معين لضـرورة معينة كمـا ينقلونه عنـه في إلغاء سهم المؤلفـة قلوبهم من الـزكـاة ، لا على أسـاس إلغـاء التشـريـع ، بـل على أسـاس تجميـد

المصرف لعدم الحاجة إليه في ذلك الوقت نظراً لقوة الإسلام وانتشار سطوته في العالم . . . وربما يكون لأشياء أخرى ، أو قناعات خاصة تجعله يعتقد أنّ التحريم والتحليل ، في بعض الموارد ، يمكن أن يمتد بعد النبي (ص) ليكون إحدى صلاحيات من يرى نفسه أو يراه الناس وليّ أمر الأمة .

وأيّاً كان الأمر ، فإذا ثبت لدينا الأساس الاجتهادي لشرعية هذا الزواج من ناحية النصوص الشرعية الواردة في هذا المجال ، فقد نجد أن هذا الحكم يخضع للنزعة الواقعية التي يتصف بها التشريع الإسلامي ليخلص الناس من حالات الحرج والضيق الذي يفرضه عليهم الالتزام بالزواج الدائم ، كطريقة وحيدة لممارسة الغريزة الجنسية لدى الإنسان .

فقد عرفنا من خلال الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة أن الإسلام قد اعتبر الغريزة الجنسية حاجة طبيعية ملحّة في حياة الإنسان بالمستوى الذي يرى فيه الإنسان ، الذي لا يستجيب لها ، ناقص الدين بمستوى النصف أو الثلثين نظراً لتأثيرها الكبير على السلوك العملي للإنسان الأمر الذي يهيء لأجواء الانحراف أن تنمو وتتعاظم وتتسع في حياته في خلال الكبت والحرمان .

وعلى هدى ذلك ، فإنه لا يعتبر ممارستها وتلبية نداءها لدى الرجل والمرأة ، بالطرق المشروعة ، امتهاناً لكرامة المرأة أو الرجل . . ما دامت السنة الطبيعية التي اودعها الله في الإنسان اقتضت أن لا يحصل هذا الاكتفاء لأي منهما إلا بالعلاقة المشتركة .

ولذا فإن المفروض في التشريع الواقعي ، ان لا يترك اي فراغ تشريعي في واقع الحياة ، أمام المشكلة التي تبحث عن حل .

وفي هذا الاطار ، يرى الباحثون الاجتماعيون ، ان الزواج الدائم لا يحل المشكلة وحده ، بالنظر لخضوعه لأحكام والتزامات لا يستطيعها الإنسان في بعض مراحل حياته لأن للضغوط المادية او الأجتماعية او الثقافية التي تحيط به فماذا يفعل .

هل يطلب منه العفة الدائمة ، والصبر الطويل على الحرمان ، وهذا يخالف طبيعة الواقع ، او يسمح له بالإنحراف ، وهذا يخالف طبيعة التشريع ، أو يؤمر بالزواج الدائم وهذا يخالف طبيعة القدرة العملية .

فلم يبق إلا أن نتجه إلى تشريع عملي ، يضع المشكلة في إطار الحل الذي ينظر إلى الواقع ، ليسمح للإنسان بالاستجابة إلى نداء الغريزة ، من دون فرق بين حاجة المرأة إلى ذلك ، أو حاجة الرجل ـ في الاطار النظيف للعلاقة ، على أساس الزوجية التي يتفقان على بدايتها ونهايتها ، بدلاً من الزوجية التي يملك الرجل وحده امر نهايتها بعيداً عن ارادة الزوجة واختيارها إلا في بعض الحالات الطارئة . . ثم يسير التشريع في تحديد مسؤولية هذه العلاقات لدى الطرفين وتحديد العدة ، واعطاء الولد ـ الذي يكون نتيجة لهذا الزواج ـ كل صفات الشرعية وكل حقوق الولد الشرعي الذي يكون نتيجة الزواج الدائم . .

ولعل ما يؤكد لنا واقعية هذا الحل هو في حاجة البشرية في ظل الزواج الدائم إلى الإنحراف عنه بممارسة الزنا في الحالات غير الطبيعية للإنسان . . وإلا . . فأي حاجة إليه إذا كان الزواج الدائم يستطيع حل المشكلة التي تعتبر حالة مَرَضية للإنسان على كل حال ، ليقال إن الإنسان ليس ملزماً بالاستجابة لواقع الحالات المرضية التي تعيش في نطاق الأفراد بعيداً عن الوضع الانساني العام .

وربما كان الحديث الشريف الوارد عن الإمام علي (ع) يشير إلى هذه الحقيقة الواقعية في حياة الناس، فقد روي عنه أنه قال: «لولا ما نهى عنه عمر من أمر المتعة ما زنا إلا شفا (اي قليل من الناس)» وفي رواية أخرى.. ما زنا إلا شقي، أي انسان مريض معقّد لا ينطلق زناه من حاجته إلى ذلك، بل من تمرده على الله، وانحرافه عن الخط.

وعلى أي حال، فإننا نعود لنؤكد حقيقتين المحنا إليهما في بداية هذا الحديث عن زواج المتعة.

الأولى: ان هذا التحليل الذي حاولنا أن نضع التشريع في إطاره، لا يعتبر اساساً تشريعياً للحكم بل يعتبر موضحاً لطبيعته الواقعية، بعد ثبوت تشريعه بالوسائل الاجتهادية المعروفة.

الثانية: ان تشريع زواج المتعة، لا يعتبر امتهاناً لكرامة المرأة باعتبارها وسيلة لمتعة الرجل، كما حاول أحد الكتاب أن يشير إليه، لأن هذا الزواج ليس في مصلحة الرجل فحسب، بل هو في مصلحة المرأة أيضاً، وإن اكدت الاحاديث على الدور الكبير للرجل في هذا الزواج، كما أكدت على ذلك في الزواج الدائم، باعتبار أن الرجل يمثل، في حركة الاوضاع الأجتماعية التاريخية، العنصر الإيجابي الذي يتسلم زمام المبادرة في عرض الزواج والمطالبة به، لأن حياء المرأة الذاتي والتقليدي والاجتماعي يمنعها من التصريح بالحاجة إلى ذلك.

ولو اردنا ان نسير في اتجاه اعتبار حصول المتعة للرجل، عن طريق علاقته بالمرأة شيئاً يسيء إلى كرامة المرأة، لوجب ان نلغي أصل العلاقة.. ولكن القضية لا تسير في هذا الاتجاه لخضوع القضية

للسنة الطبيعية التي اودعها الله في الحياة .

يبقى هناك شيء واحد لا بد لنا من التركيز عليه في هذا الجانب ، وهو أننا لا نرى ، من وجهة نظر إسلامية ، أن دور المرأة ، الزوجة في الحياة يقتصر على أن تكون اداة لتلبية رغبات الرجل . . بل أن لها مسؤوليات والتزامات في الحياة العملية للأسرة وللأمة بشكل عام ، تماماً كالرجل ، مع التحفظ في بعض ذلك مما تقتضيه طبيعة الاختلاف النوعي البيولوجي ، بين الجنسين وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة . . .** ﴾ .

ان الاستمتاع بتلبية نداء الغريزة الجنسية ، هو بعض مظاهر العلاقة الزوجية التي تستفيد منها المرأة ، كما يستفيد منها الرجل ، وليست كل هذه الحياة واقعاً وشريعة وغاية .

في نهاية المطاف :

وفي ختام هذا الفصل من الفكرة العامة للحديث ، نجد أن النماذج العامة والخاصة التي عرضناها تستطيع أن تقف بنا على الأساس الواقعي للتشريع الإسلامي بشكل عام . . ولعل في هذا الذي عرضناها كفاية لمن أراد أن يعرف الفكرة بشكل واضح .

ومن خلال ذلك كله نعرف أن الشريعة وجدت لخدمة الإنسان ، ولذا تقف حيث يقع الإنسان في الضرر من خلال التشريع ، لتعطيه الرخصة ، وتنطلق حيث تكون الرخصة ضرراً لحياته وواقعه .

الفصل الثالث

هل الغاية تبرر الوسيلة ؟

- أولاً ؟ ...
- موقع الوسيلة من الغاية :
- قاعدة التزاحم .
- التزاحم في مقام التشريع .
- الكذب من أجل الاصلاح .
- الكذب في حالات الخوف .
- حكمتان للامام علي (ع) .
- الكذب على أهل البدع .
- الغيبة ومسوغاتها .
- الوفاء لأهل الغدر والغدر لاهل الوفاء .

موقع الوسيلة من الغاية

كنا طرحنا في بداية الحديث ، فكرة علاقة الوسيلة بالغاية ، من حيث تجسيدها للمظهر الحي ، للنزعة الواقعية او غير الواقعية ، في الاسلام ، حسب اختلاف النتيجة النهائية للفكرة سلبا او ايجابا .

فربما يلتقي العاملون ، في طريق العمل ، ببعض الحالات التي لا يملك الانسان فيها سبيلا الى ممارسة واجبه ، والوصول الى غايته ، الا بتجاوز المحرمات الشرعية والتمرد عليها .

ويمثل له علماء الاصول . في النطاق الفردي ، بانقاذ الغريق ، اذا كان الطريق لانقاذه يمر في ارض مغصوبة لا يرضى صاحبها بالمرور فيها ، وذلك في الحالات التي ينحصر فيها المرور الى النهر ، أو البحر باملاك الآخرين الذين يرفضون السماح للناس بالمرور عليها فماذا نفعل ؟

هل نقف عند حدود الحرام ونتجمد فيه ، فنترك الغريق يواجه المصير المحتوم ، لان الحكم الشرعي لا يسمح لنا بالتصرف باملاك الناس من دون إذن او رضا منهم ؟

او أننا نتجاوز الحرام وتنخطاه ، تقديما للواجب الاهم وهو انقاذ حياة الانسان المحترمة .

ويمثل له الفقهاء ، في النطاق الجماعي ، بالاسرى المسلمين الذين وقعوا في قبضة العدو الكافر ، اذا وضعهم العدو في خط النار ، من أجل تعطيل حركة المسلمين الذين يقاتلون في الهجوم والدفاع ، حفظا لارواح هؤلاء .

فماذا يفعل الجيش المسلم ؟

هل يجوز له ان يقتل هؤلاء الاسرى في معركته مع العدو ، اذا دعت مصلحة المعركة الى ذلك ، كما اذا توقفت ممارستنا لحرية الحركة في القتال ، على اتباع هذه الوسيلة .

او لا يجوز له ذلك ، بل يترك الجيش نفسه تحت رحمة واقع الهزيمة لمجرد الالتزام بحرمة قتل الاسرى المسلمين .

ولا تقتصر القضية على هذين المثالين . بل تتجاوزهما الى كل حالة من الحالات التي يقف فيها الانسان في نطاق الواقع الفردي او الاجتماعي ، ليجد نفسه بين اختيارين لا ثالث لهما ، فاما ان يحقق واجبه ، واما ان يرتكب ما حرمه الله عليه . وفي نطاق الدولة عندما تقتضي المصلحة الاسلامية العليا القطعية ، تصرفا لا نملك معه إلا تجاوز حدود الحرام في الاموال وفي الاوضاع العامة والخاصة . سواء في ذلك حالات السلم او حالات الحرب ، في واقع السياسة او في واقع الحياة الاجتماعية ، لا سيما في الحالات التي يحاول فيها العدو أن يلجأ إلى اساليب اللف والدوران ، وكان العمل الواقعي لقضيتنا ان نحاربه بأساليبه ، لانه لا يفهم الا بتلك الاساليب ، او لان الانتصار

عليه يفرض اللجوء الى ذلك في واقع الحياة السياسية والاجتماعية .

فما الذي يريده الاسلام من المسلم في هذه الحالات .

هل يتركه تحت رحمة الواقع السيء ، حيث يبقى متجمدا امام حالات التحريم التي تمنعه من الحركة ، حتى لو كان العدو يحاول ان يقضي عليه وعلى الاسلام ، او كانت المصالح الكبيرة تتعرض للخطر . او يترك له الحرية ولكن بحذر ومراقبة دقيقة لله ولحدوده فيما يتجاوزه ، وفيما يقف عنه .

ان الجواب على هذه التساؤلات هو الذي يحدد لنا واقعية الشريعة العملية ، او بعدها عن الواقع العملي للاشياء . ونعتقد ان الاسلام لا يجمد اتباعه في حدود التحريم ، الا بحساب ، ولذلك فهو يترك لهم حرية الحركة في إطار القيم الكبيرة للدين الاسلامي . . . ثم ممارسة الحرية في الوقوف عند الحكم او تجاوزه في ضمن هذه الحدود ، لئلا تتحول الرخص الى انفلات غير مسئول ، يسيء الى القضية بنفس القوة التي يسيء بها التجميد غير المسئول .

وعلى ضوء ذلك ، يرى العلماء في مثال انقاذ الغريق ، والاسرى المسلمين ، ان على الانسان ان ينقذ الغريق ويتجاوز حرمة التصرف في الارض المغصوبة ، وان على الجيش المسلم أن يهاجم العدو ليحقق النصر للاسلام ، ولو كان ذلك على حساب حياة الاسرى المسلمين ، على ان تدفع ديتهم من بيت المال .

قاعدة التزاحم في الامتثال هي الاساس الاجتهادي للمسألة :

اما الاساس الاجتهادي الذي يركزون عليه الفكرة ، فهو ما يسمى بقاعدة التزاحم ، بين الاحكام ، في مقام العمل ، وذلك « بان

يكون امام المكلف تكليفان يكون امتثال احدهما متوقفا على مخالفة الآخر لعجزه عن امتثال كليهما ، كما اذا توقف انقاذ الغريق على التصرف في الارض المغصوبة ، او كان هناك غريقان لا يقدر المكلف إلا على انقاذ احدهما . ولما كانت القدرة على امتثال الحكم شرطا عقليا في موضوع الحكم ، إما من جهة حكم العقل بقبح تكليف العاجز وإما من جهة اقتضاء طبيعة التكليف ذلك ، وكان المكلف غير قادر على امتثال التكليفين معا ، كان من الطبيعي ، في هذه الحال ، ان يكون اختياره لاحدهما مقتضيا لعجزه عن امتثال الآخر » . .

والقضية المطروحة هنا ، هي الاساس الذي يختار المكلف فيه احد الامرين ، ويتمثل معه أحد التكليفين .

وقد ذكر الاصوليون عدة مرجحات للاختيار ، وقالوا ، ان انتفاء المرجحات يجعل القضية خاضعة لاختيار المكلف ، وذكروا من بين هذه المرجحات ان يكون احد المتزاحمين اهم من الآخر فيجب تقديم الاهم على المهم بحكم العقل ، وقالوا ، ان هذا المرجح من القضايا التي قياساتها معها ، فان تقديم الاقل اهمية يوجب تفويت المقدار الزائد من المصلحة بخلاف تقديم الاهم [1] .

. . . وخلاصة هذه القاعدة في اطار الترجيح بالاهمية ، ان المصالح والمفاسد الثابتة في الاشياء لما كانت اساسا للحكم ، كان الحكم تابعا لها وجودا وعدما ، سعة وضيقا ، فاذا التقينا بحالة كانت مشتملة على مفسدةٍ في عمل ، تقتضي حرمته ، وكانت لدينا مصلحة اخرى في عمل آخر ، تقتضي وجوبه ، وكانت الصدفة ، اننا لم

---

(١)مصباح الاصول ٣٥٨ ـ ٣٦٠ .

نستطع امتثال كلا الحكمين ، لان القدرة لا تتوفر الا لاحدهما ، فاذا اردنا امتثال احدهما فلا بد من عصيان الحكم الآخر ، فماذا نفعل ؟

ان العقل يحكم ، في هذه الحال ، بتغليب الملاك الاكثر اهمية على الذي هو دونه في حساب الاهمية لان ذلك يوجب استيفاء المصلحة الكاملة ، الامر الذي يجعلنا نجمد الحكم في احدهما ، لمصلحة الحكم الذي هو في مركز الاهمية تبعا لاهمية ملاكه .

ولتطبيق هذه القاعدة على الواقع .. نطرح المثالين المتقدمين امامنا .. فنحن نعرف ان التصرف في مال الانسان الذي لا يرضى بتصرف الآخرين في ماله ، محرم شرعا ، لوجود مفسدة الغصب ، ولكننا لا بد لنا من تجميد هذا التحريم اذا توقف انقاذ المؤمن من الموت على هذا التصرف ، لان مصلحة حفظ نفس المؤمن اكثر اهمية لدى الشارع من اي شيء آخر ، كما نعرفه في اكثر من مجال .

ونحن نعرف ان قتل المؤمن غير جائز ، فانه من اعظم المحرمّات ، ولكنه اذا اصطدم بتعطيل النصر في المعركة الدائرة بين الاسلام والكفر ، او بانهزام المسلمين في المعركة كنتيجة للالتزام بالتحريم ، اصبح تجاوزه لازما او جائزا حسب طبيعة الاحوال .

وفي ضوء ذلك نقرر ، ان علاقة الوسيلة بالغاية ، ذات بُعدٍ واقعي ينطلق من طبيعة الوسيلة والغاية ، فربما تكون الحالة تجميد الحكم في الوسيلة ، لمصلحة الغاية ، وربما يكون الامر على العكس من ذلك ، اذا كانت المصلحة في الوسيلة اكثر اهمية من المصلحة في الغاية ، كما اذا توقف انقاذ شخص عادي من الموت على قتل عدة اشخاص مثلا ، فاننا في هذه الحال ، نترك عملية الانقاذ ، لمصلحة حفظ نفوس الآخرين .

قال استاذنا المحقق السيد الخوئي : في حديثه عن وجوب قبول الولاية من الحاكم الجائر ـ التي ورد الحكم بحرمتها ـ اذا توقف الامر بالمعروف والنهي عن المنكر عليها ـ فيما نقله عنه صاحب مصباح الفقاهة ـ في تقرير درسه .

ان المقام من قبيل توقف الواجب على مقدمة محرمة ، وعليه فيقع التزاحم بين الحرمة المتعلقة بالمقدمة ، وبين الوجوب المتعلق بذي المقدمة ، نظير الدخول الى الارض المغصوبة لانقاذ الغريق ، او اطفاء الحريق ، ويرجع الى قواعد باب التزاحم المقررة في محله . وعلى هذا فقد تكون ناحية الوجوب أهم فيؤخذ بها ، وقد تكون ناحية الحرمة أهم فيؤخذ بها ، وقد تكون احدى الناحيتين بخصوصها محتمل الأهمية فيتعين الأخذ بها كذلك ، وقد يتساويان في الملاك ، فيتخير المكلف في اختيار اي شيء منها ، هذا ما تقتضيه القاعدة ، إلا ان كشف أهمية الملاك والعلم بوصوله الى حد الالزام في غاية الصعوبة

التزاحم في مقام التشريع :

وربما تتجسد قاعدة التزاحم . في اطار التنازع بين المصالح المتعددة ، او المصلحة والمفسدة في الشيء الواحد ، فتكون الغلبة للمصلحة الاقوى ، او المفسدة الاقوى ، حسب اختلاف طبيعة الاشياء ، وهذا ما يسمى التزاحم بين الملاكات [٢] .

---

(١) مصباح الفقاهة ج ١ ص ٤٤٢ .

(٢) وهذه القاعدة تلتقي بالتزاحم في مقام الامتثال بالنتيجة ، الا ان الفرق بينهما هو ان الاولى تجري في نطاق حالة المكلف واختياره وتقديره للاشياء في مقام الامتثال ، بينما تخضع الثانية لتقدير الشارع ، واختياره في مقام التشريع . ولذلك فربما يجد المكلف بعض الصعوبة في التقدير السليم لأهمية مناطات الاحكام ، لأن ادراكها ليس بهذه البساطة والسهولة .

وقد نجد في الفقه الاسلامي ، الكثير من الشواهد على هذه الفكرة . . فنلتقي بالكذب الذي هو من المحرمات الشرعية العظيمة فقد ورد التأكيد على حرمته ، بشكل حاسم ، في اكثر من حديث . . ففي الحديث عن الامام ابي جعفر محمد بن علي الباقر (ع) « ان الله جعل للشر اقفالا ، وجعل مفاتيح تلك الاقفال الشراب ، والكذب شر من الشراب » .

ولكن المصالح الكثيرة التي قد يحتاجها المجتمع في الحالات الضرورية ، والاوضاع الصعبة ، تفرض حلية الكذب او وجوبه في بعض الاحوال ، وذلك في حالة انحصار المصالح العامة في سلوك هذا السبيل ، فان جانب الاهمية في نطاق المصلحة ، يغلب على الجانب الاقل اهمية ، وفي نطاق مفسدة الكذب ، مما يفقد المفسدة قدرتها على التأثير في التشريع للحكم بالحرمة . ليترك المجال للمصلحة الراجحة ، للتشريع على مقتضاها من الحلية او الوجوب ، ويذكرون لذلك عدة موارد .

الكذب من اجل الاصلاح :

منها ، الكذب من اجل الاصلاح ، وذلك في حالة وقوع خلاف بين اثنين من المؤمنين ، او جماعتين منهم وأمكن إصلاحهما ، لكن توقف ذلك على ان تنقل لاحدهما حديثا لم يقله الآخر عنه ، بقصد تقريب وجهات النظر او تليين القلوب ، فان ذلك جائز ومستحب ، وربما يصل الامر الى مستوى الوجوب فيما اذا كان الخلاف ينتهي بالنتيجة الى قتل النفوس واختلال النظام ، وقد تواترت الاحاديث الشريفة المصرحة بان المصلح ليس بكذاب ، كما في حديث الامام جعفر الصادق (ع) .

وفي حديث آخر عنه : قال : الكلام ثلاثة : صدق وكذب واصلاح بين الناس ، قيل له : جعلت فداك ما الاصلاح بين الناس قال : تسمع من الرجل كلاما يبلغه فتخبث نفسه ، فتلقاه فتقول : سمعت من فلان قال فيك من الخير كذا وكذا خلاف ما سمعته منه .

وقد نجد ، في بعض النصوص الدينية ، اعتبار الكاذب في مثل هذه الحالة او في غيرها مما يشابهها صادقا ، واعتبار الصادق في حالات العكس كاذبا فقد روى الشيخ الصدوق في كتاب الاخوان بسنده عن الامام علي بن موسى الرضا (ع) انه قال ـ ان الرجل ليصدق على اخيه فيصيبه عنت من صدقه فيكون كذابا عند الله وان الرجل ليكذب على اخيه يريد به نفعه فيكون عند الله صادقا .

الكذب في حالات الخوف ـ التقية :

ومنها ـ الكذب في حالات الخوف على النفس او المال او العرض « مع التحفظ في بعضها وهو المال اليسير فان الكثيرين من العلماء لا يحيزون الكذب لدفع ضرره » ويدل عليه كل ما دل على ارتفاع الحرمة بالاضطرار والاكراه ونحوهما كما في الاية الكريمة الدالة على الترخيص للمؤمن في ان ينطلق بكلمة الكفر في حالة دفع الضرر عن النفس وهي قوله تعالى . « الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » والآية الكريمة الدالة على جواز مداراة المؤمنين للكافرين في مثل هذه الحالات وهي قوله تعالى « لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا ان تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه . . » فقد دلت هذه الآية على الترخيص بمداراة الكافرين ، بغير ما يعتقد ، اذا كان ذلك في مقام التقية . ويرى الفقهاء الذين استدلوا بهاتين الايتين على جواز الكذب بانه اذا جاز النطق

بكلمة الكفر في حالات الخوف على النفس ، فينبغي ان يجوز الكذب ، بطريق اولى ، لأنه اخف من الكفر ، بطبيعة الحال ، وبذلك احتج الشيعة الامامية على مشروعية التقية باعتبارها اسلوبا من الاساليب التي قررها الاسلام في القرآن الكريم في تعامل المسلمين مع الكافرين لحفظ النفس ، ولمواجهة الحالات الصعبة التي يمر بها الكيان في مرحلة الخطر امام قوة الكفر مما يجعل من عملية الافصاح عن هوية العمل ، او العاملين ، عملية انتحارية للفكرة ولأصحابها .

ففي هذه الحال لا بد من الترخيص بمداراة الواقع الى حد ما ليستطيع العاملون حرية الحركة من اجل تجميع القوة ومواجهة الواقع بظروف جديدة واوضاع جديدة تعتمد على التخطيط الدقيق الواعي .

ولعل هذا الاسلوب العملي في حماية المبادىء والحركات من بين الاساليب المتبعة لدى كل الحركات والتيارات في العالم . من اجل أن تمنح نفسها حرية الحركة من اجل بلوغها الاهداف التي تخطط لها . وتعمل من اجل تحقيقها ، لانها بدون ذلك تفقد واقعية العمل ومرونته مما يجعله فريسة سهلة للاعداء حيث يمكنهم من خلال فقدان مرونة العاملين ، الاطلاع على كل أسرار العمل وكل نقاط ضعفه . واذا كانت الشيعة الامامية قد اتخذت التقية شعارا لها في تاريخها الطويل ، انطلاقا من تعاليم اهل البيت المستمدة من تعاليم القرآن فلان الواقع الذي عاشوه ، كان من الشدة والخطورة ، بالمستوى الذي كانوا يشعرون معه بان وجودهم معرض للخطر من قبل أعدائهم وبذلك استطاعوا البقاء والامتداد في مدى الزمن .

ولسنا هنا في معرض الحديث عن التقية تفصيلا ، من خلال ما قيل فيها أو أشيع حولها من افتراءات وما دار حولها من مناقشات من

حيث دلالتها الشرعية والاجتماعية والسياسية ، وحدودها العامة والخاصة التي وضعت لها . . فذلك حديث آخر ـ قد نوفق له في مستقبل الايام . . . ولكننا هنا من اجل الحديث عنها باعتبارها مظهرا من مظاهر الاسلوب الواقعي في العمل من حيث المبدأ ، ولهذا فهي تخضع لما يخضع له هذا الاسلوب من حدود التحريم والتحليل لئلا يتحول الى عمل يبدأ في اطار حماية الفكرة لينتهي بعد ذلك ، من خلال الممارسات المتنوعة ، بعيدا كل البعد عن الفكرة من حيث الاساس .

ولا يختص جواز الكذب بهذين الموردين ، بل يشمل حالة توقف انقاذ نفس آخر او عرضه او ماله على الكذب فقد ورد في الحديث الشريف « احلف بالله كاذبا ونج اخاك من القتل » كما وردت هناك احاديث في جواز الكذب حتى بطريقة الحلف اذا توقف حفظ الوديعة التي اودعها الانسان المؤمن لديه واراد بعض الظلمة غصبها والاستيلاء عليها دون حق .

وهكذا نجد في هذه الموارد الكثيرة الدليل على ان الشارع قد راعى جانب الاهمية في حالة تزاحم المصالح والمفاسد عندما شرع الحكم بالحرمة او بالحلية ، ولم يجعل التشريع جامدا في مكانه ، ليجعل الانسان تحت رحمة الاجواء القلقة التي يفرضها التحريم الوارد في غير موضعه .

كلمتان للامام علي (ع) :

١ ـ علامة الايمان . . .

وربما تواجهنا أمام هذه القضية كلمتان للامام علي (ع) في نهج البلاغة .

الأولى ـ قوله في تعريف الايمان ـ علامة الايمان ان تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك . فقد نفهم من هذه الكلمة ان الانسان الذي يكذب لدفع الضرر عن نفسه ليس بمؤمن من دون فرق بين ما اذا كان الضرر على النفس او على المال او على العرض .

ولكن القضية ليست كذلك كما اوضحه بعض اساتذتنا المحققين فان المراد من الضرر بمقتضى مقابلته بالنفع هو عدم النفع وقد يطلق الضرر عرفا على عدم النفع ومورده فلا ينتفع فمن علائم الايمان ان يختار الصدق ولو مع فوات النفع على الكذب النافع ومن الواضح حرمة الكذب الجالب ما اذا دار الامر بين ان يكذب الانسان فينتفع او يصدق للنفع فيكون تركه من علائم الايمان وفعله موجبا للفسق [1] .

وعلى ضوء ذلك يكون الحديث منسجما مع الخط العام للقضية فان الحديث لا يكون منطلقا من حرمة الكذب في حالة الضرر بل في حالة جلب النفع .

ولعل للحديث وجها آخر يضعه في عداد الاحاديث ، التي تريد اكتشاف الايمان من خلال اسمى مظاهره التي ترتفع عن المستوى العادي مما يمارسه المؤمنون العاديون ، وبهذا تعتبر ميزة واضحة للمؤمن ، تدلل على ما يحمله من قوة الايمان واستقامته ، كما في الحالة التي يصورها هذا الحديث ، وهي الحالة التي تتوفر فيها للانسان ظروف الرخص ، في ممارسة الكذب بحيث لا يخاف معها من عقاب الله ، ولكنه في الوقت نفسه ، يؤثر تحمل الضرر والوقوع في الحرمان ، حفاظا على الصدق ، الذي يجسد حالة الاخلاص

---

(١) محاضرات في الفقه الجعفري ج ١ ص ٢٤١ .

للحقيقة على النفع الكبير في حالة الكذب ولا شك أن ذلك يصلح ان يكون علامة فارقة على الايمان الثابت في اعماق الانسان . ولعل هذا المعنى في فهم الحديث ـ اولى من المعنى الاول ، لان ذلك لا يجعل لهذه الحالة ميزة عن بقية الاحكام الشرعية التي يكون السير عليها من طبيعة السلوك الايماني بينما يكفل هذا المعنى التركيز على الطبيعة المميزة لهذا السلوك بحيث يصح اعتباره علامة على الايمان دون غيره .

٢ ـ لا تتبرؤا مني :

الكلمة الثانية ـ قول الامام علي (ع) في نهج البلاغة « اما انه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب مالاً فاقتلوه ولن تقتلوه ألا انه سيأمركم بسبي والبراءة مني فأما السب فسبّوني فانه لي زكاة ولكم نجاة ، واما البراءة فلا تتبراؤ مني ، فاني ولدت على الفطرة ، وسبقت الى الايمان والهجرة » .

فقد نجد في هذا الحديث ما يتنافى مع الفكرة التي تقول : ان للانسان أن يقول كلمة الكفر تحت ضغط الاكراه والاضطرار ، مع ان هذا الحديث ينهى عن البراءة من الامام ، مهما كانت التضحيات ، ومن المعلوم أن البراءة من الامام علي (ع) لا تصل الى مستوى البراءة من الايمان بالله ، او قول كلمة الكفر .

ولكن القضية فيما يظهر ـ ليست ما يلوح لنا ـ في هذا الحديث ـ فقد ورد في حديث مسعدة بن صدقة عن الامام جعفر الصادق قال ـ قلت لابي عبد الله (جعر الصادق) : إن الناس يروون أن علياً قال على منبر الكوفة ـ ايها الناس إنكم تدعون الى سبي فسبوني وتدعون

إلى البـراءة مني فلا تبـرؤا مني . فقال : مـا أكثـر مـا يكـذب النـاس على علي ، ثم قال ـ انكم ستدعون الى سبي فسبوني ثم تـدعون الى البـراءة مني واني لعلى دين محمــد ولم يقــل ، ولا تتبرؤا منـي ، فقــال لــه السائل : ارأيت ان اختار القتل دون البراءة ، فقال والله مـا ذلك عليـه ، وما له إلا ما مضى عليه عمار بن ياسـر ، حيث اكرهـه اهل مكـة ، وقلبه مـطمئن بالايمـان . فانـزل الله عز وجـل فيـه الا من اكـره وقلبـه مـطمئن بـالايمان فقـال النبي عندهـا يا عمـار ان عادوا فعُـد فقد انـزل الله عذرك وأمـرك ان تعود إن عـادوا . فان هـذا الحـديث يـدل على ان القضيـة لم تكن نهيا من علي (ع) لهم عن البراءة ، وانمـا كانت نهيـا عن الانسجام الـداخلي ، او الاقتناع الـذاتي بـذلـك لان ذلـك يخـالف واقـع الاشيـاء ويشـرف بالانسـان على البراءة من دينـه في نهايـة الامر لأن البـراءة ممن كـان على دين محمـد ـ في داخـل النفس ـ ينتهي الى البـراءة من الـدين بشكل مباشر .

وبهذا تقف القضية في اطارها الصحيـح الذي يجعـل التضحية في مقـام الدفـاع عن الفكرة أمـرا غير واجب ، فـلا يكون منحـرفـا عن خط الايمان ، لو اخذ بالرخصة ، وقـال كلمة البـراءة وأحب العانيـة . أما اذا اختـار خط التضحية وفضّـل المـوت على الحيـاة في سبيـل الصبـر على كلمة الايمان وكلمـة الولاء فـانه يكـون في أعلى درجات الايمـان ، كما كـان شهيدا الاسـلام ياسـر وسمية ـ أبـوا عمـار ـ في تضحيتهـا من اجـل الايمـان ، فمـاتـا تحت سيـاط العـذاب لانهمـا لم يقــولا كلمـة الكفــر للكافرين ، وكما كانت القصة في موقف الشهيـد العظيم حجـر بن عدي واصحـابه البـررة الذين اختـاروا الموت على ان يقـولوا كلمـة البراءة من الامام علي (ع) . . .

الكذب على اهل البدع :

وقد يظهـر من بعض الاحاديث جـواز الكذب على اصحـاب البدع البـاطلة ممن يخـوض الاسـلام معهم صـراعـا عنيفـا من اجـل العقيـدة والجـاه ـ وذلك في الحـالات التي يتـوقف فيهـا إبعـاد النـاس عنهم على ذلك ، كاسلوب من اساليب الصراع العملي ، الـذي يواجهـون به دعـاة الحق بالاكاذيب الباطلة ، فقد تمسُّ الحـاجة الى مـواجهتهم بمثله ، فقد ورد في الحـديث عن الـرسـول الأعـظم (ص) « إذا رأيتم أهـل البـدع من بعـدي فاظهـروا البراءة منهم واكثـروا من سبهم والوقيعـة فيهم وباهتـوهم كيلا يطمعوا في الدين .

فـان كلمة (بـاهتوهم) قـد يفهم منهـا البهتـان وهـو ان تقـول في الشخص مـا ليس فيه . وقـد افتى بعض العلمـاء بـذلـك ، ونـاقش فيـه بعض آخـر واننا قـد نجد بعض التحفظ في هـذه الفتـوى او تلك وربمـا نفهم من هذا الحديث معنى آخر ، ولكننا ننقـل ذلك للتـدليل على سعـة هـذا الاتجـاه فيمـا لـدينـا من الاجتهـادات الفقهيـة التي تجعـل الـوسيلة تتجمـد عند حـدود التحريم اذا كـانت الغايـة الكبيرة تتـوقف على تجاوز هــذه الحـدود . قــال المحقق الشيـخ مــرتضى الانصـاري في كتــاب المكاسب المحرمة في موضوع « الهجاء » :

«وكذايجوز هجـاء الفاسق المبـدع لئلا يؤخـذ ببدعـه ، لكن بشرط الاقتصـار على المعائب المـوجودة فيـه ، فلا يجـوز بهته بمـا ليس فيه ، لعموم حرمة الكذب . ومـا تقدم من الخبـر في الغيبة من قـوله (ص) في حق المبتـدعة (وبـاهتوهم لكيـلا يطمعـوا في إضـلالكم) محمـول على اتهـامهم وسوء الـظن بهم بما يحـرم اتهام المؤمن بـه ، بأن يقـال : لعله زان أو سارق وكذا إذا زاد ما ليس فيه من باب المبالغة .

ويحتمل إبقاؤه على ظاهره . بتجويز الكذب عليهم لاجل المصلحة ، فان مصلحة تنفُّر الخلق عنهم أقوى من مفسدة الكذب ويتبنى استاذنا المحقق الخوئي هذا الرأي ، ويعلق عليه :

« . . . وكل ذلك فيما اذا لم تترتب على هجوهم مفسدة وفتنة ، وإلا فيحرم هجوهم حتى بالمعائب الموجودة فيهم . . » ومن هنا نعرف ان على الانسان المسلم ان يراعي في صراعه مع اهل البدع طبيعة المصلحة الاسلامية العليا ، فيما يأخذ او يدع من كلام » .

ان الموضوع هنا هو انه هل يجوز للانسان اتباع سبيل التقية في حفظ نفسه أو لا يجوز ـ الامر الذي يضع القضية في خط اعتبار التقية انحرافا عن خط الايمان او انسجاما معه ، وليس الموضوع هو انه هل يجوز ان يضحي الانسان بنفسه في سبيل عقيدته مع قدرته على النجاة وتجاوز حالة التضحية بطريقة مشروعة .

الغيبة ومسوغاتها :

وقد نجد ـ في هذا الاتجاه ـ من بين الامور التي يرخص فيها الاسلام من ممارسة الوسيلة المحرمة لحماية الغاية الكبيرة المهمة ـ الموارد الشرعية التي وردت فيها الاحاديث والفتاوى بحلية الغيبة من اجل النصح للمؤمنين والانتصار للمظلوم ولغير ذلك من الموارد التي عرفنا وصولها الى مستوى كبير من الاهمية في الدين بحيث لا تمثل الغيبة معها اية مفسدة (وقد تحدثنا عن ذلك في الحلقة الخامسة من هذه المفاهيم) .

الوفاء لاهل الغدر غدر عند الله . . .

والغدر لاهل الغدر وفاء عند الله . . .

ولعل من بين النصوص الدينية التي ركزت على اعتبار الوسيلة اذا كانت اهم ، كلمة الامام علي (ع) المروية في « نهج البلاغة » .

« الوفاء لاهل الغدر غدر عند الله والغدر لاهل الغدر وفاء عند الله » . . .

فهي تركز على ان الانسان لا يستطيع ان يتجمد أمام القيم التي يؤمن بها ، ويعيش من اجلها ، فيما إذا واجه المجتمع الذي يتنكر للقيم في جميع مجالات الحياة ، فلا مانع ـ من ان يمارس حرية الحركة في حياته معهم بشكل مشروع فيما اذا استخدم أساليبهم للرد عليهم ، من اجل تخفيف ضررهم على المجتمع ، لان الوفاء لهم مع كونهم غدرة ، قد يشجع جانب الغدر لديهم ، وقد يفقد اهل الحق طريق السيطرة عليهم بينما تكون مقابلتهم باساليبهم طريقة عملية لتفويت الفرصة عليهم باستغلالهم لقيم اهل الحق من اجل ضرب الحق في الصميم . . . وربما تعيش هذه الكلمة في اجواء الآية الكريمة :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (٥٨) . [سورة الانفال : ٥٨] .

فقد قيل انها نزلت في يهود بني قينقاع وكان بينهم وبين الرسول (ص) عهد فعزموا على نقضه فاخبره الله تعالى بذلك وأمره بحربهم ومجازاتهم بنقض عهدهم ، فكان الوفاء لهم غدرا عند الله ، والغدر

بهم اذا غدروا وفاء بعهد الله ، كما جاء في شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني .

موقف الامام علي في صفين :

أما موقف الامام علي (ع) من اهل الشام الذين منعوه ومنعوا جيشه من الماء عند استيلاءهم عليه ، ولكنه لم يمنعهم منه عندما استطاع ان ينتصر عليهم ، بحصوله على السيطرة على الماء بعد ذلك . . .

أمَّا موقفه هذا فانه ينطلق من فكرة إِعطاء درس عملي في الحرب التي يخوضها اهل الحق من حيث أنها لا تخضع لهذه الاساليب وان كانت مباحة في هذه الحال ، وللتدليل على انسانية التعامل مع الاعداء حتى في حالة الحرب أملا في أن ينتبهوا الى ضلالهم ويستطيعوا ان يميزوا بين قيادة الحق وبين قيادة الباطل .

موقف الامام من الولاة المنحرفين :

وربما يقول قائل :

اذا كانت الغاية تبرر ارتكاب الوسيلة التي هي دون مستوى الغاية في الاهمية . . . فلماذا استنكر الامام علي (ع) على اولئك الذين ارادوا منه أن يصانع ويجامل الولاة الذين كانوا في بداية عهده ، الى ان يستقر ملكه : فيعزلهم ـ بعد ذلك ـ فكان جوابه لهم قوله : « اتأمرونني ان اطلب النصر بالجور » .

وكيف انكر على هؤلاء الذين ينتهزون الفرص من دون مراعاة الشريعة فيما يأخذون وفيما يدعون في قوله المعروف : قد يرى الحول

القلب وجه الحيلة ودونها حاجز من امر الله ونهيه فيدعها رأي عين وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين . .

ونقول جوابا عن ذلك :

ان الامام (ع) ينطلق في كلمته او لا من صفته كحاكم يريد ان يفسح المجال للتطبيق العملي للاسلام بجميع خطوطه العامة والخاصة ، التي منها المساواة بين الناس ، وعدم افساح المجال لطغيان الاعتبارات السياسية والاجتماعية على ذلك من اجل أن يعطي الصورة الصحيحة عن الحكم الاسلامي ، لا سيما وان الامام علي (ع) يمثل الامتداد الرسالي في تجربة الحكم الاسلامي الحق ـ الامر الذي يجعل من تصرفاته في شؤون الحكم مدرسة للآخرين .

ونحن نعرف ـ من خلال سلوك الامام في اكثر الجوانب ـ أنه جاء من اجل ان يصحح الانحراف في ممارسة الاخرين للحكم من حيث صورته العامة ومضمونه الكبير .

وثانيا ـ ان من غير الواضح لدينا قيمة النتائج العملية التي سيربحها الحكم الاسلامي من خلال افساد سلوك زعماء القبائل باستمالتهم بالمال وتشجيعهم على اتخاذ المواقف المؤيدة او الرافضة على اساس الاطماع المالية ، او ابقاء الولاة المنحرفين الاقوياء الذين يمثل الاعتراف بهم ولو مدة بسيطة في اعطائهم صفة الشرعية في سلوكهم العملي ، ولو في هذه المدة القليلة ، مما يجعل أمر عزلهم بعد ذلك دون اساس واضح ما دامت المبررات الاخيرة غير جديرة على مستوى حكمهم المستمر . . . فقد لا تكون الأرباح التي سيجنيها الاسلام من ذلك بمستوى الخسائر التي يخسرها او المفاسد التي يقع

فيها ـ الامر الذي لا يجعل القضية في موقف الترجيح للغاية على الوسيلة ، كما ألمحنا اليه آنفا . وربما نفهم ذلك من كلمة الامام (ع) حيث أعطى الوسيلة صفة الجور تارة ، وصفة كونها من حدود الله التي لا يمكن للانسان المؤمن ان يتجاهلها او يتعداها ، اخرى ، مما يجعلنا نؤمن ان الغاية في هذه الحالة ليست في المستوى الذي يتضاءل امامها حكم الله في الوسيلة .

وقد يقوي هذا الاتجاه ، في فهم كلمات الامام (ع) ، ان الذين كانوا يطلبون منه اتباع هذه الاساليب كانوا يريدون منه المحافظة على مصلحته الشخصية كحاكم ، يريد ان يستمتع بالحكم وينتصر به في عملية زهو ذاتي كما يوحى به جو الكلام ، ولم يكونوا ينطلقون من الحفاظ على الصفة الرسالية التي تجعل من عملية الحكم عملية تطبيق واع للرسالة .

وعلى ضوء ذلك لا يمكن ان يُعطي أحد هذا الاتجاه الذي جرينا عليه ، في موقع الوسيلة من الغاية ، صفة الميكافيلية ، لأن هذه الصفة لا تنطلق الا في المجال الذي يخدم الغايات الشخصية او الشريرة فهي موجهة للامراء الذين يريدون أن يستولوا على السلطة باي ثمن ، او يفتحوا البلاد ليحكموها رغما عن اهلها ، بدون حق ، أو يمنحوا انفسهم صفة التحكم في رقاب الناس ، لا على اساس فكرة أو مبدأ .

وليست واردة في المجالات التي يراد منها للرسالات وللقيم الكبيرة في الحياة ان تشق طريقها وسط العقبات والصعوبات التي تعترض طريقها . . . فان الوسيلة ـ عندها ـ تفقد صفتها الشريرة لتأخذ لنفسها الصفة الخيرة ، لان موقعها قد تغير ، وصفتها قد تبدلت واختلفت ، بالجو الجديد الذي عاشت فيه في اطار الغاية النبيلة .

خاتمة المطاف :

وهكذا نصل الى نهاية المطاف ، في هذا الفصل ، لنصل الى نتيجة حاسمة وهي اننا لا نتبنى فكرة ، ان الغاية تبرر الوسيلة ، بشكل مطلق ، بل نعتبر ان حالة الحكمين المتزاحمين في الغاية والوسيلة كأي حالة أخرى في غير هذا المجال ، كالحكمين اللذين لا علاقة بينهما ولا تزاحم الا في ضيق الزمان عن امتثالهما معا كالتزاحم بين الصلاة وانقاذ الغريق مع ضيق الوقت عنهما ، فكما اننا نغلب اكثر الواجبين صلاحا فكذلك هنا وبذلك يتجه الاسلام الى الخطوات الواقعية في العمل دون ان يفقد شيئا من قداسته في الفكرة والتطبيق .

لكل سؤال جواب

- بين أساليب الحق وأساليب الباطل .
- هل يحرم مصافحة الرجل للمرأة ، وما الضرر من ذلك .
- ما هي علاقة الايمان بوجود الله في حياتنا العملية .

[١]

س ١ ـ ورد في حديث الامام جعفر الصادق (ع) في معرض نقد بعض أصحابه على استخدامه الباطل في طريق الدفاع عن الحق ، وردّ الباطل . أنه قال : ـ أما الجدال بغير التي هي أحسن ، فإن تجحد حقا لا يمكنك أن تفرق بينه وبين باطل من تجادله ، وإنما تدفعه عن باطله بأن تجحد الحق فهذا هو الحرام ، لأنك مثله جحد حقا وجحدت حقا مثله . . !!

والسؤال : هو كيف نوفق بين الفكرة التي طرحتها وهي إباحة سلوك الباطل إذا توقف إقامة الحق عليه ، وبين هذا الحديث الذي يرفض جحود الحق اذا أراد الباطل أن يستعين به في اثبات باطله .

ج ١ ـ إن هذا الحديث لدى التأمل يتجه إلى الدعاة الذين لا يملكون الثقافة والعلم الواسع الذي يستطيعون ـ من خلاله ـ أن يواجهوا حجج أعداء الحق . . بالحجة القوية ، والردود السلمية الحقة . . فيلجأون إلى سياسة اللف والدوران والتهرب من مواجهة الفكرة التي يثيرها المبطلون . فقد يجحدونها بدون دليل أو يجحدون بعض وجوه

الحق التي يريد المبطلون أن يستعينوا بها على اثبات باطلهم جهلا منهم بالوجه الصحيح للرد .

وهذا ما تصرح به بعض فقرات الحديث ، وأما الجدال الذي بغير التي هي أحسن ، فأن تجادل باطلاً فيرد عليك باطلا ، فلا ترده بحجة قد نصبها ولكن تجحد قوله أو تجحد حقا يريد ذلك المبطل أن يعين به باطله ، فتجحد ذلك الحق مخافة أن يكون له عليك فيه حجة لأنك لا تدري كيف المخلص منه . . . فذلك حرام على شيعتنا أن يصير فتنة على ضعف اخوانهم وعلى المبطلين . أما المبطلون فيجعلون ضعف الضعيف منكم إذا تعاطى مجادلته وضعف ما في يده حجة على باطله ، وأما الضعفاء منكم فتغم قلوبهم لما يرون من ضعف الحق في يد الباطل .

إن الحديث يتجه إلى هؤلاء ، ليطلب منهم الانسحاب من معركة الصراع الدائرة بين الحق والباطل . . لأنهم لا يملكون الأسلحة التي بها يدافعون أو يهاجمون . ولذا فإنهم سيسقطون ضحايا جهلهم أمام الباطل وينعكس ذلك على صورة الحق أمام أعداءه وانصاره على السواء .

أما الذين استطاعوا أن يأخذوا بأسباب المعرفة الحقة ويتعمقوا في أساليب الصراع الفكري المنطلقة من الحقيقة الاسلامية الأصيلة .

أما هؤلاء فانهم لا يحتاجون الى أساليب الباطل في اللف والدوران ، ولا يشعرون بالضعف أمام حجج المبطلين . . لأنهم يملكون ما يحتاجون إليه من حجج الحق التي لا تدع مجالا لأي غموض أو التباس في أي جانب من جوانب معرفة الحقيقة .

وسوف لن يضطر هؤلاء إلى أن يجحدوا الحق الذي يستعين به المبطلون للتدليل على باطلهم ، لأن بامكانهم أن يكشفوا مغالطات الباطل في ذلك ، إذ لا يمكن أن يقف الحق من حيث هو حق ، سندا للباطل من حيث هو باطل . . في أي مجال من مجالات الفكر أو العمل . . لأنهما يقفان في خطين متقابلين لا يمكن أن يلتقيا أبدا ، ولو في بعض مراحل الطريق .

وعلى ضوء ذلك فلا يكون لهذا الحديث أي التقاء بالفكرة التي حاولنا إثارتها ، وهي تبرير الغاية للوسيلة في بعض الخطوات العملية لعلاقة الغاية بالوسيلة .

إن هذا الحديث يفرض أن الحق لن يحتاج إلى أساليب الباطل في صراعه الفكري أبدا . . لأن طرق الحق في الاقناع لا تقف عند حد . هذا من جهة . . !!

وهناك جهة أخرى . . وهي أن القضية تلتقي هنا بالفكر الذي يريد الاسلام أن يبنيه على أساس الحق ، لئلا تختلط على الانسان الألوان في رؤيته للاشياء . فلا يعود يملك القدرة على التغيير بين الحق والباطل . . الأمر الذي يجعله يعيش الضياع في الموقف ، من خلال الضياع في الرؤية .

ولذا فإن الاسلام لن يتسامح في هذا المجال باتباع أساليب الباطل مهما اختلفت الأوضاع . . إلا في الحالات الضروية جدا التي يتوقف فيها حماية الحق على إعطاءه غطاءً واقيا من الاضطهاد الذي يحاول القضاء عليه جملة وتفصيلا ، بالأساليب الوحشية التي لا تخضع الفكر ولا تستجيب لشروط الصراع وظروفه .

إنه يقول لك : إن مجال الحق واسع ، وحججه واضحة وأساليبه كثيرة وكبيرة . . فلن يعجز الانسان أي موقف للباطل في هذا المجال . ولذا فإن اللجوء إلى الباطل يعتبر دليل ضعف . . وحينئذٍ يكون الدخول في مجال الصراع جريمة كبرى لا تغتفر ، لأن من واجب الضعفاء أن ينسحبوا من المعركة إذ لم تكن المعركة ذاتية ، بل هي معركة ما يمثلون من مبادىء وشعارات وأفكار .

ملحوظه : للتوسع في دراسة هذا الموضوع يراجع موضوع بين أساليب الحق وأساليب الباطل في كتابنا (قضايانا على ضوء الإسلام) .

س ٢ : هل يجوز للرجل أن يصافح المرأة التي ليست بمحرم له وما الضرر من ذلك ؟

ج ٢ ـ للسؤال جانبان : أحدهما فقهي وهو السؤال عن الحكم من وجهة النظر التشريعية . . التي تجعل الحكم يقف في مواجهة الدليل .

والجانب الآخر تحليلي يستهدف الوصول إلى فلسفة التشريع وفائدته .

مع الجانب الفقهي للتشريع :

ـ أما الجانب الأول : فالظاهر من فقهاء المسلمين الحكم بالحرمة استنادا إلى الأحاديث الواردة في هذا المجال . ففي الأحاديث الكثيرة الواردة في كيفية بيعة النساء للنبي (ص) دلالة على رفض النبي لمصافحة النساء في حالة البيعة ، كما هي العادة المتبعة في بيعة الرجال . بل كان يلجأ إلى أن يضع يده في إناء وتضع المرأة يدها في

موضع آخر من الأناء (كما أخرجه ابن إسحاق في المغازي) من رواية أبي داود عن الشعبي أو يبايعهم بالكلام فقط (كما في حديث عائشة وغيرها . .) . وعلى أي حال فلو لا حرمة المصافحة لما احتاج النبي في البيعة إلى هذا الجهد كله .

وفي حديث أئمة أهل البيت (ع) ما يدل على ذلك بشكل واضح .

ففي مصحح أبي بصير عن الإمام جعفر الصادق (ع) . قال : ـ قلت له هل يصافح الرجل المرأة ليست بذات محرم ؟ فقال لا . إلا من وراء الثياب .

وفي موثق سماعه : سألت أبا عبد الله الصادق (ع) عن مصافحة الرجل المرأة : ـ قال :« لا يحل للرجل أن يصافح المرأة ، إلا امرأة يحرم عليه أن يتزوجها أخت أو بنت أو عمة أو خالة أو بنت أخت أو نحوها ، وأما المرأة التي يحل له أن يتزوجها فلا يصافحها إلا من وراء الثياب ولا يغمز كفها » .

وينقل صاحب جواهر الكلام الإجماع على حرمة اللمس مطلقا سواء بمصافحة اليد أو غيرها . بل يعتبره من قبيل الضروريات الفقهية على وجه يكون محرما لنفسه . ولعل هذا الحكم من أوضح الأحكام الشرعية لدى الفقهاء .

مع فلسفة التشريع :

أما الجانب التحليلي : وهو محاولة فهم فلسفة التشريع .

فقد يقول قائل : إن هذا الفعل لا يشكل أي ضرر على

الإنسان ، فردا كـان أو جماعـة ، لأنه لا يمثـل إلا لونـا من ألوان التحيـة والمجـاملة الإجتماعية التي درج عليهـا الإنسان ، فـلا نستطيـع أن نفهم أي وجهٍ من وجوه الضـرر في أن يصافـح الرجـل المرأة الأجنبيـة بدافـع التحية والمجاملة ، بقلب طاهر طيب لا يخالطه سوء .

والجـواب عن ذلك : هـو أن أي حكم من أحكام الشـريعة لا بـد لنـا من أن نضعـه في مـوقعـه الصحيـح من الفكـرة العـامـة التي ينـطلق الحكم منهـا أو يتحرك فيهـا لنستطيـع أن نفهمـه فهمـا واقعيـا لا يخضـع للسطحية والعاطفة .

وعلى ضـوء ذلـك . . لنـطرحِ على أنفسنـا سؤالا وهـو كيف نفهم علاقة الرجل بالمرأة ؟ أو بالأحرى . . . هل هناك قـاعدة أخـلاقية تحكم عـلاقـة الـرجـل والمـرأة أو لا ؟ . . إذا كـان الجـواب على هـذا السؤال سلبيا كما هو شأن الحضـارة الأوروبية المعـاصرة التي تعتبـر أخلاقيـة أي عمل منطلقـة من انسجامـه مع قضيـة الحريـة الفرديـة للانسـان في فكره وروحـه وجسده . . . ففي مثـل هذا المفهـوم لا بد لنـا من أن نحلل أي عمـل حتى العـري أو الممـارسـة الجنسيـــة . . إذا لم يكن هـذا أو ذاك خاضعا لضغط يلغي حرية الإنسـان وارادته ، بـل كان منـطلقا من واقعـه من موقع الارادة والحرية .

أمـا إذا كان الجـواب إيجـابيـا كمـا هـو شـأن المفهـوم الإسـلامي للحيـاة التي يعتبرهـا في كل ظـواهرهـا خاضعـة لضوابط أسـاسيـة تحفظ للحيـاة نظامهـا الذي يكفـل سلامـة الفرد والمجتمـع ، ويحقق للإنسـان الحرية في إطـار النظام لئـلا تتحول الحيـاة إلى فوضى تتحـرك في نهايـة المطاف لتدمر نفسها وتدمر كل ما حولها .

وعلى ضوء ذلك . . أراد الإسلام لعلاقة الرجل والمرأة في الجانب الغريزي أن تخضع لنظام محدد يبعدها عن الفوضى والشهوة فحصرها في إطار العلاقة الزوجية التي يمتزج فيها جانب الرغبة بالمحبة والطمأنينة . . لتكون أساسا لإيجاد الخلية الصغيرة للمجتمع التي يتعلم فيها الإنسان كيف يمارس غريزته في إطار المسؤولية ، وكيف تتحرك مسؤوليته مع نوازع الغريزة ، لتكون شاهدا عمليا على الفكرة الإسلامية التي تعتبر الحياة وحدة رائعة تتفاعل وتتعاون فيها غرائز الإنسان ومسؤولياته ، لتنقذ الغريزة المسؤولية من الجفاف وتحفظ المسؤولية الغريزة من الفوضى والإنحلال .

وإذا كانت العلاقة تعيش في هذا النطاق من تفكير الإنسان ومسؤولياته على مستوى إسلامي . . فلا بد لنا من أن نخلق الجو الذي يبقي هذه العلاقة سليمة ويجعل ممارستها واقعا عمليا في حياة الإنسان لا مجرد فكرة مثالية تعيش في الخيال . ولهذا حرّم كثيرا من الأشياء فيما يختص باللباس والزينة والنظر وغير ذلك ، ودعا إلى الإبتعاد عن كل ما من شأنه أن يجعل من الغريزة حاجة غير طبيعية بسبب العوامل التي تثير الرغبة بشكل ملتهب طاغ . . . وأراد من الإنسان أن ينظر إلى الرغبة الجنسية كما ينظر الى أي شيء من رغباته الأخرى كالأكل والشرب من حيث كونها حاجة تخضع لضوابط معينة لا تسيء إلى الفرد روحا وجسدا ، ولا تسيء الى المجتمع فكرة ونظاما .

ويجب أن نعلم أن طريقة الإسلام في مواجهة المشاكل التي تعيش في الحياة هي أن يبحث لها عن الحلول في النفاذ إلى أعماقها وجذورها الاساسية التي لا تسمح للمشكلة أن تنمو من جديد .

وبهذه الطريقة يتجه التشريع الإسلامي إلى الطريقة الوقائية التي

تمنع الإنحراف ، حتى لو كانت أسباب الإنحراف تمثل نسبة ضعيفة للإنحراف كنسبة العشرة بالمئة ، لأن هذه النسبة لو سمح لها أن تنمو فستتصاعد وتتعاظم حتى تصنع المشكلة من جديد . وربما كانت مسألة المصافحة ، تقع في هذا الإطار ، فانها قد تكون منطلقا للمشاعر الحميمة التي تهيء الجو لإحساس جنسي خفيف يعبر عن نفسه بطريقة وبأخرى ، تفسح المجال لبداية جديدة للإستلطاف الذي يمهد لعلاقة جديدة . . ولهذا أراد الإسلام أن يغلق هذا الباب في الحدود التي تسمح بهذه الأجواء من الإثارة . . ولذا نجد الحديث الذي نقلناه عن الإمام جعفر الصادق (ع) يبيح المصافحة من وراء الثياب ، لأنها لا تخلق مثل هذا الأثر في النفس بالمقدار الذي تخلقه المصافحة باليد مباشرة ثم يطلب منا مع ذلك أن نبتعد عن الغمز بالكف . وهو الضغط عليها بلطف . . لأن ذلك يهيء الجوّ للمشاعر المضادة لنظافة العلاقة واجواءها الطبيعية .

ـ وقد يُطرح سؤال : إن مثل هذه الحدود التي يضعها التشريع أمام هذه العلاقات ، هي التي تفسح المجال للأفكار السيئة لمثل هذه الأعمال البريئة التي يمارسها الناس بشكل طبيعي ، لا أثر للتفكير الغريزي فيه . . فلو لا التحريم الذي يطرحه التشريع لما فكر الرجل والمرأة بهذا التفكير تماما كما هو حال الرجل والرجل عندما يتصافحان ، أو كما هي حالة المرأة والمرأة في ذلك .

ونجيب على ذلك : ـ إن بعض الأعمال لا تحتاج في إثارة الأفكار المضادة إلى إيحاء من الخارج . . بل هي بطبيعة انسجامها مع العوامل الغريزية ، بشكل عضوي ، تفسح المجال لذلك ، تماما كما هي حالة الجوع الغذائي التي لا تحتاج إلى أي نوع من أنواع الإيحاء

سوى المؤثرات الطبيعية التي تخلق هذه الحالة .

ولعل الملامسات الجسدية ، لا تبتعد عن ذلك ، فهي من أقرب الوسائل لإثارة المشاعر الحميمة التي تخلق الرغبة في الداخل ، ولو بوسائط متعددة .

وقد يؤكد لنا هذه الفكرة ـ ولو من بعيد ـ أن الصداقة البريئة بين الرجل والمرأة ، بعيدا عن عوامل الرغبة في البداية أو النهاية ، لم تستطع أن تتحول إلى واقع عملي يمارسه الجنسان بنفس الإسلوب الذي تتمثل فيه علاقة الرجل بالرجل أو المرأة بالمرأة في علاقة الصداقة إلا في الحالات الشاذة جدا .

فنحن نواجه في العلاقات المطروحة في جميع الحالات والمجالات وعلى أعلى المستويات ، كيف تتحول الصداقة إلى إستلطاف ومحبة ، لتنتهي ـ بعد ذلك ـ إلى الرغبة التي تعبر عن نفسها بطريقة شرعية أو غير شرعية .

ونحن لا نتحدث عن الموضوع انطلاقا من فكرة الرغبة في التبرير التي تريد أن تفسر الواقع على حسب ميولها . بل نحاول أن نتحرك من موقع الممارسات العملية الكثيرة التي تسجلها الإحصائيات ، حتى على مستوى العلاقات التي تحكم الجنسين في الوسط الجامعي الذي يجب أن يكون بعيدا عن الجو الغريزي بقدر اقترابه من الأجواء العلمية الجافة المتزنة .

وربما يُطرح سؤال آخر : ـ وماذا نفعل أمام هذه العادات المألوفة التي فرضت نفسها على واقعنا ؟ فإننا نلاحظ اليوم أن امتناع الشاب عن مصافحة الفتاة التي تمد يدها إليه ، يعتبر امتهانا لكرامة الفتاة

وإساءة لها . . وكذلك الحال في امتناع الفتاة عن مصافحة الشاب . . فماذا نفعل إزاء ذلك ؟ أتريد أن ننعزل عن المجتمع .

ونجيب عن ذلك :

١ ـ إن شيوع الانحراف لا يبرر للإنسان أن ينحرف لأن سياسة الامر الواقع لا مجال لها أمام أصحاب المبادىء والمواقف الحقة الذين يريدون أن يمارسوا الصبر والصمود لحماية مبادئهم من الذوبان والأنهيار .

٢ ـ ان الإنسان الذي لا ينطلق مع موقفه في قاعدة صلبة ليقف عليها عندما يريد أن يواجه الواقع ، سيضطر إلى أن ينسحب تدريجيا من مواقفه حتى يفقد كل موقف . فتتحول مواقفه إلى محاكاة لمواقف الآخرين الذين يختلف معهم في العقيدة والحياة . . لأنهم لا يكتفون منه بانسحاب واحد . . ما دامت الحياة تتسع لانحرافهم في بعض مراحلها . فهم يتحركون من انحراف إلى انحراف ، فماذا نفعل إذا تحولت المجاملة الإجتماعية إلى تقبيل الفتاة للشاب ، أو المعانقة أو الأخذ بالأحضان أو أي شيء آخر كما نشاهده في بعض المجتمعات الحديثة ، التي تعتبر امتناع المرأة او الرجل عن الدعوة للرقص ، أو لشرب الخمر خروجا عن اللياقة والتهذيب الإجتماعي . ماذا نفعل إزاء ذلك كله ؟ . . هل نعتبر الحجة القائلة ، بأن علينا أن لا ننعزل عن المجتمع ولا نسيء إلى تقليده ، كافية في قبول ذلك كله ؟ وننسجم فيه مع عقائدنا . . !!

إن خوفنا من الإمتناع عن مثل هذا وغيره ، إنما نشأ من الخوف من مواجهة المجتمع بغير ما يرغبه من عاداته المألوفة فهل نستطيع أن

نحكِّم هـذا الشعـور في حيـاتنـا ؟ ومـاذا يتبقى من معـاني مقـاومـه الإنحراف ؟ . . ما دام الإنحراف يمثل سلوكا اجتماعيا شائعا .

إن علينـا أن نواجـه افـراد المجتمـع بتعـريفهم حقـائق الإسـلام ، وطبيعة ممارسـاتنا في ذلـك كله . ليفهم من يريـد أن يفهم أننا لا نمتهن الآخرين عندمـا نتنكر لتقـاليدهم المنحـرفة ـ في نـظرنا ـ بـل إننا نحتـرم أنفسنـا ونحترمهم عنـدما نبتعـد عمـا يسيء إلى إنسـانيتنـا الصـاعـدة في مدارج السموّ الروحي في الحياة .

وبعد هذا كله . . . هل عرفنا كيف يكون تحريم مصافحـة الرجـل للمرأة وبالعكس . . حكما شرعيـا يرتبط بـأحكام أخـرى تخضع لفلسفـة اسلامية عامة تحدد علاقة الرجل بالمرأة .

وفي ختـام الحديث . . . نحب أن نشيـر إلى أن بامكـان الانسـان في حـالات الحـرج الشـديـدة جـدا الـذي لا يتحمـل عـادة أن يـأخـذ بالرخصة التي حددتهـا لنا قـاعدة نفي الحـرج . . . كما أشـرنا اليـه فيما سبق ، والله العالـم بحقائق أحكامه .

س ٣ ـ ماذا يفيدنا اثبات وجود الله في حياتنا العملية ؟

ج ٣ ـ في مفهـوم الكثيـرين لقضيـة الايمـان بـالله تعـالى . . تبـرز فكرة الجانب التجريدي للايمان ، فـلا يرون أنـه يمثل أي جـانب عملي يـرتبط بالحيـاة ، بل يـرون أنه فكـرة نظريـة ترقـد في وعي الانسـان في هدوء واسترخـاء لتضاف إلى بقيـة الأفكار التي تتمثـل فيها صـورة الترف الفكري الذي يمارسه الذين ابتعدوا عن واقـع الحياة ليضيعـوا في أحلام الفراغ .

وقد يعتبر البعض قضية إثارة الإيمـان بالله في أجـواء الأزمات التي

تمـر بها الامم نـوعا من أنـواع الخدر الفكـري الـذي يشغـل النـاس عن مواجهة أزماتها ، ويستشهدون لذلـك بتنازع أهـالي قسطنـطينة ـ والفـاتح يـدق أبواب مـدينتهم حول المـلائكة . هـل هم ذكور أو آنـاث ؟ وحـول قضيـة أن البيضة أصـل الدجـاجة ؟ . . أو الـدجاجـة أصل البيضـة !! ؟ ويضيفـون أن القضية عنـدنا في إثـارة قضيـة وجـود الله تعـالى كـالقضيـة هناك !! . . وبهذا يبعدون الناس عن التفكيـر بالقضيـة في الوقت الـذي يشتغلون فيـه بمختلف الوسـائل في إبعـاد الناس عن فكـرة الله وربـطهم بفكرة الإلحاد ، كـوجه من وجـوه الصراع بين التقـدمية والـرجعية أو بين الخـرافة والحقيقـة . . . دون أن يثنيهم عن ذلـك مـا تـواجهـه الأمـة من أزمـات . . . لأنهم يعتبـرون قصـة الـواقـع مـرتبـطة بـأكثـر من جـانب وجـانب . ولـذا فـلا يجـوز من خـلال وجهـة نـظرهم ـ أن نبعـد جـانب الفكرة عن حركة العمل . . . ومن هنـا كانت قصـة الإلحاد ـ في نـظرهم ـ قصة الإسلوب الفكري الذي يواجهـه الانسان في حـركته نحـو قضايـاه الرئيسية .

وهكذا تكون القضية صيفا وشتاء على سطح واحد . .

فقضيـة الإيمان بـالله تعالى ، إثـارة لقضية هـامشية تشغـل الإنسان عن قضاياه الرئيسية . أما قضية الالحاد ، فكرة وفلسفـة وممارسـة ، فهي قضية ترتبط بالعمل . ولذا فانها لا تبتعد عن الحياة .

ولكن المـوضوع ليس مـوضوع الهـامش والأصل ، بـل الموضـوع هـو إبعاد النـاس عن الايمان وعن التفكيـر به لئـلا يبقى قوة ، في مـركـز الصراع بين الإلهية والمادية ، أو الايمـان والالحاد ، تـدخل في السـاحة لأجل أن تفسح المجـال للخط الذي يجعـل الحياة تعيش في رحـاب الله تعالى بعيدا عن حبائل الشيطان .

ولـذا فينبغي أن نواجـه مثل هـذه الأساليب بنـوع من أنواع الـذكاء العملي الـذي يترصـد خـطوات الأعـداء من أجـل أن لا يقـع في قبضـة السذاجة الفكرية والعملية التي يحاولون أن يضعونا فيها .

والآن . . نحن مع السؤال وجها لوجه .

ما فائدة الإيمان بوجود الله في حياتنا العملية ؟ . .

والجـواب على ذلك . . . ان كـل مخطط عملي للحيـاة لا بـد لـه من أن يرتبط بجذور فكرية تفسـر له الكـون والحياة ، لأنـه ـ بدون ذلـك ـ يبقى مجرّد خطوات عملية تبحث عن الطريق في بـدايته ونهـايته ، فلن يكتب لهـا بعد ذلـك الا التخبط والضياع في التيـه . ولهذا لا بـد لنا من أن نـطرح دائما على أنفسنـا السؤال الخالـد لنعـرف كيف نبـدأ ؟ . هـل هنالك قوة عليا خارج نطاق وجودنا الـطبيعي المادي المحـدود تخلق هذا الكون وترعاه وتنظمه وتسير به بحو الكمـال ؟ . . أو أن الكون كـان وليد صدفه عمياء بلهاء صنعت هذا النظام الـذي لن ينتهي إلى نهايـة معقولـة ـ لانه لم يبدأ ـ أساسا ـ من المعقول .

إنـه الفرق بين الفكـرة التي تعتبـر الكـون في رحلتـه سـائـرا نحـو هدف محدد ، وبين الفكرة التي ترى الكون يتحرك بـدون هدف . ولـذا فـانه سـوف يتحطم في الفـراغ انطلاقـا من الصدفـة المجنونـة التي بـدأ منهـا . . ولهذا فـان الايمان بـوجـود الله تعـالى يجعـل الانسـان يخضـع لإحسـاس داخلي وفكـري بمسؤوليتـه أمـام الله عـز وجـل بعمله ، وفي حياته كلها . . تبعا لإحسـاسه بـأنه جـزء من الكون الكبيـر المنظم الـذي ينبغي للانسان أن يتعـامل معـه على هذا الأسـاس ، وبهذه الـروح يشعر بـأن عليه أن يبحث عن المخـطط العملي من خلال رسـالة الله تعـالى ، وأن يستهـدف الأهـداف المثلى التي أرادهـا الله سبحـانـه لـلانســان في

الحياة في علاقاته بنفسه وبالآخرين . وأن ينظم أوضاعه على أساس أن الدار الدنيا مرحلة من مراحل الحياة الممتدة إلى ما بعد الموت . ولذا فان عليه أن يراعي وضعه في تلك الحياة من خلال ممارسته لوضعه في هذه الحياة . . . وفي هذا النطاق . . . يشعر الإنسان بالعلاقات الإنسانية تتخذ معنى جديدا في حياته يرتبط بالله تعالى من جهة وبمسؤوليته العملية من جهة أخرى . فلا تعود مجرد علاقة تخضع للحسابات المادية التجارية ، بل تفسح المجال لمعاني الإيثار والتضحية والمحبة المجردة بعيدا عن العوض المادي من أجل الحصول على التعويض الروحي لدى الله سبحانه وتعالى . . . بالحصول على رضوانه ومحبته وثوابه مما يرفع درجة الانسان لديه .

وفي المجال الذاتي لحياة الإنسان الداخلية ، يشعر الإنسان بالطمأنينة والسلام الروحي والأمل الكبير الممتد في جميع خطوات الحياة لأنه يتصل بالله تعالى الذي تخضع له كل مشاكل الحياة وعقباتها ، وكل آلام الحياة وأفراحها ، ويحسّ الإنسان ـ إلى جانب ذلك ـ بالرعاية الدائمة تحوطه والرحمة الحانية ترعاه . فلا يحس بأي شعور يلتقي بالضياع والإنهيار واليأس ، وفقدان الهدف والمعنى لوجوده ، مما تعارف الملحدون على أن يعيشوه ليشعروا بالفراغ الكبير الذي يدمر حياتهم في نهاية المطاف .

ويشارك الإيمان بالله عز وجل في شعور الإنسان بالرقابة الدائمة القوية القادرة التي تمنعه من الإعتداء على الآخرين في فكره وكلامه وعمله ، حتى في أشد الحالات شعورا بالأمان . . . الذي ينشأ من فقدان الشعور بوجود الآخرين يحاسبونه . إن الايمان بالله عز وجل ـ يقتحم وجدان الإنسان بقوة ليشعر بالله تعالى يشرف على الداخل كما

يشـرف على الخارج . فليس هنـالك أي جـانب مستـور أمـامـه ، وليس هنالك أي مجال بعيد عن سلطانه ، وليس هنالك قوة أقوى من قوته .

إن الإيمان كلما تعـاظم في كيان الانسـان كلما استـطاع أن يحمي الانسـان من نفســه ، ويحمي الآخــرين منـه ، وكلمــا ضعف . . كلما اقترب الانسان من الجـريمة بمقـدار بعده عن المؤثـرات الخارجيـة التي تحيط به لتمنعه .

وبهـذا نعرف كيف يعـطي الايمان بـالله سبحـانـه وتعـالى لحيـاتنـا معنى جديدا يغنيها ويُغذيها وينميها ويربطها بالمعـاني الكبيرة ، والهـدف المنشود العظيم في الحياة ، بينما يكون الالحاد عنصـر تفريـغ للحياة من كل المعاني الروحية ، والأهداف المثلى . ويبقى للانسـان فيها أن يـولد ويعيش ويموت دون معنى ودون هدف ودون غاية .

الحلقة التاسعة

الأسْلُوبُ الاسلامي لِلعَمَل
بَيْنَ الاصلاَحِ وَالتَغْيير

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنْ الـرحِيمْ

مقَدِّمَة

الحمـد لله رب العالمين والصـلاة على سيدنـا محمد وآلـه الطيبين وصحبه المنتجيين الخيرين وعلى جميع الانبياء والمرسلين .

وبعـد . . فقـد كـان العـزم على مـواصلة اصـدار هــذه السلسلة « مفـاهيم اسلاميـة عـامـة » في حلقـات متتـابعـة لتحقق الهـدف الـذي انطلقت من أجله ، وهو تيسير الثقافة الاسلاميـة ، والاستجابـة لعلامـات الاستفهـام التي تتوارد في خـواطر الجيـل الصاعـد حول قضـايا الاسـلام في العقيـدة والحياة . . ولكن الـظروف القاهـرة التي عشنـاهـا في لبنـان حالت بيننا وبين الاستمرار في اصدارها بشكل مستمر .

والآن . . . وقـد أمكننـا أن نلتقط أنفـاسنـا أمـام الأحـداث التي لا تـزال تفرض واقـع المأسـاة الحزين على هـذه المنطقـة الاسلاميـة . . . نعـود لمتابعـة هذه الحلقـات . . فنبدأ بـالحلقة التـاسعـة التي تبحث في كثير من القضايا الحيوية المهمة التي تشغـل بال العـاملين للاسـلام وتثير تفكيـرهم سواء في مـوضوع المحـاضرة والاسلوب الاسـلامي للعمل بين الاصـلاح والتغيير ، أو في المـوضوعـات التي أثيـرت من خـلال الأسئلة

العامة التي وجهت الى سماحة السيـد المحاضـر في الندوات الفكـرية أو في بعض المجلات العربية . .

والله المسؤول أن يـوفقنا جميعـاً لخـدمـة الاسـلام والمسلمين انـه قريب مجيب .

بيروت　　　　　　　　　　　　　　　　　　دار الزهراء

الاسلوب الاسلامي للعمل بين الاصلاح والتغيير

قد يثير العاملون للاسلام في طريقهم نحو العمل بعض القضايا الملحة التي تدخل في تصوراتهم للاتجاه العملي الذي يحكم مسيرة العمل ويحدد له آفاقه ، وقد تكون مثل هذه الاثارة ضرورية في نطاق الأجواء القلقة التي تحكمها التيارات السياسية المعاصرة الخاضعة في مفهومها الفلسفي للحياة ، لقواعد غير اسلامية ، سواء في ذلك القواعد الفكرية الالحادية ، أو القواعد المادية التي لا تثير الالحاد في تفكيرها كقضية حيوية في حركة العمل . . فقد طرحت هذه التيارات كثيراً من القضايا المتعلقة بالعمل واسلوبه وأثارت حولها ألواناً من الجدل ، مما أدى الى التساؤل في موقف الاسلام في حركته العملية من ذلك كله .

ولعل من أكثر هذه القضايا أهمية في طريق العمل ، هي قضية طبيعة الحركة الاسلامية التي يعمل لها العاملون ، ويجاهد في سبيلها المجاهدون ، فقد نواجه أمامنا بعض التساؤلات . . ما هو طابعها

المحاضرة التي القيت في قاعة اللجنة الثقافية الإسلامية في الغبيري الواقعة في إحدى ضواحي بيروت . .

العملي ؟ أين تقف ، فهل هي حركة اصلاحية تهدف الى ترميم الواقع فيما تهدم من أركانه ، حيث يتجه العاملون إلى وضع لبنة هنا ، ولبنة هناك من أجل استمرار الوجود الاسلامي للحياة ، ولو في بعض مظاهره ، أو هي حركة تغييرية تهدف الى نسف الواقع من جذوره ابتداءً من نظام الحكم ، وانتهاءً بآخر مادة شرعية من تشريعه ، حيث يعمل العاملون في بناء الحياة على قاعدة اسلامية ممتدة صلبة لينطلق من خلالها النظام ، كما هو الاسلام في واقعه الأصيل ، فلا مجال لتجزئة الحل ، أو لتجزئة الأحكام في حركة الواقع ، ولا معنى لترميم الحياة التي انطلقت من قاعدة الكفر والضلال .

لقد أثيرت هذه القضية في فلسفات المبادىء السياسية والاجتماعية والاقتصادية عندما وقف مفكروها أمام الواقع ليحددوا موقفهم منه في نطاق حركة أفكارهم في الحياة بين شعار الاصلاح وبين شعار الثورة ، فهناك المبادىء المعاصرة الثورية التي تؤمن بالثورة وترفض الاصلاح والترميم ، وهي المبادىء التي تملك نظرة شاملة للحياة تختلف عن النظرة العامة التي تسير عليها الحياة في نظامها المعاصر ، وتعتقد ان المشاكل المطروحة ليست مشاكل سطحية او جانبية ليمكن للانسان أن يبحث لها عن الحل الأمثل في نشاطات جزئية ، بل هي مشاكل أساسية ترتبط بالقاعدة التي يرتكز عليها النظام باعتبارها وليدة حركة النظام في خطوات الواقع ، فلا يمكن أن تقدم لها الحلول الجزئية الا جرعات تخديرية ، تخدر المشكلة فتبعدنا عن الاحساس المباشر بالألم ، مؤقتاً ، ريثما ينتهي مفعول الجرعة ، وهكذا دواليك ، عملية تخدير واثارة ، مما يؤخر الحل الشامل المنطلق من التعامل مع الجذور العميقة للواقع .

وفي ضوء هذا التفكير يعمل العاملون في اتجاه تفجير المشاكل الكامنة ، وخلق المشاكل الجديدة من خلال صنع الظروف المناسبة المثيرة ، ويتنقلون في خطواتهم هذه من زاوية الى زاوية ليضعوا في داخلها القنابل الموقوتة التي تنفجر في الوقت المناسب ، فهم يطالبون بحل المشكلة الصغيرة ويدفعون المجتمع الى الالحاح بالمطالبة ، فاذا اقترب الموقف من الحل بالاستجابة الى هذه المطالب ، وقام المسؤولون بالأعمال الاصلاحية خلقوا لهم مشاكل جديدة تدفع الموقف الى الإنفجار من جديد ، وقد يوافقون على بعض الاعمال الاصلاحية من أجل أن يحققوا للمجتمع بعض مظاهر الراحة التي يسترد فيها أنفاسه ، ويستريح معها من عناء التعب ليبدأ معهم رحلة المشاكل من جديد .

ولعل من أبرز المؤمنين بهذا الاتجاه في الأسلوب العملي ، هم الماركسيون الذين يرون أن الثورة هي الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية ، وان السير في طريق الاصلاح خيانة للجماهير وللحياة لأنه يفوت عليها الفرص الكثيرة التي يمكن لها أن تعجل في دفع حركة التطور الى الأمام .

* * *

وهناك اتجاه آخر يختلف عن الماركسية وأمثالها في تصوره لأساليب التغيير ، فيعتقد بأن للمشاكل دوائر متنوعة في طبيعتها وصورتها ، وأن استمرار المشكلة في حياة الناس يخلق لهم مشاكل جديدة قد تتعقد وتتطور فتدمر الانسان في نهاية المطاف من دون تقديم بديل في هذا المجال ، ويرى ان الحياة لا يمكن أن تنتظر اللحظة المجهولة من الزمن التي تمنحها فيه بركة الحل الشامل للمشكلة فقد

لا تجيء تلك اللحظة ، وقد تغيب طويلا في ذاكرة المستقبل عندما تعيش حركة التاريخ في ظل ظروف موضوعية معقدة . وفي هذه الحال لا بد لنا من ان نهيىء للانسان بعض الراحة ، ولو من خلال الحل الجزئي للمشكلة لان ذلك هو السبيل للتعامل مع الحياة بواقعية ومرونة باعتباره يمنح الانسان روعة الشعور بالأجواء اللذيذة التي يستمتع فيها بنتائج الحل الجزئي ، ليعيش ، على الطبيعة ، الاحساس العميق بحاجته الى الحل الأفضل في مستقبله القريب أو البعيد ، وبذلك يتحول الاصلاح الى عنصر من عناصر التمهيد والاثارة للقضية الكبرى بدلا من أن يكون عامل تخدير وتأخير .

وقد يثيرون في هذا المجال نقطة أخرى .. وهي رفض الفكرة التي تربط الواقع كله بعامل واحد يوجه كل الحلول بفكره وفلسفته .. بل هناك عدة قضايا منفصلة يمكنها أن تثير الحل الكامل لكل قضية بطريقة تفترق عن القضية الأخرى ، لا سيما في حركة الواقع التي تشهد مزيداً من التشابك بين الأنظمة في كثير من المجالات مما لا يجعل النظام سلبياً في كل مظاهره وحلوله ، فيمكن لنا أن نقوم بعملية اصلاحية تهدم بعض الاجزاء لتبنيه من جديد على الصورة التي تتكامل فيها الحلول وتقترب من الواقع وذلك كما يقال في التجربة الديمقراطية الرأسمالية التي قرّبت الوضع الاقتصادي في بلادها من الوضع الاشتراكي في الاقتصاد ، بواسطة التشريع الضريبي المتصاعد الذي حدد الأرباح في نظام معقول ، فقد يعتبر أصحاب هذه التجربة ، أن عملية الترميم هذه ، تستطيع أن تحل المشكلة الاقتصادية بنسبة كبيرة ، وان لم نستطع الوصول بها الى نسبة مائة في المائة ، لأن مثل هذه النسبة لا توجد في أي حل آخر مهما كانت درجته من الشمول لأن لكل نظام سلبياته التي تعيش الى جانب ايجابياته لأن للطبيعة المحدودة

التي يتحرك فيها أي نظام دوراً كبيراً في ذلك كله .

ولعل الديمقراطيين الذين يفكرون بالديمقراطية على الطريقة الغربية ، هم من أبرز الذين يؤيدون هذا الاتجاه أو يقتربون منه في أسلوبهم العملي ، على الأقل .

* * *

تلك هي بعض ملامح الصورة في هذين الاتجاهين ، فأين يقف الاسلام في ملامحه الاصيلة ، وكيف يتحرك العاملون من خلاله ؟

ربما كان علينا أن نثير أمامنا قضيتين حيويتين في طبيعة العمل وشخصية العاملين .

١ ـ ان نطرح على أنفسنا سؤالا عملياً ، ما هو هدفنا عندما نتحرك للدعوة الى الاسلام ، ولماذا ندعو الناس اليه فنواجه كل هذه المشاكل والتعقيدات ، ونتحمل كل هذه الآلام والمصاعب والخسائر في طريق الدعوة ، ما الذي نريد أن نحققه ؟

ونجيب على ذلك . . ان الهدف لكل مؤمن في حياته هو أن يحقق رضا الله في كل تطلعاته وكلماته وأعماله ، لأنه يشعر بأن عبوديته لله وما أغدقه عليه من نعمة الحياة ، ابتداءً من الخطوة الاولى التي بدأ بها الحياة الى آخر خطوة يلاقي فيها ربه ، يفرضان عليه الانسجام مع ارادة الله في الكون ، في كل موقف من مواقف الطاعة . . . واذا كان هذا هو الهدف الأساسي للمؤمن فلا بد له من ملاحقه كل الأعمال المرتبطة به ، سواء في ذلك الأعمال التي تحقق للانسان الشعور بالاستقرار والسعادة في حياته الفردية ، كما في موضوع ادخال السرور على المؤمن وتفريج كربته وقضاء حاجته ، أو الأعمال التي تضمن له

الحصول على العدالة في قضاياه العامة والخاصة ، مع الحكم العادل أو الظالم ، أو الاعمال التي تدخل في نطاق الدعوة الى الله ، لتقربهم الى الله في عباداتهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم الخاصة والعامة وغير ذلك من الاعمال التي ترتبط بالجوانب السياسية والاجتماعية والعسكرية . وبهذا يتحول رضا الله الى هدف يومي يوجه خطوات الانسان في أقواله وأعماله تجاه الآخرين كما يدفعه الى تجسيده سلوكاً عملياً في ممارساته اليومية تجاه نفسه وتجاه اخوانه .

* * *

٢ ـ ما هو هدف الاسلام في عقيدته وشريعته ، هل هو حل المشكلة الاجتماعية للانسان بعيداً عن قضاياه الخاصة في روحيته وتفكيره وعمله ، أو هو حل المشكلة الانسانية من جميع الجهات ؟

ونجيب على ذلك . . ان الهدف الاساس للاسلام هو حل المشكلة الانسانية للانسان ، بعيداً عن أي اطار آخر ، فقد وضع الاسلام حدوداً معينة للانسان في ممارسة حياته الفردية الداخلية فيما يتصل بروحه وجسده ، أو في حياته الاجتماعية فيما يتصل بعلاقاته بالآخرين وبتصرفاته العملية تجاههم ، او في حياته الدولية ـ ان صح التعبير ـ فيما يتعلق بأوضاعه السياسية العامة ، فلم يبتعد عن حياته الخاصة بل دخلها بقوة وفاعلية ، ليمنعه ـ ولو بالقوة ـ عن ممارسة أي عَمل يسيء الى صحته وروحيته ، وحياته ، وجعلها تتحرك في نظام دقيق يحميه من نفسه ، كما يحاول أن يحمي الآخرين منه ، وبذلك كانت حريته الداخلية الفردية محكومة بالحدود التي وضعها الاسلام لدوره الانساني تجاه نفسه وتجاه الآخرين .

ان الاسلام ـ فيما يبدو لنا ـ يريد أن يحقق للانسان انسانيته فيما

قرره من مفاهيم وفيما وضعه من تشريعات ، لأن الانسان ـ في المفهوم القرآني ـ هو خليفة الله في الارض (١) ، وهو صانع التغيير (٢) لانه هو الذي يصنع الظروف التي تساهم في عملية التغيير سلباً أو ايجاباً ، وبذلك كانت العقيدة والشريعة سائرتين جنباً الى جنب في تحقيق هذا الهدف ، فلم يتركاه لحظة في حالة فراغ روحي أو عملي . . فكانت العقيدة تتحرك في وجدانه الروحي ، في نظام العبادات التي يلتقي فيه بالله من جهة ويعيش أجواء اليوم الآخر من جهة أخرى . . وكانت الشريعة تتدخل في مطعمه ومشربه وملبسه ولذته لتوجهه الى ما يضره أو ينفعه ولتقترب به أجواء العقيدة في ملامسة روحية هادئة . . كما في التركيز على ذكر اسم الله فيما يأكله من الذبائح وجوباً ، أو فيما يتناوله من أكل وشرب ، أو يمارسه من لذة ، استحباباً ، ليعيش الانسان الجو الروحي في عمق ممارساته المادية . . وهكذا يمتد التشريع الى كل تطلعاته في شؤون الحياة ليعرفه ما يحبه الله وما يبغضه على أساس ما يصلحه او يفسده ، ولم تحصر التشريع في نطاق الدولة بل واجهت ذلك حتى في نطاق غيابها عن المجتمع ، لان التشريع الاسلامي لم ينطلق من المشكلة الاجتماعية فقط لتدور أحكامه في اطارها ، فلا يعود لها مجال خارج هذا الاطار ، بل انطلق من المشكلة الانسانية في وجوده على الارض ، فوضع في حسابه ملاحقة كل اوضاع وجوده من ناحية عامة . . وبهذا اختلف الاسلام عن المبادىء الوضعية التي تستهدف حل المشكلة الاجتماعية بعيداً عن المشكلة الفردية ، وربما كان هذا هو السبب في اقتصار التشريع على الحالة التي توجد فيها الدولة ، فتتحول الفكرة فيها الى نظام حكم يمارس سلطته من موقع القوة الشاملة ، فان ذلك هو السبيل الوحيد ، لديها ، لحل المشكلة الاجتماعية في اطار الفكرة باعتبار ان الحالة الفردية لا تمثل أي شيء

في هذا المجال .

ولعل من أوضح الأمثلة على طبيعة الفرق بين الاسلام وبين المبادىء الاخرى المطروحة على الساحة هو التشريع الاقتصادي ، فاذا أخذنا احد المبادىء المعاصرة كالاشتراكية في مواجهتها لبعض الحالات الانسانية التي نجد فيها انساناً يؤمن بالاشتراكية ويعيش في ظل النظام الرأسمالي فهل تطلب منه عقيدته أن يمارس الفكر الاشتراكي في حياته الخاصة فلا يمارس الربا باعتباره مظهراً من مظاهر الرأسمالية ، أو لا يتملك وسيلة من وسائل الانتاج باعتبار ذلك من حقوق القطاع العام فقط ، أو انها تسمح له بأن يكون رأسمالياً في أعلى درجات الرأسمالية من دون حدود أو قيود ، لان اشتراكيته الشخصية لا تحل مشكلته ولا تحل مشكلة الآخرين ، فلماذا يفرض عليه التقيد بها ما دامت العقيدة منطلقة في اتجاه الحل الشامل . . اما الأخلاقيات فانها مستمدة من طبيعة المصلحة الجماعية للطبقة العاملة بعيداً عن أية قيمة ذاتية تدخل في حساب القيم الذاتية للبناء الفردي للانسان .

اننا نجد التفكير الاشتراكي يتبنى الاسلوب الثاني للعمل ، ويرفض الأسلوب الأول جملة وتفصيلا . وفي ضوء هذا ، قد تواجهك الحقيقة الصارخة عندما تجد بعض الناس الذين ينعتون النظام الرأسمالي بأبشع النعوت ، ويحملونه وزر كل الجرائم في العالم ، ويمارسون ، في الوقت نفسه ، الأسلوب الرأسمالي في الحياة ، كأقسى ما يكون ، من دون أن ينقص ذلك من دورهم النضالي الفريد من نوعه أما اذا أخذنا الاسلام في هذا الجانب ، فاننا سنجد الأمر يختلف عن ذلك تماماً ، فهو لا يبرر للانسان الذي يؤمن به أن يكون مرابياً في المجتمع الربوي ، بل يعتبره انساناً منحرفاً عن الخط مستحقاً اللعنة

بالرغم من أن سلوكه الفردي لا يقدم ولا يؤخر شيئاً في الموضوع من الناحية العامة للمشكلة التربوية .

ولعل السر في ذلك هو ان قضية حرمة الربا ليست مرتبطة بالجانب الاقتصادي المادي للحياة فقط بل هي الى جانب ذلك ، متصلة بالاطار الروحي للاقتصاد في الاسلام كما ورد في بعض الأحاديث المأثورة ، التعليل لحرمة الربا ، بأنه يمنع عن اصطناع المعروف مما يوحي بأن الله يريد للانسان أن يعيش روح العطاء بلا مقابل في حياته العملية ، ولو في بعض المجالات التي لا يدخل في مجالات التبادل المالي الصرف ، ومما يؤكد لنا هذه الفكرة ان الحديث الشريف اعتبر درهم القرض بثمانية عشر ، في حساب الثواب الالهي ، بينما اعتبر درهم الصدقة بعشر ، تشجيعاً على ابعاد الإنسان عن الروح الربوية وتشجيعاً له على صنع المعروف في القرض قربة إلى الله .

وقد نجد مثالا على ذلك في نظرة الاسلام الى الجانب الخلقي في تخطيطه للحرية الفردية فانه لا يسمح للانسان بالانحراف ، بممارسة الاعمال المحرمة في المجتمع المنحرف فلا يبيح له شرب الخمر أو لعب القمار أو الزنا أو غير ذلك من الاعمال التي لا تمثل أي مدلول اجتماعي من ناحية عامة ، لأن القضية ليست قضية سلامة النظام الاجتماعي ، بل المهم هو سلامة المجتمع من خلال الصحة الروحية لأفراده المتمثلة في الانضباط العملي في اطار المفاهيم الخلقية في الحياة . وقد يتمثل ذلك في الحالات التي تدعو الظروف الاضطرارية المحيطة بالانسان الى ممارسة بعض الأعمال المحرمة كالكذب ، فان الاسلام يشجع على الابتعاد عن الكذب في داخل نفسه ، حتى في بعض الحالات الاضطرارية الطارئة ، فاذا حصلت لك

احدى هذه المسوّغات ، فحاول أن تستخدم التورية التي تمثل اعطاء الكلمة مدلولا غير ما يفهمه السامع منها في ظاهر الحال لتكون صادقاً عند نفسك وان خيِّل للآخرين أنك كاذب ، مثلا ، لو سألك انسان عن وجود شخص عندك ، ولم تكن هناك امكانية في اخباره بذلك خوفاً من ظلمه له ، أو من مفسدة أخرى تتعلق بك أو بالمجتمع ، فان بامكانك أن تقول له انه غير موجود ، وتشير الى مكان معين في داخل البيت ، من دون أن تشعره بهذه الاشارة النفسية ، انك ، بهذا الأسلوب لا تجعل الظرف الاضطراري يضغط على أخلاقك لأنك لم تبتعد عن خط الصدق في ممارستك الداخلية للموقف ، بل كل ما فعلته ، أنك أوهمت الآخرين ذلك ، مع محافظتك على القاعدة الصلبة التي تتحرك منها أعمالك وتتركز عليها شخصيتك في الحياة .

ان الاسلام يعتبر الانسان هو القوة الدافعة للحياة فلا بد للتشريع من التوفر على تجميع كل عناصره الذاتية التي تساهم في صنع القوة واستمرارها ليستطيع قيادة الحياة من موقع قوي لا يضعف أمام الصعوبات ولا ينهار أمام الاغراءات ، وعلى ضوء ذلك نرفض اعتبار الجنس أو الاقتصاد وغيرهما أساساً للتطور والتقدم ، كما اعتبره الآخرون ، فان مثل هذه العوامل تنطلق من حركة الانسان في الداخل والخارج وليست دافعة لهذه الحركة .

* * *

اننا أمام هاتين النقطتين نواجه الجواب عن السؤال الأساسي ، هل الاسلام يتجه الى الثورة في حركته ، أو يتجه الى الاصلاح ، فأيهما نختار . . ؟

لعل الجواب الصحيح هو اختيار كلا الاسلوبين في العمل

الاسلامي ، فقد نجد من الضروري أن نمارس العمل الاصلاحي في أوضاع الانحراف الفردية والاجتماعية فنحاول اصلاح ما يمكن اصلاحه انطلاقاً من النقطتين السابقتين ، فان في ذلك رضا الله ، وبناء الانسان على خط الاستقامة في خط الاسلام مهما أمكن لنحقق حكم الله ولو في المجالات الجزئية ليبقى حياً ماثلا أمام الناس ولو في صورة مصغرة غير كاملة ، وليكون دوره في عملية التغيير دور النموذج الطيب الذي يعطي الناس الفكرة المجسدة ، ولو في قضية محدودة ، ولا يمنعنا ذلك من الانطلاق بعيداً في عملية التغيير الشامل في اطار الخطة الشاملة لأننا لا نعتقد بوجود تناقض أو تضاد بين الاتجاهين ، لأن الاسلوب الاسلامي في العمل لا يعتبر العنف وسيلة وحيدة للتغيير ، بل يعتبر الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، هي الوسيلة المثلى الطبيعية التي تملأ الوجدان بالايمان وتغير الانسان على صورة الحق بالطريقة الطوعية الاختيارية التي تجعل من الايمان موقفاً ذاتياً للانسان ينطلق من تفكيره ، لا من تعليمات فوقية تأتيه من الآخرين ، فيسير في عملية التغيير لما حوله بثقة وواقعية .

وربما كان الاسلام يرفض النظرة الماركسية التي تؤمن بالعنف كأساس وحيد للتغيير ، وتفسح المجال لخلق مشاكل جديدة ، وتعقيد المشاكل الحاضرة لتعطيل مسيرة الاصلاح الجزئي ، وليس معنى ذلك أن الاسلام يرفض العنف كمبدأ ، حتى في المجالات التي تتجمع فيها القوى الشريرة لتقف سداً منيعاً أمام تقدم الإسلام في الدعوة وفي العمل ، بل الاسلام ، في تشريعه الواقعي ، يتبنى العنف الدفاعي المتمثل في رد العدوان بمثله ، كما يوافق على العنف الوقائي الذي يتمثل في مهاجمة الآخرين من موقع حماية الاسلام من الهجمات التي يستعد العدو لتوجيهها للمسلمين ، وان لم يبدأ الهجوم بعد .. فان القضية

هي ان العنف ليس القاعدة الأساسية في عملية التغيير .

وعلى ضوء هذا يمكن لعملية الاصلاح ان تسير جنباً الى جنب مع خطة التغيير الشامل ، بل قد تقوم الاولى بدور الاعداد للثانية اذا راعينا في مسيرتنا التخطيط المرحلي الدقيق الذي يوزع الخطة على عدة مراحل ، فيمكن للانسان المسلم أن يعمل في النطاق الفردي الذي يبني الأفراد المسلمين ، ويمكن للأفراد المسلمين أن يعملوا في النطاق الاجتماعي من أجل تحقيق مجتمع اسلامي صغير ، ثم يشترك الجميع في التخطيط العملي ، والتنفيذ المرحلي لقيام حكم اسلامي شامل ، لان ذلك كله يتحرك في الخط الذي يحقق رضا الله في القضايا الصغيرة والكبيرة .

ففي المجال الفردي : اذا استطعنا أن نقنع انساناً بالصلاة أو بالصوم أو بالحج أو بغيرها من الواجبات العبادية أو غير العبادية ، أو أن نساعده على ممارسة ارادته الاسلامية في ترك بعض المحرمات كشرب الخمر أو الزنا أو القمار أو الكذب أو الغش أو الخيانة وغيرها من المحرمات ، مما يدخل في فعل الطاعات واجتناب المعاصي . . فلنتحرك في هذا السبيل ، من قاعدة الوجوب لا من قاعدة الاستحباب أو الاباحة التي لا تلزمنا بالعمل بل تتركه لاختياراتنا الذاتية ، وعلينا أن لا نلتفت الى قول من يقول : ان هذا عمل جزئي صغير لا يحقق هدفاً كبيراً ولا يتناسب مع حجم العمل الاسلامي الضخم ، بل يجب علينا أن نقف مع حكم الله الذي يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأشياء الصغيرة والكبيرة واجباً اسلامياً كفائياً على المسلمين جميعاً لأن هدف الاسلام أن يبقى الانسان المسلم الفرد انساناً مسلماً بكل الامكانيات التي يملكها في تطبيق حكم الاسلام على نفسه . . أما

حكاية عدم تناسب هذا العمل مع حجم العمل الاسلامي الضخم ، فانها حكاية ساذجة تمثل سذاجة الفهم الحركي للعمل ، لان من أولى خطوات الأعمال الكبيرة هي الخطوات التي تربح فيها أشخاصاً وتربيهم على صورة العمل فكرة وعملا وأسلوباً . . لان ذلك هو الذي يحقق عملية الارتباط العضوي بين الوسيلة والهدف .

* * *

وفي المجال الاجتماعي ، يمكن للمسلمين أن يندفعوا في تغيير بعض الأحكام والقوانين المخالفة للاسلام اذا وجدوا الى ذلك سبيلا ، أو يعملوا على رفض الدعوات التي تريد الغاء اعتبار الاسلام ديناً رسمياً للدول التي تسمي نفسها بالدول الاسلامية ، كما نجده في بعض الحالات التي تثور فيها الجماعات الكافرة أو الضالة على هذه المادة القانونية باعتبار أنها تتنافى مع الاتجاه التقدمي للدولة أو الحقوق العامة للمواطنين غير المسلمين . . . فقد يكون من الواجب علينا أن نقف ضد هؤلاء لاننا نريد لهذا الشعار أن يبقى حياً ماثلا في أفكار الناس وفي حياتهم العامة ، ليشير اليهم دائماً أن من الممكن أن يكون الاسلام في المستقبل نظام هذه الحياة الشامل ، ويمنحنا الرصد المستمر للقوانين غير الاسلامية التي تقررها هذه الدولة أو تلك على أساس هذه المادة القانونية ، ولا يتنافى ذلك مع عدم اعترافنا بواقعية هذه المادة في اطار القانون العام للدولة . . ولكنه الاسلوب الذي يريد أن يبقى الاطار العام للصورة وان حاول الآخرون تبديل الصورة أو تشويهها داخل الاطار . . وقد يعتبر بعض الناس هذا الاسلوب داخلا في عملية تزييف الصورة الاسلامية عندما تبرز الواجهات غير الاسلامية في اطار اسلامي ولكن . . قد يكون ذلك في الأساليب التي يستريح فيها العاملون لمثل هذا الواقع فيتركون العمل في رصد الجوانب العامة

للانحراف ، اكتفاءً بهذا الاطار ، ولكننا نظل نتحرك في عملية ربح للمواقع وتحريك للمواقع الأخرى في اتجاه التصحيح . . لئلا تختلط المواقف في وعي الناس للحياة على ضوء الاسلام وقد يجب علينا أن نتحرك في اتجاه حماية الوجود القانوني للأحوال الشخصية للمسلمين في نطاق المحاكم الشرعية من الحملات التي تشن عليه باسم الدعوة الى العلمانية ، وتوحيد التشريعات القانونية للأحوال الشخصية للمواطنين ، لأن القضية ـ في هذه الحملات والدعوات ـ أن يتجه التفكير الى اعتبار الدين غير صالح للتقنين والتشريع لحياة الناس ، واعتبارهما شيئاً يتعلق بارادة الناس واختيارهم مما يتنافى مع الاساس الفكري للاسلام ، ويؤدي بالتالي ، الى كثيرٍ من التعقيدات العملية في المستقبل من أجل تغيير هذه الفكرة من حياة الناس الفكرية والعملية ، هذا من جهة . . ومن جهة أخرى فان هذا الالغاء يوجه الناس الى الانحراف في حياتهم عن أحكام الاسلام ، بالالتزام بأحكام غير اسلامية مما يخلق عندهم ازدواجية في أوضاعهم العامة ، ويوقعهم في مشاكل كثيرة في قضاياهم الخاصة .

أما في الاطار السياسي ، فربما كان من الضروري العمل على المشاركة في اضعاف الحكم الظالم وتحطيم قوة الظلم والظالمين ، لتخفيف وطأة الظلم على الواقع المعاش للناس . . وقد يلزمنا في هذا المجال ، التوفر على دراسة الظروف الموضوعية التي تعطينا فكرة عن طبيعة النظام البديل الذي يأتي على أنقاض هذا النظام الذي يراد تهديمه ، أو طبيعة الشخص البديل في حالة العمل على تبديل الأشخاص ، لأن لذلك أهمية كبيرة في الخطوات العملية التي تقتضيها طبيعة المرحلة ، اذ لا يجوز في أية حالة من الحالات ، العمل على تبديل واقع سيىء الى واقع أشد سوءً اذا كان التبديل الى الواقع الخيِّر

غير عملي في نطاق المرحلة ، بل ربما يكون الموقف هو الاصرار على المنع من عملية التبديل هذه بمختلف الوسائل المشروعة . . ولا بد في هذا كله من مواجهة الموقف بدراسة موضوعية شاملة في اطار الوعي السياسي المتكامل . . ومن التأكيد على الابتعاد عن الروح الانفعالية التي تنطلق الى العمل من خلال الأسلوب الانفعالي الذي يتجه في خطواته الى ما يشبه ردود الفعل للواقع بعيداً عن أية خطوة ، في موقع الفعل المستقل . . وقد يجب علينا ـ في هذا المجال ـ أن لا نستسلم للضغوط العاطفية التي تريد منا التحرك بأي ثمن ، وبدون تفكير في العواقب والنتائج ، انطلاقاً من الزهو الذاتي بالمواقف الجهادية ، أو تخلصاً من اتهامات الآخرين لنا بالبعد عن روح الاسلام في الجهاد (من دون تفكير منهم بطبيعة هذا التشريع الاسلامي من خلال ظروفه وأساليبه) وبكلمة مختصرة : ان علينا أن نعرف طبيعة الأوضاع السياسية المعقدة التي يتحرك فيها العمل السياسي في المنطقة وفي العالم ، لئلا نكون خاضعين في تحركنا ـ لتأثيرات سياسية مضادة لما نؤمن به أو نعمل له ، من دون وعي أو شعور ، وذلك بدراسة الخلفيات السياسية للموقف والتطلعات المستقبلية للحركة المطروحة على صعيد الواقع .

* * *

إن علينا أن نواجه الحقيقة الحاسمة في نظرتنا إلى العمل وأساليبه ، وهي أن الإسلام لا يريد للحياة أن تعيش الفراغ من جهة حكم الله في أية مرحلة من مراحلها فلا يجوز لنا أن ننتظر زمناً طويلاً لنطبقه ، فنبقي الحياة فارغة من الرسالة في مجالها العملي ، بل لا بد لها من أن تتحرك مع الإنسان في جميع مجالاته ، وبهذا كان الإسلام أمانة الأفراد المسلمين والمجتمع المسلم من جيل إلى جيل ، حيث

يحملونه بالكلمة والفكرة والعبادة والعمل ، لتفرز الكلمة كلمة جديدة تنطلق في وعي الأمة على امتداد الطريق ، ولتتحرك الفكرة في عمق الإنسان من أجل أن تبدع الفكرة على صورتها ومثالها ، ولتنطلق العبادة إلى جانب العمل لتشهد الله على أن عبودية الإنسان لله وخضوعه له لا يحدها زمان ولا مكان ، ولتحقق هذه الأمور كلها الفكرة التي تقول : إن الإنسان إذا لم يستطعٍ أن يحل المشكلة على نطاق واسع ، فإنه يستطيع أن يقترب ، ولو قليلاً من روحية الحل أو من الأجواء التي تساهم في الاعداد له .

إننا نرفض الفكرة التي تدعونا إلى الامتناع عن الأعمال الإسلامية الوعظية التي يراد منها صنع الفرد السلم على قاعدة روحية ، وربطه بالله من خلال العبادة والعمل ، لأننا نعتقد ـ كما ألمحنا إلى ذلك في بداية الحديث ـ أن الحكم الإسلامي ـ عندما يكون هدفاً ـ لا يراد به إلا تحقيق رضا الله ، وفي هدى ذلك نقرر . . أن تحويل الإنسان إلى إنسان يؤمن بالله ، هو هدف من أجل رضاه وإن تربية الإنسان على العبادة هو هدف من أجل رضاه ، وإن عمل الإنسان المسلم من أجل تعليم الناس كيف يصلون لربهم ، وكيف يمارسون العمل على أساس قوانين الإسلام ، في العمل ، وكيف يتحركون في السوق على الخط الإسلامي في التجارة ، وكيف ينطلقون في الحياة العامة ليعبروا بالتطبيقات الإسلامية الجزئية عن المفاهيم الإسلامية الكلية كنموذج حي للفكرة . . إن هذا كله هو هدف من اجل رضا الله .

اننا لا نتعامل مع المصطلحات السياسية التي تطرح القضية على أساس المفاضلة بين الثورة والاصلاح ، بل نتعامل مع حكم الله أينما كان ، ومع كلمات الله التي عبرت عن الفكرة الشاملة بكلمة التغيير التي تتحرك في حياة الفرد والمجتمع والدولة ، ولهذا نختارها بدلا عن كلمة الثورة . . . وليس معنى ذلك اننا لا نملك أو لا نريد أن نضع

خطة عمل شاملة تجعل لكل عمل موقعه الطبيعي فان ذلك هو دور الرواد الذين يتحركون من أجل تحريك طاقات الأمة وتفجيرها في كل اتجاه تقتضيه مصلحتها ، ويظلون يفكرون ويخططون من أجل أن تتحول الطاقات الى خطوات عملية تسير في طريق الهدف الكبير الذي يحقق حكم الله على الاساس الشامل .

انها فكرة أحببت أن أثيرها أمامكم من أجل أن نفكر فيها بهدوء لئلا نبقى مشدودين الى أجواء الآخرين من خلال مصطلحاتهم السياسية وغير السياسية ، لانها انطلقت من طريقتهم في التفكير ، في الوقت الذي نملك فيه مصطلحاتنا التي ترتبط بتفكيرنا وبأحكامنا الشرعية ، وذلك هو الأساس في الأصالة الفكرية والعملية . . أن تكون أصيلا في مفاهيمك ومصطلحاتك وكلماتك ، وفي فهمك لقضايا الحياة ، وفي أسلوبك للتعامل معها على اساس التفكير الاسلامي الأصيل .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لكل سؤال جواب

- الدين والسياسة والاقتصاد وغيرهما .
- التبشير وخطره في المجال التربوي .
- الشباب أمام الأفكار الوافدة .
- شبهات حول المرأة ، تعدد الزوجات ،الحجاب ،قيمومة الرجل على المرأة ، جعل الطلاق بيد الرجل ، ونصيبها في الميراث .
- تفسير آية : والذين يرمون المحصنات .
- المرأة المسلمة وموقفها أمام تطور الأزياء .
- سؤالان أدبيان :
- ما هي رسالة الأديب في الحياة اليوم ؟
- ما هي مؤهلات الطالب ليكون أديباً ؟

أجرت مجلة المواقف التي تصدر في البحرين حواراً مع سماحة السيد محمد حسين فضل الله حول كثير من المواضيع الاسلامية والسياسية ، ونحن نقتطف منها بعض الأسئلة والأجوبة التي تتناسب مع الطبيعة الثقافية الاسلامية لهذه الحلقات .

* * *

الدين والسياسة والاقتصاد و . .

س ١ : البعض يقول بفصل أو انفصال الدين عن السياسة والاقتصاد أو غيرهما من مجالات الحياة . . فما هو ردكم على ما يقولون ؟

ج ١ : انني أعتقد أن هذا الرأي كان منطلقاً من النظرة الى الدين في اطار الممارسات التي عاشها الدين في بعض المناطق الأوروبية .

ولا أعتقد أن الاسلام يسمح بهذه النظرة . . لاننا نعتقد أن الاسلام يحتضن فكرة الدولة في مفهومه للحياة وفي تشريعه الذي يتسع

ـ في اطـار الفقـه الاسـلامي ـ لمختلف جـوانب الحيـاة السيـاسيـة والاجتمـاعيـة والاقتصـاديـة بحيث ان أقـل قـراءة واعيـة للمـواد الفقهيـة القـانونيـة تدفـع الانسان الى الإقتنـاع بهذه الحقيقـة . . واذا كان بعض المفكرين المسلمين يناقشون في وجود نظريات اسـلامية للحكم أو عـدم وجـود مثل هـذه النظريـات فان الكثـرة الاخرى لا تـرى هـذا الـرأي بـل تعتبر قضية الحكم أساسية في مفهوم الاسلام للحياة .

اننا نعتقد أن مشكلة الكثيرين ممن يطرحـون هذه الشعـارات حول الـدين ، انهم لم يقـرأوا الاسـلام قـراءة واعيـة من خـلال تشـريعـه ومن خلال ممارسته العملية عندما كان يقود الحيـاة في جميع مجـالاتها بحيث لم يتـرك أي فراغ فكـري أو تشـريعي يشعـر النـاس معـه بحـاجتهم الى غيـره ، ولذا فـاننا نـدعوهم الى قـراءة الاسلام من جـديـد ، ونـدعـوهم ـ بكل محبة ـ الى الحوار حول هذه الشعارات بـالأسلوب الفكري الـذي يحترم وجهة نظر الآخرين ، كمـا يريـد من الاخرين ان يحتـرموا تفكيـره ولا نريد لهذه القضايا أن تعيش في ظل المـزايدات السيـاسية التي يـريد فيها كل طرف أن يسجل نقطة ضد الفريق الآخر ليتحـول الموضـوع الى ما يشبه « حوار الطرشان » .

اننـا نجد في الاسـلام كل الغنى الـروحي والفكـري والاجتمـاعي والسياسي ، وان كنا نشعـر بالحـاجة الى دراسـة فقهية جـديدة تضـع في حسابها صياغة الفقـه الاسلامي بـأسلوب قانـوني على أساس لغـة العصر وحاجاتـه لأن مثل هـذه الدراسـة تسهل مهمـة الدارسين والبـاحثين الذين يريدون أن يعرفوا الحقيقة من أقرب طريق .

اننـا نعتقد أن الاسـلام لا ينفصل عن السيـاسة ولا عن غيـرهـا من مجـالات الحياة لانـه لا ينفصل عن الحيـاة في مختلف نشاطـاتها العـامة

والخاصة ، على هدى الآية الكريمة التي تحدد الأهداف الكبرى لبعثة الأنبياء بالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وذلك هو قوله تعالى :

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . . » ٢ ـ ٢١٣ .

التبشير في المجال التربوي :

س ٢ : المدارس التبشيرية أصبحت منتشرة في كثير من البلاد الاسلامية ، والاقبال عليها من قبل بعض المسلمين صار ملحوظاً فما رأيكم بهذه الظاهرة ؟ وما هي ابعادها ؟ وما العلاج ؟؟

ج ٢ : اننا نشعر بالخطر الكبير الداهم على الاسلام والمسلمين في انتشار المدارس التبشيرية نظراً الى أن المخطط التبشيري يعتمد الأساليب التربوية ـ في ضمن خطة شاملة ـ في ابعاد المسلمين عن دينهم الحق وربطهم بدين آخر ، أو تشكيكهم في دينهم ، ولعل الاخير هو الحاصل فعلا . . ويحاول ان يثير في وعي الناس وفكرهم الشعور بالمستوى الكبير الذي تمثله هذه المدارس من ناحية علمية ، الامر الذي يدفع الكثيرين من المسلمين الى ادخال أبنائهم في هذه المدارس لرفع مستواهم العلمي .

ونحن ـ في الوقت الذي نسجل فيه تحفظنا على ما يثار من المستوى الكبير العلمي عنها ـ نشعر بالحاجة الى انشاء مدارس علمية اسلامية في مستوى جيد ، لتسد هذا الفراغ ، وتمنع هذا الخطر على عقائد أبناء المسلمين ، ولا يقتصر الأمر ـ في هذا ـ على الخطر التبشيري بل يمتد ـ في مدارس أخرى ـ الى الخطر الالحادي

وغيره . . . ونعتقد ان ما ذكرنا هو العلاج الطبيعي لهذه الحالات . . أما أبعاد هذه الظاهرة فهي كثيرة . . . ولعل أهمها افساح المجال للمخططات السياسية وغير السياسية التي تتستر وراء التبشير من أجل السيطرة على الانسان المسلم وثرواته الطبيعية والاقتصادية وننصح ـ في هذا المجال ـ بقراءة كتاب « التبشير والاستعمار » .

اننا لا ننطلق ـ في حديثنا هذا ـ من موقع التشنج الطائفي السياسي ، بل كل ما نريد آن نقوله ، هو أن المؤسسات التبشيرية كانت منسجمة مع نفسها في انشاء هذه المدارس . . فلماذا لا نكون منسجمين مع مصلحتنا الاسلامية والوطنية في رفض هذه المدارس وانشاء مدارس جديدة نعرف خلفياتها ومنطلقاتها ، لاننا نحن الذين نقوم بصناعتها من خلال خلفياتنا ومنطلقاتنا التي نعرفها جيدا لاننا نعرف أنفسنا كما لا يعرفها الآخرون .

* * *

الشباب أمام الافكار الوافدة :

س ٣ : في خضم الافكار الوافدة من هنا وهناك التي تجلى خطرها في بلبلة وضياع من انساقوا وراءها وانجرافهم في تيارها ، بماذا تنصحون شبابنا وشاباتنا وهم يصارعون هذه الافكار أو تصرعهم ؟

ج ٣ : ربما لا أريد أن أتخذ لنفسي صفة الواعظ والناصح الذي يريد أن يقدم المواعظ والنصائح لشبابنا من موقع فوقي . . . لان كلمات الوعظ والنصيحة قد استهلكت حتى لم تعد تمثل شيئا لدى القائل والسامع ، ولكني أريد أن أقف لأفكر معهم في قضية أساسية ، وهي ان موضوع الايمان بفكرة والارتباط بها ، أو الدعوة اليها لا يمثل شيئاً ذاتياً يتصل بالحالة الفردية للانسان ، ليملك أمر الوقوف موقف

اللامبالاة منها تارة ، أو موقف التنقل من موقع الى موقع آخر ، تارة أخرى ، أو المسامحة في ملاحقة جوانبها الفكرية والعملية في كثير من المجالات ، بل هو من القضايا التي تمثل قضية المصير للفرد وللأمة فاننا عندما ندعو الى أي فكر ، فمعنى ذلك أننا ندفع مصير الامة في هذا الاتجاه ، واننا نتحمل مسؤوليته في كل نتائجه أمام الله وأمام التاريخ ، مما يجعل القضية في مركز الخطورة في الدنيا والآخرة . . ولهذا فانني أعتقد أن علينا جميعا ـ ان نقف ـ من موقع المسؤولية ، وقفة هادئة عميقة ، لنقارن ونوازن وندرس ونحلل كل ما يقدم الينا من تيارات وأفكار ، لنختار الأصلح من بينها أو الأسلم لنا في كل خطوات المصير ، لانه لا يكفي أن يعيش الانسان المشكلة ليندفع وراء أي حل لان بعض الحلول المطروحة قد تطرح مشاكل جديدة أكثر ضخامة من المشاكل القديمة ، مما يجعلنا نعيش في دوامة فكرية وحياتية .

وقد يقربنا من هذا الموقف معرفتنا بالطبيعة الذكية المخادعة التي تتحرك فيها أجهزة الاعلام الفكرية والسياسية في العالم ، عندما تسخر كل ما تملكه من قوى العلم والضغط الفكري والمادي في سبيل تركيز مبادئها وأفكارها ، الأمر الذي يجعلنا نواجه أساليب الاعلام السياسية والحزبية والفكرية بحذر علمي وروحي دقيق ، لئلا نقع في الهوة دون وعي .

وفي نهاية المطاف أرجو أن ينفتحوا على الاسلام بكل ما فيه من غنى روحي وفكري وتشريعي في جميع جوانب الحياة ، وأن لا يحكموا على الاسلام من خلال الكلمات غير المسؤولة أو غير المدروسة من التي تنطلق من رجاله أو غير رجاله ، بل يعملون على دراسته من خلال دراسة مشاكل الحياة ، أو من طبيعة الحلول التي

يقدمها في ينابيعه الأصيلة ، لنحصل من خلال ذلك على النتيجة الحاسمة التي تجعل منه دين الحياة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولتقف بنا ـ في نهاية المطاف ـ على الخط المستقيم الذي يجعلنا نتطلع الى رضا الله في كل شيء ، لان من عرف ربه عرف نفسه ، ومن أرضى ربه فقد قاد حياته في الاتجاه السليم ، حيث سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

* * *

س ٤ : دار نقاس حول ما يثار بين آونة وأخرى من شبهات حول المرأة ، لأكثر من قصد ، هذه الشبهات التي يثيرها أعداء الاسلام تارة ، وبعض أبناء المسلمين تارة أخرى ـ اما جهلا أو عناداً لاشعار المرأة بأنها « مظلومة » وبالتالي جعلها تتطلع وتنخدع بما يصدره لها اعداؤها في كل مكان من أفكار لا تتفق ومكانتها السامية التي وضعها الله فيها وكرّمها بها .

والسؤال هو : ما أكثر الذين اتهموا الاسلام ـ ولا يزالون ـ بانه « رجعي » بالنسبة للمرأة ويستدلون على ذلك بتعدد الزوجات ، الحجاب ، والطلاق بيد الرجل ، وقيمومة الرجل على المرأة ، ونصيب الرجل المضاعف في الميراث . . وعلى هذا فان الاسلام قد « ظلم » المرأة فى نظرهم ، فما هو ردكم على مثل هذه التهم ؟؟

* * *

ج ٤ : لعل مشكلة الكثيرين الذين يتهمون الاسلام بالرجعية والظلم للمرأة ، او غير ذلك من النعوت . . انهم لا يملكون دراسة عميقة للآفاق التي يتحرك فيها التشريع الاسلامي ، أو تعيش فيها مفاهيم الاسلام . . ولذلك فاننا سنحاول أن نتحدث بايجاز عن بعض هذه الآفاق الاسلامية للتشريع في موضوع المرأة بالذات .

في البداية هناك سؤال يفرض نفسه . . لماذا يكون التشريع ؟ هل هو لحل المشكلة من جوانبها الواسعة ، أو هو مجرد تجربة في ملامسة بعض جوانبها . . ؟

وفي الجواب على هذا السؤال نختار الطرف الاول منه الذي يفرض في التشريع أن ينظر الى المشكلة بعينين مفتوحتين ، لا بعين واحدة . . وهنا يأتي دور التشريع الاسلامي لتعدد الزوجات لنضعه في اطاره الواقعي في الحياة لنسأل من جديد . . .

لماذا العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة في الدوافع الطبيعية للانسانية ؟

وتبرز أمامنا ـ في الجواب ـ عدة دوافع :

١ ـ مواجهة متطلبات الغريزة الجنسية في اشباعها بصورة طبيعية .

٢ ـ مواجهة حاجة الانسان الى الشعور بامتداد حياته في أولاده .

٣ ـ مواجهة الحاجة الروحية الى الطمأنينة النفسية والسكن الروحي الذي يدفعه الى ان يعيش بهدوء وانفتاح كلي مع انسان آخر من دون أي حواجز أو حدود تقف بينه وبينه حتى في الجوانب الحسية .

لعل هذه هي أبرز الدوافع التي يتحرك من خلالها الانسان ـ الرجل والمرأة ـ ليرتبط بانسان آخر .

ويعود السؤال ليطرح نفسه من جديد . . .

ما هو الحل في الحالات التي لا يتوفر فيها اشباع الغريزة

الجنسية في الزواج الواحد ، بسبب السعار الغريزي ، أو بسبب الأوضاع النفسية التي تفرض نفسها على العلاقة الواحدة في حركة سلبية ، من خلال المؤثرات الداخلية أو الخارجية في الانسان . . .هل يطلب من الانسان الانحراف في علاقة غير شرعية ، أو يطلب منه كبت الأوضاع الخاصة التي تتحرك في داخله أو يفتح له مجال الممارسة الطبيعية لعلاقة زوجية أخرى في اطار من التنظيم الدقيق الذي يلتقي فيه بالايجابيات العملية في هذه العلاقة . . ماذا يطلب منه أمام هذه التساؤلات ؟

ان السماح له بالانحراف يمثل انهزام التشريع أمام المشكلة ، كما ان مواجهة المشكلة بتجميد أسبابها أو بتخديرها لا يعتبر حلا واقعياً يحترم فيه التشريع نفسه . . فلا يبقى الا الحل الثالث الذي يواجهها بشجاعة وواقعية . . . فهو الذي يفرض نفسه في نهاية المطاف .

ولعل النظرة الى واقع العلاقات الجنسية في العالم يضع أيدينا على أن تعدد هذه العلاقات يعتبر ظاهرة عامة تدل على طبيعة الدوافع التي تدفع الانسان الى ان يتجاوز العلاقة الواحدة ويبحث عن مجال لذلك فينحرف عن الخط الصحيح ، بينما يقف الاسلام ليضع له خطواته في الطريق المستقيم .

وقد يظن البعض ان قضية الجنس لا تبعث على هذا الاهتمام الكبير . . . ولكن الرأي خاطىء ، لأن واقع الحياة أثبت لنا أنها تتدخل في كثير من المشاكل العميقة التي تقود الى الانحراف في أكثر من جانب من جوانب الحياة على ما نستوحيه من الحديث النبوي المشهور . .

« من تزوج فقد أحرز نصف دينه ، (أو ثلثي دينه) فليتق الله في النصف الآخر (أو في الثلث الاخر) » فانه يوحي بأن الاكتفاء الجنسي للانسان يخلق لدى الانسان المناعة ضد الانحراف في الكثير من نوازع الانحراف أو في أكثرها نظرا لما لها من التأثير الكبير على جوانح الانسان وجوارحه .

وقد يقول قائل : لماذا نحرم المرأة من هذا « التعدد » ما دامت الحاجة الغريزية مساوية لحاجة الرجل ؟

ولكننا نعرف من خلال الواقع ، ومن خلال دراسة الجانب الغريزي في المرأة والرجل . . . أن طبيعة الحاجة التي تقود الى الانحراف في اطار العلاقة الواحدة لا تصل في المرأة الى هذا المستوى في الحالات العامة التي ينطلق منها التشريع . . وقد نستطيع التعرف الى هذه النقطة عند القيام باحصائية عامة في الحالات التي تشعر فيها المرأة بالحاجة الى تعدد العلاقة مع أكثر من رجل ، كنتيجة للحاجة الى الاشباع الجنسي ، فاننا سنكتشف أن هذه الحالات لا تخرج عن الحالات القليلة الشاذة التي لا تخلق ما يشبه الظاهرة العامة التي يتحرك التشريع لمعالجتها . . وقد نقترب من هذا الجانب . . . اذا عرفنا أن الغريزة الجنسية معقدة لدى المرأة بحيث تحتاج اثارتها إلى اعداد نفسي وجسدي طويل ، بينما نجدها لدى الرجل ليست محتاجة إلا الى بعض الاثارات العابرة في أغلب الحالات . . مما يجعل حركة الغريزة لدى الرجل سريعة طاغية تجتاح كيانه ونزواته في كل وقت . . . ولسنا هنا في معرض التحليل الشامل لهذه النقطة ، بل نحن هنا من أجل اعطاء فكرة سريعة حول هذا الموضوع .

ويعود السؤال ليطرح نفسه من جديد ، في موضوع تشريع تعدد

الزوجات . . .

قد لا ينجح الزواج في تلبية الحاجة الى الأبوة نتيجة عقم الزوجة ، فهل نطلب منه الصبر على هذا الحرمان ، أو نطلب منه طلاق المرأة ، او نوحي له بتعدد العلاقة ؟

اننا نعتقد أن الحل الاخير يحفظ للمرأة حياتها الزوجية ، ويلبي للرجل حاجته مما لا يشعر الزوجان معه بالاحراج أمام هذه الحاجة ، بينما يبتعد الحل الاول عن الاطار الواقعي للمشكلة . . ويسيء الحل الثاني للعلاقة الحميمة الروحية التي قد تشد احدهما الى الآخر مما يجعل من الطلاق مشكلة روحية وحياتية لكلا الزوجين . .

وقد نجد في الزواج المتعدد حلا لمشكلة المرأة في الحالات التي تفقد فيها الأمة رجالها في الحروب وفي غيرها ، باعتبار ان الرجل هو الذي يمارس صناعة الحرب في أغلب الأحيان . . مما يسبب وجود الكثيرات من النساء من دون زوج نتيجة قلة عدد الرجال ، الأمر الذي يخلق جوا من الانحراف اذا لم نسمح بالزواج المتعدد .

ان هذه القضايا وغيرها قد تصلح تفسيراً لهذا التشريع في انطلاقته الاولى من أجل أن يواجه الاسلام المشكلة من منطلق الواقع لا من منطلق المثاليات البعيدة عن الواقع .

ولم يترك التشريع الاسلامي لهذه العلاقة المتعددة ان تنفلت وتتحرك في جو غير مسؤول ، بل حاول ان يحددها بحدود العدل في النفقة والمعاشرة ، ليخفف الكثير من السلبيات الناشئة من التعدد ، التي لا يمكن أن يخلو منها اي تشريع . . لاننا لا نستطيع أن نجد تشريعاً الزامياً أو ترخيصياً خالياً من السلبيات ، أو تشريعاً تحريمياً خاليا

من الايجابيات ، بل القضية كل القضية هي زيادة نسبة السلبيات على الايجابيات ليفرض التحريم أو الكراهية أو زيادة نسبة الايجابيات على السلبيات ليفرض الايجاب والاباحة والاستحباب . . وهذا هو ما نستوحيه في الآية الكريمة التي تتحدث عن الخمر والميسر . .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . [سورة البقرة : ٢١٩] .

ولعل المجال لا يتسع لأكثر من هذا الحديث حول موضوع تعدد الزوجات فليطلب التوسع في الكتب الواسعة التي عرضت للجانب التحليلي والأخلاقي لهذا التشريع .

* * *

أما قضية الحجاب التي تمثل الاحتشام المتزن في الثياب التي تلبسها المرأة فتستر بها جميع أجزاء جسمها فيما عدا الوجه والكفين . . فانها تمثل التشريع الذي اراد الاسلام من خلاله أن يوحي باحترام المرأة لدى نفسها ولدى الآخرين عندما يريد لها أن تخرج في المجتمع كانسانة لا تثير الغرائز ، بل تثير الاحترام ، مما يجعل صورة المرأة تتحول في وعي الأخرين ، من كائن جنسي لا وظيفة له الا اثارة الرجل واشباع شهوته ، الى كائن يتفاعل مع الحياة في فكره ونشاطه وعلاقاته العامة . . . ونحن نعلم أن طبيعة التبرج ، لا سيما في الأجواء التي نواجهها في هذا العصر ، يجعل النظرة العامة تتحرك في اطار الجنس لا في اطار آخر . . ولسنا نقول هذا بدافع ذاتي تقليدي يراد منه تبرير النظرة الاسلامية في هذا التشريع ، بل من موقع الاحصائيات العامة في هذا المجال .

وبكلمة واحدة . . ان الاسلام يريد لعلاقة الرجل بالمرأة في

المجتمع أن تعيش في جو نظيف طاهر ، ولا بد للتشريع من أن يعمل على حماية هذا الجو في كثير من مجالات الواقع ولهذا تتحول القضية الى جانب العدل بدلا من ان تقف في جانب الظلم ، لان قضية العدل والظلم تعيش في اطار انسانية الانسان ومصلحته العامة ، لا في اطار شهوته الحيوانية ومصلحته الذاتية .

* * *

ونأتي الى موضوع « قيمومة » الرجل على المرأة ، لنتساءل هل القيمومة بمعنى « السيطرة » أو بمعنى الادارة والرعاية ؟ . . .

ثم . . هل هي في اطار علاقة الرجل والمرأة بصورة مطلقة ، أو هي في اطار العلاقة الزوجية فقط ؟

والجواب : ان « القيمومة » ليست السيطرة والسيادة التي تجعل الرجل مطلق الصلاحية في كل شيء ، بل بمعنى الادارة والرعاية التي تمنحه الحق في تطبيق الحقوق الزوجية وادارة شؤون البيت الزوجي من دون ان يكون له أية صلاحية خارج هذا النطاق مع زوجته أو مع أية امرأة اخرى حتى لو كانت ابنته . . فليس له ان يتصرف في مالها او في أي شأن من شؤون حياتها الخاصة والعامة فيما لا يتعارض مع حقوقه الزوجية الخاصة وليس له أن يلزمها بأي عمل من أعمال البيت أو أعمال الرعاية المباشرة لأولادها حتى في الارضاع . . وليس له ان يعتدي عليها بالضرب أو بالكلام أو بأي شيء آخر الا في بعض الحالات التي تتمرد فيها على حقوقه الخاصة ، وتتحول الى انسانة تعمل على تهديم البيت الزوجي فان للزوج أن يمارس بعض الأعمال التأديبية التي يراد منها ارجاعها الى الصواب . . وهكذا نجد أن القيمومة لا تعطيه أية صلاحية ذاتية أو مزاجية فيما يتنافى مع قيمة

المرأة كانسانة مستقلة حقوقياً وانسانياً ، فيما عدا القيود التي تفرضها طبيعة العلاقة الزوجية الخاصة . . . أما منطلق هذه القيمومة فقد جعلها الله في نقطتين أساسيتين أشار اليهما الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد :

الرجال قوّامون على النساء بما فضَّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ٤ ـ ٣٣ . احدهما تفضيل الله الرجل ببعض الخصائص التي تجعله أقدر على ممارسة هذه الادارة ، وربما يكون من بينها قوة الجانب العاطفي لدى المرأة ، وربما يكون من بينها عنصر الأمومة في حالات الحمل والارضاع وغيرها من الامور التي تمنعها من ممارسة ذلك ، وربما يكون هناك شيء آخر لا نعلمه .

وثانيهما : انفاق الرجل على البيت كمسؤولية مما يجعل له الحق في الاشراف عليه ، وبكلمة واحدة . . الزواج شركة حياة فمن الذي يدير الشركة ما دامت لا تقبل ان تتمثل برأسين ، هما الرجل والمرأة . . ان الاسلام يطرح الرجل كمدير ومدبر ومشرف ، لان المرأة لا تستطيع ممارسة ذلك بشكل كامل من خلال وضعها الجسدي ، ومسؤوليتها الأمومية . . ولا يمنع هذا من أن تكون لها بعض الجوانب التي تملك فيها الحرية خارج نطاق الحق الزوجي سواء في ذلك جانب العمل أو جانب التملك أو جانب العلاقات العامة . . أو في امتناعها عن القيام بخدمات البيت المعتادة . . حتى الارضاع وتربية الأولاد ـ كما ألمحنا اليه آنفاً ـ فان التشريع الاسلامي يجعل هذه الاعمال في دائرة الاعمال التي تستحق عليها المرأة الأجرة ، كأي عامل آخر في أي حقل من حقول العمل ، الا في الحالات التي تدخل فيها هذه الخدمات في ضمن العقد كشرط من الشروط الضمنية او الصريحة . .

لأن المؤمنين عند شروطهم الا شرطاً أحل حراما أو حرم حلالا . .

* * *

أما جعل الطلاق بيد الرجل فيمكن أن يخضع تفسيره لعاملين :

الاول : ان الرجل هو الذي يتحمل المسؤولية المالية للعلاقة الزوجية سواء لجهة دفع المهر او للقيام بالنفقة . . وهو الذي يتضرر من خلال انهاء هذه العلاقة « بعيداً عن الواقع الاجتماعي الذي يضع المرأة في ظروف غير مستقرة اقتصادياً » وبهذا كان له الحق في ابقاء هذه العلاقة وانهائها .

الثاني : ان قوة الجانب العاطفي لدى المرأة قد يجعلها تسيء استعمال هذا الحق في أغلب الحالات لا سيما اذا كانت لا تخسر شيئا مالياً من خلال ذلك . . وقد تكون هناك عوامل أخرى .

وقد جعل الاسلام للحاكم الشرعي الحق في انهاء العلاقة الزوجية من دون رضا الزوج في بعض الحالات القاسية ، كما اذا امتنع الرجل من الطلاق ، والانفاق ، فان للحاكم الشرعي الحق في طلاقها اذا طلبت اليه ذلك ، ويمكن له أن يطلقها في بعض الحالات الضرورية الصعبةالتي تخاف ـ معها ـ على نفسها الانحراف والوقوع في الحرام كنتيجة للامتناع عن معاشرتها الجنسية من قبل الزوج للاضرار بها ، في رأي بعض المجتهدين مع تحفظ البعض الآخر في هذه النقطة بالذات ـ كما ان لها الحق ـ ، في رأي الكثيرين من المجتهدين ـ ان تشترط لنفسها ـ في ضمن العقد الزوجي ـ الوكالة عن زوجها في طلاق نفسها منه في بعض الحالات الطارئة التي يتفقان على تحديدها ، أو في كل الحالات ، ولا يملك الزوج أمر عزلها عن هذه الوكالة بعد ذلك ، وان كان الوكيل صالحاً للانعزال في غير هذه الحالة

وبهـذا نعـرف أن القضيـة لا تعيش في نـطاق ضيق ، بـل تتسـع للحلول العملية التي تحرر المرأة من كثير من قيودها .

* * *

أما مضاعفـة نصيب الرجـل في الميراث ، واعتبـاره ضعف نصيب المرأة على ما هـو منطق الآيـة الكريمـة . . للذكر مثـل حظ الانثيين ٤ ـ ١٠ ، فليس انتقـاصـاً من كـرامـة المـرأة ، لان الاسـلام عنـدمـا أعـطى الـرجل هـذا النصيب الزائـد ، حمَّله ـ لمصلحـة المـرأة ـ مسؤوليـة دفـع المهـر والنفقة لهـا ولـلأولاد . . وعنـدمـا أخـذ من المـرأة هـذه الحصـة أعفاها من كل المسؤوليات المالية تجـاه زوجها وتجـاه أولادها في داخـل البيت الـزوجي فمن يكـون الأوفـر حـظاً في مجـال الحق ، المـرأة ، أو الـرجل ؟ . . ربمـا يعلق بعض الظرفـاء . . أن مثل هـذا التشريـع يوحي للرجل بطلب المساواة بالمـرأة لأن قيمة الـربح والخسـارة تتحدد بحـدود المسؤوليـات التي يحملها التشـريـع لـلانسـان ، فـربمـا يكـون صـاحب الحصـة القليلة التي لا تقـابلهـا أيـة مسؤوليـة ، أوفـر حـظاً من صـاحب الحصة الكبيرة التي تستنزفها المسؤوليات .

وبكلمـة واحـدة ، ان على الـذين يتهمـون الاســلام بـالــرجعيـة والتخلف والظلم للمرأة أن لا يؤخذوا بظواهـر الأمور لـو أرادوا أن يسيروا على خط العـدل عند الحكم على الاشيـاء ، بل يجب عليهم ـ من جهـة الحق والعـدل ـ أن يقفوا وقفـة طـويلة عميقـة ليقـارنـوا بين التشـريعـات الاسلامية التي يكمـل بعضها البعض ، وليـوازنوا بين الاسـلام وبين غيره في هـذا المجـال ، وأن يفهمـوا الحقيقـة التي تفـرض نفسهـا على كـل تشريع ، وهي ان التشريع يخضع لقاعـدة فكريـة تنطلق منهـا كل المـواد القانونية فلا يمكن فهم التشريع الا بوعي تلك القاعدة .

أجل . . هذه نظرة الاسلام للمرأة ، وهذا هو موقعها التشريعي في الاسلام فهل ستبقى هذه الشبهات قائمة ، وهل ستظل المرأة أداة ولعبة للشيطان تسيِّرها الاصابع والأهواء الخبيثة لتحقيق الأغراض التي لا تتفق ورسالتها المقدسة .

انني واثق بأن المرأة المعاصرة عندنا ـ رغم ما يثار عنها وباسمها ـ قد أدركت سر اللعبة ، ولم تعد دمية في يد الآخرين .

أليس كذلك ؟

* * *

س ٥ : ما هو تفسير قوله تعالى :

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ .

[سورة النور : ٤] .

* * *

ج ٥ : لقد عالجت هذه الآية الكريمة قضية حماية الانسان في المجتمع الاسلامي من الأحاديث غير المسؤولة التي يتحدث بها الناس في مجالاتهم الخاصة والعامة مما يتعلق بنسبة الزنا الى بعض النساء المحصنات « وهن اللاتي أحصن بالزواج عن الانحراف » . . فقد دأب البعض على اطلاق التهم على اساس الظن والشبهة ، لخبر سمعه ، او ملاحظة عابرة لاحظها ، أو حالة مشبوهة شاهدها مع احتمالها لأكثر من وجه . . الامر الذي قد يحطم سمعة المرأة وكرامتها ويعرضها للسقوط في المركز الاجتماعي وربما يؤدي بها الى القتل في بعض المجتمعات التي يتصرف أفرادها من خلال مفهومهم للشرف الذي قد يتمرغ

بالوحل اذا أثيرت بعض الكلمات التي تتهم المرأة بالزنا من دون تحقيق أو تثبيت ، لان القضية عندهم ليست قضية حصول الانحراف في الواقع أو عدم حصوله ، بل القضية هي غسل العار الذي أصابهم من خلال انتشار السمعة السيئة لدى الناس وان كانت بغير حق ، تماما ، كأية حالة اجتماعية يتعرض لها الأفراد في مركزهم الاجتماعي من خلال الاشاعات المتنوعة التي تنطلق ضدهم بغير حق ، فيحكم عليها المجتمع على أساس ذلك من دون تحقيق ، كما قال احد الشعراء ، وهو يعبر عن هذه الظاهرة الاجتماعية .

قد قيل ذلك إنْ صدقاً وإنْ كذباً

فما اعتذارك من قول إذا قيلا

وقد أراد الاسلام للمرأة ، أو للرجل أن يعيش حالة الأمن والطمأنينة على حياته وسمعته ، فلم يسمح لأي أحد أن يتحدث عن أي أحد في هذا الاطار الاخلاقي الا اذا كان لديه البينة العادلة التي تثبت الجريمة على اساس المشاهدة الحسية للفعل الجنسي من دون شك ولم يكتف ـ في هذا الموضوع ـ بشاهدين عدلين كما اكتفى بهما في أغلب الأمور ، بل اعتبر أربعة شهود ، امعاناً في التثبت وحماية للانسان من عبث العابثين في إطلاق التهمة بشكل غير مؤكد وقد جعل الله على هؤلاء الذين يرمون المحصنات من دون أن يملكوا الحجة الشرعية على اثبات التهمة ، عقوبة الجلد بمقدار ثمانين جلدة ، وحكم عليهم بالفسق ومنع المسلمين من قبول شهادتهم لأنهم فقدوا ـ بذلك ـ صفة العدالة التي تعتبر أساساً في قبول الشهادة ، وقد لعنهم الله في الدنيا والآخرة تأكيداً للقيمة الأخلاقية الاسلامية التي تتمثل في احترام الانسان المسلم في ماله ودمه وعرضه ، وحمايته من كل اعتداء

وذلك هو قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ . [سورة النور : ٢٣ ـ ٢٤] .

وقد احتاط الاسلام للموضوع احتياطاً شديداً فاشترط في رفع العقوبة عن الشاهد أن يكون معه ثلاثة شهود يشهدون بما يشهد به ويثبتون على شهادتهم والا اعتبر قاذفاً يترتب عليه ما يترتب على القاذف من أحكام ، انطلاقاً من الآية الكريمة التي اعتبرت الجلد عقوبة لكل من لم يأت بأربعة شهداء فيشمل مثل هذا الشاهد .

وقد نستطيع أن نفهم من ذلك أن الاسلام لا يجيز للانسان أن يرمي الناس في أعراضهم الا في الحالات التي يراد فيها اثبات الزنا لدى السلطة الشرعية بالبينة التي تجمع كل شروط الاثبات ، لان الشهادة ـ بدون ذلك ـ تتحول الى عملية قذف وتشهير لا تحقق الا النتائج السلبية من دون ايجابيات تذكر لمصلحة العدالة .

وقد لا يكون هذا التشريع بدعاً في حركة التشريع الاسلامي في الحياة الاجتماعية ، بل هو جزء من خطة عامة متكاملة تضع الحدود الرادعة في الدنيا والآخرة ، لتعين الانسان المسلم على نفسه عندما تستيقظ نوازعه الذاتية الشريرة لتسيء الى الناس الآمنين المطمئنين الغافلين بالكلمات التي تدمر كرامتهم وتخرب علاقاتهم وتزيف الواقع الداخلي والخارجي لديهم ، وتشوه الحقيقة في وجدانهم فكانت التشريعات التي تحاسب الانسان على كلماته . كما تحاسبه على

افعاله ، وتوحي له بمسؤولية الكلمة ، كما توحي له بمسؤولية الفعل لانهما يلتقيان في عملية صنع المجتمع الخير أو المجتمع الشرير ويتحركان من موقع النفس الخيرة التي تحب الله في ذاته وتحب الله في الناس ، أو من موقع النفس الخبيثة التي لا تحب الله ، ولا تراقبه في الناس .

ولسنا هنا في معرض الدراسة الشاملة لكل هذه الخطة ، بل نحن في مجال الاشارة الى موقع هذا التشريع من الخطة ، لئلا نقع في الخطأ الذي يقع فيه الكثيرون في النظر الى كل تشريع بصورة منفردة ، فان التشريعات الاسلامية مرتبطة بشكل عضوي في تنظيمها للحياة ، وفي تخطيطها لعملية صنع الانسان من الداخل . من اجل ان يمارس الحياة من موقع القاعدة الاخلاقية الروحية . . ولعلنا نستوحي علاقة ارتباط الداخل بالخارج في قضية بناء الانسان من الآية الكريمة التي أشارت الى اشاعة الفاحشة بالكلمة ، بأسلوب محبة اشاعة الفاحشة ، باعتبار الكلمة منطلقة من نوازع الانسان ودوافعه الذاتية ، وذلك هو قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ . [سورة النور : ١٩] .

فقد ذكر بعض المفسرين ان الآية تتحدث عمن يشيعون الفاحشة بالحديث عنها بين الناس ، ولكن الله عبر عنه بكلمة (يحبون) للايحاء بأن التشريع يتحرك لحماية الانسان من الانحراف الداخلي باعتباره أساساً لجميع الانحرافات العملية الصادرة عنه . .

ونرجو من الله التوفيق للتخطيط لدراسة كاملة حول هذا الجانب

من التشريع الاسلامي للحياة الاجتماعية وهو حسبنا ونعم الوكيل .

س ٦ : هل يمكن للفتاة المسلمة أن تواكب حركة التطور العصرية فيما يتعلق بالأزياء التي تتغير بين وقت وآخر لتفرض على العرف الاجتماعي وضعاً جديداً يجعل التقييم خاضعاً لمقاييسه ، مما يؤدي بالفتاة الى ان تواجه الحرج الشديد في الخروج عن الطريقة المألوفة لدى رفيقاتها ويخلق لديها واقعاً نفسياً مرهقاً عندما تحس بالانفصال عن مجتمعها في طبيعة الزي التي تمثل شيئاً أساسياً في مجتمع المرأة . . وقد يتعاظم الأمر في الحالات التي تضطر فيها الى الحياة في أوروبا وأميركا مثلا . .

ج ٦ : ربما يكون للجواب على هذا السؤال اكثر من جانب في النظرة الاسلامية لحركة التطور في الأزياء فيما يتعلق بالرجل أو بالمرأة .

فقد تطرح القضية من ناحية الحديث عن وجود زي اسلامي معين لا يجوز للانسان تجاوزه كما يخيل لبعض الناس الذين يستنكرون الخروج عن المألوف في استحداث الأزياء بالشكل الذي تتجاوز فيه الاشكال القديمة .

والجواب عن ذلك ، ان الاسلام لم يحدد للرجل وللمرأة شكلا معيناً للثياب التي يلبسانها بل كل ما هناك انه أراد للرجل ان يستر بعض أجزاء جسمه ، وأراد للمرأة أن تستر كل أجزاء جسمها ما عدا الوجه والكفين ، وترك لها الحرية فيما عدا ذلك ، بل قد نجد في بعض أحاديث الامام جعفر الصادق انه قال لبعض أصحابه « خير لباس الزمان لباس أهله » وقد نجد بعض التحفظات لدى بعض الفقهاء حول « لباس الشهرة » الذي يتمثل في الخروج عن الزي المألوف في المجتمع بحيث يجلب الشهرة والاستغراب لدى الناس ، بين قائل

بالحرية وبين قائل بالكراهة . . ولكن هذا لا يرتبط بقضية التطور في الأزياء .

وقد تطرح القضية من ناحية اعتبار السير مع الاتجاه العام في الأزياء مظهراً من مظاهر التقدم الاجتماعي انطلاقاً من الفكرة التي ترى في تطور الأزياء انسجاماً مع حركة التطور المعاصرة ، وتعتبر الانسان الذي يلتحق بها انساناً متطور الفكر تقدمي الاتجاه لأن المقياس في تقدم الانسان هو ايمانه بقضايا التقدم ومواجهته للحياة بروح عصرية منفتحة .

وأما تعليقنا عن ذلك ، فهو أن تطور الأزياء ليس خاضعاً لفلسفة اجتماعية مستوحاة من روح العصر ، بل هو خاضع للعوامل التجارية ، وللنوازع المنحرفة ، وللمخططات الشيطانية ، التي يمليها المزاج الذاتي ، والمصالح الشخصية لأصحاب دور ازياء في العالم ، هؤلاء الذين يطلقون عليهم في الصحف اسم « ملوك الموضة » فيخططون الازياء في كل عام بطريقة خاصة لا يراعى فيها أي جانب من جوانب الأخلاق الاساسية للانسان ، ثم يفسحون المجال للانتشار من خلال دور العرض التي تقوم فيها عارضات الأزياء ، بعرض هذه الصرعات او « التقاليع » بأسلوب لا يخلو من عناصر الاثارة التي توحي للنساء بالأجواء الجمالية التي يمنحها الزي الجديد لحياتهن من حيث الفتنة والجمال والاغراء ، ويجيء بعد ذلك دور الممثلات ، أو المشهورات من نساء العالم اللاتي كانت شهرتهن باعثاً على تقليدهن في كل شيء من شؤون الأزياء والزينة ، وتتعاون الأجهزة الاعلامية من السينما والراديو والتلفزيون والصحف ومجلات الخياطة ، في اكمال البقية الباقية من الانتشار والازدهار لهذه التقاليع الجديدة فتتحول الى تيار اجتماعي .

وقد عرفنا من خلال « بروتو كولات حكماء صهيون » كيف كانت المخططات اليهودية تعمل على افساد العالم باثارة الشهوات وتشجيع الانحلال من خلال الوسائل التي تساهم في تهيئة هذه الأجواء في كل انحاء العالم بمختلف الأجهزة . وهكذا نرى أن القضية لا تنطلق من أساس فكري ، ولا ترتبط بأية قاعدة من قواعد التقدم والتطور الاجتماعيين ، بل تتحرك من خلال أناس لا يحملون مسؤولية الحياة بل يعيشون أجواء الربح والخسارة على أساس تجاري يرى في كل شيء سلعة تجارية بما في ذلك الاخلاق والدين والحياة والمصير .

وعلى ضوء ذلك فلا نجد في الانسجام معها انسجاماً مع روح التقدم وحركة التطور بل نجد ـ بدلا من ذلك ـ خضوعاً للقوى الشريرة في العالم ، واستسلاماً لمخططاتها المزاجية والانحرافية ، ووقوعاً في حبائل الشيطان ، وخسارة للشخصية الانسانية المرتكزة على أساس الاخلاق الواقعية المثلى التي أراد الاسلام للانسان أن يسير عليها في كل مجالات حياته الصاعدة أبداً نحو الله .

وقد تطرح القضية من ناحية اعتبارها مظهراً من مظاهر حرية المرأة ، وتمرداً على القيود التي حملتها في روحها وجسدها مئات السنين . لان الجسد اذا تحرر في ثيابه تحرر في روحه بنفس المساحة التي تتحرك فيها حريته العملية في الحياة لان ممارسة الحرية في الجسد تؤدي الى انفتاح النوافذ الداخلية على الكون لاستقبال الشعاع القادم من بعيد . .

أما جوابنا على ذلك فيتمثل في مناقشة فكرة الحرية ، لأن قصة الحرية لا تتحرك في اطار الانفلات في مجاهل الفوضى ، بل تتحرك في دائرة المسؤولية الفكرية والمصيرية التي تحكم كيان الانسان ووجوده . . وبذلك نفهم معنى الحرية في الجسد وفي الروح لنتساءل

مع المرأة التي تطالب بحرية اللباس في مختلف أشكاله الى حد العري .. ما هي نظرة المرأة الى نفسها .. هل هي مجرد انثى تنطلق الى الحياة من خلال اعتبار الطبيعة الأنثوية قيمة حياتية مقدسة ، ولذا فانها تعمل على اعطاء هذا الجانب كل اهتمامها وتقديسها ، وترى في ارتفاع عنصر الاثارة والفتنة والاغراء مفتاحاً للشعور بالأهمية ومجالا للتباهي والتفاخر الأمر الذي يجعلها تعبد جسدها وتقدس كل جوانب الاغراء فيه ، وتتعبد له أمام المرأة كما تتعبد الى صنم ساحر .. أو هي انسانة تحمل في داخل شخصيتها عناصر الشخصية الانسانية التي تجمع الى جانب جمال الجسد ، جمال الفكر والروح والشعور ، وترى ان الجمال هبة من الله سبحانه ، فهو الذي اعطاه ، وهو القادر على ان يزيله ، وعلى الانسان أن يشكره على هذه النعمة كما يشكره على بقية نعمه باستخدامها فيما يرضيه لا فيما يسخطه .. وبذلك تتحرك اهتمامات الانسان الى السمو الروحي والفكري والاجتماعي من خلال قدراته الروحية والفكرية والاجتماعية .

ثم ما هي الفكرة التي تحكم حياتنا لنتحرك في الحياة العملية من خلالها هل هي الاسلام أو هي الكفر ..

فان كان الاسلام هو ديننا الذي ندين الله به عن قناعة واطمئنان ، واذا كان هذا الدين لا يعتبر المرأة الا من خلال انسانيتها ولا يرى الجانب الأنثوي في مفهومه الجنسي الا جانباً خاصاً يحكم المرأة في اطار العلاقات الزوجية المشروعة التي يمكن للمرأة أن تلبي حاجاتها بحرية واشباع ... فان من الواجب عليها أن تدرس التخطيط لحريتها في اطار هذا الدين بكل ما فيه من قيود المسؤولية .. لان القضية لا تكون قيداً يحدد حرية الانسان بل تتحول الى ممارسة

للايمان الحر في أن يعبر عن نفسه بقوة واقتناع وهذا هو ما ينبغي للمرأة ان تواجه فيه الدعوة الى الحرية الجسدية التي تفجر لها حريتها الروحية فيما يزعمون ، لان حرية الروح لا يمكن أن تنسجم مع عبودية الجسد لشهواته وشهوات الآخرين . . وهذا هو ما يريد التوجيه المنحرف أن يدعو المرأة اليه حتى تكون ضحية الغرائز والعواطف ليؤكد عبودية المرأة ولكن بطريقة عصرية على العكس من الطريقة السابقة للرق التي كانت تمارسه بأسلوب متخلف في أجواء الحريم ، وقد استطاع هذا التوجيه أن يبلغ غايته من خلال المجلات النسائية التي تحاول أن تجعل المرأة مشدودة الى جسدها في الحديث عن أجمل الأزياء ، وأحدث وسائل الزينة وأحلى انواع العطر . . فهذا يزيدها جمالا ، وذاك يزيدها سحراً وذلك يجعلها تسبح في أجواء العبير . . أما الفكر . . أما الحياة في جانبها الآخر . . أما الدين . . أما الاخلاق فتلك أحاديث قد تثور في حياتها ولكنها لا تلامس الجانب الحميم من شخصيتها واهتماماتها . . وهذه هي مأساة المرأة العصرية التي تلهث وراء الطويل والقصير . . وتضحي بكل شيء من أجل كلمة حب ، وعرش جمال وتستسلم لكل خيالات الشعراء ، التي تطوف بالنفس في أجواء غزلية ساحرة عابقة بالخداع الشيطاني الحلو اللذيذ . .

اننا نرفض هذا التشويه لشخصية المرأة ـ الانسان بتشويه فكرة الحرية في مفهومها المنفتح على النور من خلال الايمان بالله .

اننا نريد للمرأة أن تكون حرة باسم الله . . ولا نريدها أن تكون رقيقاً يوحى اليه بالحرية باسم الشيطان . . وبذلك يمكن لها أن تحدد موقفها من الأزياء على أساس شريعة الله أو شريعة الشيطان .

سؤالان . . اديبان

وجهت مجلة البذرة الصادرة عن ثانوية منتدى النشر في النجف الأشرف ـ العراق سؤالين حول رسالة الأديب في الحياة ، ومؤهلات الطالب من أجل أن يكون أديباً ، الى سماحة السيد محمد حسين فضل الله في عددها المزدوج الثاني والثالث في سنة ١٣٨٥ هجرية فأحببت أن نقتطفهما في هذا الباب لما لهما من الفائدة .

* * *

س ١ : ما هي رسالة الأديب في الحياة اليوم ؟

ج ١ : ربما كان من السمات الظاهرة للأديب الحق ، هو ، هذا الاحساس المرهف بالجمال والنظرة النافذة الى الحياة ، والعاطفة الصافية التي تجيش بالأحاسيس الخيرة والمشاعر الرقيقة . . وأخيراً ، هذا الغنى الروحي التواق أبداً الى العطاء والتطلع الواعي المتوثب دوماً نحو المجهول .

ربما كانت هذه السمات هي ما يميز الأديب عن غيره ، ويجعل منه انساناً آخر يعيش انسانيته في نطاق الحق والخير والجمال باعتبارها

من المعاني التي تمثل في حياة الانسان روعة القيم .

ذلك هو واقع الأديب الحق ـ في داخله ـ كانسان .

أما طبيعة صفته ـ كأديب ـ فقد تجد فيه الانسان الذي يستطيع أن يجسد هذه المعاني في الكلمة ليجعل من الكلمة كائناً حياً يتحرك بالفكرة وينبض بالعاطفة .

واذا أسطعنا أن نكوّن لأنفسنا الصورة الواضحة عن الأديب الحق ، التي تتلخص في كلمتين احساسه بالقيم ، وقدرته على التعبير عنها بصدق وابداع ، فقد نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام رسالته كأديب ، لان ذلك هو الذي يحدد لنا ما يمكن أن يقدمه للانسانية من عطاء فيما تملك من ثروة . . وهذا ما يجعلنا نقرر أن رسالة الأديب في الحياة ، هي أن يثير في الحياة الاحساس الواعي بالحق ، والايمان العميق بالقيم الروحية المثلى ، ويوجه الانسان نحو المعاني الحلوة الجميلة في الحياة من أجل ان نجعل منها رحلة طيبة في دروب الله حيث السلام والمحبة والصفاء الروحي تهيمن كلها على قلوب الناس وتنساب في مشاعرهم في خدر لذيذ .

وقد نستطيع ـ بهذه المناسبة ـ ان نقرر : أن كثيراً مما نشكو منه من مشاكل ومتاعب في حياتنا المعاصرة ، هو اننا بدأنا نفقد الاحساس بالقيم أو بالأحرى بدأنا نتطلع الى قيم مادية لا تنبع من داخل ذواتنا بل تنطلق من حاجاتنا المادية الجامدة ، مما جعل علاقاتنا وارتباطاتنا الذاتية تأخذ هذا الطابع ، فأفقدها ذلك حرارة الحب وأبعدها عن الاحساس بالاخلاص فأصبحت مجرد شيء آلي لا يمثل الا التعبير الجامد عن واقع مادي . . . وهكذا فقدنا التصور الصحيح للأشياء وتحوّلت المبادىء ـ من جراء ذلك ـ الى نظريات محنطة نستبدلها

ونستوردها كما نستورد المعلبات وأصبح الانسان مجرد شيء من الاشياء المادية ، ولم يعد الحب والجمال يمثل في حياتنا الا التعبير عن نداء الغريزة وواقع الجنس ، وعلى ضوء ادراكنا لهذا الواقع ووعينا للادب شعوراً وفكراً وتعبيراً ، ولما يستطيع أن يقدمه للانسان من عطاء خيِّر . . نستطيع ان نجيب على السؤال المتقدم فنقول :

ان رسالة الأديب في الحياة هي أن يرجع الانسان الى انسانيته وذلك بأن يثير في حياته الشعور بالقيم والايمان بالمعاني الروحية الخالدة التي تحوّل الحياة الى جنان من النعيم وذلك بأن يجعل من أدبه التعبير الحي الصادق عن هذه المعاني السامية .

هذه رسالة الأديب بوجه عام ، أما رسالة الأديب المسلم الذي يحيا اسلامه في ذاته ويعيش قيمه في روحه ، فنحسب ان من أولى مهماته الرسالية هي أن يجعل من أدبه الصورة الحية المعبرة عن تصورات الاسلام وتطلعاته في مجال الحياة والانسان ، حيث يعمل الانسان المسلم من أجل أن يجعل من حياة البشر صورة مصغرة عن حياة الآخرة ونعيمها ، ويحول الانسان من كيان قلق ضائع متشائم ، الى كيان واثق بالله ، معتمد على نفسه ، متفائل حتى أبعد حدود الامكان انسجاماً مع الفكرة الاسلامية التي تقول على لسان النبي محمد (ص) « اني أحب الفأل وأكره الطيرة » ، ومن هنا كان باستطاعتنا أن نقرر في هذه اللمحة الخاطفة ، أن الأدب المتشائم ليس أدباً اسلامياً لانه لا يمثل الخط الاسلامي المتفائل للانسان المسلم في الحياة ، وهكذا يتحول الادب من وسيلة الترف الفني الى اداة نافعة في سبيل الله والعقيدة والانسان .

س ٢ : ما هي مؤهلات الطالب ليكون أديباً ؟

ج ٢ : أحسب أن أول شيء يجب أن يتوفر في الانسان الذي يخطو خطواته الاولى في الاتجاه الادبي هو أن يملك الموهبة الأدبية التي تعتمد على الاحساس المرهف والعاطفة الرقيقة ، وقد تكون هذه الموهبة فطرة في داخل الانسان . وقد تحصل بالممارسة والتأمل في الفنون الأدبية المتنوعة .

واذا استقامت له هذه الموهبة ، فينبغي له أن يصقلها وينميها بالمطالعة الدائبة والقراءة المستمرة للآثار الأدبية الخالدة ، القديمة منها والحديثة ، ليحصل على ثقافة عميقة تمكنه من التفاعل بتجارب الادباء الآخرين ، والانسجام الفني مع خطواتهم ، الامر الذي يبعده عن السطحية والضحالة ويجعل تجاربه الأدبية ذات أصالة وعمق . ولا بد له بعد ذلك من أن يكون وثيق الصلة بحياته وحياة الآخرين من أجل أن يعيش التجربة الحية في اطارها الطبيعي ليكون أدبه غنياً بالتجارب والأفكار الحياتية ، لا مجرد صورة ساذجة لا تملك المضمون الحي العميق ، وانما تدور في نطاق فكرة ضيقة لا تستطيع الانطلاق بل تتعثر في تفاهات الألفاظ ومتاهات الضياع .

الحلقة العاشرة

أصْل الصحة بين العدالة والسذاجة
و
لِكُلِّ سُؤالٍ جَوَابْ

● أصل الصحة بين العدالة والسذاجة .

● لكل سؤال جواب .

أصل الصحة بين العدالة والسذاجة

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنْ الرَّحِيمْ

لعل من أهم الأسس التي يرتكز عليها بناء الشخصية الانسانية هي القواعد العامة التي تحكم فكر الانسان وسلوكه ، لأن ذلك هو الذي يحقق الوحدة لنشاطاته الفكرية والعملية فيوحد نظرته للواقع وتقييمه لأوضاعه في ضمن اطار فكري متكامل ، ويحقق لتطلعاته المستقبلة الخطة المتوازنة الشاملة التي تجمع خطوط السير في منعطفاته ومنعرجاته في نقطة واحدة واسعة .. ويحكم علاقاته العامة والخاصة منهج فكري وعملي يضع لكل علاقة اطارها الطبيعي المستمد من الفكرة الواحدة .

ولذلك ، فان علينا ان نبحث عن الفكرة الواحدة التي تحكم فروع التشريع ، وعن الخط الواحد الذي تنطلق فيه اساليبه العملية ، وعن الهدف الواحد الذي تتجه اليه الوسائل في الممارسات المتنوعة التي يمارسها العاملون ... ذلك هو السبيل لفهم مفردات التشريع ومعرفة ابعاد الشخصية التي تنمو في أجوائه وتنطلق من جذوره .

وليست الشخصية الاسلامية للانسان المسلم الا لوناً من ألوان

المحاضرة التي القيت في قاعة اللجنة الثقافية الإسلامية في الغبيري ـ من ضواحي بيروت بتاريخ ٣ ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ الموافق ١١ ـ ٣ ـ ١٩٧٨ م .

الشخصيـة الانسانيـة التي تختلف ألـوانهـا تبعـاً لاختـلاف القـاعـدة التي تنـطلق منها وتتحـرك في اطارهـا . . فلا بـد من أن نتلمس ملامـح هـذه الشخصية في القواعد الفكرية التي يرتكز عليها الاسـلام في عملية صنـع الانسـان على صورتـه ومثالـه ، وفي القواعـد العمليـة التي تحـرك حيـاة الانسـان في وسـائله واهـدافـه ، من خـلال الخـطوط العمليـة لمسيـرتـه العامة . . . ليتسنى لنا ـ من خلال ذلك ـ التخلص من الازدواجية القلقـة التي نعيش معها التمزق الـذاتي بين مدلـول الشعار وممـارسة الـواقع . . انـطلاقا من حـركة الـواقع في خـطة بعيـدة عن طبيعـة المضمـون الـذي يـوحيه الشعـار . . كنتيجة طبيعيـة لفقـدان النـظرة المـوحـدة التي تحكم الواقع من خلال الشعار لتوزعها بين فـروع عديـدة من الاحكام الشـرعية التي لا نحـاول تـوحيـدهـا في ضمن دائـرة واحـدة تحقق التـرابط بين مجـالاتها . بـل كل مـا هنالـك ، اننا نحصـل من خلال الانسجـام معها عمليـا على (الخروج عن عهـدة التكليف) او (ابراء الـذمة) كمـا يعبر علمـاء الأصول من دون ان يكـون هناك أي مـدلول نفسي لكـل ما نقـوم بـه أو نتحـرك فيـه . . وربمـا كـان ذلـك هـو السبب في بقـاء الانسـان المسلم خاضعا لتقلبات المزاج المستمـدة من حركـة الواقـع حولـه ، في نظرته الى الاشياء وتقييمه لـلآخرين ، وعـلاقته بـالأحداث ، في الـوقت الـذي لا نجده فيـه بعيداً من نـاحية عمليـة عن مفردات الشـريعة ، لانـه انـطلق في فهمه لـلاسلام من خـلال المفردات المتنـاثرة ، لا من خـلال الكل الموحد المترابط الأجزاء . . مما جعـل الاسلام يتحـول في حياتـه الى ممـارسة خـارجية لا الى شخصيـة مستقلة تحكم الداخـل في تفكيره ودوافعـه لتحرك الـواقع من هـذا الموقـع . . حيث نواجـه في هذا الجـو مسلمين طائعين . . ولكن بروحيات كافرة في نظرتهـا الى الواقع وتقييمها للحياة .

وعلى ضوء هذا نريد ان يتجه الباحثون الاسلاميون الى دراسة القواسم المشتركة التي تجمع بين الأحكام الشرعية في مجالاتها المختلفة من اجل اكتشاف جانب القاعدة فيها ، لنستعين بها على ربط الانسان المسلم بالحكم الشرعي من خلال القاعدة العامة التي تحكم موارده . . ليظل الحكم مرتبطا بقاعدته من أجل أن يعيش المسلم شخصيته في أجواء الاسلام ومنطلقاته .

* * *

وقد أثار الفقهاء في أبحاثهم الفقهية كثيرا من القواعد التي تعالج الموضوعات الاساسية المتنوعة في الحياة من خلال الأدلة العامة التي تطلق الحكم على أساس الموضوع الشامل . . فكان لنا من ذلك القواعد المتنوعة في أبواب العبادات والمعاملات والحدود وغيرها . . مما يجده الانسان في الكتب الفقهية التي صنفت للبحث في القواعد الفقهية ، مثل قاعدة « لا حرج » و « لا ضرر » والوفاء بالعقود والوفاء بالشروط ، « وتبعية الاحكام للاسماء » وتبعية العقود القصود . . وغير ذلك . .

* * *

وقد تحدثوا عن نوع آخر من القواعد الفقهية التي تعالج حالات الشك التي تعرض للانسان امام كثير من الأوضاع والمواضيع والاشخاص ، واطلقوا عليها اسم « الأصول » كمصطلح أصولي يحدد للانسان كيف يواجه نوازع الشك في نفسه عندما يعيش حياته ، مع نفسه ومع الآخرين فكان لنا من ذلك « أصل البراءة » الذي يعبر عن الحكم ببراءة المكلف من التكليف الملزم عندما يفتقد الانسان الحجة على الالزام ، « وأصل الاباحة » او « اصل الحل » الذي يتضمن

الحكم بحلية كل شيء لا يعلم انـه حرام و « أصـل التخيير » الـذي يفيد الحكم بالتخيير بين الفعل والترك عنـد تردد الحكم بين مـوقفين لا يمكن فيهما الاحتياط ، و « أصل الاحتياط » الـذي يفرض على الانسـان الأخذ بعنصر الالزام في العمل اذا توفـرت عناصـر التنجيز للتكليـف . . و. كـذا يضـع الفقه لكـل حالـة من حالات الشـك . . قاعـدة يختلف حالهـا في الـرخصة والالـزام تبعا لاختـلاف طبيعـة المـوقف في قيـام الحجـة على التكليف وعدمه .

أما اذا اقتربنا الى جانب الشك في اطار الـواقع التـطبيقي للفعل ، فهناك « أصل الصحـة » الذي يحكم بصحـة العمل عنـد الشك في تـرك جـزء أو شرط بعـد تجاوز المحـل ، ويطلقـون عليـه مصـطلح « قـاعـدة التجاوز » او الذي يحكم فيـه بالصحـة عند حصـول الشك في ذلـك بعد الفراغ من العمل ، ويطلقون عليه مصطلح « قـاعدة الفـراغ » ويمتد هـذا الأصل الى المعاملات التي يقوم بهـا الناس فيشـك الانسان في صحتهـا وفسادها فيحكم فيها بالصحة . . ولكل من هذه القواعـد شروط ، ولكـل منها أحكام ليس مجالها هـذا الحديث ، بـل مجالهـا علم الفقه وأصـوله وهناك مجال آخـر يتحرك فيـه « أصل الصحـة » وهو مجـال الاعمال التي يقـوم بها الانسـان ، مما يحمـل وجهين للصورة ، يمثـل أحدهمـا جانب القبح ويمثل الآخر جانب الحسن ، فهل نحكم عليه بـالحسن او بالقبـح أو بـالصحـة والفسـاد ، بـاعتبـار ان الصحـة تنسجم مـع حسن الشيء ، والفسـاد يتمثل في قبحـه . . ويقرر الفقهـاء الرجـوع ـ هنا ـ « الى أصـل الصحة » وحمل الافعـال على الوجـه الحسن بدلا من الـوجه القبيـح . . ونحن هنـا ، في محاولـة تحليليـة لهـذا الأصـل في مجـالـه الاجتمـاعي المتعلق بـالحكم على الآخـرين امـام وجهي الصـورة . . مـن أجـل

الوصول الى وضوح في الصورة ، لنبتعد بها عن المعاني الساذجة التي لا تتناسب مع واقعية التشريع الاسلامي وعدالته ، ليكون استعمالنا لها في علاقاتنا العامة ، مرتبطا بالخطوط المستقيمة للاسلام .

* * *

١ ـ ما هو اصل الصحة :

لا بد لنا في الجواب عن هذا السؤال من طرح الحالة على صعيد الواقع لنرى كيف يتجسد الاصل في الحياة في المجال الديني .. قد يتصدق الانسان بصدقة في مشروع خيري ، او اجتماعي ، ويطلب اعلان اسمه ، أو يقوم باعلان ذلك بنفسه ، مما يوحي بأنه يقوم بما يقوم به على اساس من الرياء والشهرة والمباهاة .. وربما يخطر بالبال ، بشكل خفيف ، انه يقصد من خلال ذلك تشجيع الآخرين على التصدق لانهم يقلدونه فيما يعمل ، أو يسابقونه في ذلك ، وربما كان من قصده دفع التهمة عنه امام من يتهمه بالبخل .. وفي هذه الحال يفرض اصل الصحة افساح المجال للجوانب الخيِّرة ، لتكون تفسيرا للصورة الحقيقية للعمل .

وفي المجال الاجتماعي ، ربما يقف الانسان ضد بعض المشاريع الانسانية والاجتماعية والتربوية فيعطلها ، او يثير حولها الكثير من الَضوضاء والضجيج الذي يبعدها عن أجوائها العامة او يؤخرها عن وقتها الطبيعي ، فيخيل للانسان انه يقصد من ذلك تحطيم الأسس الثابتة لعملية البناء الاجتماعي فيما يحتاجه من مقومات البقاء ، انطلاقا سن فكرة حاقدة مدمرة ، ولكن ربما كان لهذه التصرفات بعض العذر من محاولته لابعاد الهيئة المشرفة على هذه المشاريع ، لانها هيئات مستغلة ، او لنقله الى مكان آخر ، او مجال آخر أكثر نفعاً وأعمق أثراً

كما نشاهده لدى بعض الاشخاص أو المجموعات الذين يعارضون مشروع المسجد في القرية او البلد ، لانهم لا يرون هذا المشروع في المستوى الكبير من الأهمية ازاء مشروع المدرسة ، فهم يعارضون ذاك المشروع من اجل افساح المجال لاقامة المشروع الثاني ، لان الميزانية المالية لا تتسع لهما معاً . . وربما كانت بعض الأعذار الاخرى التي تتصل باختلاف وجهات النظر فيما هو الاكثر صلاحاً للناس . . وفي هذا المجال يتجه أصل الصحة للايحاء بهذه الجوانب في اعطاء المعارضة صفتها الصحيحة المبررة .

وفي المجال السياسي . . قد يقف بعض الناس ، او بعض الجهات في موقع معين من مواقع السياسية المتنوعة ، كما نجده في الاشخاص الذين يقفون الى جانب اليمين في بعض المراحل السياسية من حياة الامة ، او يؤيدون اليسار ، في مرحلة اخرى ، فيخيل لبعض الناس انه يقف موقف المتذبذب الذي ينتقل من موقع سياسي الى موقع سياسي آخر انطلاقاً من الانتهازية والوصولية العملية في الحياة . . ولكن قد تكون القضية في الجانب الآخر للرؤية خاضعة لتقييم سياسي واع للمصلحة العليا للبلد مما يجعل الموقف في كل مرحلة مختلفاً عن الموقف في المرحلة الاخرى تبعاً لاختلاف الظروف السياسية التي تفرض التحرك اليميني هنا ، والتحرك اليساري هناك . . وقد تكون القضية اكتشافاً للخطأ من جانبه في تقييم الموقف سابقاً ، مما يجعل من قضية التراجع عن الموقف السابق ، قضية تراجع عن الخطأ في نظره . .

وقد تتنوع المجالات التي يخوض فيها العاملون اجتهادات تجعل الموقف مرتبطا بالمصلحة العليا ، بينما تقف الاجتهادات الاخرى لتربطه بالمصالح الأساسية للعدو ، فتنشأ من خلال ذلك الاتهامات

بالخيانة والعمالة للعدو ، وغير ذلك من كلمات التقييم المضاد الذي يؤدي الى تصرفات غير مسؤولة . . وفي مثل هذه الحالات ينطلق اصل الصحة ليجعل الموقف او العمل في الاطار السليم الذي يفرض جانب الخير في الانسان ، حتى في التصرفات المنافية للموقف الحق لان هناك فرقاً بين الخيانة التي ينطلق فيها العمل من موقع الوعي للانحراف والاصرار على السير في طريقة وبين الخطأ الذي يسير معه العمل على اساس اعتبار الخطأ صوابا نتيجة اجتهاد خاطىء معين .

وقد يلتقي الانسان بكثير من النماذج العملية التي يتحرك فيها اصل الصحة ليغلِّب جانب الخير على جانب الشر ، ويقوِّي فرضية الصحة على فرضية الفساد .

* * *

٢ ـ لماذا هذا الاصل :

قد يتساءل الانسان امام المجالات التي يتحرك فيها هذا الاصل أو غيره من الأصول ، لماذا هذا الأصل . . أو بالاحرى ما هو الجانب الذي يجعل منه قضية حيوية تتصل بالطمأنينة الروحية للحياة الفردية والاجتماعية للانسان ، سواء في ذلك الاصل الذي يتصل بالعمل الذاتي للانسان في واجباته الفردية في صلاته وحجه وسائر عباداته ، أو الأصل الذي يتصل بالعلاقات الشخصية والمعاملية التي تربطه بالآخرين او الأصل الذي يتصل بالاحكام التي يصدرها على الآخرين من خلال افعالهم .

* * *

أما الجواب عن ذلك . . فقد نجده في الفكرة العامة التي انطلقت منها التشريعات الاسلامية في مواجهة الانسان لحالات

الشك . . فقد نفهم من بعض الأحاديث التي تنهى عن الاستسلام للشك في ركعات الصلاة بما يؤدي الى ابطالها واعادتها من جديد ، ان القضية تتصل بالبناء النفسي للانسان المسلم الذي لا يريد له الاسلام أن يمتد بالشك الى آفاق حياته فيتحول الى انسان يشك في كل شيء حتى لا يسلم له عمل ، ولا يستقر له طريق وذلك كما ورد في بعض الاحاديث المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام . . لا تعوِّدوا الخبيث من أنفسكم نقض الصلاة فتطمعوه فان الشيطان خبيث معتاد لما عوّد فليمض احدكم في الوهم ولا يكثرن نقض الصلاة فانه اذا فعل ذلك مرات لم يعد اليه الشك . . ثم قال انما يريد الخبيث ان يطاع فاذا عصي لم يعد الى احدكم [١] . . وقد نظم الاسلام للشك الواقع في الصلاة ومقدماتها تشريعات متنوعة تنقذ الانسان من الاستسلام لهذه الحالة بما يحوله الى شخص معقد ، وذلك بأن ابعدته عن الاعتناء بالشك وساعدته على اتخاذ الموقف الذي لا يضطر معه إلى تخريب عمله ، وتشويه روحه وقد جاءت الأحاديث المأثورة لتؤكد الموقف بما يشبه الايحاء الذي يريد ان يجعل من الانسان الذي يتم عمله بشكل طبيعي ولا يلتفت الى حالة الشك ، انسانا ذا قيمة روحية وفقهية كما ورد في الحديث . . عن ابي عبد الله جعفر الصادق (ع) ما اعاد الصلاة فقيه قط يحتال لها ويدبرها حتى لا يعيدها [٢] ، فنحن نلاحظ في هذا الحديث الايحاء بأن الانسان الذي يعمل على اعادة صلاته على أساس الشك هو انسان غير متفقه ، اما الانسان الذي يدبرها ويوجهها في اتجاه الصحة فهو الفقيه في دينه .

---

(١) وسائل الشيعة : ج ٣ ص ٣٢٩ .

(٢) وسائل الشيعة : ج ٣ ص ٣٤٤ .

٣ ـ الاستسلام للشك :

ونجد في حديث آخر ، التأكيد على اعتبار الاستسلام للشك دليلا على ضعف العقل انطلاقا من اطاعته لنوازع الشك التي هي من اطاعة الشيطان ، فقد جاء في الكافي عن عبد الله بن سنان قال : ذكرت لابي عبد الله (جعفر الصادق) رجلا مبتلى بالوضوء والصلاة [١] وقلت : هو رجل عاقل فقال أبو عبد الله وأي عقل له وهو يطيع الشيطان . فقلت له : وكيف يطيع الشيطان ؟ فقال : سله الذي يأتيه من أي شيء هو؟ فإنه يقول لك : من عمل الشيطان[٢] . وقد نفهم من بعض الأحاديث المأثورة ، أن البناء على وقوع الشيء المشكوك فيه ينطلق من حالة واقعية لا من مجرد الرغبة في إبعاد الإنسان عن التعقيد . . وذلك لأن الإنسان الذي ينطلق إلى العمل من موقع الوعي الكامل لأبعاده ، يكون واعياً لكل جوانبه في حالة العمل أكثر من حالة الشك ، التي قد تنطلق من خروج الإنسان عن الأجواء الطبيعية . . فقد ورد في الحديث الذي رواه بكير بن أعين عن أحد أئمة أهل البيت (ع) قال : قلت له الرجل يشك بعدما يتوضأ قال : هو حين يتوضأ اذكر منه حين يشك[٣] وقد نجد في بعض الأحاديث التأكيد على جانب إقامة النظام الاجتماعي للحياة الإسلامية في مبررات التشريع الذي يعالج حالة الشك ، كما في موضوع الشك في ملكية الإنسان لما بيده من المال ، انطلاقاً من إمكانية أن يكون لغيره مما حصل في يده بسرقة أو خيانة أو غير ذلك . . فقد أقر الإسلام قاعدة اليد . لتكون دليلاً للملكية في حالة الشك ، ومستنداً للشهادة بالملكية ، فقد جاء في الحديث الذي رواه حفص بن غياث عن أبي عبد الله (جعفر الصادق) قال : قال له رجل :

---

(١) أي بالوسواس في نيتهما أو أفعالهما أو شرائطهما وسببه فساد العقل والجهل بالشرع .

(٢) الكافي : ج ١ ص ١٣ مطبعة الحيدري بطهران .

(٣) وسائل الشيعة : ج ١ ص ٣٣١ .

إذا رأيت شيئاً في يدي رجل يجوز لي أن أشهد أنه لـه فلعله لغيره فقال أبو عبد الله أفيحل الشراء منه قال : نعم . فقال أبو عبد الله فلعله لغيره فمن اين جاز لك أن تشتريه ويصير ملكاً لك ثم تقول بعد الملك هو لي تحلف عليه ولا يجوز أن تنبه إلى من صار ملكه من قبله إليك ثم قال أبو عبد الله : لو لم يجز هذا لم يقم للمسلمين سوق[1] .

* * *

وقد اعتبر بعض الفقهاء والأصوليين هذا التعليل لقاعدة اليد أساساً لقاعدة الصحة ، أو أصل الصحة فيما يتعلق بالمعاملات المالية أو الشخصية من قضايا البيع والشراء والزواج والطلاق ، فيما يشك في صحته وفساده منها ، لان الوقوف عند حالة الشك ، يعطل الواقع العملي للناس ، تماماً كما في تلك القاعدة بل قد يرجع الشك في قاعدة اليد الى الشك في طبيعة المعاملات التي كانت مصدراً لليد ، فيما كان مصدره المعاملة المعينة في البيع والشراء ، وقد ذكر بعض المحققين ان الاختلال الحاصل من ترك العمل بهذا الأصل أزيد من الاختلال الحاصل من ترك العمل بيد المسلم [2] . أما أصل الصحة في سلوك الناس وأفعالهم العامة ، فانه ينطلق من الفكرة التي ترتبط بالعدالة من جهة وبدراسة الواقع من جهة اخرى ، لان العدالة تفرض ملاحقة كل الاحتمالات القريبة او البعيدة التي هي في مصلحة المتهم ، كما ان دراسة الواقع تؤدي الى العثور على الكثير من الامور الخفية التي تنشر الصورة المبهمة للسلوك الانساني .

وخلاصة الفكرة ، ان الاسلام يريد من خلال هذه الاصول العملية ان يبني شخصية الانسان المسلم على أساس مواجهة حالات

---

(١) المصدر السابق : ج ١٨ ص ٢١٥ .

(٢) الشيخ مرتضى الأنصاري ، فرائد الأصول ص ٤١٦ .

القلق أو الشك أمام قضايا التشريع العملية في حياته وحياة الآخرين ليحقق له الاستقرار الروحي ، والطمأنينة الشرعية ويأمن من الاهتزاز النفسي الذي يخلف في داخله الكثير من العقد النفسية المتأصلة .

* * *

٤ ـ في اطار اصل الصحة :

قد نشعر بالحاجة الى التوقف أمام الأدلة الفقهية لنأخذ منها الاطار الذي يتحرك فيه هذا الاصل لنرى هل يختص بالعلاقات العامة بين المسلمين ، أو يشمل غيرهم . .

الظاهر من الفقهاء أن الأصل يختص بالمسلمين ، ولذا ذكروا في عنوان المسألة « أصل الصحة في فعل المسلم » وقد يؤيد ذلك استدلالهم له بالاحاديث التي ذكر فيها كلمة الاخ باعتبار أن غير المسلم ليس بأخ ، لاختصاص الأخوة بالمسلمين ، وذلك كما في الحديث المروي عن الامام علي (ع) ضع أمر أخيك على أحسنه ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءً وانت تجد لها في الخير محملا . وما ورد مستفيضا ان المؤمن اذا اتهم أخاه انماث الايمان في قلبه كانمياث الملح في الماء وان من اتهم أخاه فلا حرمة بينهما وان من اتهم اخاه فهو ملعون ملعون [١] .

ولكن ذلك لا يوجب الاختصاص ، فيما نرى ، لان القضية ليست قضية تكريمية تعبدية لتنحصر في دائرة ألفاظ الحديث ، بل هي « قضية عقلائية » تستند الى واقع الحياة من جهة ، وطبيعة العدالة من جهة اخرى ، كما ألمحنا اليه آنفاً ، ولذلك فلا يمكن لها ان تعيش في

---

(١) المصدر السابق : ص ٤١٥ .

نطاق ضيق لان العدالة في الاسلام تتسع لكل الناس . القريب والبعيد ، المؤمن والكافر ، فلا يجوز للانسان المؤمن أن يعتدي على حقوق الآخرين المشروعة حتى لو كانوا كافرين ، وهذا ما نستوحيه من الآية الكريمة :

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ .

[سورة المائدة : ٨] .

أما واقع الحياة الذي يحمل في كل عمل جوانب خفية تفسر الكثير من جوانب الغموض فيه ، فمن الطبيعي أن يعيش في الأجواء العامة للناس . . ولعل بناء العقلاء الذي يستند اليه الأصوليون في تشريع هذا الاصل ، في المعاملات المالية والشخصية ، لا يضيق عن هذا الجانب من الاصل الذي يمتنع الانسان فيه من الحكم على الآخرين ما دام هناك جانب معقول يصلح أساساً للتفكير والمناقشة والتبرير ، وقد نلاحظ في سلوكهم انهم يبادرون الى لوم الانسان الذي يحكم على الآخرين بالسوء ما دام هناك وجه حسن يمكن ان يحملهم عليه . وعلى ضوء هذا فنحن نجد في هذا الاصل قاعدة عامة تحكم سلوك الناس في كل أعمالهم من دون فرق بين المسلم وغير المسلم انطلاقاً من المبادىء العامة التي ترتكز عليها مما يدخل في البناء الداخلي للشخصية الاسلامية لدى الانسان المسلم . .

٥ ـ في خطى هذا الاصل :

ان ما نريده من هذا الحديث هو اعطاء صورة حقيقية عن أصل الصحة في فعل الانسان وقوله لئلا تضيع خطوطها التفصيلية في غمار التيه ، فنحن نواجه امامنا هذه القاعدة من موقع النظرة الواقعية للانسان

المسلم في حكمه على الآخرين وتعامله معهم ، وعلاقاته بهم ، وفي غير ذلك مما يجعل للقضية جانباً كبيراً من الخطورة ، لا سيما عندما تتصل بحياة الكثيرين من الناس الذين يتقنون فن التمثيل ، فيستطيعون اخفاء جرائمهم وانحرافاتهم في اساليب ضبابية كثيفة لا تستطيع ان تبصر من خلالها اي شيء . . فما هو المطلوب منا في هذا الأصل العملي ؟

هل يُطلب منا ان نلغي من أفكارنا كل تصور واقعي لحالات الانحراف ، لنستقبل الفكرة التي تمنحهم كل الثقة ما دامت الاحتمالات المضادة غير واردة في هذا المجال ؟

ربما يتصور البعض ان القاعدة تطرح نفسها كأساس من أسس تأكيد الثقة بالانسان ورفض كل الافكار التي توحي بعدم الثقة لتكون النتيجة ، من خلال ذلك ، ان كل انسان مؤمن طيب وصالح وخير ، لا يرتكب القبيح ولا يفعل الا الحسن . . انه الحكم الذي ينبغي لك ان تسير عليه في حياتك ، فلا تتوقف ولا تتردد في انشاء ما تريد من علاقات ، او القيام بما يفرضه عليك العمل من معاملات ، ازاء بعض الشكوك التي تطوف في فكرك او الكلمات التي تسمعها من الآخرين . . فاغمض عينيك عن كل ما هناك ، واغلق سمعك عن كل ما يقال واحبس فكرك عن كل ما يظن كما ورد في بعض الاحاديث ، كذب سمعك وبصرك عن اخيك ، وان شهد عندك خمسون قسامه انه قال ، وقال لم أقل فصدقه وكذبهم . . وقد يؤكد هذه الفكرة الدليل الذي اقامه البعض على انها حجة مثبتة للواقع ، وليست أصلا عملياً في مقام الشك ، وهو أن هذه القاعدة تستند الى ظاهر فعل المسلم ، لان من طبيعة صفة الاسلام لديه انه يخضع كل افعاله واقواله للخط

الاسـلامي فـلا ينحـرف عنه الى غيـره ، الا في الحـالات الـطارئـة الضاغطة . .

ولكن . .

أليست هذه هي السذاجة بعينها ؟

أليس في هذا دعوة الى رفض الحذر امام حالات الشك ؟

اذن ، كيف يحمي الانسان نفسه من النـوايا الخبيثـة الشريـرة التي يتقن أصحـابها طـريقة اخفـاءها عن الآخـرين مـا دامت قـاعـدة الصحـة تحمي هؤلاء من نتائج حالات الشك والتردد والقلق . .

* * *

ولكننـا نرى ، في هـذه القاعـدة ، وجهـاً من وجـوه العـدالـة التي تحكم نـظرتنا لـلانسان ، في نـطاق يبتعد بهـا عن السذاجـة الغارقـة في الضباب . . فهي تريـد حمايـة الآخرين من خـطر الاحكام السـريعة التي لا تعتمـد على أساس ثـابت ، ولكنها في الـوقت نفسه لا تـريد لـلانسان ان يخضع لخطر الوقوع في حبائل الاشخاص الذين يخفـون ما يفكـرون به ، ويمارسون أساليب التمثيل على أكثر من وجه .

أمـا كيف نفهم ذلك من هـذا الأصل فهـذا ما نـريد التحـدث عنـه في عدة نقاط :

١ ـ في حياة كل واحـد منـا وجهـان للحقيقـة مـظلم ومضيء . . فنحن نمـارس الأعمال الخيـرة من خـلال دوافـع الخيـر ، كمـا نمـارس الأعمـال الشريـرة من خلال دوافـع الشر ، وقـد يعجبنا الحسن في بعض المجالات ، وقد يغرينا القبيح في مجالات أخـرى . . وقد تبـدو أعمالنـا للآخرين في خلفياتها الخيـرة او الشريـرة ، وقد تختفي عنهم فـلا تفصح

عن أي معنى ، مما يدفع الى الحيرة في الوجه الحقيقي للعمل .

٢ ـ ولكن . . قد يسبق الى الظن ـ بادىء ذي بدء القبح بدلا من الحسن ، والشر بدلا من الخير ، فنحن ميالون ، في داخل ذواتنا ، الى ان ننظر الى الآخرين نظرة سوداء ، فنغلب الجوانب التي تدينهم على الجوانب التي تبرؤهم ، حباً منا باحتكار صفة الخير والحسن والطيبة لأنفسنا مما يبعث في اعماقنا الشعور بالزهو والغرور عندما نكون في المستوى الذي ننظر فيه الى الآخرين من أعلى كما ينظر الكبار الى الصغار .

وقد نحاول تبرير ذلك بالآية الكريمة التي توحي بأن الأصل في افعال النفس هو السوء ، وهي قوله تعالى في سورة يوسف على لسان امرأة العزيز :

وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي . .

وقد نحاول الاستشهاد على ذلك بقول المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة ، فلعلَّة لا يظلم

وربما تجعلنا هذه النظرة في موقف الحاكم الذي يصدر الحكم على المتهم ، في البداية ، ثم يحاول ان يبحث عن حيثيات حكمه ، مما يسبب له المزيد من التعسف في الاجتهادات التي تدعوه الى تأول ما لا يقبل التأويل ، واستظهار ما لا يتفق معه الظهور في القول وفي العمل .

٣ ـ وكان الاسلام شريعة العدل التي أنزلها الله ، كما أنزل بقية

رسالاته ، على اساس الحكم بالعدل ، والقيام بالقسط على ما جاءت به الآيات الكريمة .

قال تعالى :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . [سورة الحديد : ٢٥] .

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ .

[سورة ص : ٢٦] .

فأراد ان يجعل للانسان المواقف العملية التي تنقذه من الوقوع تحت رحمة اغراءات الظلم الذاتية والخارجية ، في الحالات التي يريد ان ينصب فيها نفسه حاكما على تصرفات الآخرين . وذلك من خلال التأكيد على المناعة الشعورية ضد الانحراف بالعوامل الطارئة التي تميل بالانسان الى ما لا يرضاه الله ولا ينسجم مع خط العدل .

٤ ـ وكانت قاعدة الصحة في افعال المسلمين واقوالهم ، احدى الوسائل العملية التي انطلق الاسلام منها في عملية البناء الداخلي الذي يحقق المناعة الشعورية ضد الانحراف ليمارس الانسان المسلم من خلالها عملية التقاط الانفاس في تجربة للموقف الهادىء الذي يبعث الانسان على التفكير في الموضوع من جميع جوانبه ، لا من جانب واحد ، ليواجه الموقف بنظرة موضوعية بعيدة عن الانفعال .

٥ ـ ولعل من أوليات هذا الاتجاه ـ الذي يريد الاسلام من خلاله ان يقود الانسان الى موقف العدل ـ ان لا يجعل الحكم خاضعا لانفعال جديد يطلب البراءة للمتهم على أساس الظن في بعض

الحالات ، او الوهم في بعض آخر . ولهذا ، فاننا لا نستطيع اعتبار هذا الاصل حكما بالحسن ، او بالخير على أساس ما يمثلان من مدلول ذاتي ، وأثار عملية لانه يفتقر الى الحيثيات القطعية المبررة لذلك تماما ، كما كان الحكم بالقبح او الشر اللذين رفضناهما أمام الاحتمال ، مفتقرا الى ذلك .

بل ان القضية ربما تأخذ طابع ترجيح المرجوح على الراجح فيما اذا كانت ظواهر العمل تلتقي مع فكرة اعتباره قبيحاً ، مما يجعل الاحتمال ، في هذا الجانب ، اقوى من الاحتمال في الجانب الآخر ، اعني جانب الحسن ، وقد تأخذ طابع الترجيح بلا مرجح فيما اذا كان الجانبان متساويين في حساب الاحتمال ، فكيف يمكن للشريعة ان تتخذ هذا الموقف ، وهل هذا الا الفرار من قبح الحكم على الانسان مما لم يثبت ، للوقوع في قبح ترجيح المرجوح على الراجح او الترجيح من غير مرجح .

٦ ـ ان القضية في رأينا تتجه اتجاهاً آخر يحاول ان يقود الانسان الى التفكير في الجانب المضيء من الموضوع عندما يتجه تفكيره الى الجانب المظلم ، فهو يريد ان يقول للانسان ان هناك منطلقات خفية للخير في أي عمل يقوم به الشخص ، فعليك ان تبحث عنها ، قبل ان تصدر حكمك اعتماداً على ظواهر الامور ، لان عمل الحاكم ، في أية قضية ، ان يلاحظ الاحتمالات الواردة في الموضوع ، حتى البعيدة منها ، فقد تكون الحقيقة كامنة في واحدة منها مما يجعل من عملية اهمالها ، عملية اهمال للحقيقة بالذات .

وقد يتعاظم الموقف في الحالات التي تنسجم فيها احتمالات الخير مع ما يؤمن به الانسان من قيم دينية او مبادىء اخلاقية ، فان

ذلك قد يقرِّب الفكرة الطيبة بطريقة افضل لان الطبيعة الخيرة للانسان المؤمن لا بد ان تفرض نفسها على سلوكه وموقفه في الاوضاع الطبيعية مما يجعل من الانحراف استثناء خارجاً عن القاعدة ، ولهذا انطلق الفقهاء ليحصروا هذه المسألة في فعل المسلم على اساس الانسجام بين الايمان بالاسلام وبين صحة العمل ، بينما لا نجد ذلك في فعل غيره .

وعلى ضوء ما قدمناه فان القاعدة تتحرك لاثارة الاحتمال في جانب الخير ليملك على الانسان موقفه قبل ان يحكم ، ولكنها لا تتحرك لاعطاء الحكم الايجابي ، كما ذكرنا .

٧ ـ وبهذا نستطيع ان نقرر انها تحاول التعرض للجانب السلبي للقضية ، تاركة الجانب الايجابي للحيثيات التي تحقق لصاحبها قناعة الرأي ، وسلامة الموقف ، فهي لا تقول للانسان ان عليك ان تحكم بالخير بل تطلب منه أن لا يحكم بالشر مع وجود احتمال الخير ، او ان يفكر في حيثيات الاحتمال اذا لم يكن موجوداً ليثيره في نفسه من جديد .

وهذا هو ما قرره الفقهاء في فتاواهم الشرعية في المسألة فهم يقولون انه لا يجب على الانسان القيام بالنتائج الشرعية للجانب الخيِّر في الموضوع بل يقتصرون على التأكيد على عدم اثارة النتائج في الجانب الشرير ، ويمثلون لذلك بالحالة التي يمر عليك فيها احد اخوانك او معارفك ، فيتكلم بكلام لا تدري نوعه ، هل هو شتيمة يمتهن بها كرامتك ، او هو تحية يحترم فيها مقامك ، فان القاعدة لا تقول لك لا تحكم عليه بانه شتمك ، ولا تواجهه بالنتائج السيئة للشتيمة ولكنها ، في الوقت ذاته ، لا تلزمك بالنتائج الشرعية للتحية

التي يفترض انها الجانب المضيء في المسألة فلا يجب عليك ان ترد السلام عليه في هذه الحالة ، كما يجب ذلك في أية تحية اخرى لان القضية تقف عند حدود عدم الحكم بالجانب السلبي فلا تتعداه الى الجانب الايجابي .

٨ ـ ولعل الحديث المأثور عن الامام علي (ع) في هذا المجال يؤكد لنا هذه الفكرة التي تفسر بها قاعدة الصحة .

ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك عنه ولا تظنن بكلمة خرجت من اخيك سوءً وانت تجد لها في الخير محملا . فقد نلاحظ في الفقرة الثانية انها تتجه نحو الابتعاد عن الحكم بالجانب السيىء ما دام هناك مجال للاحتمال المضاد ، ولو بنسبة واحد بالمائة ، وبهذا تكون مفسرة للحمل على الأحسن الذي تفيده الفقرة الاولى .

٩ ـ وقد تنطلق بعض الأحاديث في معالجة الموضوع في مجال آخر ، وهو الحالة التي تتكون لدى الانسان فيها القناعة بالثقة بالآخرين ، من خلال الأسس العملية التي توحي بذلك في سلوكهم في الحياة . . ثم تحدث بعض الظواهر الطارئة التي تثير في النفس مشاعر مضادة وتخلق لديها الظن بالسوء في هؤلاء ، وذلك هو حديث الامام علي (ع) في احدى كلماته القصار في نهج البلاغة :

ليس من العدل القضاء على الثقة بسوء الظن .

فان هذه القاعدة تدعو الى ابقاء الثقة في موقعها ، وعدم المبادرة بالحكم المضاد لمجرد بعض الظواهر التي توحي بالظن السيىء من دون استناد الى برهان صحيح . ونلاحظ ـ في الحديث ـ ان التأكيد على اعتبار القضية تعيش في اطار العدل والظلم ، يجعلها تتجه الى موضوع الحكم على الشخص باعطائه الثقة ، او حرمانه منها ، لا على

أساس نفسي ، بل على اساس التعامل معه في كل ما يشترط فيه الثقة ، فليس لك ان تسلبه ثقتك به ما دامت مقومات الثقة موجودة ، لان من العدالة ان يصدر الحاكم في حكمه من المنطلقات الاساسية للحكم التي لا يجوز لنا الخروج عليها الا بمنطلقات اخرى مماثلة لها أو أقوى منها مما يفسح المجال لحكم جديد ، أما الشبهات ، او الظنون الطائرة فلا تصلح أساساً لنقض الحكم الثابت ، كما لا تصلح لاثبات حكم جديد . .

١٠ ـ ولا تقف القضية عند هذا الحد ، بل تتعداه الى الجانب الذي تتأكد فيه من صدور الفعل السيىء في ظاهره ، ولكنك لن تصدر حكمك على فاعله بالانحراف ، او المعصية ، لان هناك بعض المبررات التي قد تعطي الفعل صورة اخرى تضعه في حالة الرخصة بدلا عن حالة المنع ، فلا بد من مراعاتها عند الحكم عليه . وربما يصدر من انسان قول يخالف الواقع ويبتعد عن الحق ، فتحدثك نفسك ان تتهمه بالكذب او بالباطل لتعطيه صفة الكاذب الذي يتعمد الكذب او المبطل الذي يدعو الى الباطل وهو يعرف الحق ولكن الاسلام يقول لك : ان هناك وجهاً آخر للمسألة وهو ان يكون هذا الانسان معتقداً لصدق ما يخبر عنه او لصحة ما يدعو اليه لان هناك مرحلة بين الكاذب وبين المخطىء ، وبين المبطل والمشتبه . . وقد حدد لنا الامام علي (ع) لنا هذين النموذجين من الناس ، وذلك فيما ورد عنه في نهج البلاغة : « لا تقاتلوا الخوارج بعدي فانه ليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه » .

وعلى ضوء هذا تنطلق قاعدة الصحة امام الانسان الذي يحكم على الآخرين من خلال ظواهر افعالهم واقوالهم لتثير لديه احتمال

وجود العذر فيما يفعل ، فتترك له مجال الدفاع عن نفسه على هذا الاساس ، فلعل له المبررات في اعتقاده الخطأ صواباً او الباطل حقا ، دون ان يتعمد الى هذا او ذاك من قريب او من بعيد .

ويمثل الفقهاء لذلك بالانسان الذي تراه مفطرا في شهر رمضان (والافطار معصية في نفسه ، ولكنها لغير المرضى والمسافرين من أولي الأعذار) فعليك ان تمنح لنفسك فرصة من التأني والهدوء لتفحص عن طبيعة هذا الافطار ، وقد روى المجلسي في كتابه بحار الانوار عن الامام علي (ع) ، (في قضاياه المعروفة) انه ورد عليه قوم يأكلون في نهار رمضان فسألهم عن السفر والمرض ونحو ذلك من الاعذار ، فلما أقروا بانتفاء الكل حدّهم .

* * *

١١ ـ وربما كان من الضروري لنا ان نعلم طبيعة تشريع هذا الاصل ، فانه لم ينطلق من فكرة مثالية تريد ان تفرغ نفس الانسان من ظنون السوء بما تغرسه في داخله من الايمان بسلامة منطلقات الآخرين وسمو أنفسهم وارتفاعهم عن مستوى الشبهة والتهمة . ولم تنطلق هذه القاعدة من هذا كله ، لان الاسلام لا يتعامل في تشريعه مع الخيال ، او المثال البعيد عن الواقع بل يبقى منطلقا من قاعدة الواقع في حركته مع الحياة . ولذا فانه يعلم ان ظنون السوء لا يمكن ان تغيب عن فكر الانسان اذا واجهت أعمال الآخرين وتصرفاتهم ، لان الاخرين ، في واقعهم العملي ، لا يرتفعون الى المستوى الرفيع من الطهارة والبراءة والسمو والعظمة . . وقد أكد هذا المعنى الحديث الشريف المأثور عن النبي محمد (ص) : ثلاث لم يعر (بخل) منها نبي . . الظن والحسد والطيرة . . فاذا ظننت فلا تحقق ، واذا حسدت فلا تبغ واذا تطيرت فامض .

لقد اراد الاسلام ان يركز هذه القاعدة على اساس الواقع ، فاننا نعلم ان كثيرا منا قد يصدر في كثير من أعماله عن نية طيبة لا تظهر آثارها على طبيعة العمل ، وقد يتكلم كلاما لا يطابق الواقع ولكنه يعتقد مطابقته او يدعو الى فكرة باطلة وهو يعتقد انها حق ، كنتيجة طبيعية لبعض القناعات الخاطئة ، اننا نعلم ان كثيرا منها قد يصدر منا دون ان ينتبه الآخرون الى منطلقات اعمالنا وأقوالنا فيصدرون علينا الحكم ونتألم منه ونبرر ألمنا من ذلك كله ، بأن على هؤلاء الذين حكموا بما حكموا به ان يتريثوا قبل اصدار الحكم لان للعمل اكثر من منطلق وللكلمة اكثر من وجه ، وللدعوة اكثر من صورة . . ونضيف الى ذلك . . ان عليهم ان لا ينظروا الى القضية من وجه واحد ، بل من جميع وجوهها لينطلق الحكم العادل من الدراسة الموضوعية الشاملة .

ألم يحدث معنا ، في بعض الحالات ، اننا نسير في الطريق الى أعمالنا ، ونحن خاضعون للتفكير الطويل العميق الذي يشغلنا عن رؤية أي شيء امامنا فنشعر اننا نسير ونتحرك بطريقة آلية . . حتى اننا نلتقي بالكثيرين من الناس من اخواننا او معارفنا فلا نبصرهم ، ونحن نحدق بهم ، ولا نمد اليهم ايدينا بالتحية ، او يحيوننا فلا نرد اليهم التحية ، فاذا وصفنا هؤلاء ـ ازاء هذا التصرف ـ بالتكبر وعدم اللياقة ـ اعتبرنا هذا الحكم ظالماً لا نستحقه فنطالبهم بتعرف أوضاعنا النفسية والفكرية التي شغلتنا عن ذلك كله .

ان الاسلام يرى ان هذه القضايا غير بعيدة عن واقع الانسان وعن طبيعة الحياة الاجتماعية ، ولهذا فانه يريد منا ان نلاحق هذه القضايا عندما نفكر بالناس الذين حولنا ، وبما يصدر عنهم من

تصرفات وأقوال ، لنمتنع عن التسرع في الحكم نتيجة فكرة سريعة طارئة ، او عقدة نفسية تبحث عن مبررات الحكم بعد اصداره .

ان العدل هو هاجس الاسلام في تشريعه المتعلق بحياة الناس ، ولذا فانه يريد من الناس الذين يمارسون اصدار الحكم سواء منهم الذين يعيشون في منبر الحكم الرسمي ، او في منبر الحكم الاجتماعي ، ان يلاحقوا خطوات العدالة فيما يأخذون وفيما يدعون ، وبهذا نعرف ان المنع عن الظن السيىء في كل ما ورد فيه المنع عن العمل من آيات وأحاديث ، يتحرك في اتجاه العمل الذي يدعو اليه الظن بشكل اساسي ، فلا يتصرف الانسان على اساس الظن . . كخطوة عملية لالغاء الظن على مستوى الهدف البعيد في الحياة ، لو امكن للانسان ان يبلغه ، من خلال التفكير الهادىء والتحليل الواسع العميق .

* * *

١٢ ـ ولكن ليس معنى ذلك كله ، ان يستسلم الانسان للأحاسيس الخيِّرة بعدم اتهام الآخرين فيسلم قياده لهؤلاء الذين نريد حملهم على المحمل الحسن ، فيقع في قبضة الجانب السيىء من طبيعتهم . . ليس معنى ذلك كله ، ان يترك الانسان جانب الحذر على أساس الشعور بالطيبة لتكون العملية انطلاقاً في أجواء السذاجة الأخلاقية ، لان القضية لا ترتكز على الاحساس بالطيبة او اثارة مشاعر الخير في داخل النفس ، بل ترتكز ـ كما ألمحنا اليه ـ على قضية العدالة في الحكم والرأي والنظرة التي تفسح المجال لاحتمالات البراءة لدى المتهم ، عندما تحاصره عناصر الاتهام ، ولذا فان الامر لا يعدو ان يكون توقفاً في الحكم ، أو حكماً بالبراءة من الجانب السلبي

أو ايماناً بالرصيد الطيب في ذات الانسان المسلم ، تماما ، كما هي القاعدة التي تقول (ان المتهم بريء حتى تثبت ادانته) . . فانها تنطلق من زاوية اعطاء الفرصة التي تجعل الدفاع ينطلق في عملية البحث عن أدلة البراءة ، وتمنح الفرصة للحكم من أجل ان يفكر طويلا قبل الأخذ بأدلة الاتهام .

وعلى ضوء هذا . . فان على الانسان ان يأخذ جانب الحذر عندما تعيش القضية في الظروف السيئة التي تقضي بالحذر ليحفظ الانسان نفسه من مفاجآت الواقع المختبئة وراء أقنعة الطيبة والبراءة والخير الظاهرية .

وقد وردت الاحاديث الشريفة التي تؤكد على هذا الجانب في حديث الامام علي (ع) في نهج البلاغة في كلماته القصار مثل قوله المأثور :

« لا تثقن بأخيك كل الثقة فان صرعة الاسترسال لا تستقال » .

فاننا نجد في هذه الكلمة النظرة الواقعية التي ترى في كل انسان نقاط ضعف خفية موجودة في الجانب الخفي من حياته او نقاط ضعف محتملة قد يثيرها او يصنعها ما يواجه الانسان من عناصر الاثارة ، مما يفرض على الانسان ان يترك مجالا للحذر ، يختبىء خلفه ، ويسمح له بالتراجع في الحالات التي تثور فيها العوامل الخفية ضده لتلقي به في الهاوية ، فان الاسترسال في مجال الثقة المطلقة يدع الانسان تحت رحمة المفاجأة التي لن يكتشفها الا بعد فوات الأوان ، أما السير بحذر فانه يفسح المجال باكتشاف المفاجأة قبل الوقوع في الخطر . ولعل مما يوضح لنا الصورة ، ان نستحضر ـ في وعينا ـ صورة الانسان الذي

يلهث بالسير خلف انسان آخر بسرعة ودون توقف ، من دون ان تكون هناك مساحة كافية تفصل بين خطواته وخطوات ذلك الانسان ، فاذا انطلق ذلك الانسان في طريق الهاوية ، فلا بد ان يجذب الآخر معه فيقع فيها بشكل أكيد . . اما اذا كانت هناك مساحة تفصل بين الخطوات فان بامكانه ان يجنب نفسه عناء الوقوع في ذلك باكتشافها قبل الوصول اليه ، او يتجنب الصدمة القاسية فيما لو كان أمر وقوعه فيها شيئا لا مفر منه .

* * *

وقد يتأكد هذا التحفظ امام الثقة بالآخرين في كلمة أخرى من كلمات الامام علي القصار في نهج البلاغة : اذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظن برجل لم تظهر منه حوبة (اثم) فقد ظلم . واذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل الظن برجل فقد غرر (أوقع نفسه في الخطر) .

* * *

فقد اعتبر اساءة الظن ، ظلماً في الجانب الذي يغلب فيه جانب الخير من خلال طبيعة الأجواء العامة وذلك من حيث انها تمثل الاسلوب العملي الذي يجسد الظن السيىء في السلوك ، لان مجرد الظن الداخلي الذي لا يتجسد في السلوك العملي للانسان لا يعتبر ظلما من قريب او من بعيد انطلاقاً من عدم خضوع النية الداخلية الذاتية لحساب المسؤولية ، لانها ، في أغلب الحالات ، غير خاضعة للارادة الانسانية . اما في الجانب الثاني الذي يغلب فيه جانب الشر تبعاً للاجواء العامة الشريرة ، فان حسن الظن الذي يبتعد به الانسان عملياً عن جانب الحذر ، يعتبر تغريراً للانسان بنفسه ، لان طبيعة تلك

الاجواء المحيطة بالبيئة التي عاش فيها هذا الرجل ، تجعل الانسان يشعر بضرورة الحذر وتغليب الجانب السيىء من حيث الواقع العملي للتصرف معه .

* * *

وقد نجد في بعض كلمات أئمة اهل البيت ما يوضح لنا هذه الفكرة بطريقة جديدة تجمع بين حسن الظن بمعنى عدم الاسراع بالاتهام او بالحكم عليه بالسوء ، وقبول عذره او زعمه البراءة ، فيما اذا ادعاها الانسان وبين قبول قول الناس عنه ، بمعنى اعتبار كلامهم أساساً للحذر منه ، وتجنب الوقوع في خطر الواقع السيىء المفروض فقد ورد في حديث الامام جعفر الصادق (ع) في خطابه لاحد أصحابه :

يا أبا محمد كذِّب سمعك وبصرك عن أخيك فان شهد عندك خمسون قسامة انه قال ، وقال : لم أقل فصدقه .

وقد علق الشيخ مرتضى الانصاري في كتابه فرائد الاصول على هذا الحديث بقوله : « ان تكذيب القسامة مع كونهم ايضاً مؤمنين لا يراد منه الا عدم ترتيب آثار الواقع على كلامهم لا ما يقابل تصديق المشهود عليه فانه ترجيح بلا مرجح بل ترجيح المرجوح [1] » .

وخلاصة الفكرة ان عليك ان تقبل قوله بمعنى ان لا تحكم عليه بحسب كلامهم بل تترك هناك مجالا لاحتمالات الصحة ، ما كان الى ذلك سبيل ، ولكن ليس معناها ان تحكم بكذبهم لمجرد قوله .

وقد ورد في حديث آخر للامام جعفر الصادق في حديثه مع ولده

---

(١) فرائد الأصول : ص ٧٦ ـ ٧٧ .

اسماعيل ، ما يلقي الضوء على الجانب الآخر للفكرة وهو لزوم الحذر في مثل الحالة السابقة في الحديث المتقدم ، فقد كان لاسماعيل دنانير وأراد رجل من قريش ان يخرج الى اليمن فقال له ابو عبد الله (الصادق) يا بنيّ اما بلغك انه يشرب الخمر قال : سمعت الناس يقولون . فقال : يا بنيّ ان الله عز وجل يقول : يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين . يقول : يصدق الله ويصدق للمؤمنين فاذا شهد عندك المسلمون فصدقهم [1] . فان الامام الصادق يريد من خلال كلامه ، فيما يبدو ، ان يثير جانب الحذر لدى ولده من خلال كلام المؤمنين بقرينة استشهاده بالآية التي تريد من تصديق المؤمنين ـ حسب الظاهر ـ عدم رفض كلامهم مع العمل على ما يقتضيه جانب الحذر . ويعلق الشيخ مرتضى الانصاري على ذلك بان معنى تصديق المخبر في الآية هو اظهار القبول وعدم تكذيبه وطرح قوله رأسا مع العمل في نفسه بما يقتضيه الاحتياط التام بالنسبة الى المخبر عنه فان كان المخبر به مما يتعلق بسوء حاله لا يؤذيه في الظاهر لكي يكون على حذر منه في الباطن كما هو مقتضى المصلحة في حكاية اسماعيل [2] .

* * *

وهكذا نصل الى نهاية المطاف ، حيث استطعنا ان نرى في قاعدة الصحة اساسا خلقيا يقترب بالانسان من العدالة فلا يحكم بمجرد الظن بل يحاول اثارة احتمال الخير من أجل افساح المجال للتبين واعطاء الحكم العادل ، ولكنه في الوقت نفسه ، يبتعد به عن السذاجة لانه لا يريد للانسان ان يستسلم لاحتمالات الخير في عمله

---

(١) فرائد الأصول : ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٢) فرائد الأصول : ص ٧٦ ـ ٧٧ .

بل يوحى له بأن يراقب احتمالات الشر في احتياط شديد .

المعطيات العملية لاصل الصحة :

قد نستطيع أن نتلمس من خلال بحثنا هذا ، في اصالة الصحة عدة معطيات كبيرة تساهم في بناء شخصيتنا الاسلامية على أسس ثابتة ، وتمنحنا القدرة على مواجهة الواقع بوعي واتزان :

١ ـ العقلية الموضوعية . . ان هذا الاصل يمنح الانسان عقلية موضوعية تدرس الواقع من خلال خصائصه الذاتية وظروفه العامة والخاصة ، وتمتنع عن التأثر بالانفعالات الطارئة الملتهبة التي تعطي الواقع صورة المزاج في علاقته بالاشياء . . . وبذلك يستطيع الانسان ان يفهم الواقع في سلبياته وايجابياته بطريقة سليمة ، ليساهم في علاج مشاكله بوعي كبير ، لان الانسان كلما اقترب من فهم الواقع بموضوعية ، كلما اقترب من معالجة الواقع بواقعية ، وكلما استطعنا ان نجرد أنفسنا من النظرة الانفعالية ، كلما استطعنا ان نخفف من مشاكلنا ، او نخفف من اندفاع هذه المشاكل في اتجاه الهاوية .

٢ ـ ان أصل الصحة يربطنا بالجانب المضيء في الحياة ويدفعنا الى اكتشاف الجوانب المضيئة في حياة الناس لنتمكن من التعامل مع هذه الجوانب عندما تدفعنا الحاجة الى ذلك باعتبارها طاقات حية يمكننا ان نستثمرها في بناء المستقبل . . ولعل هذا الجانب يحقق لنا نقطتين :

النقطة الاولى : الاحساس العميق بالثقة فيما حولنا من الناس باعتبار الجانب المضيء شيئاً طبيعياً في حركة الواقع ، وليس شيئا استثنائياً خارجاً عن القاعدة مما يجعلنا نبادر الى اثارته امامنا في كل

ظاهرة عملية من حياة الناس .

النقطة الثانية : القدرة على اكتشاف الجوانب المضيئة لدى اعدائنا الذين نختلف معهم في كثير من قضايا الحياة كالدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغيرها ، وبذلك نستطيع اكتشاف المواقع الطيبة الموجودة لديهم ، وننطلق اليهم من خلالها لنبحث عن امكانيات اللقاء التي تقربهم من مفاهيمنا وقضايانا ، او ندخل في عملية مقارنة بين الجوانب الطيبة والجوانب الشريرة ، لندرس نسبة القوة في هذه او تلك لنقوي هذه او نضعف تلك ، اما اذا انطلقنا من موقع النظرة السوداء التي لا ترى في الاعداء الا الجانب المظلم ، فاننا سنبتعد عن فهمنا الحقيقي لهم ، وسنتحول الى أناس سلبيين أمام الواقع ، ولا يبقى امامنا الا الاندفاع الأعمى الذي لا يبصر طريقه جيدا ، والا المزيد من بعثرة الطاقات ، او تجميدها وخنقها ، من دون الاستفادة منها في عملية صنع الحياة وبناءها . . وربما كانت هذه النقطة من أروع النقاط البارزة في حياة الامم عندما تتحرك في مواقع القوة من منطلق الفهم الواعي للواقع في حياة الاعداء والاصدقاء ، اذ لا قوة بدون وعي شامل لمواطن التحرك في كل الاتجاهات .

٣ ـ ان اصل الصحة يدرِّب الانسان على ان يمارس الحكم العادل في القضايا الصغيرة والكبيرة من خلال شخصية الحاكم العادل الذي يشعر بمسؤولية الحكم في الموقع الاجتماعي العادي ، بنفس القوة التي يشعر فيها بالمسؤولية في الموقع القضائي الرسمي ، وبذلك تحول الحياة الاجتماعية في سلوك المواطنين الى مسؤولية متحركة ، تنطلق الى اهدافها العملية بهدوء العدالة ووعي الواقع ، الامر الذي يرفع من المستوى الاجتماعي الحضاري للامة من خلال عدالة النظرة

والفكرة والممارسة في العلاقات العامة .

٤ ـ التخلص من فوضى التقييم للأوضاع والاشياء عندما يرتبط بالاسس القوية الثابتة في مجال الاتهامات والاحكام ، بينما يتحول الواقع الى فوضى مدمرة ، اذا ارتبط الواقع العملي للحكم الاجتماعي بالمزاج الذاتي والعاطفة المتغيرة الملتهبة .

٥ ـ الحصول على الشخصية الطيبة الواعية التي لا تدفعها الطيبة الى السذاجة ، بل تقودها الى العدالة ، ويدفعها الوعي الى الحذر والسعي الهادىء الدائب الى مواجهة الحياة من منطق الواقع ولا يجرها الى الظلم في الحكم والاتهام . وتلك هي الشخصية الاسلامية القوية التي لا تتحول قوتها الى طغيان ، ولا تمنعها من العدالة . . لانها تنطلق من الرحمة النابضة بالوعي والايمان والشدة المرتبطة بالحق والعدالة .

خاتمة المطاف :

هذه هي بعض اللمحات التي أردت ان أوجهها الى هذا الأصل الرحب الشامل الذي يتسع لكل الجوانب العامة في حياتنا في اي موقع من مواقع السلوك الاجتماعي ونرجو ان تكون خطوة اولى في سبيل التحليل الاسلامي الواعي لهذه القواعد العملية والاصول العامة . . كما نأمل ان تكون نقطة انطلاق للسير في طريق الاسلام الطويل نحو الاهداف الكبرى في الحياة التي تنتظر الاسلام فكراً وشعورا وعقيدة للحياة وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

لكل سؤال جواب

- ما هو موقف الانسان المسلم عند تعرضه للاستهزاء ؟
- هل يجوز للانسان المسلم الدخول في المجتمعات الفاسدة من أجل الاسلام ؟
- إذا شك الانسان في عبادته وإيمانه فهل يحكم بالصحة ؟
- ما الفرق بين الذي يصلي ويكذب وبين الذي لا يصلي ولا يكذب ؟
- ما هي طبيعة التكوين السياسي للمجتمع الاسلامي ؟
- ما هي القاعدة الاساسية للتعايش السلمي بين المجتمع المؤمن وغيره ؟
- ما هي طبيعة العلاقات القائمة بين المجتمع الاسلامي والمجتمعات الأخرى ؟
- هل المجتمع الاسلامي مجتمع محارب ، وهل انتشر الاسلام بالسيف ؟
- هل الوفاء بالعهود في الاسلام ، قضية أخلاقية أو قانون شرعي ؟

مناقشات وأسئلة

هـذه بعض المناقشـات التي دارت بعد الفـراغ من المحاضـرة في نطاق الموضوع وفي خارجه .

س ١ ـ ما هو مـوقف الانسان المسلم عنـد تعرضـه للاستهـزاء من قبل الكافر ، او الجاهل ؟

ج ١ ـ لا بـد لـه من ان يـدرس المـوقف من خـلال طبيعـة الجـو الاجتمـاعي الذي يحيط بـالمتكلم والكـلام فـربمـا يـطلق هـذا الانسـان السـاخـر ، سخـريتـه ، في مجتمـع لا يملك مـوقفـاً مضـادا للمفـاهيم الاسـلامية ، ولا يملك معـرفة كـاملة للاسـلام ، مما يجعله في المـوقـع العملي الذي يمكن للدعوة الاسلامية أن تتحـرك في اتجاه الـوصول الى فكـره ووجدانـه . . وفي هذه الحـال قد يفـرض الموقف أن نستثمـر هذا الموقف الساخر ، لتحويله الى مجال لاثارة القضايا الاسـلامية بعيـداً عن ردود الفعـل الذاتيـة ، وذلك بـاستعمال الاسـاليب الحكيمـة المـرنـة في عـرض الفكرة بهـدوء واتزان ، وتغيير الجو السـاخر الى جـو حاد عـاقل يسمح للمجتمع بالتفكير والمناقشة من أجـل ان نقلب الموقف ضـده من جهـة ، ونغير تفكيـر افـراد المجتمـع ، او نفتـح لهم المجـال للبـدء في

عملية التفكير من جهة اخرى . . ومن الطبيعي ان ينطلق ذلك كله من موقع المرونة واللباقة والايمان .

وربما تنطلق السخرية ، في جو لا يوحي بأية فرصه للمناقشة والتفكير ، بل يتحرك في مهاجمة الفكرة والشخص بالاساليب التي تحطم المقاومة وتضعف الموقف ، وتحول القضية الى مجال للضحك والتندر . . وفي هذه الحال ، لا بد من مقابلة السخرية بالسخرية ، والتندر بالتندر ، وملاحقة كل نقاط الضعف الموجودة لدى الانسان الساخر ، واثارتها بأسلوب يوحي بالضحك ويستثير الهزء عليه لانه لا يمكن مقابلته بالفكرة الجادة في موقف يعتبر الجد نفسه منطلقاً للسخرية ، فان أية فكرة ، مهما عظمت ، لا يمكن ان تثبت امام اجواء الاستهزاء ، فلا يبقى الا ان ينتصر المؤمن لها بالوسائل العملية التي تهزم المعتدين ، وتحطم عدوانهم ، تماماً كما صنعه نوح فيما حكاه الله عنه . . ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون .

وقد يكون الانسان الساخر خاضعاً لفكرة مضللة توحي له بذلك ، وتدفعه الى استعمال هذه الاساليب من موقع خاطىء لا يملك سبيلا لاكتشافه . . وفي هذه الحال لا بد لنا من ملاحظة الموقف من ناحية الحاجة الى هداية هذا الانسان وانقاذه من ضلاله ، فنحاول البحث عن افضل السبل التي تخرجه من هذا الجو الى الجو الذي يستثير في وعيه المعاني الطيبة والنوازع الخيرة التي تفتح عينيه على طريق الحق ، وتخرجه من الظلمات الى النور . . وقد تمس الحاجة في هذا الجو الى بعض من الاساليب الضاحكة التي لا تثير ولا تعقد ، وبعض من الاساليب الجادة التي تمنع تحول الموقف الى الانحلال والميعان .

س ٢ ـ هل يجوز للانسان ان يدخل الى المجتمعات الفاسدة من أجل مصلحة العمل الاسلامي ؟

ج ٢ ـ لا يجوز الدخول فيها الا على اساس خطة عمل متحركة شاملة جماعية ، تضع كل انسان في موقعه الطبيعي من الخطة ، وتحميه من عوامل الانحراف الطارئة بما تحيطه به من اساليب الرقابة ، وبما تثيره حوله من وسائل الدعم والقوة ، لان الانسان الذي يدخل في هذه المجتمعات انطلاقا من موقع الشعور الذاتي الانفعالي ، قد يُستهلك من قبلها من دون ان يحقق النتائج المطلوبة لان الاعمال الفردية التي لا تخضع للخطة العامة لا تحقق الا بعض النفع القليل الذي لا يسمن ولا يغني من جوع .. هذا في الحالات الطبيعية .. اما في الحالات النادرة التي يشعر فيها الفرد بالثقة الكبيرة بنفسه ، وبأن بامكانه ان يحوِّل المجتمع الفاسد الى مجتمع خير ، من خلال انسجامه مع ذلك المجتمع ، فيمكن للانسان ان يخوض التجربة .. ولكننا نعتقد ان الجهد الكبير الذي يصرفه هذا الانسان في طريق التجربة ، ينبغي ان يصرف في بناء مجتمع الايمان ليكون قوياً وذلك بالتعاون مع العاملين من اخوانه في سبيل بناء القاعدة الصلبة التي تنطلق منها طلائع المستقبل المؤمن ، التي تنطلق الى اهدافها في تغيير المجتمعات الفاسدة الى مجتمعات خيرة ، من مركز قوة لا من مركز ضعف .

هذا كله في الحالات التي لا يفرض الدخول في هذه المجتمعات الوقوع في الانحراف عن طريق الله ، والممارسة لبعض المحرمات انسجاماً مع الجو العام الذي يحكمها ، كمحاولة للحصول على ثقتها واحترامها ، اما اذا استلزم ذلك تركا لواجب او ارتكابا لحرام

فـان الـدخـول فيهـا محـرم لانـه لا يـطاع الله من حيث يعصى ، الا في الحـالات الشـرعيـة الحـاسمـة التي تـرفـع حـرمـة الحـرام ، او وجـوب الـواجب ، كما في مـوارد التزاحم بين الـواجبات والمحـرمـات ، او بين الـواجبات أنفسهـا ، والمحرمـات أنفسها ممـا يجعل الحكم مـع المـورد الـذي يرقى الى المستـوى الكبير من الأهميـة عند الله . . ولكن تحـديد الأهم من حيث المصلحـة الواقعيـة أو المفسدة الـواقعية لـلاشياء تحتـاج الى مزيد من الاحاطة بمعـرفة الاحكـام والى الدقـة في ملاحـظة الواقـع ودراسته ، وهذا ما لا يتحقق الا للقلائل من الناس .

* * *

س ٣ ـ اذا شك الانسان في عبادته لـربه وايمـانه بـه ، فهل يمكن له ان يأخذ بالجانب المضيء ويجزم بالصحة ؟

ج ٣ ـ ربمـا كانت المحـاضـرة جـوابـاً كـافيـاً على هـذا السؤال ، ولكننـا نحـاول ان نلقي الضـوء على بـعض الجـوانـب التـفصيليـة للمـوضوع . . فـاذا كان السؤال يتجـه الى التأكيـد على الشك الـطارىء المتعلق بعبـادات الانسان السـابقة ، لانـه لا يدري هـل وقعت على نحو صحيح او فاسـد فيمكن الحكم بالصحـة انطلاقـاً من قاعـدة الفراغ التي اشـرنا اليهـا في بدايـة المحاضـرة ، واذا كان السؤال متعلقـاً بـالعبـادات التي يـريد ان يمـارسها حـاضـراً ومستقبـلا لانـه لا يعـرف وجـه الصحـة والفسـاد من ناحيـة الحكم الشرعي فيجب عليـه تعلم أحكامـه الشـرعيـة المتعلقـة بصلاتـه ، لان اصل الصحـة لا يصحح العبـادة المنـطلقـة من موقع الجهل بالحكم الشرعي .

أمـا الانسان الـذي يتحـول الشـك في حيـاتـه الى عقـدة متـأصلة متأزمة بحيث أصبـح يشك في كـل شيء حولـه ابتداء من حيـاته الفـردية

في عباداته ومعاملاته وصحته وطبيعة ايمانه او حياته الاجتماعية في حياته العائلية او الاخوانية او علاقاته العامة بالآخرين . . فقد عالجه الاسلام معالجة حاسمة من ناحية عملية فطلب منه ان لا يعتني بالشك في أية جهة من جهات العمل الفردية والاجتماعية العبادية منها وغير العبادية . . وهذا ما تحدث عنه الفقهاء في مصطلح (كثير الشك) و « الو سواسي » .

ولعل هذه المعالجة الاسلامية لهذا الموضوع تدخل في صميم المعالجات الواقعية التي تؤمن بأن الغاء الحالة المرضية الخاضعة لعقدة داخلية ، يساهم الى حد ما في تجميدها ثم في زوالها نهائياً لان العقدة تتأكد بالممارسة المنطلقة من الشعور العميق بالمسؤولية فاذا ألغى التشريع المسؤولية فلا يبقى هناك اي أساس شرعي في وهم الشاك لتعاظم هذا الشعور او زيادة هذه الحالة . .

وقد نحتاج ، الى جانب هذه المعالجة العملية ، ان نواجه حالات الشك بطريقة تحليلية واعية تترصد خطوات الحالة في داخل النفس لتبحث كل خطوة من أين بدأت والى أين تتجه ، وتحلل كل جانب من جوانب الشك ، فاذا شك الانسان في ايمانه ، كان عليه ان يواجه مسألة الايمان في أصوله وفروعه ، ثم ينطلق الى داخل نفسه ليبحث كيف تتجسد الصورة فيها . . ليحل المشكلة على أساس من دراسة الصورة كما هي في التشريع مقارنة بانعكاساتها في الواقع ، واذا شك في الطهارة والنجاسة ، كما يحدث للوسواسي أمكنه ان يدرس أسبابهما وطريقة تأثيرهما على جسده وثيابه وغيرهما .

ان كثيراً من الأزمات النفسية التي يعيشها الانسان في داخل ذاته ، فتتحول بفعل الممارسة الخائفة الى عقدة متأصلة ، ومرض

مـزمن ، تنطلق من الهـروب الذي يـواجهه الانسـان في حـركـة المشكلة في حيـاته ، فـلا يحاول ان يـدقق في المسؤولية ، ولا يجـرب ان يتأمـل في حركتها في الواقع فتكون النتيجة ان تطغى عليه كمـا يطغى الفيضـان الذي يجتاح امـامه كـل شيء ، ما لم نفتـح له الثغـرات التي تخفف من اندفاعه .

ان على الانســان الـذي يعيش الشــك كعقــدة ان لا يهــرب من الأسئلة التي تـواجهه بـل يواجههـا بكل شجـاعة ، ويـلاحقها بـالاجـوبـة الحاسمة حتى لا يبقى هنـاك مجال للشـك في قرارة الاعمـاق . وبذلـك يستطيع ان يضع المشكلة في اطار الحل الصحيح .

* * *

س ٤ ـ مـا الفـرق بين يصلي ويكــذب وبين الـذي لا يصلي ولا يكذب ، أليس حالهما واحداً ان لم يكن الثاني أفضل من الاول ؟

ج ٤ ـ هناك في مثل هذه المقارنة سؤالان :

١ ـ هـل للصلاة قيمـة دينية اذا تجـردت عن المعـاني الـروحيـة ، والجوانب العملية في شخصية الانسان المسلم ؟

٢ ـ هـل للصلاة قيمـة عملية في حيـاة المسلم في حـال تجـردهـا عن الالتـزام بـالفضـائـل ، في مقـابـل الالتـزام ببعض الفضـائـل وتـرك الصلاة ؟

اما الجواب عن السؤال الاول فتحدده الآية الكريمة .

واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

والحديث النبوي الشريف :

من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعداً .

والحديث المأثور :

رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش ورب قائم ليس له من قيامه الا التعب والسهر حبذا نوم الاكياس وفطرهم .

فقد دلت هذه النصوص الدينية على ان الهدف من تشريع الصلاة والفائدة منها ، هو انها تحقق الانضباط العملي للانسان امام الفحشاء والمنكر ، فلا قيمة للصلاة بدون ذلك لانها تكون عملا بدون فائدة وبدون روح .

* * *

أما السؤال الثاني ، فالجواب عنها ان الصلاة وان لم يكن لها قيمة دينية في حساب الله اذا تجردت الالتزام بالخط المستقيم في الارتباط بالمعاني الروحية ، ولكنها لا تخلو من قيمة عملية في هذا المجال ، فان الذي يصلي ويكذب يؤمل فيه الخير لان ارتباطه بالصلاة يجعله قادراً على ان يكشف نفسه في بعض اللحظات فيرجع عن الكذب وعن غيره من الرذائل . . وبذلك يمكن للصلاة ان تقوم بدور كبير في عملية التراجع عن الانحراف ، لانها تحقق للانسان الارتباط اليومي بالله ، فانه وان كان ارتباطاً بدون وعي الا ان الارتباط الرسمي بشكل يومي قد يفسح المجال لبعض الانفتاحات الروحية الطيبة التي يكتشف من خلالها الجانب الطيب في الحياة ، فيبدأ عملية التراجع بطريقة تدريجية .

اما الذي لا يصلي ولا يكذب ، فانه وان ارتبط بفضيلة الصدق او بغيرهما من الفضائل الا ان هذا الارتباط لا ينطلق من قاعدة ثابتة

في الاعماق ، بل ينطلق من حالة طارئة كالتربية العملية او المصلحة الذاتية او العوامل الخارجية المتنوعة . . وفي مثل ذلك لا يكون هناك أية ضمانة تحميه من الانحراف في حال وجود ظروف اقوى من الظروف العادية التي هيأت له جانب الاستقامة . . وبذلك يختلف حال الانسان الذي يرتبط بالقاعدة التي تمده بالخير وان عاش في نفسه بعض لحظاته بشكل عابر . ومن هنا ندرك أهمية التدريب على الصلاة والتأكيد على الالتزام بها والصبر عليها ، واعتبارها في الحديث النبوي الشريف عمود الدين ، لانها القاعدة الروحية التي تجعل لكل الافعال الدينية معنى عندما تمده بالروح المتدفق من وحي الله .

* * *

حوار حول السلام في الاسلام

جاء في مجلة صوت الشبيبة المسلمة ، الصادرة عن اللجنة الثقافية الاسلامية في الغبيري ، في عددها العاشر الصادر في جمادى الثاني سنة ١٣٩٨ هـ : (السلام في الاسلام) من المواضيع التي يتطرق اليها البحث قليلا ، وبشكل جزئي غير مكتمل . في هذا الصدد سنحاول ان نلقي الضوء على هذا المفهوم ، مفهوم « السلام في الاسلام » حتى تتضح كثير من الامور الغامضة وتزال بعض الشوائب والمغالطات العالقة في اذهان الكثير من الناس حول موقف الاسلام من بعض القضايا المطروحة على الساحة . فكان لقاؤنا مع سماحة العلامة السيد محمد حسين فضل الله ، وببضعة اسئلة حاولنا قدر الامكان ان نتناول فيها أهم جوانب الموضوع ، ونسد بعض الثغرات المفتوحة نتيجة التشويه والتحريف ونرد بعض الاتهامات الموجهة نتيجة الفهم المغلوط .

* * *

س ٥ ـ هل يمكن ان تشرحوا لنا طبيعة التكوين السياسي للمجتمع الاسلامي . هل هو تكوين قائم على أساس قومي أو عرقي

أو طبقي او ماذا ؟

ج ٥ ـ لعل الخلفية الفكرية ، وراء مثل هذا الطرح للاسلام تتمثل في اطارين فكريين الاول : الفكرة التي تعتبر ان العوامل القومية والعرقية والطبقية هي العوامل الاصيلة المؤثرة في وحدة المجتمع وتكوينه . . . بينما ترى في الأديان والمبادىء عناصر طارئة على كيان الامة وغريبة عن شخصيتها الذاتية ، فلا تصلح ان تكون دافعاً للوحدة فضلا عن ان تكون العنصر الأساسي فيها ، وعلى ضوء هذا يمكن للسؤال أن يطرح نفسه عن طبيعة التكوين السياسي للمجتمع الاسلامي من حيث انطلاقه من هذه العوامل الثلاث وغيرها مما هو خارج النطاق الاسلامي . الثاني : الفكرة التي ترى في الأديان ، ومنها الاسلام ، نتاجاً قومياً أو عرقياً أو طبقياً يتحرك في اتجاه تحقيق المصالح القومية والعرقية والطبقية باعتباره منطلقاً من حاجة الجماعات التي تعيش الشعور القومي او العرقي أو الطبقي الى نظام يحمي أوضاعها ويحقق مفاهيمها ويحل مشاكلها الحاضرة والمستقبلة وعلى هذا الاساس يمكن للباحث ان يبحث عن الأسس التي ارتكز عليها الاسلام في نشوئه وحركته . . فهل هو وليد آلام العروبة ومشاكلها كقومية ، او نتاج الاحساس بقيمة عنصر معين او عرق خاص ، او كان صورة للواقع الطبقي الذي كان متمثلا في مجتمع مكة والمدينة ؟

أما نحن كمسلمين ـ فاننا نرفض الاطارين معا من خلال فهمنا للاسلام ووعينا للاسس التي يمكن ان تقوم عليها المجتمعات الانسانية في وجودها وحركتها ، فالاسلام ـ في وعينا لمصادره الاصيلة ـ دين سماوي أنزله الله على رسوله ليقوِّم الناس بالقسط ، وليخرجهم من الظلمات الى النور ، وليحل لهم الطيبات ويضع عنهم اصرهم

والاغـلال التي كـانت عليهم ، وليـزكيهم ويعلمهم الكتـاب والحكمـة ويهديهم الى صراط العزيز الحميد . وبهذا كـان رسولـه رحمة للعـالمين وخـاتما للسلسلة المبـاركة من الانبيـاء والمرسلين الـذين يعتبر الاعتـراف بهم جزءً من العقيدة الاسـلامية . . وهكـذا انزلـه الله من اجل ان يحـل لـلانسان مشـاكله على مـدى الحيـاة ، من دون ان يكـون منبعثـاً عن أي عـامل من العـوامل المحـدودة التي يختلف فيهـا النـاس ألـوانـاً وأنسـابـاً وأعـراقاً وطبقـات . اما الأسس التي تقـوم عليها المجتمعـات ، فـاننـا لا نستطيع اغفال التأثيـرات العاطفيـة والشعوريـة التي تنتجها تلك العـوامل الأنفـة الذكـر ، ولكننـا نعتقـد ان الجـانب العقيـدي والـروحي والعملي الذي يتجمع في المنهج الرسـالي للحياة يعتبـر عنصرا حيـوياً وفـاعلا في تكـوين المجتمع وتـوحيد أفـراده ، انطلاقـاً من دراسـة النفس الانسـانيـة التي ترتبط علاقاتها بركائزها الفكرية اكثـر من ان ترتبط بعـواملها القـومية والطبقية والعرقية ، ولهذا نجد العـاملين في سبيل هـذه العوامـل يجعلون دعواتهم في اطار فكري وروحي يحقق للعلاقات المطلوبة أساسـاً فكريـاً وروحيـاً يـربط العـاملين بـالقـوميـة أو بـالـطبقيـة او العـرقيـة من خـلال الفكرة . . حتى اننا نلاحظ تباعداً بين الذين يؤمنـون بالفكـرة وبين الذين يـرفضـونهـا او لا يؤمنـون بهـا ، على الاقـل ، في الـوقت الـذي نـراهم يـرتبطون معهم بـرابطة واحـدة من خلال هـذه العوامـل ، ولسنا الآن في مجـال البحث عن الاسس التي توحـد المجتمعات من نـاحية مـوضوعيـة لان ذلك يحتاج الى مناقشة واسعـة للفكرة ولكننـا في سبيل الاشـارة الى موقفنا من الخلفيات التي اقتضت مثل هذا الاسلوب في طرح السؤال .

ثم . . نقف الآن لنـواجـه السؤال في مضمـونـه ومحتـواه من نقطتين : النقطة الاولى : في معالجة الاسلام للفوارق المـذكورة ومـدى تـأثيرهـا في حـركـة التقييم الانسـاني للحيـاة النقـطة الثـانيـة في النـظرة

الاسلامية العامة لطبيعة التكوين السياسي للمجتمع في نظر الاسلام .

اما النقطة الاولى : فان الاسلام لم يغفل وجود الفروق العرقية والقومية والطبقية ، في حياة الانسان كواقع طبيعي يفرض نفسه ، بل واجهها في بعض الآيات القرآنية كمظاهر طبيعية تشهد على عظمة الخلق التي توحي بعظمة الخالق ، كما في قوله تعالى :

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ . [سورة الروم : ٢٢] .

فقد جعل النظرة اليها نظرة طبيعية لا تبحث عن الفوارق من حيث انها مقياس للتفاضل ، بل من حيث انها دليل على تنوع العناصر الطبيعية المودعة في الكون مع وحدة المصدر الاساسي للوجود ، تماماً كما هو الحال في تنوع الثمار التي تنتجها الارض مع انها تسقى بماء واحد ، وذلك في قوله تعالى :

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . [سورة الرعد :٤] .

وقوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ .

[سورة فاطر : ٢٧ ـ ٢٨] .

وقد يتجسد الايحاء في الآية الاخيرة باعتبار الفوارق اللونية في الانسان مظهراً طبيعياً تتكامل فيه صورة الطبيعة المختلفة ألوانها في كل مظاهرها ، الجامدة والحية ، من دون ان يمثل ذلك أية قيمة تفضيلية في هذا المجال بل هي الخصائص التي تتنوع في طبيعة الاشياء مما يجعل لكل شيء قيمة ومعنى يميزه عن الآخر . . ولكل فضل .

وقد نلاحظ في بعض الآيات الايحاء بوجود الفوارق الطبيعية في حياة الناس كواقع حي ناشىء عن طبيعة اختلاف القدرات الفكرية والعضلية والظروف الموضوعية المحيطة بالناس والاشياء ، كما في قوله تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ .

[سورة الأنعام : ١٦٥] .

وفي قوله تعالى :

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ .

[سورة الزخرف : ٣٢] .

فقد نجد في هاتين الآيتين الكريمتين التركيز على ان اختلاف الدرجات في الرزق والمعيشة الناشىء من ظروف طبيعية ليس ناتجاً من اعتبار ذلك قيمة دينية تجعل المرتبة العليا في مستوى القيمة ، وتجعل المرتبة الدنيا في مستوى ضد القيمة ، ليكون ذلك من تكريم الله للغني وعدم تكريمه للفقير بل من أجل ان يكون ذلك اختباراً للوقوف مع المبادىء الاساسية للحياة التي تجعل الايمان الثابت يصمد أمام التجربة في الوقت الذي ينهار الايمان المتزلزل امام الاختبار الصعب او من اجل ان يكون اختلاف الدرجات موجباً لتنوع الحاجات الموجب لتبادل الخدمات باعتبار تبادل الشعور بالحاجة من جهة ، والاكتفاء من جهة أخرى فيما بين أفراد الانسان ، مما يجعل كل انسان محتاجاً لتقديم خدماته للآخرين في مقابل ما يقدمونه له من خدمات ، وهكذا لا نلمح أية اشارة لاعتبار هذه الفوارق ، التي اريد للمجتمعات ان تقوم عليها ، أساساً للتقييم أو التوحيد ، بل كل ما هناك ، ان هذه الفوارق قد تمنح كل فئة بعض الخصائص دون فئة اخرى مما يجعل من الحياة مجمعاً للخصائص المتبادلة بين الافراد ، وهذا ما ركزت عليه الآية الكريمة :

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

[سورة الحجرات : ١٣] .

فقد توحي هذه الآية بشكل واضح بان اختلاف الخصائص النسبية والقومية لا يصلح اساساً للتفاضل بل منطلقا للتعارف الذي يتمثل في تبادل الخدمات والخصائص المتنوعة ، ولعلنا نجد في

الحديث النبوي الشريف أوضح الشواهد على الفكرة التي نعالجها .

« لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى » « كلكم من آدم وآدم من تراب » . . .

وهكذا نخلص ، من هذا العرض الموجز ، الى ان هذه الامور لا تصلح أساساً للتقييم لتنطلق وحدة المجتمعات على أساسها اذ لا معنى لان يكون لهذه العناصر قيمة في التوحيد من دون ان يكون له أساس في التقييم ، وليس معنى ذلك ان الاسلام يريد من الناس ان يفقدوا المشاعر الطبيعية ازاء العلاقات الخاصة التي ترتقي بهذه الامور ، بل كل ما هناك انه يريد ان لا يجعلهم خاضعين في علاقاتهم العامة لها بحيث ينطلق القرب والبعد في حياتهم على أساسها ، كما ورد في الحديث المأثور عن الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع) وهو يتحدث عن العصبية التي تتأثر بهذه العوامل :

« ان العصبية التي يأثم عليها صاحبها ان يرى الرجل شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبية ان يحب الرجل قومه ولكن ان يعين قومه على الظلم » . . .

وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم العصبية التي تعني الارتباط الروحي بالنسب او بالدم او بغيرهما مما يبعد الانسان عن الارتباط بالمبادىء التي تحكم علاقته بالآخرين وبهذا نخلص الى النتيجة الحاسمة . . وهي ان الاسلام لا ينظر الى هذه العوامل الا كروابط طبيعية تشارك في ولادة المشاعر العاطفية ولكنه لا ينظر اليها كأسس للتقييم والتوحيد لانها لا تحمل في داخلها عناصر الثبات والعمق والامتداد .

أما النقطة الثانية : وهي النظرة الاساسية العامة للتكوين السياسي للمجتمع ، فقد يمكن الجواب عنها ، باعتماد الاساس الايماني في التكوين السياسي ، اذا أردنا ان ننظر الى الموضوع من جانب الاطار الذي يتحرك فيه الاسلام ليتحرك في داخله المجتمع الاسلامي ، لا من جانب الاطار الذي يكتفي بالناحية الانسانية بعيداً عن الناحية العملية .

أما إذا أردنا أن ننظر إليه في الإطار الذي يحكم العلاقات العامة التي تربط بين أفراد المجتمع لتكون منهم وحدة سياسية ذات مبادىء وأهداف ومصالح مشتركة ، فإن بإمكاننا الاعتماد على الاساس العقيدي الذي ينطلق من العقيدة الاسلامية كرابط عميق يمتد من الجانب الفكري مروراً بالجانب الشعوري إلى الجانب العملي ليكون ذلك أساساً لوحدة المجتمع او تعدده . . وفي كلتا الحالتين يقف الاسلام في نظرته الى الانسان والحياة ، وفي تشريعه المتحرك في كل اتجاه ليرفض الوحدة التي تقوم على اساس آخر من اللون والدم والنسب والطبقة بالمستوى الذي يعتبر فيه الفكر والتشريع هذه العوامل قيمة انسانية وفكرية واجتماعية تمنح على اساسها الحقوق وتفرض الواجبات ويعيش الانسان في ظلها حركة مشاعره وعواطفه ونصرة مواقفه وخذلانها ، ولهذا لا نجد في التشريعات الاسلامية أي تركيز على التمييز في الحقوق والواجبات من خلال الطبقة او اللون أو الدم سواء في ذلك واقع الدنيا وواقع الآخرة ، كما لاحظناه فيما قدمناه من أحاديث في معالجتنا للنقطة الاولى . . وقد نلتقي بهذه الروح في الحديث الشريف المأثور عن النبي (ص) : انما اهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها .

والحديث الآخر المروي عن الامام علي (ع) :

القوي العزيز عندي ضعيف ذليل حتى آخذ منه الحق والضعيف الذليل عندي قوي عزيز حتى آخذ له بحقه .

وقد نلتقي بهذا الجو في الآيتين الكريمتين :

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . [سورة التوبة : ٧١] .

في مقابل الآية الكريمة

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . [سورة الأنفال : ٧٣] .

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ .

[سورة المجادلة : ٢٢] .

ونلتقي ـ في الجو نفسه ـ بالحديث الشريف المأثور عن النبي محمد (ص) :

مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى . .

فان هذه النصوص الدينية تجعلنا نشعر بعمق الرابطة الايمانية في تأثيرها على العلاقات الانسانية التي تكوِّن وحدة المجتمع من خلال وحدة العقيدة والعاطفة والعمل . . وكل هذا لا يمنع من الاعتراف بوجود عقائد اخرى في المجتمع ينطلق الاسلام ليحدد علاقة المسلمين باتباعها في نظام تعاقدي شامل يعطي للاسلام مجاله في السيادة ويعطي للعقائد الاخرى مجالها في ممارسة أفكارها وعملها في نطاق محدود.

س ٦ ـ ما هي القاعدة الاساسية التي انطلق منها الاسلام لايجاد حالة تعايش سلمي بين المجتمع المؤمن به والمجتمعات الاخرى ؟

هناك قاعدة اساسية تحكم حالة التعايش بين المجتمع المسلم والمجتمعات الاخرى ، وهي قاعدة التعامل مع الواقع الحياتي الذي يفرض وجود قوى اخرى تختلف مع الاسلام في فكره وشريعته ونظام حياته ، وتفرض ضرورة التعامل معها ، ولو في نطاق المرحلة التي قد تطول وقد تقصر تبعاً لحركة الاسلام في الحياة ، مما يجعل من قضية التعايش السلمي قضية حيوية لاستقرار المجتمع الاسلامي وأمنه وواقعيته لان لقضايا الصراع ، فبي كل مراحل الحياة للرسالة وللفكرة ، ظروفا موضوعية قد لا تتسع للحرب أو لا تتسع للحصول على النتائج العملية الحاسمة من خلال الحرب مما قد يقتضي الوصول الى حلول للمشاكل المتصلة بحركة العقيدة ، او بحركة الواقع في نطاق المجتمعات الاخرى التي قد نلتقي بها في بعض المبادىء العامة وان اختلفت التفاصيل عمقاً وامتداداً ، وربما نلتقي معها في المصالح العامة بطبيعة وحدة الارض التي نعيش عليها او وحدة الظروف الموضوعيةالتي تحكم مسيرتنا في الحياة ، ولهذا وجدنا خطوات الاسلام العملية تختلف في بداية الدعوة ونهايتها مع المشركين من موقف المهادنة الى الحرب الى الصلح الذي انتهى بفتحمكة الذي انهى كل المواقف السلمية فيما يتعلق بوجود المشركين في المنطقة الاسلامية كما رأيناه في موقفه من اهل الكتاب وتمييزه بين النصارى واليهود من خلال المواقف العملية التي وقفها الفريقان من الدعوة الاسلامية فيما عبرت عنه الآية الكريمة .

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ

أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ . [سورة المائدة : ٨٢ - ٨٣] .

وقد نلتقي ببعض الآيات القرآنية التي تفرق بين الفريقين اللذين يختلف حال كل منهما مع المسلمين من حيث الموقف العدواني او السلمي وذلك هو قوله تعالى :

لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٧﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ .

[سورة الممتحنة : ٨ - ٩] .

وقد نستطيع استيحاء هذه الآية فيما يتعلق بالموقف الاسلامي من المحايدين الكافرين الذين لا يقومون بأي عمل عدواني ضد المسلمين بشكل مباشر او غير مباشر ، فان الرخصة القرآنية بتولي المسلمين لهم لا يتناسب مع اعتبار الحرب اساساً للعلاقة العامة بهم . . ولا بد لنا من التأكيد في هذا المجال ، على ان هذا كله خاضع لاعتبارات المصلحة الاسلامية العليا في قضايا السلم والحرب ، او في الخطة العامة لحركة الايمان في مقابلة الكفر .

وخلاصة الفكرة التي نشير اليها ، في هذا الجواب ، ان الاسلام يؤمن بالتعايش السلمي بينه وبين الاديان الاخرى ، او العقائد الاخرى في نطاق حاجة الواقع بالمستوى الذي لا يمس سعيه الدائب من اجل الوصول الى سيطرته على نظام الحياة من جهة ، ولا يسيء الى مفاهيمه العامة من جهة اخرى . وبذلك كانت أساليب التعايش السلمي في التشريع الاسلامي وفي التطبيق العملي في حياة النبي محمد (ص) الذي تعتبر سيرته العملية شريعة للمسلمين في واقعهم العملي ، مثالا للمرونة وتجسيدا للحكمة التي انطلقت الدعوة في خطها المستقيم سواء في ذلك مجال التبليغ او مجال الواقع المتحرك الذي جاء الاسلام من اجل ان يعلم الناس كيف يتعاملون معه بالحكمة .

* * *

س ٧ ـ هناك عدة وضعيات للمجتمعات اللااسلامية بالنسبة الى المجتمع الاسلامي فهل لكم ان تحددوا لنا هذه الوضعيات مع تبيان لطبيعة العلاقات القائمة بين المجتمع الاسلامي وبين كل وضعية على حدة ؟

ج ٧ ـ هناك نوعان من العلاقات الموضوعية التي تحدد وضعية المجتمع المسلم من المجتمعات غير الاسلامية ، احدهما عام والآخر خاص :

اما الخاص ، فهو نظام الذمة الذي يحدد طريقة التعايش الدائم مع اهل الكتاب وينظم الحياة العامة التي تحكم علاقتهم بحياة المسلمين . ونحن واجدون في هذا النظام نموذجا للنظام الأمثل الذي يعطي الآخرين حرية ممارستهم عقيدتهم في ظل النظام الاسلامي ، من دون اساءة للعقيدة الاسلامية وشعاراتها ، مع الالتزام الاسلامي

بحمايتهم من كل اعتداء ، وإعفاءهم من مسؤوليات الحماية العامة للمسلمين بالدفاع الحربي عنهم ، ومع ذلك كله ، فان للسلطة الشرعية صلاحيات في مجال التطبيق تحتفظ للنظام بمرونة نادرة رائعة .

واما العام فهو نظام التعاهد الذي يحدد علاقات المسلمين بغيرهم على اساس عقد المعاهدات التي تجعل للحقوق والواجبات المتبادلة وضعاً قانونياً تعاقدياً ينطلق من الالتزام العقدي المتمثل بطرفي العقد ، وقد يلاحظ بعض الفقهاء ، ان مثل هذا النظام يسري على أهل الكتاب كما يسري على غيرهم ، كما ان هناك بعضا آخر منهم ، يرى ان نظام التعاهد لا يحتاج الى وجود سلطة شرعية اسلامية تنشىء هذا العقد مع سلطة الآخرين بل يمكن ان يحدث ذلك حتى في نطاق فقدان السلطة الشرعية ، مع التزام المجتمع المسلم بمعاهدات السلطة غير الشرعية التي تحكم المسلمين ، كما في ميثاق الامم المتحدة الذي تلتزم به كل الشعوب تلقائياً (فيما لا يناقض أو ينافي التشريع الاسلامي طبعا) . ولسنا في مجال مناقشة هذا الرأي او ذاك او تأييدهما ولكننا في مجال عرض السعة الفكرية للاجتهاد الاسلامي في هذه الموضوعات وغيرها .

والحمد لله رب العالمين

الفهـرس

طبع على مطابع

دار الزهراء

بيروت - لبنان : ص.ب : ٩٣٧٠ - تلفون المنزل ٨١٥٦٨٦
الحي سنتر : كورنيش المزرعة الطابق الخامس
بئر العبد : خلف مهنية الحسين بن علي